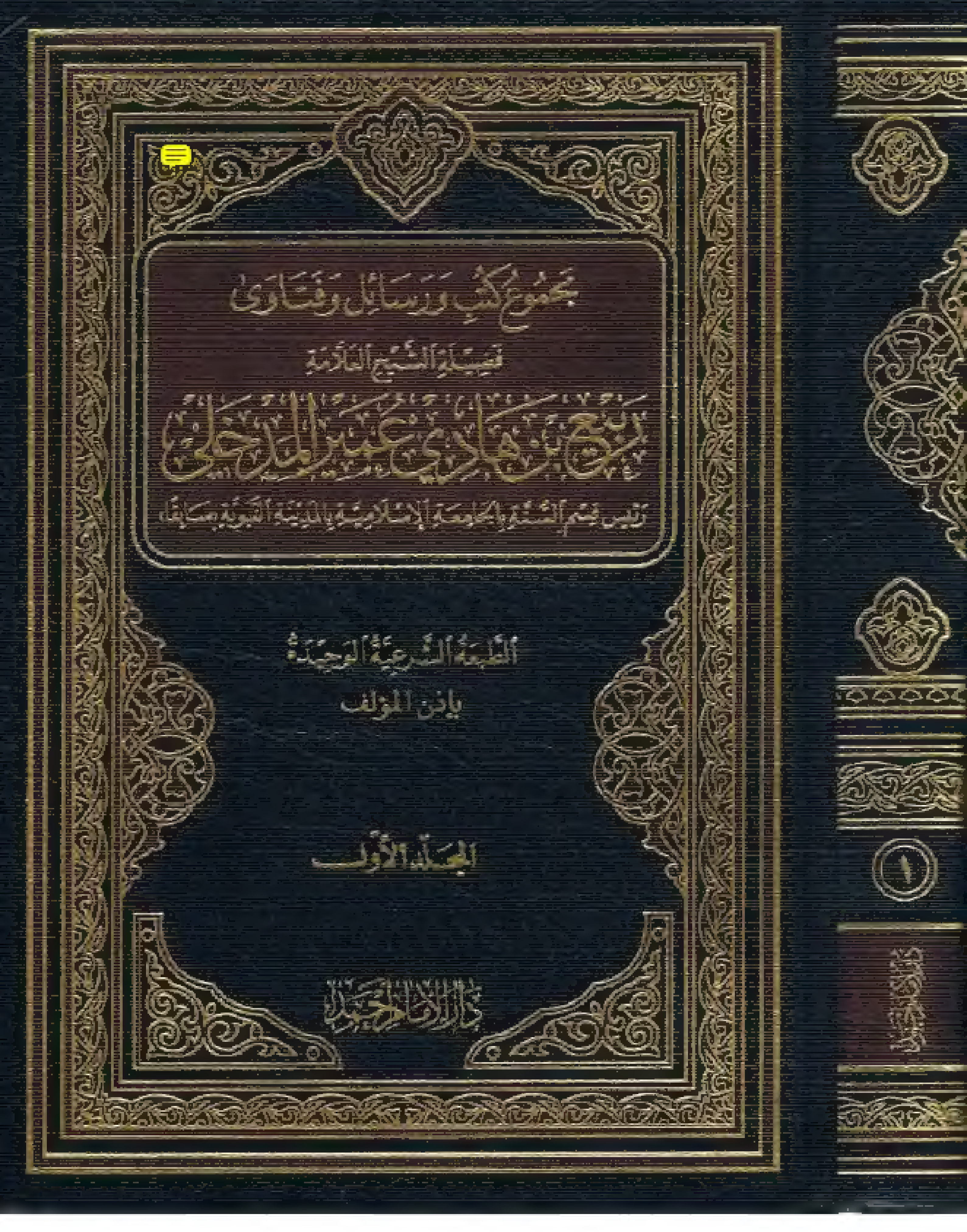

مجموع كتب ورسائل وفتاوى
فضيلة الشيخ العلامة
ربيع بن هادي عمير المدخلي
رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقاً
الطبعة الشرعية الوحيدة
بإذن المؤلف
المجلد الأول
دار الإمام أحمد

موسوعة مؤلفات ورسائل وفتاوى

العلامة المحدث المجاهد ربيع بن هادي المدخلي

(١)

١- الدر النضيد ٢- مذكرة الحديث النبوي

٣- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل

٤- النصيحة هي المسئولية المشتركة

٥- التعصب الذميم ٦- الثبات على السنة

٧- الحث على المودة والائتلاف ٨- التمسك بالمنهج السلفي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:

فيسُرني ما قام به الأخ/أبو عبدالله محمد بن عبدالغني القاهري **صاحب دار الإمام أحمد بمصر** من جمع مؤلفاتي ومقالاتي في صور مجاميع تسهيلاً وتقريباً لما فيها من خير على القرّاء الكرام **فأشكره بعد الله هو** والقائمين على مكتب أضواء السلف على هذا الجهد المبارك الذي أسأل الله أن ينفع به الإسلام والمسلمين.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

حرّر في ليلة الخامس من شهر محرّم عام ١٤٣٠هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة للشيخ العلامة ربيع بن هادي بن عمير المدخلي -حفظه الله-

اسمه ونسبه:

هو الشيخ العلامة المحدث ربيع بن هادي بن محمد عمير المدخلي، من قبيلة المداخلة المشهورة في منطقة جازان بجنوب المملكة العربية السعودية، وهي من إحدى قبائل بني شبيل، وشبيل هو ابن يشجب ابن قحطان.

مولده:

ولد بقرية الجرادية، وهي قرية صغيرة غربي مدينة صامطة بقرابة ثلاثة كيلو مترات، وقد اتصلت بها الآن، وكان مولده عام ١٣٥١هـ في آخره، وقد توفي والده بعد ولادته بسنة ونصف تقريبًا، فنشأ وترعرع في حجر أمه -رحمها الله تعالى-، فأشرفت عليه، وقامت بتربيته خير قيام، وعلمته الأخلاق الحميدة من الصدق والأمانة وحثه على الصلاة وتعاهده عليها، مع إشراف عمه عليه.

نشأته العلمية:

لَمّا وصل الشيخ إلى سن الثامنة التحق بحلق التعليم في القرية وتعلم الخط والقراءة.

وممن تعلم عليه الخط الشيخ شيبان العريشي، وكذلك القاضي أحمد بن محمد جابر المدخلي، وعلى يد شخص ثالث يُدعى محمد بن حسين مكي من مدينة صبياء.

وقرأ القرآن على الشيخ محمد بن محمد جابر المدخلي.

كما قرأ عليه التوحيد والتجويد وقرأ بالمدرسة السلفية بمدينة صامطه بعد ذلك.

وممن قرأ عليهم بها:

الشيخ العالم الفقيه: ناصر خلوفة طياش مباركي رحمه الله عالم مشهور من كبار طلبة الشيخ القرعاوي رحمه الله، ودرس عليه بلوغ المرام، ونزهة النظر للحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-.

ثم التحق بعد ذلك بالمعهد العلمي بصامطة، ودرس به على عدد من المشايخ الأجلاء ومن أشهرهم على الإطلاق الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي العلامة المشهور -رحمه الله تعالى-، وعلى أخيه صاحب الفضيلة الشيخ محمد بن أحمد الحكمي، وكما درس به أيضًا على يد الشيخ العلامة المحدث أحمد بن يحيى النجمي رحمه الله، ودرس فيه أيضًا على الشيخ العلامة الدكتور محمد أمان بن علي الجامي رحمه الله في العقيدة.

وكذلك درس أيضًا على الشيخ الفقيه محمد صغير خميسي في الفقة (زاد المستقنع)، وغيرهم كثير ممن درس عليهم الشيخ في العربية والأدب والبلاغة والعروض.

وفي عام ١٣٨٠هـ وفي نهايته بالتحديد تخرج من المعهد العلمي بمدينة صامطة، وفي مطلع العام ١٣٨١هـ التحق بكلية الشريعة بالرياض، واستمر بها مدة شهر أو شهر ونصف أو شهرين، ثم فتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، فانتقل إلى المدينة والتحق بالجامعة الإسلامية بكلية الشريعة، ودرس بها مدة أربع سنوات وتخرج منها عام ١٣٨٤هـ بتقدير ممتاز.

وممن درس عليهم الشيخ بالجامعة الإسلامية:

* سماحة الشيخ العلامة المفتي العام للمملكة العربية السعودية: عبد العزيز بن عبد الله بن باز -رحمه الله تعالى- وكانت دراسته عليه العقيدة الطحاوية.

* صاحب الفضيلة العلامة المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله

في الحديث والأسانيد.

* صاحب الفضيلة الشيخ العلامة عبد المحسن العباد ودرس عليه الفقه ثلاث سنوات في بداية المجتهد.

* صاحب الفضيلة الشيخ العلامة الحافظ المفسر المحدث الأصولي النحوي اللغوي الفقيه البارع محمد الأمين الشنقيطي (صاحب أضواء البيان) درس عليه في التفسير وأصول الفقه مدة أربع سنوات.

* الشيخ صالح العراقي في العقيدة.

* الشيخ المحدث عبد الغفار حسن الهندي في علم الحديث والمصطلح.

وبعد تخرجه عمل مدرسًا بالمعهد بالجامعة الإسلامية مدةً، ثم التحق بعد ذلك بالدراسات العليا وواصل دراسته وحصل على درجة «الماجستير» في الحديث من جامعة الملك عبد العزيز فرع مكة عام ١٣٩٧هـ برسالته المشهورة «بين الإمامين مسلم والدار قطني»، وفي عام ١٤٠٠ هـ حصل على الدكتوراه من جامعة الملك عبد العزيز أيضًا بتقدير ممتاز بتحقيقه لكتاب «النكت على كتاب ابن الصلاح» للحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-، ثم عاد بعد ذلك للجامعة يعمل بها مدرسًا بكلية الحديث الشريف، يُدرِّس الحديث وعلومه بأنواعها، وترأس قسم السنة بالدراسات العليا مرارًا، وهو الآن برتبة «أستاذ كرسي» متعه الله بالصحة والعافية في حسن العمل.

صفاته وأخلاقه:

يمتاز الشيخ -حفظه الله تعالى- بالتواضع الجم مع إخوانه وطلابه وقاصديه وزواره، وهو متواضع في مسكنه وملبسه ومركبه، لا يُحب الترفه في ذلك كله، وهو أيضًا دائم البِشر، طلق المحيا، لا يمل جليسه من حديثه، مجالسه عامرة بقراءة الحديث والسنة، والتحذير من البدع وأهلها كثيرًا، حتى يُخيل لِمَن يراه ولم يعرفه ويخالطه أنه لا شغل له إلا هذا، يُحب طلبة العلم السلفيين ويكرمهم ويحسن إليهم ويسعى في قضاء حوائجهم بقدر ما يستطيع بنفسه وماله، وبيته مفتوح لطلبة العلم دائمًا حتى إنه لا يكاد في يوم من الأيام يتناول فطوره أو غداءه أو عشاءه

بمفرده، ويتفقد طلبته ويواسيهم.

وهو من الدعاة الغيورين على الكتاب والسنة وعقيدة السلف، يمتلئ غيرة وحرقة على السنة والعقيدة السلفية قلَّ نظيره في هذا العصر، وهو من المدافعين في زماننا هذا عن نهج السلف الصالح ليلًا ونهارًا وسرًّا وجهارًا من غير أن تأخذه في الله لومة لائم.

ثناء العلماء عليه:

أثنى عليه علماء هذا العصر وشهدوا له بشهادة حق وصدق، وتحدثوا عن فضله وعلمه وثباته على السنة وعلى منهج السلف، ومن هؤلاء الأجلاء:

(١) الإمام العلامة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ:

فقد سئل -رحمه الله تعالى- عن الشيخ ربيع بن هادي والشيخ محمد أمان فقال: «بخصوص صاحبي الفضيلة الشيخ محمد أمان الجامي والشيخ ربيع بن هادي المدخلي، كلاهما من أهل السنة، ومعروفان لدي بالعلم والفضل والعقيدة الصالحة، وقد توفي الدكتور محمد أمان في ليلة الخميس الموافقة سبع وعشرين شعبان من هذا العام رَحِمَهُ اللَّهُ، فأوصي بالاستفادة من كتبهما، نسأل الله أن يوفق الجميع لما يرضيه وأن يغفر للفقيد الشيخ محمد أمان وأن يوفق جميع المسلمين لما في رضاه وصلاح أمر عباده إنه هو السميع قريب» [شريط الأسئلة السويدية].

وقال في موطن آخر: «الشيخ ربيع من خيرة أهل السنّة والجماعة، ومعروف أنّه من أهل السنّة، ومعروف كتاباته ومقالاته». [شريط بعنوان: ثناء العلماء على الشيخ ربيع، تسجيلات منهاج السنة].

(٢) الإمام العلامة المحدث محمد بن ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال في شريط «الموازنات بدعة العصر» بعد كلام له في هذه البدعة العصرية:

«وباختصار أقول: إن حامل راية الجرح والتعديل اليوم في العصر الحاضر وبحق هو أخونا الدكتور ربيع، والذين يردون عليه لا يردون عليه بعلم أبدًا، والعلم معه، وإن كنت أقول دائمًا وقلت هذا الكلام له هاتفيًا أكثر من مرة أنه لو يتلطف في

أسلوبه يكون أنفع للجمهور من الناس سواء كانوا معه أو عليه، أما من حيث العلم فليس هناك مجال لنقد الرجل إطلاقًا، إلا ما أشرت إليه آنفًا من شيء من الشدة في الأسلوب، أما أنه لا يوازن فهذا كلام هزيل جدًّا لا يقوله إلا أحد رجلين: إما رجل جاهل فينبغي أن يتعلم، وإلا رجل مغرض، وهذا لا سبيل لنا عليه إلا أن ندعو الله له أن يهديه سواء الصراط».

(٣) الإمام العلامة الفقيه محمد بن صالح العثيمين رحمه الله:

فقد سئل فضيلته عن الشيخ ربيع كما في «شريط الأسئلة السويدية» فقال: «أما بالنسبة للشيخ ربيع فأنا لا أعلم عنه إلا خيرًا، والرجل صاحب سنة وصاحب حديث».

(٤) العلامة مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله:

قال رحمه الله في شريط «الأسئلة السنية لعلاّمة الديار اليمنية، أسئلة شباب الطائف»: «مِنْ أبصر الناس بالجماعات وبدخن الجماعات في هذا العصر الأخ الشيخ ربيع بن هادي -حفظه الله-، مَن قال له ربيع بن هادي إنه حزبي فسينكشف لكم بعد أيام إنه حزبي، ستذكرون ذلك، فقط الشخص يكون في بدء أمره متسترًا ما يحب أن ينكشف أمره لكن إذا قوي وأصبح له أتباع، ولا يضره الكلام فيه أظهر ما عنده، فأنا أنصح بقراءة كتبه والاستفادة منها -حفظه الله تعالى-».

(٥) فضيلة الشيخ الدكتور صالح الفوزان -حفظه الله-:

سئل فضيلته في شريط «الأسئلة السويدية» فقال بعدما ذكر الشيخ ربيعًا مع مجموعة من أهل العلم: «كذلك من العلماء البارزين الذين لهم قدم في الدعوة، فضيلة الشيخ عبد المحسن العباد، فضيلة الشيخ ربيع هادي، كذلك فضيلة الشيخ صالح السحيمي، كذلك فضيلة الشيخ محمد أمان الجامي، إن هؤلاء لهم جهود في الدعوة والإخلاص، والرد على من يريدون الانحراف بالدعوة عن مسارها الصحيح، سواء عن قصد أو عن غير قصد، هؤلاء لهم تجارب ولهم خبرة ولهم سبر للأقوال ومعرفة الصحيح من السقيم، فيجب أن تُروَّج أشرطتهم ودروسهم وأن ينتفع بها؛ لأن فيها فائدة كبيرة للمسلمين».

(٦) فضيلة الشيخ العلامة محمد بن عبد الله السبيل -حفظه الله- إمام الحرم المكي الشريف:

قال في شريط (كشف اللثام/ ١) ما يلي:

سؤال: ما هي نصيحتكم لمن يمنع أشرطة المشايخ من أهل السنة المعروفين مثل الشيخ محمد أمان الجامي رحمه الله والشيخ ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله- حيث يقول أن أشرطة الشيخ تثير الفتنة؟

فأجاب الشيخ -حفظه الله-: «أعوذ بالله، أعوذ بالله ... لا، شوف هذين الشيخين أشرطتهم من أحسن الأشرطة، هؤلاء يدعون إلى السنة، وإلى التمسك بالسنة، ولكن ما يتكلم بهؤلاء إلا إنسان صاحب هوى، وأكثر ما يتكلم بهؤلاء أهل الأحزاب الذين ينتمون إلى حزب من الأحزاب هم الذين ينكرون هذه الأشياء، أما بالنسبة لهذين الشيخين معروفين بالتمسك بالسنة وعقائدهم سلفية وهم من أحسن الناس».

وفي هذا كفاية، ولمن أراد المزيد فليرجع -غير مأمور- لرسالة فضيلة الشيخ خالد بن ضحوي الظفيري «الثناء البديع من العلماء على الشيخ ربيع».

مؤلفاته:

هي كثيرة ولله الحمد وقد طرق الشيخ -حفظه الله- أبوابًا طالمَا دعت إليها الحاجة خصوصًا في الرد على أهل البدع والأهواء في هذا الزمان الذي كثر فيه المفسدون، وقل فيه المصلحون، ومؤلفاته هي:

١- بين الإمامين مسلم والدار قطني (مجلد كبير) وهو رسالة الماجستير.

٢- النكت على كتاب ابن الصلاح (مطبوع في جزئين) وهو رسالة الدكتوراه.

٣- تحقيق كتاب المدخل إلى الصحيح للحاكم (مطبوع في أربعة مجلدات).

٤- تحقيق كتاب التوسل والوسيلة للإمام ابن تيمية (مجلد).

٥- منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل.

٦- منهج أهل السنة في نقد الرجال والكتب والطوائف.

٧- تقسيم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف بين واقع المحدثين ومغالطات المتعصبين.

٨- كشف موقف الغزالي من السنة وأهلها.

٩- مكانة أهل الحديث.

١٠- منهج الإمام مسلم في ترتيب صحيحه.

١١- أهل الحديث هم الطائفة المنصورة الناجية (حوار مع سلمان العودة).

١٢- مذكرة في الحديث النبوي.

١٣- أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره.

١٤- مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ.

١٥- العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم.

١٦- الحد الفاصل بين الحق والباطل (حوار مع بكر أبو زيد).

١٧- المحجة البيضاء في حماية السنة الغراء.

١٨- جماعة واحدة لا جماعات و صراط واحد لا عشرات (حوار مع عبد الرحمن عبد الخالق).

١٩- النصر العزيز على الرد الوجيز.

٢٠- التعصب الذميم وآثاره.

٢١- بيان فساد المعيار، حوار مع حزبي متستر.

٢٢- التنكيل بما في توضيح المليباري من الأباطيل.

٢٣- إزهاق أباطيل عبد اللطيف باشميل.

٢٤- انقضاض الشهب السلفية على أوكار عدنان الخلفية.

٢٥- النصيحة هي المسئولية المشتركة في العمل الدعوي.

٢٦- الكتاب والسنة أثرهما ومكانتهما والضرورة إليهما في إقامة التعليم في مدارسنا. (ضمن مجلة الجامعة الإسلامية العدد السادس عشر).

٢٧- حكم الإسلام فيمن سبَّ رسول الله أو طعن في شمول رسالته. (مقال نشر في جريدة القبس الكويتية) العدد (٨٥٧٦) بتاريخ (٩/ ٥/ ١٩٩٧).

وللشيخ كتب أخرى سوى ما ذكر هنا، وقد جمع أسماءها ونبذة عنها فضيلة الشيخ خالد بن ضحوي الظفيري في كتابه «ثبت مؤلفات الشيخ ربيع بن هادي المدخلي».

فنسأل الله تعالى أن يعينه على إتمام مسيرة الخير، وأن يوفقه لِمَا يُحبه ويرضاه؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *

الدر النضيد

من

محاضرات العقيدة والتوحيد

إعداد

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا





أهمية التوحيد



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أمَّا بعد:

فَيُسْعِدُني أن أتكلَّمَ في موضوعٍ مهمٍّ لا يبلغُه موضوعٌ آخر ولا يقاربُه في الأهمِّية، وهو موضوعُ التوحيد وأهميتُه الذي يقول فيه الإمامُ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوحيدُ سرُّ القرآن، ولبُّ الإيمان».

ويقول الإمامُ ابنُ القيِّم - رحمه الله تعالى - بعد أن تكلَّم عن عقائدِ أهلِ الضَّلال، من أهلِ الاتحاد - دعاةِ وَحْدَةِ الوجود - والجهمية والمعتزلة وغيرهم من الفرقِ الضالة قال: «إنَّ التوحيدَ الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب فشيءٌ وراءَ ذلك كلِّه...». ثم قال: «التوحيدُ نوعان: توحيدٌ في المعرفةِ والإثبات وتوحيدٌ في الطلبِ والقصد، فالنوعُ الأوَّل: توحيدُ المعرفةِ والإثبات؛ فهو حقيقةُ ذاتِ الرَّبِّ وأسمائِه وصفاتِه، وأفعالِه، واستوائه فوق سمواتِه على عرشِه ﷻ، وإثباتُ عمومِ قضائه وقدرِه وحكمِه، وقد أفصحَ القرآنُ عن ذلك جِدَّ الإفصاح كما في أوَّلِ سُورةِ الحديد وأوَّلِ سورة طه وآخرِ سورة الحشر وأوَّلِ سُورة آل عمران

وغيرِ ذلك من السُّور التي تضمَّنت هذا النوعَ من التوحيد، وأما النوعُ الثاني فهو ما تضمنته سُورةُ الإخلاص و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وما تضمنهُ قولُ الله -تبارك وتعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ومثل ما تضمنته أوَّلُ سُورةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وجملةُ سورةِ الأنعام وأوَّلُ سُورةِ الأعراف وآخرُها، بل غالبُ القرآنِ في التوحيد، بل القرآنُ كلُّه في التوحيد، وذلك أنَّ القرآنَ إمَّا خبرٌ عن اللهِ وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، فذلك هو التوحيدُ العلميُّ الخبري وإمَّا دعوةٌ إلى عبادتِه وحدَه ﷻ، وخَلْعِ ما يُعْبَدُ من دُونِه، فهو توحيدُ الطلبِ والقصد، وإمَّا أمرٌ ونهيٌ وإلزامٌ بطاعته في أمرِه ونهيِه، فذلك من مكمِّلاتِ التوحيد، وإمَّا خبرٌ عن أوليائه، وما كافأهم به في الحياة الدنيا وما يجزيهم به في الآخرة، فهذا جزاءٌ على التوحيد، وإما خبرٌ عن أهل الشرك وما نَزَل بهم من النَّكالِ في الحياة الدنيا، وما يَحِلُّ بهم من العقابِ في الأخرى، فذلك جزاءُ من خَرَج عن حُكم التوحيد، فالقرآنُ كلُّه في التوحيد، وفي أهلِه وجزائِهم وفيمن خالفَ التوحيدَ من أهلِ الشِّرك وجزائِهم، فأعاد القرآنَ كلَّه للتوحيد» وهذا يدلُّ دلالةً عظيمة جدًّا على أهمية التوحيد، ولا يَعرِف هذه الأهمية الكبيرة العظيمة إلَّا أئمةُ التوحيدِ من الرُّسُلِ الكرام أولي العدل وغيرهم، ولا يعرفه إلَّا من حذا حذوهم في الاهتمام بهذا التوحيد والدعوة إليه.

ذلكم أن اللَّهَ -تبارك وتعالى- ما خَلَقَ السَّموات والأرض والجنَّ والإنس والجنَّة والنار، وشرع الجهادَ، وكثيرًا من الأمور العظيمة، كلُّ ذلك من أجل هذا التوحيد، وعلى رأسِ التوحيد كلمةُ التوحيد - لا إله إلَّا اللَّه - على لسان كلِّ رسول وعلى لسان كلِّ نبي، ويلهج به الملائكة الكرام.

ويكفينا قولُ اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، فبيَّن لنا أنَّه لم يخلقنا لغرضٍ من الأغراض - جلَّ وعزَّ وتنزَّه عن ذلك- وإنَّما خَلَقَنا لعبادته، هذا الربُّ العظيم الجليلُ الكبير الذي لا نستطيع أن نصفَه ولا نُخبر عن وصفه إلَّا بما أخبر به هو - تعالى وتقدَّس - عن نفسِه.

وأحِبُّ أن أقرأ بعضَ الآيات التي تُنوِّهُ عن عظمةِ اللّٰه ﷻ وجلاله وعظمتِه، وأنَّه سيِّدُ هذا الكون وربُّه والمسيطر عليه من أجل ذلك هو يستحقُّ العبادة وحدَه ﷻ، وأن يُخلَصَ له الدّين، ولا نستطيع أن نُعَبِّرَ عن هذا الشيء، ولكنَّنا نستوحي آياتٍ من القرآن تدلُّ على عظمةِ ربِّنا الجليل العظيم الذي يستحقُّ هذه العبادة ويستحقُّ أن نذل له، وأن نخضع له، وأن نستحيَ منه ﷻ قال اللّٰه - تبارك وتعالى - : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ هذه من صفات عظمته وجلاله ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۝١١ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ شديدُ الأخذ، شديدُ البطش ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ وحده ﷻ ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٤ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾.

هنا نقف خاشعين أمام عظمة اللّٰه -تبارك وتعالى- التي صرحت بها هذه الآيات، فاللّٰه العظيم، الجليل، الكبير، العالم بكلّ شيء الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يقف في وجه إرادته شيء ﷻ، ويخضع له من في السموات والأرض، وتخضع له الملائكة ﷻ وأنا لا أستطيع أن أعبِّر. . . .

والمقام لا يتسع لتفسير هذه الآيات، ولكن قد يكفيكم أن أقرأها عليكم وآياتٍ أخرى في هذا المعنى، تدلُّ على جلالِ اللّٰه وعظمتِه وعزَّته وكبريائه وعليائه ﷻ الذي تتضاءل كلُّ عظمةٍ وكلُّ جلالةٍ أمامَ عظمته، بل ليس هناك جلالةٌ وعظمةٌ أمام عظمةِ هذا الواحد القهار المعبود بحقٍّ ﷻ الذي قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨] سبحانه وتعالى، كلُّ شيء يسجد له ويخرُّ خاضعًا دليلًا لعظمته، الملائكة والأشجار والسموات والأرض ومن فيها، وعظمة المخلوقات مهما بلغت من عظمة تتضاءلُ أمام عظمتِه.

هذا الربُّ الذي يدعو الأنبياءُ إلى عبادته ﷻ يدعون الأممَ الذين ذلُّوا أمام الأشجار والأحجار وأمام الجنّ والشياطين، وتجاهلوا عظمةَ الله -تبارك وتعالى-، واستولى عليهم الشيطانُ وعبَثَ بعقولهم في الماضي ولا يزال، هذا العدوُّ الألدُّ الذي حذَّر الله -تبارك وتعالى- منه البشرية. ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

هذه دعوةُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يدعون إلى عبادةِ هذا الربِّ العظيم ﷻ، والذي وصف نَفْسَهُ في كُتُبه المقدّسة، ووصف نفسه في هذا الكتاب العظيم في الآيات والسُّور، بل في القرآن كلِّه؛ كما ذكر ذلك ابنُ القيِّم، ولعلِّي أقرأ بعضَ الآيات التي أشار إليها ابنُ القيم؛ لتدلَّنا على عظمةِ الله، وتدفعنا إلى محبتِه والخضوعِ له والإخلاصِ له وإجلالِه وتقديسِه والخضوعِ لجلاله ﷻ، في حين أصبح كثيرٌ من الناس يخضعون لبعضهم بعضًا أكثر مما يخضعون لله العليِّ الكبير، الذي خضع له كلُّ شيء، وذلَّ له كلُّ شيء ﷻ، فلا ينبغي للعبد أن يكون عبدًا إلَّا لله، ولا يخضع إلَّا لعظمته وجلاله ﷻ.

يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر ٢٣ - ٢٤].

سبق فيما نقلت لكم من كلامِ ابنِ القيم أنَّه لا تخلو آية إلا وهي متضمِّنةٌ للتوحيد، انظر إلى هذه الآيات في آخر سورة الحشر، تضمنت توحيدَ الألوهية في قوله ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، توحيد الأسماء والصفات في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، توحيد الربوبية في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، فهذه الآيات القليلة في آخر سورة الحشر تضمنت كلَّ أنواعِ التوحيد، توحيد العبادة، توحيد الأسماء والصفات، توحيد الربوبية.

ويقول الله -تبارك وتعالى- في أول سورة الحديد التي أشار إليها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ١ - ٣]، تضمنت أنواعَ التوحيد الثلاثة، فقوله ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خضع لله وعَبَدَ الله، وهذا توحيد العبادة، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا توحيد الأسماء والصفات.

فالقرآن يحتاج إلى تدبُّر، وإلى عقولٍ واعية تعيه، وتعرف قدرَه، وقدرَ مُنْزِلِه - ربُّ السموات والأرض - هذا الرب العظيم، وقدر هذا الرسول العظيم الذي أُنزل عليه هذا القرآن، فَنَعْلَمُ هذا القرآن ونَعْمَلُ به بعد التدبُّر والتعقُّل والتفهُّم والإدراك الواعي لمرامي القرآن ومقاصدِه، خاصةً فيما يتعلّق بذات الربِّ وأسمائِه وصفاتِه، وما يستحقُّه من العبادةِ والتقديرِ والتعظيمِ والإجلالِ والهيبةِ والخوفِ والحياءِ والمحبّةِ والذُّلِّ إلى آخر أنواع العبادات التي نعرفها من هذا القرآنِ العظيم ومن سنّةِ نبيّنا الكريم -عليه الصلاةُ والسَّلام-.

وقال الله تعالى في آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هذه الآية التي تعتبر أعظمَ آيةٍ في القرآن الكريم تضمَّنت كذلك توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وقال الله ﷻ في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤] تضمنت التوحيدَ العلمي الخبري، هذه السُّورة على وَجَازَتِها، قال الرسولُ -عليه الصلاة والسلام- فيها: «إنّها تعدلُ ثُلُثَ القرآن»[1]، هذا يقوله رسولُ الله إمامُ أهل

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله -تبارك وتعالى-

التوحيد، وأعرفُ الناسِ بربِّه وأعلَمُهُمْ به، وأعلمُ الناسِ بهذا القرآن الكريم -عليه الصلاة والسلام-.

ونحن ليس عندنا تأمُّل ولا تدبُّر ولا تفهُّم، كيف تعدل ثلثَ القرآن؟!

قال بعضُ العلماء - ومنهم ابنُ تيمية -: «إنَّ القرآن ثلاثة أقسام: القسم الأول: في الأحكام، والقسم الثاني: في الأخبار والقَصَص وما شاكل ذلك، والقسم الثالث: في التوحيد» وهذه - سورة الإخلاص - تضمَّنت كلَّ أنواعِ التوحيد:

توحيد الإثبات؛ إثباتُ الكمال بكلِّ أنواعه لله -تبارك وتعالى-، وتوحيدُ التنزيه؛ تنزيه الله عن كلِّ عيبٍ ونقص؛ تعالى الله وتبارك وتقدس وتنزَّه عن كلِّ نقص وله الأسماء الحسنى والصفات العلا.

وأمَّا التوحيدُ الثاني الذي يُفيدُ العبادة، القرآنُ مليءٌ به وما بُعِثَتِ الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم إلَّا من أجله، وما شُرِعَ الجهادُ إلَّا من أجله، ولا الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر إلا من أجله؛ لأنَّ توحيدَ الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فَطَرَ اللهُ الناسَ عليه، فلا يُكابِرُون فيه ولا يُجادِلُون فيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال ﷻ: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فكانت الأممُ تنحرفُ وتَضِلُّ في توحيد العبادة، من أوَّل انحرافٍ بدأ في قوم نوحٍ إلى آخرهم، إلى قيام الساعة، أكثر ما يأتي الانحرافُ في هذا التوحيد، والشيطان يَجْلبُ بخيله ورَجِله على بني آدم، الذي آلى على نفسه ليغوينَّهم وليأتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن شمائلهم، وقال - كما أخبر الله عنه -: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢]، فهو يركض في هذا الميدان أحرص ما يستطيع، ويكفيه أن يعبث بكثير من الناس أو أكثرهم ليصيِّرهم من عبيده، لأنهم يطيعونه في دعوته، ويلبُّون دعوته إلى الشرك بالله فيعبدونه؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ

أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿٦٠﴾ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

فالضلال - كما قدَّمنا - يقع في هذا التوحيد الذي يمثل قسمًا كبيرًا من القرآن.

ومنها سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ التي أشار إليها الإمام ابنُ القيم رحمه الله هذه تسمَّى سورة الإخلاص الثانية، تلك - الأولى - تسمى سورة الإخلاص؛ لأنه أخلص فيها التوحيد، أي: توحيد الأسماء والصفات وهو التوحيد العلمي الخبري، وهذه أخلصت فيها العبادة لله ﴿قل يا أيها الكافرون ﴿١﴾ لا أعبد ما تعبدون ﴿٢﴾ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴿٣﴾ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴿٤﴾ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴿٥﴾ لكم دينكم ولي دين﴾ [سورة الكافرون ١ - ٦] فيه إثبات العبادة لله -تبارك وتعالى- والبراءة من عبادة غير الله ومن العابدين لغير الله، فهي سورة البراءة، وهي سورة الإخلاص، وهي سورة عظيمةٌ يجب أن نفهمها ونتدبَّرها لعظم شأنها، وعظم شأن ما شاكلها من السُّور والآيات في وجوب إفراد الله - جلَّ وعلا - في العبادة، والبراءة من عبادة الطاغوت، وأشار ابنُ القيم رحمه الله إلى بعض الآيات وإلى بعض السُّور نذكر منها الذي يخطر بالبال الآن.

فمنها: سورة الزمر؛ قال الله -تبارك وتعالى- في أولها: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿١﴾ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ﴿٢﴾ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ [الزمر: ١ - ٣]، إلى هذا أشار الإمامُ ابنُ القيِّم، وإلى مثل قول الله -تبارك وتعالى- : ﴿قل الله أعبد مخلصا له ديني﴾ [الزمر: ١٤]، وأشار إلى مثل قول الله -تبارك وتعالى- تهديدًا للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾ - يعني: الأنبياء - ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴿٦٥﴾ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾، ثم أخبر عن حال المشركين به ﷻ: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [الزمر: ٦٥ - ٦٧]، هذا في توحيد العبادة، تهديدٌ لكلِّ نبيٍّ؛ فما من نبيٍّ إلا وجاءه الإنذار، وجاءه التهديد العظيم الذي -والله- ترتجفُ قلوبُ المؤمنين

حينما تتأمّل وتسمع دَوِيَّه ودويَّ هذا الترهيب من الله الذي شأنه أنَّ السموات مطويات بيمينه ﷻ، السموات والأرضُ جميعًا قبضتُه يومَ القيامة.

فالمسلمون يعبدون هذا الرَّبَّ العظيم الجليل، والنصارى واليهود والمشركون والقبوريون يَعْبُدون الأموات ويَعْبُدون البشر والأحجار، أيُّ عِزَّةٍ وأيُّ رفعةٍ تحصل للمسلم الذي لا يعبدُ إلا هذا الإلهَ العظيم! ولهذا يقول -تبارك وتعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، العزةُ لله ولأهل التوحيد؛ لأنهم لا يخضعون ولا يحنون رءوسهم إلَّا لله، ولا يخافون ولا يرجُون ولا يَرْعَوْن ولا يَطْمَعُون إلَّا فيما عند هذا الإله العظيم الجبّار الذي بيده كلُّ شيء، وكلُّ شيءٍ ملكُه، وكلُّ شيءٍ هو آخذٌ بناصيته ﷻ، فيجب على المسلم أن يقف خائفًا مرتعدَ الفرائص حينما يَذكرُ اللَّهَ وحينما يؤدي أيَّ عبادةٍ فليكن في المقام الذي أشار إليه الرسول -عليه الصلاة والسّلام- في مقام الإحسان: «أن تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ»[1].

يتسع الحديث في شرح كلام ابن القيم، وعندي في الموضوع فقرات أحبُّ أن أنتقل إليها، ولكن أدعوكم إلى أن تقرءوا هذا الكلام، وهو في الجزء الثالث من «مدارج السالكين» (ص ٤٥٠) استفيدوا واستضيئوا به في معرفة التوحيد والآيات التي أشار إليها، وقوله في الأخير: إنَّ القرآنَ في التوحيد، ثم ذكر أنواعَ التوحيد وما يُكَمِّلُ التوحيد، استفيدوا من هذا الدرس.

هذه خلاصةٌ عظيمةٌ جدًّا، واللّه نحن ما نصل إليها، ونعترف بالعجز، فنحن واللّهِ نتتلمذُ على مثل هؤلاء الأئمة ونأخذُ منهم مثل هذه المفاتيح ونسيرُ في ضوئها، نستفيد منهم في فهم كتابِ ربنا وسنَّةِ نبيِّنا -عليه أفضل الصّلاة والسلام-، هذا التوحيدُ لأهمِّيته أنزل اللّه من أجله الكتب، وأرسل به الرسل، وتحدث اللّه عن قَصَصِ الأنبياء.

وأنا بجهدي الضعيف كتبت كتابًا اسمه «منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللّه فيه

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، (خ/ كتاب الإيمان، باب سؤال النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وم/ كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان برقم٩).

الحكمة والعقل؛ فإن شئتم فارجعوا إليه لتستفيدوا منه، بيَّنْتُ فيه دعوةَ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- وأنه طريقٌ رسمهُ اللّٰه لا تجوز الحيدةُ عنه يمينًا ولا شمالًا، فإنَّ الحيدةَ عن منهجِ الأنبياء في الدعوةِ إلى اللّٰه حيدةٌ وانحرافٌ إلى الضلال والهلاك؛ لأنَّ هذا المنهج وضعه اللّٰه -تبارك وتعالى- ورَسَمَهُ للأنبياء جميعًا من أوَّل رسولٍ نوحٍ إلى خاتَمِهم محمَّد -عليهم الصَّلاة والسَّلام .

قال اللّٰه ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، هذه الآية تقصُّ علينا كيف كان بدء دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وما هي خلاصةُ دعوتهم -عليهم الصلاة والسلام- ، وقد أثبتُّ في هذا الكتاب وجوبَ التزامِ هذا المنهج بالأدلة من القرآن والسنَّة والفطرة والعقل، وأنَّ الدَّعوات التي لا تبدأ بالتوحيد ولا تنطلق من التوحيد قد حادت عن منهج اللّٰه، واختارت طرقَ الضلال والهوى، وانحرفت بالمدعوِّين عن صراط اللّٰه المستقيم.

كلُّ الدعوات الموجودة الآن على وجه الأرض إذا رَسَمَت لنفسها طريقًا للدعوةِ إلى اللّٰهِ غير الطريقة التي رسمها اللّٰه لأنبيائِه ورسلِه والتزموها ونفَّذوها فقد ضلّوا؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ما هي ملة إبراهيم؟ هي التوحيد والدعوة إليه، فإبراهيم ﷺ بدأ بالدعوة إلى التوحيد وناضلَ في هذا الميدان وحارب القريبَ والبعيد وناظرهم وأقام الحجَّةَ عليهم، ثم بعد ذلك لمَّا يَئِسَ من استجابتهم ذهب إلى أصنامهم وحطَّمَها، فاغتاظوا لأجل هذه الأصنام وغَضِبُوا من أجلِها، ولم يروا شيئًا يشفي غيظَهم إلَّا أن يقذفوه في النَّار، فنجَّاه اللّٰه منها فصارت عليه بردًا وسلامًا، وجعلهم اللّٰه الأسفلين.

وكذلك نوحٌ ﷺ قبله لبث ألفًا إلَّا خمسين عامًا يدعو إلى توحيد اللّٰه -تبارك وتعالى-.

عندما تأتي إلى بلدٍ عندهم خرافات وبدع وشرك وضلالات، هل تقول لهم: تعالوا نقيم دولة أو نبدأ بتصحيح عقائدهم حكامًا ومحكومين؟! فأمَّا الطريق التي

رسمها الله فتبدأ بتصحيح عقيدة الحاكم، بأن تخبره أنَّ الله هو ربُّه، وأن يَعْبُدَ اللّه، وأن يُخْلَصَ له الدِّين، فإذا صلح وأصلح رعيته واستجابوا دخلوا في الإسلام تمامًا وسيكونون على أتمِّ الاستعداد لتنفيذ حاكمية الله، وإذا رفضوا هذا فسوف يرفضون الحاكمية أيضًا ولن يستجيبوا لك، ومن السّفه ومن مخالفة دين الأنبياء ومنهجِهم أن تقصد إلى الحاكمية وتَسْلُك مثل هذه الأشياء؛ كما تفعل كثيرٌ من الدعوات، إمَّا أن تذهب إلى جانب التصوُّف، وإمَّا أن تذهب إلى جانب السِّياسة وتترك دعوة الأنبياء - عليهم الصَّلاة والسَّلام -، فتكون النتيجةُ هي الضياع والخسران في الدنيا والآخرة؛ لأنها قامت على غير منهجِ الأنبياء وقامت على أسسٍ فاسدة وقامت على الأهواء؛ لأنهم إذا لو لم يكن عندهم أهواء وأغراض شخصية ومصالح لما فقروا عن دعوة الأنبياء التي التزموها وطبَّقُوها.

ولهذا أشار ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الآيات من سورة الأعراف؛ يشير إلى دعوة الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- ، ما من نبيٍّ، نوح وهود وصالح وشعيب وموسى قصَّ الله قصصهم مُفصَّلة، كلُّ واحدٍ يدعو قومه يقول ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وبيَّن مواقفَ هؤلاء الضالِّين، وكيف كذَّبُوهم، وكيف رموهم بالسَّفاهة، وكيف رَمَوْهم بالجهل، فأعداءُ الأنبياء تعرفونهم من مواقفهم تجاه دعوة التوحيد كما وقف أسلافهم للرُّسل بالرَّد والتكذيب والاستهزاء إذا دعاهم الأنبياء إلى عبادةِ الله وحده وإخلاصِ الدين له ونبذِ الأوثان وخلعِها والبراءةِ منها، ومع هذا كلّه الأنبياء لا يتجاوزون الدعوة إلى توحيد الله، فإذا استجابوا فالحمد لله، ومشوا بهم خطوات أخرى، وإذا لم يستجيبوا وقفوا في هذه النقطة ولا يتجاوزونها، ويظلون يلهجون بالدعوة إلى التوحيد، والرسُول ﷺ كما عرفتم عاش ثلاث عشرة سنة في مكَّة لا يدعو إلى شيءٍ غير التوحيد، لم يخف عليه إقامة الدولة آنذاك، ولم يكن مُهمَلًا ذكرها في القرآن الكريم، لكن يدعو إلى التوحيد واثقًا بوعد الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فعن خَبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شَكَوْنَا إلى رسول اللهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا؟ ألا تَدْعُو اللهَ لنا؟ قال: «كان الرَّجُلُ فِيمَنْ

قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرض فَيُجْعَلُ فيه فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الْأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إلا اللَّهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1].

وقد حقَّق الله ﷻ ما وعد رسوله ﷺ من الظهور العظيم على يديه وعلى يدي الخلفاء الرَّاشدين؛ حيث أظهرهم الله وأظهر دينهم على الأديان كلِّها.

وكان ﷺ يكتب إلى الأمراء وإلى غيرهم وكتب إلى قيصر ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2] [آل عمران: ٦٤]، وكتب إلى كسرى بنحو هذا الكلام.

وكتب إلى غيره قريبًا من هذا المضمون -عليه الصلاة والسلام- بعدما قامت الدولة يدعوهم إلى التوحيد، وحينما بعث معاذًا إلى اليمن رتَّب له أمور الدَّعوة فقال: «إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أوَّلَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ»، أهل الكتاب يؤمنون بالجنَّة يؤمنون بالنار يؤمنون بالله يؤمنون بالملائكة، ويقولون: لا إله إلَّا الله، لكن أفسدوا معنى لا إله إلَّا الله فقال: «فليكُن أوَّل ما تدعوهم إليه، شهادةُ أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم- انتقل إلى مرحلة أخرى- أن اللَّه افترضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أنَّ اللَّه افترضَ عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم فتُلْقى إلى فقرائهم»[3].

هذه هي الطريقةُ الصحيحة للدعوةِ إلى اللَّهِ -تبارك وتعالى-، الآن العالَم الإسلامي تذهب إلى الشرق والغرب، تجد أوثانًا وقبورًا، تجد مدنًا من القبور،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النُّبوَّة في الإسلام - حديث رقم (٣٦١٢)

(٢) رواه البخاري/ كتاب الجهاد والسِّير، باب دعاء النبي ﷺ للناس إلى الإسلام برقم (٢٩٤٠)، ومسلم/ كتاب الجهاد والسِّير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل برقم (١٧٧٣)

(٣) أخرجه البخاري - كتاب المغازي -، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن قبل حجة الوداع

تدعى من دون الله، ويستغاث بها من دون الله، وتشدُّ إليها الرحال كما تشدُّ إلى البيت العتيق، ويطاف بهذه الأوثان، ويركع ويسجد لها، ويعتقدون فيها ما يخجل منه أبو جهل من أنها تعلم الغيب وتتصرّف في الكون!

وقد أتيت بعض البلدان ورأيت كيف الخشوع والخضوع والذلّ والطمع في أموات لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا! والله ما رأيت هذا الخشوع عند بيت الله العتيق! - وربِّ السماء - ويَخُور بعضهم كما يخور الثور، ويخرُّ يهوي على عتبة الولي طمعًا ورجاءً وخوفًا ورغبةً! وينسى الله -تبارك وتعالى- ! أمر عظيم! الدعوات الموجودة غير دعوة التوحيد؛ دعوة الإمام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ تقف تتفرّج أمام هذه المشاهد المخزية، ولا ترى هذه منكرًا، بل تؤيِّدها، بل يذهبون في أيّام الانتخابات إلى هذه الأوثان، أو إلى أكبرها، فيخرُّون لها راكعين ويقدِّمون لها الزهور والنذور إجلالًا وتعظيمًا لها، بدل أن يدعوا إلى التوحيد، والله يفعلون هذه الأمور وهم معدودون دعاة إسلاميين! فيَضِلُّون ويُضِلُّون الأمّةَ ويغرقونهم ويغمسونهم غمسًا إلى الحضيض في الضلال والشرك بالله -تبارك وتعالى-، ولا تجدُ دعوةً تواجهُ هذه الوثنية إلّا دعوة الله -تبارك وتعالى-.

على كلِّ حال سأذكر لكم مقتطفات عن التوحيد وأُحيلُكُم على كُتُبِ التوحيد، فإنَّ هذه المحاضرة إذا طالت لا تُغني شيئًا، إنَّما نُوَجهكم ونُبيِّن لكم شيئًا من مكانة التوحيد وفضله وما شاكل ذلك، ادرسوا «كتاب التوحيد» للإمام محمّد رَحِمَهُ اللَّهُ وافهموه حقَّ الفهم، واقرءوا شُرُوحَه «تيسير العزيز الحميد»، وكتاب «فتح المجيد»، و«القول السديد»، و«قُرَّة عيون الموحِّدين»، وما شاكل ذلك، واقرءوا «كشف الشبهات»، و«الأصول الثلاثة» للشيخ محمَّد كذلك، و«التوسل والوسيلة»، لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وكتاب «إغاثة اللَّهفان» للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، واقرءوا القرآن قبل كلِّ هذه؛ فإنَّه كتابُ التوحيد كما قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، واقرءوا كتبَ ابنِ تيمية عمومًا؛ فإنَّه ما من مجالٍ يكتب فيه إلّا ويعرِّج على العقيدة ويَستطردُ إليها لأهميتها عنده، واقرءوا كُتبَ ابنِ القيم أيضًا الأخرى مثل «زاد المعاد»؛ فإنَّ له لمحات وإشارات وتوضيحات في هذا الباب.

وقد تأمَّلت حياة المسلم فوجدتها قائمةً على التوحيد فيأتي إلى الصلاة إذا

توضأت تقول: «باسم الله»، تُسَمّي الله وتتوضأ، هذا توحيد وإذا فرغت تقول كما في الحديث عن النبيّ -عليه الصلاة والسّلام-: «ما من عبدٍ يتوضأُ فَيسبِغُ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلّا الله، وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُه، إلا فُتحتْ له أبوابُ الجنّةِ الثمانية، يدخلُ مِنْ أيّها شاء»[1]، هذا توحيد، تشهد أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمّدًا رسولُ الله توحيد، فتُفتَحُ لك أبوابُ الجنّة الثمانية، تدخل من أيّها شئت.

لأنَّ كلمة لا إله إلّا الله: لو وُضِعَتْ السموات السّبع ومن فيهنَّ غيرُ الله في كِفَّة، والأرضون السّبع أيضًا ولا إله إلّا الله في كِفَّة لمالت بهنَّ لا إله إلّا الله، هذا جاء عن موسى -عليه الصلاة والسّلام- وفي هذا الأثر شيءٌ من الضعف، ولكن يشدُّه وصيّةُ نوح لابنه -عليه الصلاة والسلام- أوصاه عند موته قال: «يا بُنَيّ آمُرُكَ بأن لا إله إلّا الله» -وهذا حديث صحيح- فإنّها لو وضعت في كِفّة، ووضعت السموات السبع والأرضون السبع في كِفّة، لمالت بهنَّ لا إله إلّا الله»[2]، فإذا قالها العبدُ صادقًا، مخلصًا لله -تبارك وتعالى-، عارفًا بمعناها عاملًا بمقتضاها تفتحت له أبوابُ الجنّة.

فإذا قمت إلى الصلاة تفتتحها بالتوحيد، فتقول: «الله أكبر» هذا توحيد، ثمَّ تستفتح فإمّا أن تقول: «وَجهتُ وجهي للذي فَطَرَ السموات والأرضَ حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين...»[3]. وإما تقول: «سبحانك اللّهمَّ وبحمدك وتبارك اسْمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غيرُك»[4]. في أنواع جاءت في الاستفتاح كلُّها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٤٥) ومسلم/ كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب بعد الوضوء برقم (٢٣٤).

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٧٠ - ٢٢٥) والحاكم (١/ ٤٨ - ٤٩)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة برقم (١٣٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٩٤ - ١٠٢) ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٧٥/ كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بـ(سبحانك) والنسائي (٨٩٥/ كتاب الصلاة، نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة)، والترمذي (٢٤٢/ كتاب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة)، وابن ماجه (٨٠٤/ كتاب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب افتتاح الصلاة، انظر صحيح سنن أبي داود برقم: ٨٤٨/ ج٣/ ٣٦١).

توحيد، ومن جملتها «اللَّهُمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطرَ السموات والأرض، عَالِمَ الغيب والشَّهادة، أنت تَحْكُمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لما اخْتُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم»[1]

وجاء في صلاة اللَّيل، أنواعٌ كثيرةٌ من الاستفتاحات منها أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، ثلاث مرَّات، الحمد لله ثلاث مرَّات»، -عليه الصَّلاة والسَّلام- يقول هذا، وَوَرَدَ أنَّه «يُكَبِّرُ اللهَ عشرًا، ويحمَدُ اللهَ عشرًا، ويُسَبِّحُ اللهَ عشرًا»[2] في بعضِ صلواتِه في اللَّيل عليه الصَّلاة والسَّلام- وكثيرٌ من هذه الأنواع كلِّها توحيد.

ثمَّ بعد ذلك تقرأ سورةَ الفاتحة، وهي كلُّها توحيد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، توحيد ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، توحيد ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، توحيد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ... كلها توحيد، انظر كيف قامت الصَّلاة على التوحيد؛ حينما تركع تقول «الله أكبر»، هذا توحيد، «سبحان ربي العظيم وبحمده، سبحان ربي العظيم وبحمده»[3] «سُبُّوحٌ قُدُّوس، سُبُّوحٌ قُدُّوس، ربُّ الملائكة والرُّوح»[4] توحيد، وأذكار أخرى، يعني تأتي أيضًا في الرُّكوع، ترفع «سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَه»[5]، هذا توحيد «ربنا ولك الحمد، مِلْءَ السموات ومِلْءَ الأرض، ومِلْءَ ما بينهما، ومِلْءَ ما شئت من شيءٍ بعد، أهل الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبد، لا مانعَ لما أعْطَيْت، ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْت، ولا يَنْفَعُ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠/ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه)

(٢) رواه أحمد (٦/ ١٤٣) وأبو داود، كتاب الصلاة، ما يستفتح به الصلاة (١/ ١٢١) برقم ٧٦٦، والنسائي (١/ ٢٤٠) وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل برقم: (١٣٥٦) وصححه الألباني رحمه الله في تخريجه على سنن أبي داود (٧٤٢/ ج٣/ ص٣٥٢)

(٣) رواه الدارقطني (١٣٠) وغيره، وصححه الألباني رحمه الله في (صفة الصلاة) انظر الأصل (٢/ ٦٥١ - ٦٥٧).

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود (٨٧٤) وروى مسلم طرفًا منه بدون الاستفتاح (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل وهو في صحيح سنن أبي داود برقم (٨١٨) (ج٤ ص٣٧)

(٥) متفق عليه خ/ كتاب الأذان، باب ما يقول الإمام ومن خلفه إذا رفع رأسه من الركوع برقم (٧٨٥)، م/ كتاب الصلاة، باب إثبات التكبير في كلِّ خفض ورفع. برقم (٣٩٢)

ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[1]، هذا توحيد، وتَخِرُّ ساجدًا لله -تبارك وتعالى- توحيد فتقول: «سُبْحَانَ ربي الأعلى، سُبْحَانَ ربي الأعلى، سُبْحَانَ ربي الأعلى، سُبْحَانَ ربي الأعلى..»[2] «سُبُّوحٌ قُدُّوس، سُبُّوحٌ قُدُّوس، سُبُّوحٌ قُدُّوس»[3]، تقول مثل هذا، «اللَّهمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كثيرًا، ولا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنَّك أنت الغفور الرحيم»[4]، هذا الدعاء الذي علَّمه رسولُ اللَّه ﷺ لأبي بكر يدعو به في صلاتِه توحيد، التَّشَهُّدُ توحيد، والأذان يرفع شعار التوحيد، فهذه العبادة انظروا ماذا تضمَّنت من توحيد اللَّه في كلِّ حركة من الحركات، كلُّها قائمةٌ على توحيد اللَّه -تبارك وتعالى-

الحجّ حينما تتأمَّله تجده كلَّه قائمًا على التوحيد، التلبية التي تَشْرَعُ بها في الحج، «لبيكَ اللَّهمّ لبيك، لبيك لا شريكَ لكَ لبيك، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لكَ والملكَ لا شريكَ لكَ»[5]، كيف سمَّاها الصحابة ﷺ؟ قالوا: أَهَلَّ رسولُ اللَّه ﷺ بالتوحيد»، بل رسولُ اللَّه ﷺ وأصحابُه لم يتوقفوا عن رفع شعار التوحيد، وظلُّوا يرفعون أصواتَهم به حتى بُحَّتْ أصواتُهم، وكانوا إذا أتوا شَرَفًا كبَّروا وإذا هبطوا متحدرًا سبَّحوا[6] في حجٍّ أو غيره من الأسفار والغزوات والشاهد أنَّ الرسول ﷺ ظلَّ وأصحابُه يهتفون بالتلبية، إلى أن دخلوا مكَّة، ولما وصل إلى البيت الحرام شرع يُكَبِّر ويطوف ويقرأ

---

(١) رواه مسلم / كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع برقم (٧٧٧)

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢و٣٩٤و٢٧١) وأبو داود (٨٧١)، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، والنسائي(١/ ٢٤٥)باب الدعاء في السجود، والترمذي(٢٦١) كتاب الصلاة عن الرسول ﷺ، باب ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود، وابن ماجه (٨٨٨) باب التسبيح في الركوع والسجود وصححه الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود(٨١٥، ج٤/ ص٢٤) و الإرواء (٣٣٣)

(٣) أخرجه أحمد(٦/ ٩٤و١١٥و١٤٨) ومسلم/ كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود برقم (٤٨٧)

(٤) أخرجه أحمد(١/ ٣و٧) والبخاري/ كتاب الدعوات، باب الدعاء في الصلاة(٦٣٢٦)، ومسلم/ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره برقم(٢٧٠٥)

(٥) متفق عليه من حديث ابن عمر ﷺ: (خ/ ١٥٤٩) ك/ الحج، باب التلبية، (م/ ١١٨٤) ك / الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، وأخرجه مسلم من حديث جابر ﷺ (١٢١٨) ك / الحج، باب حجة النبي ﷺ

(٦) أخرجه البخاري/ كتاب الجهاد والسير، باب التسبيح إذا هبط واديًا، وباب التكبير إذا علا شرفًا برقم (١٩٩٣، ١٩٩٤)

القرآن أو يذكرُ الله، هذا توحيد، ثم أتى إلى مقام إبراهيم ليصلِّيَ ركعتين، فهذا توحيد كذلك، ويقرأ فيهما سُورتي التوحيد «الإخلاص»، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] هذا توحيد، كلُّ هذه الأفعال تربيةٌ على التوحيد، تتحرك وتنام وتسافر وتستيقظ وتقرأ وتصلِّي، كلُّه توحيد، لكن كثيرًا من الناس غافلون للأسف الشديد، يحتاجون إلى تنبيه، ليُدركُوا تَغَلْغُل التوحيد في كلِّ حركة من حركات المؤمن، لما تنام عندك أدعية هي كلُّها توحيد، لما تستيقظ أدعية كلُّها توحيد.

أنبهكم إلى أهميَّة التوحيد ومكانَتِه، حيث إنَّ حياتَك أيُّها المؤمن إن كُنْتَ صادقًا في إيمانك ومخلصًا في توحيدك تستطيع أن تَجْعَلَها كلَّها توحيدًا وتقديسًا وإجلالًا وعبادةً لله ربِّ العالمين، فهذه هي أهميَّة التوحيد.

أمَّا خطورة الشرك، أنتقل الآن إلى هذه النقطة وسمعتم ما قرأنا من تهديد الله لأنبيائه ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقول إبراهيم - عليه الصلاة والسَّلام - وقال ﷺ مخبرًا عن دعاء رسوله إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، هذا وإبراهيم أبو الأنبياء وإمامُ الموحدين وإمامُ الحُنفاء -عليه الصلاة والسلام- يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، ويقول الله ﷻ عنه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

وقال الله تعالى في المشركين: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال ﷻ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر ﵁ (١٢١٨) ك/ الحج، باب حجة النبي ﷺ.

فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

إذا عرفت خطورةَ الشِّرك لا تزداد إن شاء الله إلَّا تشبثًا بالتوحيد ومعرفةً لمكانة التوحيد، أسأل اللَّه -تبارك وتعالى- أن يُثبِّتَ وإيَّاكم على توحيده وإجلاله وتعظيمِه، وإخلاصِ الدِّين له، وأن يُجَنِّبنَا وإياكم الشِّرك والبدع والنفاق ما ظهر من كلِّ ذلك وما بطن؛ إنَّ ربَّنا لسميع الدعاء.

وصلى اللَّه على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

الأسئلة:

السؤال: ما هي الطريقة المثلى في نظركم لدراسة كتبِ العقيدة والأخذ منها، وما هي النصائح التي توجِّهونها لطلاب العلم المبتدئين؟

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الطريقةُ المثلى لدراسة كتب العقيدة وغيرها، أول عمل أقوم به حفظُ الكتاب الذي يُوَجِّهُنا إليه العَالِم الذي نُريد أن نَتَلَقّى عنه العلم، فإذا وجَّهك إلى «الأصول الثلاثة» فاحفظها، أو «كشف الشبهات» فاحفظها، فالحفظ له قيمة ويساعدك على الفهم، ويساعدك على مواجهةِ المشاكل في العقيدة، فأوّل خَطوة تعملها حفظُ هذا الكتاب في توحيد العبادة إمَّا «كتاب التوحيد» تبدأ به، وإمَّا «الأصول الثلاثة» وإمَّا «كشف الشبهات» على حسب ما يراه العَالِمُ الذي تريد أن تتلمذ عليه، ما تَدرُس على نفسك! وإنما تَجثُوا برُكبتيك متواضعًا لله -تبارك وتعالى-، فإنَّ الملائكةَ تَضَعُ أجنحتها لطالبِ العلم رضًا بما يصنع، فكيف لا تخفض جناحك أمام العَالِم وتَحثُو بين يديه تأدُّبًا لتأخذ منه، نحن ليس عندنا تقديسٌ للأشخاص والغلوُّ والإطراء فيهم، ولكن عندنا الأدب، وعندنا الاحترام، ومعرفة قدر علماء السُّنة خاصة، فإنَّ علماءَ البدع ليسُوا بعلماء، العلماءُ هم العلماء بكتاب الله وعلماء التوحيد وعلماء السُّنَّة، ولو لم يكن عندهم ثرثرة وطنطنة وشنشنة، كما يفعلها غيرُهم، فتجلسُ عند هذا العَالِم وتتعلم منه.

الطريقةُ المثلى أن تتلمذ على عالم، فإنَّه يُقرِّبُ لك البعيد، ويعطيك خلاصةَ خِبْرَاتِه الطويلة، وتحصل منه في الجلسة الواحدة على ما قد لا تحصل عليه طولَ حياتك، أو لا تحصل عليه إلَّا بعد سنين، هذه هي الطريقةُ المثلى في نظري تقوم على اختيار كتاب ثمَّ تتعلَّم منه؛ كما هو شأن السَّلف الصالح فإنَّهم كانوا لا يَتَلَقَّوْنَ العلمَ إلَّا على العلماء، فإذا لم يتلقَّ الطالبُ العلمَ والقرآن على العلماء سَمَّوْهُ

«صُحُفِي» أو «مُصْحَفِي»، والذي يقرأ القرآن على غير الشُّيُوخ يُسَمَّى: «مُصْحَفِي»، والذي لا يقرأ الحديثَ والفقهَ وغيرَه على العلماء يقال له: «صحفي»، ؛ لأنّه يتعلم من الصحف، لا يتعلمُ من العلماء.

فالعلماء إذا جالستهم تتعلم منهم أولًا الأخلاق والأدب، ، وقد كان مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ يرحلُ إليه الناس من أنحاء الدنيا، وممن رَحلَ إليه يحيى بنُ يحيى النيسابوري، الإمامُ العظيم الذي قال فيه الإمامُ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ما رأى مثله، هذا الإمام قرأ «الموطأ» على مالك، ثمَّ لما أنهاه جلس، لاحظَ مالك ذلك لماذا هذا جالس؟! صَبَرَ، صَبَر ثم بعد مدة سأله قال: لماذا أنت جالس هنا؟ قال: أتعلَّمُ من أخلاقك.

- ومع الأسف - ترى كثيرًا من الناس يَأْنَفُ من الحضور عند أهل العلم والأخذِ عنهم، ويَأْنَفُ من الجلوس بين يدي العلماء، هذا والله أعلم سببه الغُرور ورداءة الخُلُق، لهذا تجد هؤلاء عندهم من الغُرور ومن الجهل والعطرسة والاعتزال ومن رداءة الأخلاق، ما لا تجده عند غيرهم، فإذا انطوى الإنسانُ على نفسه، ولا يُعَلِّمُهُ مُعلِّم، يُعَلِّم نفسه، هذا دليلٌ على مرض، فالطريقةُ المثلى أن تأخذ العلمَ من أفواهِ العلماء، وهم يُوجهونك إلى الكتاب الذي يلائم ذكاءك وما عندك من القُدُرَات، العالم يعرف وقد جرَّب قبلك، هذه الطريقة المثلى وأحيلُكم إلى الكتب التي ذَكرتُها لكم في هذه الكلمة.

وهنا سؤال يقول: ما رأيكم في قولِ من يقول إنَّ الاجتماعَ مطلبٌ أساسي، فإذا جاءنا من يُفَرِّقُ الاجتماع فيجب أن يُرْفَض حتى ولو كان الذي جاء أو الذي جاء به هو التوحيد؟

الجواب: الاجتماعُ مطلبٌ أساسي، فإذا جاء شخصٌ بما لا يُحَقِّقُ هذه الغاية، فإنَّه يجب أن يُرْفَض، يعني يُخالِف هديَ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهديَ القرآنِ الكريم في الاجتماعِ على الحقّ، هل اللَّهُ -تبارك وتعالى- يريدُ مُجَرَّدَ اجتماع ولو كان تحتَ رايةِ هذا الاجتماع الروافض والخوارج والباطنية وعُبَّاد القبور وما شاكلَ ذلك؟! هل هذا هو الاجتماعُ الذي أمر اللَّهُ به؟! هل هو معنى قولِ اللَّه -تبارك وتعالى- ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]؟! ما

هو حبلُ الله؟ هو القرآن والسُّنة، فلتكن الرابطة الوحيدة بينكم كتابُ الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، هذا هو الاجتماعُ الذي يريده الله؛ أن يكونَ على الحقِّ وعلى الوحي الذي ألزمنا به وكلّفنا به ﷻ.

لكن هؤلاء كيف أسمِّيهم؟! أعداء الأنبياء، أو الجهلةَ السُّفهاء لهم آراء ونظرياتٌ سياسية تخالف منهجَ الأنبياء ومنهجَ محمّدٍ خاتَمِهم -عليه الصلاة والسلام- من الدعوة الحارّة إلى الاجتماع الحقّ وعدم تفريق الدين؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، بالله لو فرّقُوا دينَهم واجتمعوا تحتَ رايةٍ ديمقراطية ما بالَوْا بذلك!

ولم يكتفِ هؤلاء بالمناداة لتجمع الصوفية والروافض والخرافات تحت رايةٍ واحدة، بل صاروا يَهتِفُونَ بوحدة الأديان، ويَهتِفُونَ بأُخُوَّة النّصارى، هؤلاء أو هذه النظريات الفاسدة المُضَادّة لما جاء به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- آلَتْ بهم هذه الأهواء إلى الدّعوةِ إلى وحدة الأديان، وإلى التحالُفِ مع الشيطان وإلى التحالُفِ مع العلمانيين والشيوعيين، وإلى أُخُوَّة النّصارى واليهود والوثنيين، وما ندري إلى ماذا ستنتهي؟ هل ستنتهي بمروقِهم من الإسلام تمامًا؟ أو بماذا ستنتهي؟ إلى ماذا ستحول هذه الدعوة؟!

فالدّعوةُ الصحيحة أن نجمعَ النّاسَ على كتابِ الله وسنّةِ رسول الله ﷺ فمن استجاب يدخل إن شاء الله في حظيرةِ الفرقةِ الناجية والطائفةِ المنصورة، ومن أبى فقد اختار لنفسه أن يكون من الفرقِ الهالكة التي أخبرنا عنها رسولُ الله ﷺ لأنّها أبت أن تنضوي تحت رايةِ التوحيد، وتحت رايةِ الكتاب والسُّنة، وأبتْ إلّا أن تَسلُكَ السُّبُلَ التي يدعو إليها الشياطين، شياطينُ الإنس والجنّ، ولا يُكلّفُ الله نفسًا إلّا وُسعَها.

وإنّنا لَنَلمسُ الآن نتيجةَ هذه الدعوات على وجه الأرض، ما الذي يحصل الآن في أفغانستان بين أصحاب هذه الدعوات؟ ما الذي حصل لمّا فُتحت كابل؟

ألم يبدأ أصحاب هذه الدعوة يتناحرون فيما بينهم، ويقتل بعضهم بعضًا من أجل الكراسي!

الآن ترى انقسامات إلا دعوة الإمام المجدد محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لم يختلف علماؤها إلى اليوم، ما حصل اختلافٌ منهجي، ولا اختلاف عقدي، ولا اختلاف سياسي أبدًا، لأنَّها دعوةٌ قائمةٌ على «قال الله، وقال رسول الله ﷺ»، وصار غيرهم جماعات، جماعة التكفير، وجماعة الجهاد، وجماعة التبيُّن والتثبُّت، وجماعة . . . ، جماعات لا أوَّل لها ولا آخر، لا يوجد شيء يعصِمُهم من التفرُّق، العاصم من التفرُّق هو فهم هذا الكتاب والالتفاف حوله، لهذا يطولُ أمدُ من أخلص لله، ومن هؤلاء المخلصين أصحاب دعوة الإمام محمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ فترى علماءها إخوة، ليس بينهم اختلافٌ منهجي، ولا عقائدي، ولا سياسي، ولا فكري ولا شيء.

* * *



التوحيد أصل الأصول

وقاعدة في الأسماء والصفات



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

مرحبًا بكم أيُّها الإخوة في هذه الرِّحاب المطهَّرة، وفي مَهْبَطِ الوحي، وفي منزِلِ التوحيد، فأهلًا وسهلًا بكم، وبهذه العبارات التي سمعتموها سيكونُ الحديثُ - إن شاء اللَّه - حولَ التوحيد الذي هو أصلُ الأصول، وإذا كان للناسِ أصولٌ وأصول الأصول يدورون حولَها؛ فإنَّ أصلَ الأصولِ عند الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وعند سادةِ هذه الأمَّة من الصحابة الكرام ومن اتَّبعهم بإحسان، إنَّ أصلَ الأصول عندهم هو التوحيد، فإذا كان أصلُ الأصولِ عند أقوامٍ هي السِّياسة، وأقوام عندهم هي الفلسفة، وتختلفُ الغايات على حسب ما يرسمُه أهلُها؛ فلكلِّ قوم غاية، ولكلِّ قوم أصول، والأصلُ عندنا هو هذا الأصلُ الذي جاء به جميعُ الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسلام-، وعليه تدور كلُّ العبادات، فالعبادات إنَّما هي تأكيدٌ لهذا الأصل وبَرْهنةٌ على الإيمانِ به حقَّ الإيمان.

فالتوحيدُ يتغلغلُ في كلِّ العبادات؛ بل هو أصلٌ أصيلٌ في كلِّ العبادات، فإذا جئنا إلى الصلاة نجدُها قائمةً على هذا الأصل؛ فسورة الفاتحة التي قال فيها رسولُ

اللَّه -عليه الصلاة والسلام- في شأنها: «لَا صَلَاةَ لِمن لم يقرأ بفاتحةِ الكتاب»[(١)]، هي أعظمُ سورةٍ في التوحيد، وهي أمُّ الكتاب، والقرآن كلُّه يدور عليها، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ توحيدُ الربوبية، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيدُ الأسماءِ والصفات، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيدُ العبادة.

والرسولُ ﷺ يروي عن ربه ﷻ في الحديثِ القُدسي يقول فيه «إنِّي قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْني وبينَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فإذا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وإذا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وإذا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هذه بَيْنِي وبينَ عَبْدِي، وإذا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هذه لِعبدِي ولِعبدِي ما سأل»[(٢)]

فانظرُوا وأدركوا عنايةَ اللَّهِ -تبارك وتعالى- بعبيدِه، خاصَّةً في هذه السُّورة التي فرضها اللَّهُ في كلِّ الصَّلوات المكتوبات والنوافل؛ فلا تَصِحُّ صلاةٌ إلا بها، فهي علاقةٌ وطيدةٌ بين العبدِ وربِّه، ولكن شريطةَ أن يكونَ مخلصًا لله ربِّ العالمين، مؤمنًا بما يقول، مُثبِتًا لأسماءِ اللَّه وصفاتِه؛ فهو إذا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يؤمن بأنَّ اللَّهَ -تبارك وتعالى- ربُّ السموات والأرض والجنِّ والإنس والملائكةِ وكلِّ المخلوقات في هذا الكون، فهو ربُّها: خالقُها، وسيِّدُها، ومالكُها، ومدبِّرُها، بيدِه الحياةُ، وبيدِهِ الموت، وبيدِه الجزاءُ على ما قدَّمَ المُكلَّفُون في هذه الحياة، وإذا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أثبتَ بذلك توحيدَ

---

(١) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت (خ/ ٧٥٦) كتاب الأذان و(م/ ٣٩٤/ ٨٧٢) كتاب الصلاة

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٣٩٤/ ٨٧٢) كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كلِّ ركعة وأنَّه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها

الأسماءِ والصِّفات التي امتلأ بها كتابُ اللَّهِ ﷻ، وكثيرٌ من سُنَّةِ رسول اللَّه ﷺ تدورُ على هذا التوحيد، توحيد الأسماءِ والصفات، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يتضمَّن هذا الوصف توحيدَ الأسماءِ والصفات المعروف عند أهلِ السُّنَّة والجماعة الذين تميَّزُوا بإثباتِ هذا التوحيد من بينِ جميعِ الفِرَقِ التي انْحَرَفَت عن منهجِ اللَّهِ الحقِّ، انحرفت عن القرآنِ وعن السُّنة وعما كان عليه السَّلف الصَّالح، فعطَّلوا أسماءَ اللَّهِ وصفاتِه وأفعالَه ﷻ وكلامَهُ الذي هو وحيُهُ إلى جميعِ رُسُلِه -عليهم الصلاة والسلام-، وفيه العقائدُ والتشريعات.

فيثبت - أهلُ السنَّة - للَّهِ - تبارك وتعالى - هذا النَّوعَ من التوحيد، من أنَّ اللَّهَ هو الرَّحمنُ الرَّحيم ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر ٢٢ - ٢٤].

وفي هذا الباب سورةُ الإخلاص ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ التي تعدلُ ثُلُثَ القُرآن أعطاها اللَّهُ -تبارك وتعالى- هذه المَنْزِلةَ العظيمة فإنَّها تعدلُ ثُلُثَ القرآن، لماذا؟ لأنَّه تَشْتَمِلُ على هذا التوحيدِ، توحيد اللَّه بأسمائِه وصفاتِه، كذلك آيةُ الكُرسي، وكذلك كثيرٌ من آياتِ القرآنِ الكريم يختمُها اللَّهُ -تبارك وتعالى- بأسمائِه وصفاتِه العظيمة.

وهذا تربيةٌ على توحيدِ اللَّهِ ﷻ، ومعرفتِه حقَّ المعرفة بهذه الصفات العظيمة التي تُنَوِّرُ العُقُولَ، وتُضيءُ في القُلوب، ومن لم يَفهم هذا الباب ولم يُؤمِن بصفاتِ اللَّهِ كما أثبتَها في كتابِه حُرِمَ من هذا الخير والعياذ باللَّه، بل قد كَفَّرهُ السَّلف؛ لقد كفَّرُوا من يُعطِّلُ أسماءَ اللَّهِ وصفاتِه؛ بل كَفَّرُوا من أنكرَ الاستواء؛ بل قَتَلُوا من أنكرَ أنَّ اللَّهَ اتَّخذَ إبراهيمَ خليلًا - يعني أنكرَ صِفَةَ الخُلَّة والمحبَّة -، وكلَّم موسى تكليمًا.

قال أميرُ العراق خالدُ بن عبد اللَّه القسْرِي لما قَتَلَ الجَعْدَ بنَ دِرهَم قال: «أيُّها

النَّاس تقرَّبُوا إلى اللهِ بِضحاياكم، فإنِّي مُتَقَرِّبٌ إليه بالجَعْدِ بنِ دِرهَمٍ؛ لأنَّه أنكرَ أن يكون اللهُ اتَّخَذَ إبراهيمَ خليلًا، وكلَّم موسى تكليمًا»[1].

كان في ذلك الوقت العلماءُ والحُكَّام على عقيدةٍ واحدة ومنهجٍ واحد، والحاكمُ المسلم لا يَقِلُّ غَيرةً على دينِ الله وعلى توحيدِ الله من كبارِ العلماء، كان للتوحيدِ هذا عندهم مَنْزِلةٌ عظيمةٌ لدرجةِ أنَّ مثلَ هذا الأمير الذي هو من أقلِّ الأمراءِ شأنًا، ولعلَّه من أضعفِهم تَدَيُّنًا ولكنَّه يؤمن بهذا التوحيد، ولهذا أبرَزَ هذه الغيرةَ على دينِ الله -تبارك وتعالى- وأيَّد ما ذهب إليه العلماء[2]، وغار للهِ ﷻ وأجرى هذا الحُكمَ على هذا الذي تطاول على شيءٍ من صفاتِ اللهِ -تبارك وتعالى-، وكان هذا مصيرَه وجزاءَه.

وهذا يُذَكِّرُني بحادثة عند الخليفةِ هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كان يغزو عامًا ويَحُجُّ عامًا، وكان يبكي من خشيةِ الله إذا ذُكِّرَ بالله ﷻ حتى يُغمى عليه أحيانًا، كان في مجلس يُحَدِّثُه فيه أبو معاوية محمد بنُ خادم الضرير، فَحَدَّثَهُ ببعضِ الأحاديث، ومن ضمنها حديث[3]: «إنَّ آدَمَ وَمُوسَى تَحَاجَّا فَحَجَّ آدمُ مُوسَى» يعني في قضيةِ القدر، قال: «فَحَجَّ آدمُ مُوسَى». قال أحدُ كُبَراءِ قُريش، ومن كبارِ الأسرةِ الحاكمة، من كبارِ الأسرةِ العبَّاسية الحاكمة التي تَحكُمُ الدنيا، ولعلَّه عمُّ الرشيد قال: فأين الْتَقَيَا؟ فقال الخليفةُ الغيورُ: «أين السَّيف والنطع لأقتُلَ هذا المُلحد»؛ لأنَّه استنكر حَديثَ رسُولِ الله -عليه الصَّلاةُ والسَّلام-.

الآن علماء ومدارس كبيرة وجامعات تقومُ على الاستخفاف بِخبرِ الآحاد وأنَّه لا يفيدُ العِلمَ، وأنَّه من الظُّنون، وأنَّها ما تقومُ به عقيدة؛ لكن كان منهجُ السَّلفُ

---

(١) انظر هذه القصة في (البداية والنهاية) لابن كثير (١٠/ ٢٦).

(٢) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الكافية الشافية:

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد الـ	قسري يوم ذبائح القربان
إذ قال إبراهيمُ ليس خليلَه	كلَّا ولا موسى الكليمَ الداني
شكر الضَّحية كل صاحب سنة	لله درُّك من أخي قربان

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (خ/ ٦٦١٤) ك/ القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله (م/ ٢٦٥٢/ ٦٦٨٤) ك/ القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

الصَّالح علماؤها وحكامُها وغيرُهم على احترامِ سُنّةِ رسُولِ اللَّه ﷺ جميعًا؛ ما يقولون: هذا متواتر وهذا آحاد، ولا نقبَلُ العقيدةَ إلَّا عن طريقِ التواتر، والآحاد إنَّما تفيدُ الظنَّ، لا يقولونَ مثلَ هذا الكلام الفارغ الذي اخترعه أعداءُ اللَّه من كبارِ أهلِ البدع ومن غيرِهم.

الشاهدُ أنَّ القُرُونَ المُفَضلة التي شهد لها رسُولُ اللَّه -عليه الصَّلاةُ وَالسَّلام- ما فُضِّلَت على الأُمَم كُلِّها وعلى هذه الأُمّة إلَّا بتَمسُّكِها بكتابِ اللَّه وبِسُنّةِ رسُولِ اللَّه -عليه الصلاة والسَّلام- في أبوابِ التوحيد في الدَّرجةِ الأولى، ثُمَّ في سائرِ أبوابِ الدِّين، مؤمنين بكتابِ اللَّه، مؤمنينَ بهذه النُّصوص، مؤمنين بسُنّةِ رسُول اللَّه -عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- يحتجُّون بالسُّنّةِ في أيِّ مجالٍ من المجالات، السُّنّة يحترمونها ويَبْنُونَ عليها عقائدَهم، وعليها يُوالون ويُعَادُون، كما قالَ الإمامُ ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الأحاديث التي تُثبِتُ صفاتِ اللَّهِ -تبارك وتعالى- وتُثْبِتُ العقائدَ والأمورَ الغَيْبية، لا يقولون فيها: إنَّ أخبارَ الآحاد تُفيدُ الظنَّ[1]؛ كما تقومُ عليه جامعاتٌ ومدارس.

الآن مع الأسَفِ الشديد لغربةِ الإسلام ولغربةِ السُّنّة تسَلَّطَ أهلُ البدعِ والضَّلال على مناهجِ المسلمين، وعقائدِ المسلمين، ويُعْطُونَ لكلامِهم وفلسفاتِهم الضَّالة من المَنْزلةِ ما لا يُعْطُونَه لسُنّةِ رسُولِ اللَّه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، وهم يتخذون أقوالَ فلاسفتِهم وغلاةِ أهلِ البدع يأخذونها قضايا مُسَلَّمَة، وأقوالًا مُصَدَّقة، لا يقولون فيها: أخبار آحاد! يَتبجَّحون بقولِ فلان من أئمّةِ التعطيل، تحتج: قال الإمامُ الفُلاني وقال الإمامُ الفُلاني وقال الإمامُ الفُلاني. في تعطيلِ صفاتِ اللَّهِ الثابتةِ بالقرآن والسُّنّةِ المتواترة، الثابتة بكتابِ اللَّهِ بعَشراتِ النُّصوص، بل بمئاتِ النُّصوص.

قضيّةُ الاستواء -استواءُ اللَّه على عرشه- أكثرُ ما حَارَبَ أهلُ السُّنّة والجماعة الجَهميةَ المُعَطِّلة بإنكارِهم لِعُلُو اللَّهِ واستوائِه على عَرْشِه، فيأتي هؤلاء الذين

---

(١) قال في مقدمة كتاب «التمهيد» (ص١١): «وكلُّهم - أهل الفقه والأثر - يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها، ويجعلها شرعًا ودينًا في معتقده، على ذلك جماعة أهل السنة».

يَفْرُقُونَ بَيْنَ أخبارِ الآحاد والأخبار المتواترة فَيَكْشِفُ اللهُ حقيقةَ مَنهجِهم وواقعَهم فإذا بهم يُحَرِّفُون ويُعَطِّلون من صفاتِ اللهِ وأسمائِه ما ثَبَتَ بنُصوصِ القرآنِ وبالسُّنَّةِ المتواترة، لو وَقَفُوا عندَ حدِّ هذه القاعدةِ الفاسدة وأخذوا بالمُتواترات وبالنُّصوص القطعية من القرآن لَخَفَّت المُصِيبة وهَانَت، ولكن مع الأسفِ الشَّديد إنَّ هذا الكلام إنَّما يقولونَه ليَدرءُوا في نُحُورِ أهلِ السُّنَّة، ويَرُدُّوا أخبارَ الآحاد وغيرها، ولكنَّ اللهَ يَكْشِفُ حَقِيقَتَهم عندما تأتي النُّصُوصُ القرآنية النُّصُوصُ المتواترة من السُّنَّة، وإذا بهم يَكْشِفُونَ عن حَقِيقةِ ما يَعتقدُون.

فعلى سبيل المثال أسماءُ اللهِ وصِفاتُه التي يُشيرُ إليها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولعلي أذكُرُ كلامًا لابنِ الوزير رَحِمَهُ اللهُ قاله في «الروضُ الباسم في الذَّبِّ عن سُنَّةِ أبي القَاسِم» تَعَرَّضَ للفِرَقِ وللخلافاتِ بينهم وأنكَرَ ما عندهم من الأباطيل والتحريفات والتأويلات الباطلة، ثُمَّ دَلَفَ إلى الأشعَرِية الذين ينتسِبُون إلى السُّنَّة، فقال: إنَّه ليأخُذُكَ العَجَبُ من هؤلاءِ الذين يَنتسِبُونَ إلى السُّنَّة، يَأتُونَ إلى صِفَةِ الرَّحمة التي ثَبَتَتْ في كِتَابِ اللهِ في خَمْسِمائةِ نَصٍّ مُكرَّرَة ومُؤكَّدَة ومع ذلك يُعَطِّلُونَها ويَنفُونَ عن الله هذه الصِّفَة التي ثَبَتَتْ بخَمْسِمائةِ نَصٍّ في القرآن دعك النُّصُوص المُتَكَاثِرة مِنَ السُّنَّة التي أَثْبَتَتْ هذه الصِّفَة العظيمة التي قال اللهُ عنها: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فَمِن آثارِ هذه الرَّحمة كلُّ ما ترى من الخيرِ والبِرِّ في الدُّنيا والآخرة إنما هي أثرٌ من آثارِ هذه الرَّحمَةِ العظيمةِ التي اتصَفَ اللهُ بها، عَطَّلُوا هذه الصِّفات مخالفين لهذه النُّصُوص، مخالفين للمُسَلَّمات عندهم فيما يَدْرُسُونَهُ من فُنُونِ اللُّغَةِ، من نَحْوِها، وبَلَاغَتِها، وغيرِها من صُنُوفِ اللُّغَةِ العربية التي قَرَّرُوها هم وقرَّرُوا قواعدَها.

فمن قواعِدِهم في اللُّغَةِ وفي البلاغةِ أنَّ التِّكْرَارَ يَرفعُ احتمالَ المجاز، وأنَّ التأكيدَ يَرفعُ احتمالَ المجاز، فعندهم إذا قُلْتَ «جاء زَيْدٌ» قالوا يَحْتَمِلُ أن يكون جاء بنفسِهِ، وأن يكون جاء غُلَامُهُ، وأن يكون جاء منه رسالة، ويحتمل ويحتمل، لكن هم يُقَرِّرُونَ في نَفْسِ الوقتِ أنَّكَ لو قلت: «جاءَ زَيْدٌ، جاءَ زَيْدٌ» تساقطت كلُّ هذه الاحتمالات - احتمالات المجاز -، وثبتت الحقيقةُ؛ فيَتَعَيَّنُ الإيمانُ بأنَّ زيدًا قد جاءَ وثبت مجيئُه، وأنَّ مجيئَه حقيقةٌ لا يُمَارُونَ في هذا، لو قال هذا كافرٌ

نُسَلِّم لهم بأن هذا حقيقة وانتهى كلُّ شيء، وإذا قالوا: «جاء زَيْدٌ نَفْسُهُ» تأكيد معنوي إذا قال: «جاء زيد» يحتمل احتمالات تَرِدُ كُلُّها؛ لكن إذا جاء بتأكيد معنوي فقال: «جَاءَ زَيْدٌ نَفْسُه» أو «جَاءَ زَيْدٌ عَيْنُه» تساقطت تلك الاحتمالات كلها، وثبتت الحقيقةُ بسبب هذا التأكيد.

فنأتي إلى القرآن الكريم وإذا به يَفتتحُ القرآنَ بهذه الصِّفة. ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ونقرأ سُورةَ البقرة فتجد هذه الصفة في كثير من الآيات، ثُمَّ تقرأ سُوَرَ القرآن فتجدُ في كثيرٍ من الآيات تُخْتَمُ بهذه الصِّفة كما قال هذا الإمام - ابنُ الوزير - في خمسمائة موضع مُكرَّرَة ومُؤكَّدة فما عُذرهم؟! يعني: كلامُ اللَّه ﷻ لا يفيدُ ما يفيدُه كلامُ البشر!

رحمةُ المخلوق لا تَسَعُ نفسَه ورحمةُ اللَّه وَسِعت كلَّ شيء، رحمةُ اللَّه تليقُ بجلاله ﷻ؛ فابنُ خُزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ عندما جاء يَذْكُرُ صِفةَ اليد للَّه ﷻ وذكَرَ النُّصوصَ في أنَّ اللَّه يُمسكُ السموات بأُصْبُع، والأرضينَ بأُصْبُع، والجبال بأُصْبُع، وكذا، ويُمسكُ السموات بيده اليُمنَى والأرضَ بيده الأخرَى، قال: هل هناك يَدٌ تُشبهُ هذه اليَد؟! هل يوجد يدٌ تُشبهُ هذه اليد التي تمسكُ السموات والأرض - تعالى اللَّه عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا -[1]؟!

فأنا أُثبتُ للَّه العلمَ، والقدرةَ، والإرادةَ، والاستواءَ، والنُّزولَ، والمجيءَ، والغَضَبَ، وكُلُّ ما أثبتَهُ اللَّهُ لنفسِهِ، ووَصَفَ به نفسَهُ، وأثنى به على نَفْسِهِ نُثبتُهُ على الوجهِ اللائقِ باللَّه -تبارك وتعالى-، ولا نأخُذُ من ديننا ما نشاء ونَنفي منه ما نشاء، فنقعَ في التناقضِ؛ بعد هذا الجُحُود وبعد هذا النُّكْرَان لا مَحِيصَ لنا ولا مَخْرَجَ من التناقض.

فاللَّهُ له إرادة، والمخلوق له إرادة، فالواجبُ أن تَطرد البابَ على وتيرة واحدة وتُثبت كلَّ الصِّفات؛ فإذا آمنْتَ بالإرادةِ والعلمِ والقدرة على أساسِ أنَّه لا تُشبهُ صِفاتِ المخلوقين فتُؤمِنُ بالغضبِ والرِّضا والرحمةِ والنُّزولِ والمجيءِ والاستواء

(١) انظر كتابه في التوحيد (ص ١٦١ - ١٦٤) بتحقيق أبي عاصم أحمد بن علي المرتشي الزهري.

على أنها صفاتٌ لائقةٌ بجلالِ اللهِ -تبارك وتعالى- لا يشابهُهُ فيها شيءٌ من المخلوقات، فلا تعطيل، ولا تشبيه، ولا تمثيل، وإنَّما هو إيمانٌ صادق، مؤمنٌ باللهِ -تبارك وتعالى- مُقَدَّسٌ لجلالِه وعظمته، مُنَزَّهٌ له عن النَّقص وهو الخُلُوُّ من هذا الكمال الذي وَصَفَ به نَفْسَه، فخلُوُّه من الرحمة نقص، وخُلُوُّه من الغضبِ نقص، وخُلُوُّه من الاستواءِ على عرشِه هذا نقصٌ، يتعالى ويَتَنَزَّهُ عنه ربُّنا -جلَّ وعلا-.

فإذا قالوا: إنَّ اللهَ ما هو على العرش، أين هُوَ؟! جوابهم: لا فوق، لا تحت، لا يمين، لا يسار، لا داخل العالَم ولا خارجه! يجيئُكَ واحد شيوعي ينكر وجود الله تقول له: أنت تنكر الله؟ فيقول: نعم!، فتقول له: كيف يا هذا؟ يقول لك: هو العدم لا فوق، لا يمين، ولا يسار، ما الفرقُ بين هذا الجَاحِدِ وهذا الجاحد؟! -نسأل الله العافية- هذه خطيرةٌ جدًّا -والعياذ بالله- هذا مُؤَدٍّ إلى إنكارِ وجودِ الله ليس إلى تعطيل الصِّفات -والعياذ بالله- لكن نحن نَعتذرُ لهم بجهلهم وضلالهم وإلَّا فالأمرُ خطير، وقد كَفَّرَ به السَّلف لتعطيلهم للنُّصوصِ المتكاثرة.

هذا -العُلُو- فيه ألفُ دليل، وكذلك ما سمعتموه عن صِفَةِ الرَّحمة، وكثيرٌ من النُّصوص تُثبِتُ صفاتٍ عظيمةً تليقُ بجلالِ الله، عَطَّلها هؤلاء، إمَّا إنَّها لا تليقُ بجلالِ الله على زعمهم، وإمَّا أنَّها جاءت عن طريقِ أخبارِ الآحاد! -فتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا- فالشاهد أنَّ هذه السُّورة من سُوَرِ القرآنِ الكريم من أعظَمِ سُوَرِ التوحيد، وفيها إثباتُ أنواعِ التوحيد: توحيد الرُّبوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا فيه توحيدُ الألوهية وإخلاصُ الدِّين للهِ -تبارك وتعالى- فلا نستعينُ في أمرٍ من الأمور -الأمور التي لا يقدر عليها إلَّا اللهُ- -تبارك وتعالى- لا يجوزُ الاستعانةُ فيها بمخلوقٍ من المخلوقات، لا الأنبياء ولا الملائكة ولا غيرهم من مخلوقات الله ﷻ، «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»[1]، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نَخُصُّكَ بالعبادة؛ لأنَّ هذه

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما برقم (٢٥١٦) كتاب القيامة عن رسول الله ﷺ وقال: حديث حسن صحيح.

من صيغ القصرِ والتخصيص، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا نعبُدُ إلَّا إيَّاك وحدَك مخلصين لك الدِّين لا نشرك أحدًا في عبادتك لا نتَّخذ شريكًا معك في ذرَّةٍ من ذرَّاتِ العبادات التي خُلقت الجنُّ والإنسُ من أجله، والتي قال اللهُ ﷻ فيها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فربُّنا ما خلقَنا إلَّا لعبادتِه، وفرَضَ علينا هذه السُّورة التي يدينُ اللهَ -تبارك وتعالى- بها في كلِّ ركعةٍ من الرَّكعات؛ فنعترفُ بهذا الحقِّ، ونصرِّحُ بهذه الغاية التي خُلِقنا من أجلِها، فنقولُ: لا نَعبُدُ إلَّا إيَّاك، لا نَعبُدُ غيرَك تحقيقًا لهذه الغاية التي خَلقتَنا من أجلِها وسَخَّرتَ لنا ما في السموات والأرض لنقُومَ بها.

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا نَستَعينُ إلَّا بك في العبادة في أمور الدِّين، في أمورِ الدُّنيا لا نستعينُ إلَّا بك، ولا نلجأُ إلَّا إليك، ولا نَستغيثُ في الكُروبِ إلَّا بك، ولا نلجأُ في الشَّدائد إلَّا إليك، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

فهذه لمحاتٌ عن التوحيدِ في الصَّلاة.

العبادات قائمةٌ على توحيدِ اللهِ -تبارك وتعالى- الذي هو دَيدَنُنا وغايتُنا، إذا كان للنَّاس شِعارات، فنحن ليس لنا إلَّا شِعار الأنبياء، وإذا كان للنَّاسِ دعواتٌ فليس لنا إلَّا دعوةُ الأنبياء، وإذا كان للنَّاس مناهج فليس لنا إلَّا منهجُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ والقرآنُ أكبرُ شاهد، وقد رَدَّدَ اللهُ هذه الشهادات وكرَّرها في كثيرٍ من الآيات: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] كلُّ رسولٍ يقولُ لقومه هذا ويفاجئ قومَهُ بهذه الدَّعوة -الدعوة إلى التوحيد ونبذ الطواغيت-.

وبهذه المناسبة الطواغيت تُطلَقُ على أنواع، لكنَّها في خِطاباتِ الأنبياءِ -عليهم الصلاة والسلام- لا تعني إلَّا الأصنام والأوثان التي كان الأقوامُ يعبدونها من دون اللهِ، وهذا صريحٌ واضح في دعوة أبي الأنبياء وإمام الأنبياء إبراهيم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- الذي قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، هذا

إبراهيم ﷺ.

الدُّنيا مليئةٌ بالضلالات، مليئةٌ بالانحرافات والضَّلالات الاجتماعية والسِّياسية والقدرية.. ولكن كان يَقُضُّ مَضجِعَه في الدَّرجةِ الأولى هذا الفسادُ في العقيدة، هذا الفسادُ الذي يُضادُّ التوحيدَ الذي جاء به الأنبياءُ قبلَ إبراهيم وبعد إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

ومع الأسف عندما يأتي السِّياسيون في عصرنا هذا يقولون الشِّرك السَّاذج! وما يدري المساكين أنَّهم يتنقَّصُونَ دعواتِ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما يدرون أنَّهم يَسخَرون من حيث لا يشعرون من دعواتِ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ إذا كان هذا أمرًا ساذجًا فلماذا يبدأ به الأنبياءُ -عليهم الصلاة والسلام-، ولماذا يُفني نوحٌ عُمرَهُ ألفَ سنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا في محاربة وَدٍّ، وسُواعٍ، ويغُوثَ ويعُوقَ، ونَسْرٍ هذه الأصنام؟ لا دعوة إلى سِياسة، ولا إلى قوانين، ولا إلى اقتصاد، ولا إلى اجتماع ولا إلى شيءٍ من هذا، وإن كانت هذه من الإسلام، لكن هناك مجتمعات هي بأشدِّ الحاجةِ إلى دعواتِ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فلا نبدأ معهم إلَّا بما بَدَأَ به الأنبياء عَلَيهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - وما نقول إنَّ هذا شيءٌ ساذج.

السَّاذج الأبله الغبيُّ هو الذي يقول هذا الكلام، الذي لا يُدرِكُ خُطورةَ الشِّرك الذي قال اللهُ ﷻ فيه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والذي قال اللهُ فيه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، اللهُ بعثَ جميعَ الرُّسُل وأنزل جميعَ الكُتُب لمحاربةِ هذا الشِّرك، وتأتي الآن وتقولُ هذا شِركٌ ساذج! شرك ساذج هذا؟! تقولُ مِثلَ هذا الكلام؟ الله يقول عظيم وخطير، وأنت تقول ساذج! ومع الأسف ناسٌ يُطَبِّلُون لهذا الكلام السَّخيف الساذج أهلُه البُلَهاء الأغبياء.

الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أكمَلُ النَّاسِ عُقولًا وأرسَلَهم ربُّ العالمين ﷻ وأمرهم بالبدء بهذا بمحاربةِ عبادةِ الأوثان، والرسُول ﷺ لما جاءه عمرُو بنُ

عبسة - أخو أبي ذر لأمه - قال: من أنت ؟ قال: نبي، قال: ما معنى نبي ؟ قال أرسلني اللهُ - الحديث في صحيح مسلم[1] - بماذا أرسلك؟ قال: «أَرْسَلَنِي بِأَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَه، وَأَنْ تُخلَعَ الأَوْثَان». وإذا كان يومُ القيامة «يأتي ربُّنا ويقول: تَتْبَعُ كلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعبُد، فيَذهبُ أهلُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِم»، ما يذهبون مع الزعماء، والرؤساء الذين يعتبرون الشِّركَ بهم هو الشِّركَ الحضاري والشِّرك العظيم، ما يقول اذْهَب مَعَ فُلان، أو مع فلان، «تَتْبَعُ كلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعبُد»، فمن كان يعبُدُ الأوثان يَذهَبُ مع الأوثان، ويَذهبُ اليهودُ والنَّصارى مع العُزَيْرِ وعيسى، «يَقُولُ لِلْيَهُود: مَنْ تَعْبُدُون؟ - أستغفر الله العظيم - قَالُوا: نَعْبُدُ العُزَيْرَ ابْنَ الله، قَالَ: كَذَبْتُم، فَيَأمُرُ بهم إلى النَّار فيَذهبُونَ إلى النَّار يَحطِمُ بَعْضُها بَعْضًا، فَيَقُولُون: اِسْقِنَا رَبَّنا، فَيَجِدُونَ النَّارَ وهي يَحطِمُ بعضُها بعضًا، ويأتي النَّصارَى فَيَقُولُ: مَنْ كُنتُمْ تَعْبُدُون؟ قالوا: نَعبُدُ عِيسَى ابنَ الله، فيَقَال لَهُمْ: كَذَبْتُم...» الحديث[2].

المهمُّ أن هذا الشِّرك في ميزانِ اللهِ -تبارك وتعالى- شِركُ عبادةِ الأوثان، وعبادةُ الأشخاص بالعبادةِ التي يَجبُ أن تكون لله، من دعاءٍ، واستغاثةٍ، وذبحٍ، ونذرٍ، وتوكلٍ، هذا هو الشِّركُ الأكبر، والشِّركُ العظيم والذي يَجبُ أن يُحارَب.

وأنا قلت في كتاب «منهج الأنبياء» - كلامًا حاصله -: أنَّ هذه الحضارة الآن التي انْبَهَرَ بها هؤلاء الدُّعاة، قيادتُها من حُكَّام، ومن مُهندسين، ومُفكِّرين، ومن سياسيِّين، ومن أطباء إلى يومِنا هذا يَعبُدون الأوثان، إلى الآن يَعبُدونَ الأوثان، فرُءُوسُ النَّصارى، ومهندسُوهم، وأطبَّاؤهم ومُفكرُوهم، وأدباؤُهم يعبدون الصَّليب، ويَعبدُون صُوَرَ عيسى ومريم، وأطباء الهند والمهندسون، والحُكَّام، واليابان، والصِّين، وغيرُهم يَعبدون أوثانًا.

هذا هو أشدُّ البلاء الذي نُكِبَت به الإنسانية، وفي تاريخها إلى أن تأتي السَّاعة فتطوي هذه الحياة. يأتي زمانٌ على النَّاس يكونون فيه أسْوَأ من هذه الحال كما أخبرَ

---

(١) برقم (٨٣٢/ ١٩٢٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة.

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد ﷺ (خ/ ٤٥٨١) ك/ التفسير باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (م، ١٨٢/ ٤٥٠) ك/ الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

الرسول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- فيعودون إلى عبادةِ الأوثان، عبادةُ الأوثان أشدُّ الكفر، وأعظمُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ به، وأرسلَ الرُسلَ كلَّهم لتطهيرِ الأرض منهم، والقضاءِ عليه، ثُمَّ يأتي الشيطان هذا العَدُو الألدّ؛ الشيطان ما يبدأ بإفسادِ النَّاس إلا في هذا الباب، يأتيهم من باب المحبّة للأنبياءِ وللصَّالحين فيَجُرُّهم إلى عبادةِ صُوَرِهِم وتماثيلهم المُسَمَّاة بالأصنام والأوثان.

أقول هذا الكلام يا إخوة!؛ لأنَّ هناك دعواتٌ سياسية لها مرام سياسية، وغاية سياسية، استهانت بكلِّ شيء، وجَعَلت الدِّينَ مطيةً لها إلى تحقيقِ أهدافِها، فَجعلُوا ما يُسَمُّونه بالشِّركِ السِّياسي أفضلَ من دَعوةِ الأنبياء، والشُّغل بغيرِه سَذاجة؛ لأنَّه شُغلٌ تافه، أمورٌ ساذجة؛ ولهذا تراهم لا يَتعَرَّضُون لِعُبَّادِ القُبور إلَّا مُجاملةً، أو خوفًا من السَّلفيين، وإلَّا فهم لا يَعبَئُونَ بدعوة الأنبياء، فَسَوَادُهُم الأعظم الذين يَجمعُونَهم ويَحشِدُونَهم للوُصُولِ إلى هذه الغاية من عُبَّاد القُبُور وهي الأوثان لا فرقَ بين عِبادةِ القُبُور وعبادةِ الأوثان، ماذا يستفيد هذا المسكين الذي تَجمعُه معك باسم الإسلام وأنَّك مُسلم، وتهمل الغايةَ التي خُلِقتَ من أجلها؟ لأن همَّك تسنُّمَ الكَرَاسي، تَبذُل أكثرَ ما عندك منَ الجُهود لتصِلَ إلى سدَّةِ الحُكْم.

وهذا الصِّنفُ من النَّاس بدايةُ دعوتِه فاسدةٌ منحرفة لماذا؟ لأنَّه خالفَ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في منهجِهم، خالَفَهم في دعوتِهم، خالَفَهم فَقَفَزَ قَفزةً هائلةً إلى آخِرِ مراحلِ الدِّين، فإنَّ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يَحكُمُونَ بين النَّاسِ إلَّا بعد أن تَصْلُحَ القُلوب، وتؤمن بما جاءوا به من الوحي، وتُسلِّمَ بما جاءوا به من العقائد، فإذا دانُوا اللَّهَ بما جاء به الأنبياءُ في هذه الأصول سَهُلَ انقيادهم في أبوابِ التشريعات، من الحلال والحرام والحدود، وما شاكلَ ذلك، وإن لَتوَوْا واستكبروا وعاندوا في، باب التوحيد، فعدم انقيادهم للتشريع أولى وأولى.

وإنَّ لَتجدُ في أتباعِ هؤلاء السِّياسيين من يلتوي على دعوةِ اللَّهِ -تبارك وتعالى- ويُحارِبُ التوحيد آخذًا في هذا المضمار ما أخَذَهُ أعداءُ الرُسل -عليهم الصلاة والسلام-.

فعلى الدُّعاةِ إلى اللّه إن كانوا صادقين يريدون للمسلمين العزّة والسِّيادة فليبدءوا بتصحيحِ العقائدِ التي استشرى فيها الفساد، ووصل كثير من المسلمين فيها إلى مُنحَدَرٍ سحيق، فتوحيدُ الأسماء والصِّفات قد عطَّلوه، وتوحيدُ العبادة قد ضيَّعوه، ولهذا ضيَّعوا معنى لا إله إلّا اللّه، فلا إله إلّا للّه معناها عندهم: لا خالقَ، لا رازقَ إلّا اللّه! ومن هنا أتاهم الضّلال، من هنا ضلُّوا وتاهوا وتاهوا وتاهوا.. ! تقول له: أنت تحالف لا إله إلّا اللّه؟ يقول: أنا ما أخالفك، أنا أقول: لا إله إلّا اللّه، ما معنى لا إله إلّا اللّه؟ لا خالقَ لا رازق! فإذا اعتقدَ أنّ معنى لا إله إلّا اللّه: لا خالقَ ولا رازقَ إلا اللّه فقد حقق التوحيد في نظره!!

قال: أنا آمنتُ، أنا مُوحِّد، أدعُو غيرَ اللّه، أذبَحُ لغيرِ اللّه، أنْذُرُ لغيرِ اللّه، أستغيثُ بغيرِ اللّه... لا أخالفُ لا إله إلّا اللّه، ولا أقعُ في الشِّرك! بل هو في حمأةِ الشِّرك؛ لأنَّ لا إله إلّا اللّه معناها: لا معبودَ بحقٍّ إلّا اللّه، أما توحيدُ الرُّبوبية فله آياتُه الكثيرة الموجودةُ في القرآنِ الكريم، ولكن تُفسِّرُ توحيدَ الرُّبوبية بالآيات التي نزلَت فيه تُبيِّنُه وتُوضِّحُه، ولا تذهَب إلى لا إلهَ إلّا اللّه فتُفسِدُ معناها بهذا التفسير، تقول له: أنت تؤمن بتوحيدِ الرُّبوبية! نعم حتى الكُفَّار يؤمنون بتوحيدِ الرُّبوبية، قريشٌ قبلك يؤمنون بتوحيدِ الرُّبوبية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان ٢٥]، لكن لما قال لهم مُحَمَّدٌ -عليه الصَّلاةُ والسَّلام-: قولوا: لا إله إلّا اللّه. قالوا - كما أخبر اللّه ﷻ عنهم -: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص ٥]، بخلاف الرُّبوبية؛ فقد قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، ما قالوا. واللّهِ نحن ما نقول هذا الكلام، أقرُّوا بهذا وهم يقرُّونَ بهذا ولا يُكَابِرُون فيه، بل حتى يَعبُدون اللّهَ إلى حدٍّ بعيد لكن جعلُوا مع اللّهِ شُركاءَ في الألوهية، فيدعون غيرَ اللّه، ويذبحون لغيرِ اللّه، ويستغيثون بغيرِ اللّه، يفعلون هذه الأشياء لأصنامِهم، ويعتقدون أنَّها تُقرِّبهم إلى اللّه زلفى، لا يقولون: إنَّها هي التي خَلَقَت، وهي التي رَزَقَت.. ولا يعتقدون فيهم أنَّهم أرباب، ولا يعتقدون فيهم أنَّهم يضرون وينفعون بأنفسِهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان ٢٥] ما يكابرون، لكن إذا قيل لهم لا إله إلّا اللّهُ يستكبرون.

أنا أحب أن يَفقَهَ الشَّبابُ هذه القضية، ويعرفوا الفَرْقَ فيما ذكرناه ومن واقعِ

المشركين؛ فهم لا يكابرون في الرُّبوبية إنَّما كابروا واستكبروا في توحيد الألوهية ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، فهنا يأتي الصِّراع، ويأتي الخلاف، ويأتي القتال، وتأتي المشكل بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وبين أُمَمِهِم أمَّا أن تجاهدهم في توحيد الرُّبوبية لقالوا: نحن معكم، لو جاء وقال: آمنوا بأنَّ اللهَ خلق السَّماء، وخلق الأرض وخلقكم.. يقولون لا خِلَافَ بيننا وبينكم، لكن ما كان الخِلافُ إلَّا في هذا، لكن مع الأسف كما قلنا إنَّ من انحرفوا عن منهجِ الرُّسل واستهانوا بدعوتهم، وطرحوا في السَّاحة لشباب الأُمَّة منهجًا مخالفًا لمنهجِ الرُّسُلِ الكرام -عليهم الصلاة والسلام-.

على كلِّ حال! القضية هامَّة جدًّا، ويجب أن يكون هو الحديثُ السَّائد في اللقاءات، حتى يكون شبابُ الأمَّة على بصيرةٍ من دعوةِ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيحملونها بكلِّ ما يستطيعون إلى المسلمين في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها؛ فإنَّهم والله ما ضَلُّوا أكثر ما ضَلُّوا إلَّا في هذا الباب، وإنَّهم لو أصلح الدُّعاة عقائدَ هؤلاء القوم في أبوابِ التوحيد لقامت الحكومات الإسلامية التي يَنْشُدُونها، ولما وجدتَ صراعًا على هذه الكراسي، ما تجدُ إلَّا قلوبًا مُتَّحِدة على توحيدِ اللهِ -تبارك وتعالى-، ولكن أخطئوا الطريق، واستعجلوا هذه الغاية فعاقبهم اللهُ بنقيضِ قصدِهم وطالت عليهم الطريق ... ونحن وإن طالت الطريق فلن نخسر شيئًا؛ الذي يموت منَّا يموتُ عارفًا ربَّه عابدًا لربِّه مخلصًا له الدِّين ﷺ فنرجو له أن يلقى اللهَ راضيًا عنه.

وأمَّا أتباعُ أولئك فإنَّهم على غفلةٍ خطيرة، فإنَّ كثيرًا منهم سيلقون اللهَ بالشِّركِ في توحيد العبادة، وفي توحيدِ الأسماءِ والصفات، بل في توحيد الرُّبوبية.

وفي هذه الأُمَّة خرافيُّون؛ روافض وصوفية، عندهم حلول وعندهم وحدة الوجود، وعندهم اعتقاد في الأولياء أنَّهم يعلمون الغيب، ويتصرَّفون في الكون، الشِّرك حتى في الرُّبوبية، كيف يتهاونون بهذا الفساد العظيم في أصول الأصول دين الأنبياء جميعًا -عليهم الصلاة والسلام-؟! كيف يتهاون بهذا، ويذهب للصراع على الكراسي؟! والذي يصل منَّا إلى كرسي يتشبث به ويديرُ ظهرَه للإسلام! وهذا موجود وأنتم تعرفون هذا.

الشاهد أنَّ الأمَّة بأمسِّ الحاجة إلى إصلاح عقائدها إصلاحًا جذريًا، ولا يجوزُ البدء بشيءٍ قبل هذا، الإصلاح الاجتماعي والإصلاح الاقتصادي والإصلاح السِّياسي كلُّها تأتي بعد هذا الباب؛ كما هي طريقةُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ونسأل الله أن يَنصُرنا جميعًا بديننا، وأن يوفِّقنا للاعتصامِ بكتابه، وسنَّةِ نبيِّه ﷺ وأن يوفقنا لسلوكِ منهجِ الأنبياءِ -عليهم الصلاة والسلام- الذي أمَرَنَا اللهُ به، وأمَرَ رَسُولَه ﷺ بالاقتداءِ بهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

نسألُ اللَّهَ أن يجعلنا وإيَّاكم من المُتأسِّينَ بهم المقتدين بهم المتبعين لمنهجهم، إنَّ ربنا لسميع الدُّعاء.

وصلى اللَّه على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه.

* * *





التوحيد أولاً



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أمَّا بعد:

فموضوع هذا اللقاء في هذه الليلة المباركة - كما سمعتم - هو «التوحيد أولًا»، لماذا التوحيد أولًا؟ لأن هذا هو منهج اللَّه الذي شرعه لجميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- ، فما من رسول دعا أمته إلا وبدأ بالتوحيد، وإن كانت دعوات الأنبياء تشمل كل خير للبشر، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»[1]، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يحملون كل السعادة إلى البشرية وكل ما يسعدهم، ولكن يبدءون بالأهم فالأهم.

والذي يتأمل القرآن يرى أن دعوات الأنبياء اشتركت في أصول عظيمة جدًا منها: التوحيد، ومنها تقرير النبوات، ومنها تقرير البعث والجزاء، ولكن المحور

---

(١) رواه مسلم في الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول برقم (١٨٤٤) وغيره.

الأساسي لدعواتهم والتي دار حولها الصراع بينهم وبين أممهم؛ إنما هو التوحيد، وتوحيد العبادة بالذات، لأن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لا ترى في القرآن خلافًا بين نبي وبين أمته في شيء من هذا، يكذبون بالبعث لا شك وينكرونه، ولكن أشد ما يكذبون فيه هو: الدعوة إلى إخلاص الدين لله -تبارك وتعالى- ، فترى دعوات الأنبياء جميعًا كما بين الله ذلك في كتابه؛ أول شيء يبدءون به: إصلاح العقيدة، إصلاح ما أخلُّوا به في باب توحيد العبادة، إذ الشيطان دبَّر أول مكيدة لبني آدم -بعد تدبيره لأبيهم آدم حيث أوقعه في أكل الشجرة- المكيدة الكبيرة التي كاد بها البشر كانت في توحيد العبادة، إذ زيَّن لقوم نوح -عليه الصلاة والسلام- أن يتعلقوا بأشخاص صالحين، وأن يصوروا لهم تماثيل، فصوروا لهم تماثيل، فلما فَنِيَ الجيل الذي يعرف هؤلاء الأشخاص؛ جاءهم الشيطان مرة أخرى وقال: ما نُصبت هذه التماثيل لهؤلاء الصالحين إلا لتُعبَد، واستمر نوح -عليه الصلاة والسلام- يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، كما قص الله ذلك في كتابه العزيز، وكان شرُّ قوم هم قومُ نوح وأظلمَ قوم هم قوم نوح وأطغى قوم هم قوم نوح، ولهذا دعاهم ألف سنة فما آمن معه إلا قليل، كم من الأجيال، كم من القرون قضاها نوح، ألف سنة إلا خمسين عامًا وهم ما ازدادوا إلا عنادًا وكفرًا حتى دعا عليهم فأهلكهم الله -تبارك وتعالى-، وأخرج الله من نوح ذرية مسلمة، ولكن سرعان ما التف عليهم الشيطان وأركسهم في حمأة الشرك بالله ﷻ.

وهكذا كلما يأتي نبي ينقذ اللهُ به مَنْ ينقذ مِنْ بني آدم فلا تمرُّ فترات قصيرة إلا ويأتي الشيطان ويكيدهم نفس المكيدة التي كاد بها قوم نوح، واستمر على هذه المكايد وسيستمر إلى يوم القيامة.

فينبغي لكل من يتصدى للدعوة إلى الله ﷻ أن يجعل هذه الدعوة دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في مواجهة هذه المكايد التي يكيد بها الشيطان بني آدم على طريقة الرسل، واجهْ هذه المكايد، أول شيء تريد أن تبدأ به في إصلاح شعب من الشعوب هو البدء بالتوحيد، سواء الشعوب الإسلامية أو غير الإسلامية عندها انحراف شديد في هذا الباب.

فالداعي المخلص الذي يريد أن يترسم خطى الأنبياء ويريد أن يصلح إصلاحًا صحيحًا فأول ما يبدأ به معالجة هذا الانحراف، فإذا رأيت داعية يسير على خطى لأنبياء ويبدأ بما بدءوا به من الإصلاح؛ فثق أنه على هدى وعلى رشاد، وإذا رأيته حاد يمينًا ويسارًا إلى السياسة وغيرها؛ فهذا يكون موضع ريبة ولا شك، كيف يحيد عن دعوة شرعها الله للأنبياء والتزمها الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ما هو الطاغوت هنا؟ لأن فيه الآن إطلاق الطاغوت على غير الطاغوت الذي يقصده القرآن، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: عبادة الأوثان والشرك بالله ﷻ، فأصلح حطِّم هذه الطواغيت في نفوس أصحابها، وبعد ذلك إذا صلحت عقائد الناس؛ صلحت سائر شئون حياتهم، فإذا رضي المسلم بالله ربًا ومعبودًا لا معبود بحق سواه؛ سوف لا يخضع لقوانين شرق ولا غرب أبدًا لأنه رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا فسيرفض القوانين والتشريعات البشرية.

أما أن تبدأ بالانحراف السياسي - فقط - وتشغل الشباب بهذه الأشياء وتسدل الستار على دعوة الأنبياء؛ هذا خطأ فادح أول ما يصاب به الدعاة أنفسهم، أول ما ينالهم شر هذه الدعوة، فلست - والله - أعلم من الله، ولست أرحم من الله، ولست - والله - أغير من الله، ولا أغير من رسل الله -عليهم الصلاة والسلام- مهما ادعيت.

طريق الإصلاح واضح، الأمة في كل زمان، والأمة الإسلامية من قرون تحتاج إلى الإصلاح العقائدي لأن الفساد العقائدي دبَّ إلى المسلمين من قرون، سواء في الأسماء والصفات التي أظن ما انحرفت فيها الأمم السابقة، وفي توحيد العبادة، إذا رحت تجوب بلاد العالم في أي بلد شئت ترى من الانحراف في عقائد المسلمين وأعمالهم حول القبور ما يخجل منه اليهود والنصارى والوثنيون، كيف نتجاهل كل هذه الأشياء ونذهب نربي الشباب تربية سياسية فقط، والشرك أمامهم، الشرك الذي حاربه الأنبياء وأفنوا حياتهم في محاربته وأهلك الله الأمم لمخالفتهم للأنبياء في هذه المسألة بالذات، ليست من أجل سياسة ولا غيرها، أهلكهم من أجل مخالفة الأنبياء في هذا الباب، فيا شباب الإسلام لا يخدعنكم بريق السياسة

ومطامعها ومغرياتها، عليكم بمنهج الأنبياء.

ولهذا ترى أيَّ مصلح صادق مخلص عَرَفَ الإسلام حق المعرفة أول ما يبدأ بمعالجة هذه الأشياء؛ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ جاء وقد جثمت كوابيس الخرافات والبدع على الأمة الإسلامية شعوبًا وحكومات، فبدأ يعالج هذه الأمور، الانحرافات الشركية والانحرافات في باب أسماء الله وصفاته، بدأ بهذه الأمور.

وجاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ الرجل الثاني والمجدد الثاني حق التجديد بعد ابن تيمية، وانطلق من حيث انطلق الرسل ومن حيث انطلق المصلحون.

الذين يحملون رايات هذه الدعوات ولا يلتزمون هذا الباب؛ ما عرفوا هذا الباب ولا عرفوا قيمته ولا عرفوا خطورة الشرك، بكل صراحة ما عرفوا هذه الأشياء، تربوا في بيئات لا تحفل بالعقائد، وجدوا صراعات سياسية بين الأحزاب فأخرجوا أحزابًا تحمل شعارات إسلامية لا يعرفون دعوة الأنبياء فجاءوا وأطبقوا بسياستهم على شباب بلاد التوحيد، وهم ما عرفوا التوحيد ولا عرفوا الشرك ولا أدركوا مكانة التوحيد ولا خطورة الشرك فمع الأسف انتشرت دعواتهم في بلاد التوحيد على خلاف منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا والله غزو فكري مركز على أبناء التوحيد، ونحن نكافح من سنين لتعود الأمور إلى نصابها، ولكن الشباب مخدوعون -مع الأسف الشديد- وينقادون لمن يركض بهم في ميادين بعيدة عن ميادين الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وعن ميادين المصلحين، فيجب على الشباب أن يفيق وأن يدرك أهمية التوحيد.

والله لا نرى ولاء ولا براء في كثير من الشباب على توحيد الله، وتجد كثيرًا من الشباب يوالي عباد القبور وأعداء التوحيد، ويحارب حملة راية التوحيد، هذا موجود، وما سببه إلا تلاعب هؤلاء الجهلة بعقول شباب التوحيد وأبناء التوحيد، جهلة ما عرفوا توحيد الله ولا عرفوا دعوة الأنبياء، ولا عرفوا مكانة هذه الدعوة، ما عرفوها، وجاءوا في وقتٍ أقام الإنجليز في الدول الغربية وفي بلاد المسلمين أحزابٌ، هذا بعثي، وهذا شيوعي، وهذا علماني، وهذا كذا، فقال السياسيون

الإسلاميون: نقيم أحزابًا سياسية، ويدخلون في صراعات مع الأحزاب هذه ومع الحكومات، كله صراع سياسي، والإسلام، والإسلام، والإسلام، شعارات فقط، وحدوا العلمانية، الشيوعية، البعثية، منبوذة في بلاد المسلمين، قالوا نرفع شعارات إسلامية، فرفعوا شعارات إسلامية لكنها جوفاء، والله جوفاء ميتة، لأنها خالية من الاهتمام بالتوحيد ومحاربة الشرك.

ولهذا ترى منابع هذه الدعوات التي عرت هذه البلاد ملوثة بالشرك، ولم يغيروا في بلدانهم شيئًا، وإلى يومك هذا يموت كبار أساطين هذه الدعوات يموتون على الخرافات والبدع، بل ويذهبون إلى القبور ويقدمون لها النذور ويقدمون لها الزهور ويركعون لهذه القبور، الشرك عندهم لا خطورة فيه أبدًا، والتوحيد هذا لا قيمة له عندهم، بل يرون أنه يُفَرِّق الأمة، كيف ما يعقل أبناء التوحيد هذه المكايد وهذه البلايا التي دهمتهم وفرّقتهم ومزقتهم لأجل دعوات جوفاء، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، لا إله إلا الله، هذه (لا إله إلا الله): لا حاكم إلا الله - عندهم، أخص خصائص الألوهية (لا حاكم إلا الله)، هذا التفسير يجعلك ترى الشرك أمامك كأنك لم تر شيئًا، الشرك الذي يحاربه الأنبياء لا تراه شيئًا، هذا التفسير تحريف لمعنى (لا إله إلا الله)، ثم جعلوه نوعًا رابعًا من أقسام التوحيد، حيلة، ثم بعد أيام يُسْرُبون المعاني الأساسية لـ لا إله إلا الله وتبقى الحاكمية، افهموا المكايد السياسية.

(لا إله إلا الله) معناها: لا معبود بحق إلا الله، ما هي العبادة؟ الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، الذبح، النذر، التوكل، الرجاء، الرغبة، الرهبة، هذه تُصرَف لله وحده لا تصرف لأحد، أما (لا حاكم إلا الله) فلا تدخل في معنى (لا إله إلا الله) أبدًا، لأن ما معنى (لا إله إلا الله)؟ لا معبود بحق إلا الله، عابد ومعبود، الله معبود، والمخلوقون عابدون، فالعبادة: فعل المخلوقين، افهموا هذا، العبادة فعل المخلوقين يتقربون بها إلى الله، يركع، يسجد، يخضع، يبكي، يتوكل، يرجو، يخاف، هذه كلها صفات وأفعال المخلوقين، ليست صفات الخالق، تعالى الله عن ذلك، فإذا قلنا (لا حاكم إلا الله) معناها: لا عابد إلا الله، تعالى الله وتنزه عن ذلك، افهموا، هذا التفسير باطل.

الذي نكب المسلمين هو التفسيرات الفاسدة لـ: لا إله إلا الله، والله نُكِب المسلمون بالتفاسير الباطلة من المتكلمين والفلاسفة وغيرهم، قالوا: (لا إله إلا الله) معناها: لا خالق لا رازق، لا محيي، لا مميت إلا الله، تراه يعبد القبر، يذبح، ينذر، يسجد، يقول لك: يا أخي! أنا لا أعبده، أنا لا أعتقد فيه أنه يضر أو ينفع، لأن الضار النافع هو الله، أنا لا أقول: إنه خالق، لأني أعتقد أن الخالق هو الله، لكن لا يفهم أن أعماله هذه التي يتقرب بها إلى الأموات وغيرهم هي العبادة التي تنافي (لا إله إلا الله)، فهموا (لا إله إلا الله) فهمًا سيئًا خاطئًا بعيدًا كل البعد عن المعنى الأساسي لـ «لا إله إلا الله»، والذي جاء به جميع الأنبياء، فراحوا؛ يذبحون لغير الله، وينذرون لغير الله، ويستغيثون بغير الله، وصنوف الشرك وقعوا فيها، لماذا؟ لجهلهم بمعنى (لا إله إلا الله)، فلما تأتي السياسة - في هذا العصر - وتُضيف معنى جديدًا إلى هذه التفسيرات الفاسدة؛ زاد الناس هلاكًا.

والله لولا بقايا قوة دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب والمنهج السلفي - في هذا البلد - لرأيتَ الآن أهل هذا البلد يسجدون للقبور، لكن هذه حمتهم، ولكنها إلى حين إن لم يُتدارك الأمر، الأمر خطير والمسألة ليست بالسهلة حتى ننام عنها وتدغدغ عواطف من يعبثون بعقول الشباب ونتملقهم ونسكت عنهم بل نؤيدهم ونشجعهم على هذا الانحراف السياسي الذي دهموا به هذه البلاد، بلاد التوحيد.

محمد بن عبد الوهاب وإخوانه وأبناؤه وأنصاره قد بذلوا جماجمهم لتصحيح معنى (لا إله إلا الله)، فتأتي هذه السياسة الجاهلية فتُحبِط هذه الجهود العظيمة وتضع بديلًا لها معانٍ سياسية من أناس ما عرفوا دعوة الأنبياء، بل يحاربونها ويهوِّنون من شأنها، ويَصرفون الناس عنها، لأن أكثر هؤلاء السياسيين خرافيون قبوريون، السياسيون الذين وضعوا هذه الأشياء أكثرهم قبوريون خرافيون أعداء لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، ولهذا خططوا الخطط الخطيرة لنسف هذه الدعوة، والله ركَّزوا على أبناء هذه البلاد، وبذلوا من الجهود والمكايد ما لم يُبذَل مثله في الدنيا كلها، فتجد كثيرًا من أبناء هذه البلاد يُصدِّر هذه الدعوات الفاسدة إلى العالم، ويرصد لها من الأموال ما لو سخّره في سبيل الله لغيَّر واقع كثير وكثير من الخرافيين.

والله لولا هذا الغزو الماكر لرأيتَ العالم الإسلامي على غير الحال التي يعيشها الآن من الذل والهوان، لأن الناس بدءوا يعرفون دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب .

محمد بن عبد الوهاب كاد له الصوفية والروافض وأهل الضلال كلهم، ودول الغرب والشرق، كادوا لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، وأنا لا أستبعد أن هؤلاء الذين غزوا هذه البلاد أن بينهم اتفاقيات لحرب هذه الدعوة، اتفاقيات سياسية، بريطانيا أكبر عدو لدعوة التوحيد، وحاربتها في الهند أكثر من مائة سنة وفي باكستان، وتحاربها ولا تحارب أي دعوة مثل هذه الدعوة، ولهذا ترى رءوس الدعوات السياسية ليس لهم مأوى إلا عند بريطانيا، يخدمونها بمحاربة هذه البلاد، بلاد التوحيد، وتؤويهم لهذه الأهداف السياسية ويضحكون على أبنائنا، ويروجون لهذه الدعوات المجرمة المحاربة لدعوة التوحيد، والتي خططت الخطط وكادت المكايد لسحق دعوة التوحيد .

والله الذي لا إله إلا هو، لقد زرت اليمن قبل ثلاثة عشر أو أربعة عشر سنة، ونُقِل لي عن أحد هؤلاء القراة أنه قال: (لقد سحقنا الدعوة السلفية في عقر دارها)، هكذا جاءوا لسحق الدعوة السلفية في عقر دارها، ويرى أنهم قد نجحوا في تنفيذ خططهم .

فيا أبناء التوحيد! لا يضحك عليكم هؤلاء الخرافيون القبوريون، والله لو آمنوا بالتوحيد وآمنوا بدعوة الأنبياء، وعرفوها حق المعرفة؛ لما بدءوا إلا بها، ولبدءوا بإصلاح شعوبهم، كثير وكثير من شعوبهم غارقون في الشركيات والبدع، وهم يساهمون في تأكيد وترسيخ هذه الخرافات .

اذهب إلى مصر منشأ دعوة الإخوان المسلمين، اذهب لمناسبة عيد ميلاد البدوي، سترى رءوس الإخوان يشاركون في هذه الأعياد الشركية التي يخجل منها اليهود، واذهب لباكستان حيث دعوة المودودي، سترى البلاء وترى الشرك بأصنافه من الوثنيين ومن الخرافيين القبوريين، ومن غيرهم، ولا ترى دعوة المودودي تحرك أي ساكن تجاه هذا الكفر والشرك، وإنما - بارك الله فيك -

تشغل الناس بالسياسة .

ثم إن هذه السياسة تجعلهم يتحالفون مع الشيوعيين، وتجعلهم يؤاخون الروافض، ويؤاخون أصناف أهل الشرك للوصول إلى أهدافهم السياسية، ونحن ما أفقنا، ومرت علينا الصيحات ومرت علينا الدعوات ومرت علينا التنبيهات، فما يزيد كثير منا إلا كبرًا ونفورًا، مغتبطًا بما عند هؤلاء من الخرافات والأباطيل .

اقرأ تفسيرات هؤلاء لـ(لا إله إلا الله)، لا خالق لا رازق لا موجود، لا مهيمن لا مسيطر، زيادة على ذلك: لا حاكم إلا الله، فزادوا الناس بُعدًا عن توحيد الله وعن دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ولهذا يهونون من التوحيد، وتصف ساعة تكفي للتوحيد، وعشر دقائق تكفي للتوحيد، كل هذا من صرف الناس عن التوحيد وللتقليل من أهميته بل لإهانته، ما هذا اللعب ؟ وأكبر داعية إلى هذا الضلال والتحريف السياسي لدعوات الأنبياء -والله- مقدسين، ودعاة التوحيد عملاء وجواسيس، سبحان الله !، دعاة التوحيد عملاء وجواسيس ؟!

الاتهامات الشيوعية والعلمانية التي وُجدت في البلدان الأخرى أيام الاستعمار البريطاني نقلوها إلى بلاد التوحيد، وإلى علماء التوحيد، فعلماء التوحيد جواسيس وعملاء، الدولة كافرة، دولة مسلمة تطبق كتاب الله وسنة الرسول ﷺ جعلوها كافرة، حرب عليها من كل مكان، لو يأتي صدام، لو يأتي الخميني، لو يأتي أي عدو لهذه البلاد يقفون إلى جانبه، كيف ؟ لأنهم جهلوا التوحيد، مساكين ! وما عرفوا قيمة التوحيد.

يا أخي ! التوحيد في مدارسك في الابتدائي في المتوسط في الثانوي في الجامعة في الدراسات العليا، نعمة عظيمة يا أخي، لا يوجد هذا في هذا الوقت في الدنيا كلها، تكريم علماء التوحيد، ماذا تريد يا أخي ؟ يا أخي يوجد أخطاء والله، صحح بلطف، أما أن تجعلهم كفارًا وتحاربهم، والذي ينصحهم ويتصل بهم تجعله عميل وجاسوس، يا الله ! هذا الدمار ورب السماء، وهذه والله مكايد الأعداء، أخذوا أطفالًا مساكين، أخذوهم أطفالًا من أحضان أمهاتهم وغرسوا فيهم هذه الأفكار السيئة القبيحة المشوهة للتوحيد وأهله، والله إننا نعرف أن

هؤلاء الغزاة يأتي المسكين من روسيا أول ما يعلمونه الطعن في العلماء وتكفير حكام هذه البلاد، يأتي لا يعرف توحيدًا ولا أصول الإسلام ولا فروعه، أول ما يغرسون فيه بغض هذه العقيدة وأهلها، كيد، من يعقل الآن هذا الكلام، هناك أناس لا يعقلون هذا الكلام يا إخوة، ادرسوا، تأملوا، ادرسوا دعوة الأنبياء، ادرسوا القرآن .

أنا أكتفي بهذا القدر في توحيد العبادة، وأريدكم أن تقرءوا القرآن، القرآن مليء بتعظيم الله جل جلاله سبحانه وتعالى، وهذا التعظيم كله يقودك إلى ألا تعبد إلا الله، ويقودك إلى أن تعرف معنى (لا إله إلا الله) حق المعرفة، وتحترمه .

هذه الآيات التي يسوقها الله في بيان جلال الله وعظمته وآياته في الكون، كل ذلك يريد منك أن تعبده بتوحيد العبادة، كل هذه الأدلة لإقناع من يحيد عن توحيد العبادة بهذه الأدلة والبراهين، إن توحيد العبادة لابد منه وهذه أدلته وبراهينه، فاقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ثم ساق الأدلة ليبين أن الله هو المعبود الحق وحده، ويجب أن تعبده وحده وساق الأدلة وبيَّن لك النعم التي أفاضها عليك وأسبغها على البشر .

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ هو الذي خلقك، من نطفة ثم من علقة ثم أعطاك السمع والبصر والعقل، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾، يا الله! ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، والله إن عرضت عليهم - على الكفار - يقولون لك: إن الله هو الخالق الرازق، وهذا الكلام كله يعرفونه، لكن كثيرًا منهم عاندوا وأبوا أن يلتزموا توحيد العبادة الذي بُعث به جميع الأنبياء، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾، كم من النعم تترتب على إنزال المطر، حبوب، وثمار، فواكه، تعيش فيها تسرح وتمرح، ثم تذهب تعبد غيره .

الآن المسلم يعيش في هذه النعم ويذهب يخضع للبدوي ويجعل منه ندًا لله، وللرفاعي وعبد القادر وفلان وفلان، تلاقيه يضيف إلى الشرك في العبادة؛ الشرك في الربوبية، فيعتقدون في الأولياء أنهم يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون، هذه

العقيدة ما دارت في ذهن أبي لهب وأبي جهل، كيف دخلت على المسلمين؟ أدخلها الزنادقة، لأنه لا يوجد دين أهان اليهودية وأهان النصرانية وأهان المجوسية وأهان الوثنية كلها مثل الدين الذي جاء به محمد ﷺ، فما حقدوا على ديانة كما حقدوا على الديانة الإسلامية، فشرع المجوس واليهود والزنادقة من اليهود، والزنادقة من النصارى، وغيرهم، يكيدون للإسلام، وأتوا للمسلمين بعقائد وثنية - نعوذ بالله - قد تكون زادت على ما عند الوثنيين، يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون.

وإذا قرأت في ترجمة عبد القادر - عند هؤلاء الضُّلَّال - ؛ تجد أنه أكبر من الله ﷻ، وإذا قرأت في ترجمة البدوي والرفاعي ؛ تجد أنهما أكبر من الله ﷻ - تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - ، من أين جاء هذا ؟ من دسِّ الزنادقة، زنادقة اليهود والنصارى، ولصرف أهل الكلام والفلسفات المسلمين عن معنى (لا إله إلا الله)، وعن معاني التوحيد، راجت هذه الأساطير التي قد يستخف بها اليهود والنصارى، راجت والله في أوساط الخرافيين.

ثم إن مثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، آيات كثيرة في عظمة الله وأنه وحده المستحق للعبادة، لأن كل ما تراه فوقك وتحتك وعن يمينك وعن يسارك، الجبال والسماء والنجوم والكواكب كلها خلقُ اللهِ وتدبيره، وسخر كل هذه الأشياء لخدمتك لتقوم بهذه العبادة التي خلقت من أجلها، كل هذه النعم، ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، الله تعالى يسوق لك هذه الآيات وهذه الدلائل وهذه البراهين وتبقى تتخبط في ظلمات الجهل، ويأتي أي ملحد أو زنديق أو أي سياسي ماكر يصرفك عن دعوة التوحيد فتركض وراءه.

تأملوا القرآن يا إخوة ! وتدبروه، القرآن ينمي الإيمان، والقرآن ينمي التوحيد، والقرآن - إذا فهمته - صرت من أتباع الرسل في دينهم وعقيدتهم ومنهجهم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، الدين: التوحيد، أقيموا هذا التوحيد، إذا أقمت التوحيد؛ استقام لك كل شيء، وإذا حترمت التوحيد واليت عليه وعاديت عليه؛ استقام لك كل شيء، لا تضعه في سلة المهملات وتوالي وتعادي على غيره.

أنا أعرف أن كثيرًا من الناس عرفوا التوحيد لكن معرفة هامشية، يضعه في سلة المهملات ويذهب يوالي ويعادي على غيره، لا، الولاء والبراء على التوحيد، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]

لا يحصل هذا الشيء لمن يستهين بالتوحيد ويحتقره ويوالي ويعادي على أفكار سياسية منحرفة، هذا الوصف ليس لهؤلاء، الذي يؤمن بالتوحيد حق الإيمان، ويحترم التوحيد، ومن أجل احترامه يوالي ويعادي من أجل هذا التوحيد، والله الولاء والبراء - الآن - ليس على التوحيد عند كثير من الناس، الولاء والبراء ليس من أجل العقيدة، الولاء والبراء من أجل فلان وفلان، فلان وفلان من أضل الناس في دين الله وفي معنى (لا إله إلا الله)، يوالون من أجل فلان وعلّان، ليس من أجل الله، ليس من أجل توحيد الله، ليس من أجل منهج الرسل، ليس من أجل القرآن، ولكن من أجل فلان وفلان، هذا بلاء، هذه داهية دهت الأمة.

يا شباب هذه البلاد ويا شباب المسلمين في كل مكان اعرفوا دعوة الرسل ومنهج الرسل، اعرفوا منهج الرسل، واعلموا أن المسألة ليست اختيارية، واجب حتمي على كل من يدعو إلى الله بصدق أن يبدأ بالدعوة إلى التوحيد، والدليل: أن الله شرع هذا المنهج لجميع الأنبياء وسار عليه الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ومحمد

ﷺ بدأ بالتوحيد، ثلاث عشرة سنة لم يدع إلى التشريعات الأخرى، لم تشرع الصلاة أهم أركان الإسلام- قبيل الهجرة، ولم تُشرع الزكاة إلا في العهد المدني لأهمية التوحيد ولأنه الأصل، والرسول ﷺ ما تزحزح عنه شعرة واحدة، ويأتون ويطلبون منه أي مطلب، يريد ملكًا يعطوه، يريد أجمل فتاة في قريش يزوجوه، يريد المال يعطوه؛ وهو يقول: لا أريد منكم إلا هذا، ويبايع الناس على هذا ويجاهد على هذا -أي: التوحيد-.

رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ»، ليس معنى (لا إله إلا الله) لا حاكم إلا الله؟! بل لا معبود بحق إلا الله، بل كان رسول الله ﷺ يركز على شهادة أن لا إله إلا الله

حتى لما جاءت فتنة الردة، ما وجد عمر ما يستشهد به في صرف أبي بكر عن قتالهم إلا قوله: كيف نقاتل قومًا يقولون (لا إله إلا الله)، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»، كان أبو بكر ما يحفظ إلا هذا من كثرة ترداده عليه الصلاة والسلام، وتركيزه على دعوة التوحيد، ثم سمع عمر وسمع أبو هريرة وسمع جابر ﵁ تكملة الحديث، الصلاة والزكاة وغيرها، أما أبو بكر وعمر فما سمعاها، والله لو سمعاها لما اعترض عمر على أبي بكر، ولأجابه أبو بكر ببقية الحديث - رضي الله عنهم جميعًا - ، وهذا من الأدلة على أن الفاضل العالم الكبير قد يفوته ما يعلمه من هو دونه بمراحل، هذا موجود - بارك الله فيكم .

من الآيات التي تدل على تعظيم الله -تبارك وتعالى-، كل شيء يعظم الله، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩﴾ [الحج: ١٨]، كل شيء خاضع لله، كل شيء يسبح الله راضيًا أو غير راض، الكافر رغم أنفه خاضع لله -تبارك وتعالى-، يخلقه كما يشاء، يجعله فقيرًا، يجعله غنيًا، يمرضه، يشفيه، يهلكه، يفعل به ما يشاء، فهو من هذه الناحية خاضع

لله مصدق لله ﷺ شاء أم أبى، الجمادات، الأشجار، الدواب، هذا يدل على عظمة الله -تبارك وتعالى-، فكل شيء يعظم الله.

يا أخي عظِّم الله، وتعظيمه بتوحيده وإخلاص الدين لله الذي بعث به جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

مما يرسخ عقيدة التوحيد أن نعرف أسماء الله وصفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣-٢٤].

هذه الأمور من الأسماء والصفات؛ مما نُكب فيه كثير من الناس، لمكايد الفلاسفة، ومكايد من تأثر بهم من الجهمية وغيرهم من المعتزلة وغيرهم، نكبوا في هذا الباب، فأنكروا أن الله استوى على العرش، وأنكروا أسماء الله، والجهمية أنكروا هذه الأسماء، والمعتزلة أنكروا الصفات، وإنكار علو الله، واستوائه على عرشه؛ أدى بهم إلى عقيدة الحلول ووحدة الوجود، لأنهم ينزهون الله عن أن يكون فوق الكون فوق المخلوقات، ويقولون: إنه في كل مكان، ويقولون: لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار، ولا داخل العالم ولا خارجه ولا، ولا، فإما يجعلونه معدومًا، وإما يجعلونه حالًا في كل شيء، وهذا نهاية التنقص لله رب العالمين، فيزعمون للناس وللبغاوات من أتباعهم أنهم ينزهون الله، لماذا؟ يقولون: لأننا إذا أثبتنا أنه فوق العرش؛ أثبتنا له الجسمية، ويقولون: لأن الاستواء يلزم أن يكون لله جسمًا، ويستلزم -عندهم- أن الله تعالى إما أن يكون أكبر من العرش أو دونه أو فوقه... إلخ، كلام فارغ، يعني ينفون عن الله التجسيم فيقعون في التعطيل.

أهل السنة يقولون: استواء يليق بجلاله ليس كاستواء المخلوقين، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهذه الآية أخذ منها أهل السنة الذين هداهم الله لما اختلف فيه الناس، أخذوا

منها ومثيلاتها قاعدة في الإيمان بأسماء الله وصفاته وأفعاله ﷻ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته، فنزّهوه عن مشابهة المخلوقات، وأثبتوا له ما أثبته لنفسه -جل وعلا- من الأسماء والصفات والأفعال مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات، فالآية تقول: أثبتوا الأسماء لله ﷻ والصفات مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وانفوا عنه التشبيه بناءً على قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾

فضلّت المشبهة وقالوا: إن الله له أسماء كأسمائنا، وبصر كأبصارنا، واستواء كاستوائنا . . . إلخ، وجاءت المعطلة ونفوا عن الله تبارك وتعالى مماثلة المخلوقين، وأغرقوا في ذلك حتى أدى بهم هذا الإغراق إلى نفي أسماء الله وصفاته .

وبعضهم ينفي الصفات، ولا ينفي الأسماء، وبعضهم يثبت الأسماء ويثبت بعض الصفات وينفي الباقي كالأشعرية .

والمهم أن الغزو الفكري جاء مبكرًا من أعداء الإسلام، الآن الناس يتصورون أن الغزو الفكري جاءنا في هذا العصر، لماذا ؟ لأنهم لم يستنكروا الخرافات والبدع وتعطيل الصفات، لا يرونها منكرًا لأن هذه عقائدهم فتصوروا أن الغزو الفكري بدأ في هذا العصر، مساكين ! ، وجاءوا يغزون بلاد التوحيد بخرافاتهم وبدعهم، والغزو الفكري بدأ من قبل أيام المأمون، أيام الجهم بن صفوان، من ذلك الوقت بدأت المكايد للإسلام، واتجه الكيد إلى صميم الإسلام، أولًا : إلى تعطيل الأسماء والصفات وإنكار بعض العقائد . . إلخ، وأخيرًا : على أيدي الصوفية إلى توحيد العبادة، فهذه الأمور أدت إلى تعطيل أسماء الله وصفاته وكثير من العقائد ثم أدى في النهاية كلام المتكلمين وتحريفاتهم لـ(لا إله إلا الله)، وتأثر الصوفية بذلك ؛ أدى إلى فساد عريض وهو الوقوع في الشرك.

والله نذهب إلى بعض البلدان ترى مدنًا تشاد على القبور ما كان الجاهليون يعرفونها، مدن تشاد على القبور، وتذهب بعض البلدان؛ فترى مدنًا، وترى الأشجار تعلق فيها الخرق يعتقدون فيها البركات، وترى قبور الكلاب والحمير

والحيوانات تعبد من دون الله، جناية عظيمة، والدعوات السياسية – والله – ترى هذه الأشياء وتقرها، فتذهب بعيدًا بعيدًا عن دعوة الأنبياء ومنهجهم، وعن دعوة التوحيد الذي هو محور الرسالات كلها، يذهبون بعيدًا بعيدًا إلى صراعات سياسية باسم الإسلام.

نحن نقول هذا لا نطعن في الناس، نريد أن نبصّر المخدوعين بهذه الشعارات التي تهلك المسلمين، ولا تغني عنهم شيئًا، والله إن هذه الشعارات لا تزيد المسلمين إلا بلايا، ولا تزيدهم عند الله إلا ذلًا وهوانًا، حتى يعودوا إلى منهج الأنبياء، وإلى عقيدة التوحيد فيصححونها في مدارسهم وجامعاتهم وفي بيوتهم وفي عقولهم وقلوبهم، إذا صححوا هذه العقائد، وصححوا الأعمال القائمة عليها؛ فليبشروا بالنصر، وليبشروا بالسعادة في الدنيا والآخرة، وإذا أبوا إلا التمسك بهذه الشعارات الفاسدة؛ والله ما تزداد الأمة إلا ذلًا وهوانًا!

انظروا هذا التصرف مع أعداء الإسلام، وانظروا إلى مواقف المسلمين – لا حول لهم ولا قوة – هم الآن يتجاوزون المليار لكن غثاء كغثاء السيل – إلا من وفّق الله – لماذا؟ لأنهم ضيعوا – والله – التوحيد، فلا يبالي الله في أي وادٍ هلكوا، سلط عليهم أذل الناس: اليهود والهندوك وأمثالهم من النصارى، اليهود ضُربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثُقِفوا، الآن يطئون بأقدامهم على رءوس المسلمين، والهندوك أذل منهم، والله يهينون المسلمين، إيش الخلاص؟ الرجوع إلى التوحيد.

كيف ينصركم الله؛ والأوثان عندكم أكثر من الأوثان عند النصارى واليهود؟!

كيف ينصركم الله؛ وكثير منكم يعتقدون في الأولياء أنهم يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون؟!

وتخضعون للضعفاء الفقراء الذين لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، والله لا يملكون لأنفسهم شيئًا.

وإذا كان رسول الله ﷺ يقول الله له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ماذا تريد بعد هذا؟ هذا الكلام حق أو باطل؟ لسان حال هؤلاء

القبوريين يقول: لا، هذا الكلام ليس بصحيح - وإن كانوا لا يكذبونه لفظًا - لكن واقعهم أنهم لا يقبلون هذا الكلام، لا بل يقولون: الأولياء يضرون وينفعون، والرسول يضر وينفع، إذن يا أخي أنت تعاند القرآن إذا كانت هذه عقيدتك، إذا كنت تعتقد هذا؛ والله كفر هذا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]، ماذا تريد؟ لا يملك لنفسه، ولا يملك لغيره وسته وغيرها قال لهم: لا أغني عنكم من الله شيئًا، قال: «يا بني عبد مناف يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[1]، ماذا تريد بعد هذا؟!

أمر الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ويقول: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٥]، هذه مهمتي، الله أوحى إلي القرآن وبلغته، أبشر المؤمنين بالجنة وأحذر الكافرين من النار، هذا الذي أملكه والذي أقدر عليه، أما ضر ونفع وإسعاد وإشقاء وهداية وإضلال فكلها لله رب العالمين، أما إني أعلم الغيب، لا، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: من ١٨٨]، ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ماذا تريد بعد هذا البيان؟ ما فائدة هذا البيان للمسلمين؟!

اليوم يأتي دعاة السوء ودعاة الفتن يضربون صفحًا عن هذا التوحيد وأدلته، يضربون صفحًا والله، التوحيد يُفرّق - في نظرهم -، يقولون بلسان حالهم أو مقالهم: إذا نادينا إلى التوحيد من يأتي معنا؟ نحن نريد أن نصل إلى الكراسي بسرعة، فإذا قلنا التوحيد التوحيد؛ ذهب الناس عنا، ما نَصِل، نريد أن نُجمِّع الناس، الرافضي أخونا، النصراني أخونا، والخرافي القبوري أخونا، كلهم إخواننا حتى

---

(١) رواه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٤٧٧١)، ومسلم في الإيمان، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٢٠٦)، وغيرهما.

نصل بسرعة، طيب وصلوا بسرعة ماذا فعلوا ؟ وحدة أديان، ومؤتمر وحدة أديان، وغيرها، هذا يكفيكم، أنه لما وصل جماعة من أهل هذه الدعوات إلى الكراسي ؛ أداروا ظهورهم لما كانوا يُمَنُّون به الناس، لا يعطونك شريعة، ولا عقيدة، بل تشاد الكنائس، وتشاد القبور، وعقد مؤتمرات وحدة الأديان، وهؤلاء السياسيون يتجمعون من العالم ومن كل الدنيا، ويشاركون في مؤتمرات وحدة الأديان، هذا دليل على أن الدعوات هذه فاسدة من أسسها ومقاصدها وأهدافها كلها سيئة، فإذا وصلت إلى ما تريد أدارت ظهورها للشعارات الإسلامية التي ينادون بها .

هذه أمثلة مشاهدة ملموسة، والله أبناء التوحيد عندنا لا ينكرون هذه الأشياء، لماذا ؟ لأنهم غيروا عقولهم، أنا لم أسمع كلمة إنكار لمثل هذه الأوضاع، تكررت مثل هذه المهازل في عدد من البلدان ولا تسمع نكيرًا من هؤلاء السياسيين الذين مُنوا أصيبوا في دينهم، أصيبوا في مقاتلهم على أيدي هذه الدعوات السياسية، فأصبحوا لا ينكرون على هذه الدعوات السياسية شيئًا، ولو دعتْ إلى وحدة الأديان، ولو شادت الكنائس، ولو شادت القبور، ولو، ولو، فهذه عبرة، الصادق المخلص في دينه إذا انخدع ثم تبين له أن الذي يقوده يقوده إلى المهالك ؛ يرفضه ويمشي في طريق الإسلام، أما أنك تستمر تصفق له وتتستر عليه وتدافع عنه هذا غلط .

فهذه الدعوات - غير دعوات الأنبياء - التي لا تقول: التوحيد أولًا، بل تقول: السياسة أولًا، الاقتصاد أولًا، التصوف أولًا، الخرافات أولًا، هذه لا قيمة لها ولا ينال المسلمون ولا يجنون من هذه الدعوات إلا الموت والهلاك والضياع، فالحياة الطيبة والحياة السعيدة في الدنيا والآخرة متوقفة على التوحيد، على تحقيق معنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، والله ينصرنا الله ويُعزنا ويكرمنا في الدنيا والآخرة، وإن أبينا إلا المضي في طريق رسمه لنا منحرفون قبوريون خرافيون ؛ فوالله ما ننتظر من الله إلا الهوان والذل، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨] .

أكتفي بهذا القدر، وأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يهيئ للمسلمين دعاة صادقين مخلصين يحترمون دعوة الأنبياء ويدعون إليها ويبذلون النفس والنفيس والغالي والرخيص في رفع كلمة (لا إله إلا الله) إلى درجة القتال دونها .

أسأل الله أن يهيئ دعاة يعرفون منهج الأنبياء ويعرفون معنى (لا إله إلا الله) لينفع الله بهم المسلمين، ويرفع بهم شأن المسلمين، ويعيد بهم المسلمين إلى سابق مجدهم الذي أعزهم الله وأكرمهم ورفعهم وجعلهم سادة الدنيا وسادة الأمم وخير أمة أخرجت للناس، وما نالوا ذلك إلا بتحقيق (لا إله إلا الله محمد رسول الله) يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

حق الله على العباد



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدهِ اللّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللّه وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلُّ محدثةٍ بدعة وكلُّ بدعةٍ ضلالة وكلَّ ضلالةٍ في النار.

أيها الإخوة والأبناء إنها لفرصة طيبة مباركة أن نلتقي بإخواننا وأبنائنا في بيت الله تبارك وتعالى - وفي طلب مرضاته ﷻ وفي التعرف على ما يتيسر لنا من العلم فيما يتعلق بحق الله - تبارك وتعالى - وحقِّ المسلمين، وهذه أمورٌ عظيمةٌ جدًا في الإسلام، لا بدَّ للمسلم أن يعرفها ويقف عند حدود الله فيها، فيجب علينا معرفة الله -تبارك وتعالى- بأسمائه وصفاته العُلا؛ كما دلَّ على ذلك كتابُ اللّه وسنةُ رسوله ﷺ؛ فللّه أسماء يجب أن نؤمن بها، ولله صفات يجب أن نؤمن بها، ولله حقوقٌ من عبادته وحده، وإخلاص الدِّين له، من صلاة وصيام وصدقة وبر ودعاء وخوف ورجاء وتوكل، هذه بعض حقوق لله - تبارك وتعالى - التي يجب أن نعرفها حقَّ المعرفة في ضوء كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعلى طريقة المؤمنين الذين لا يجوز للمسلمين أفرادًا وجماعات أن يحيدوا عن طريقهم في هذا الباب وفي غيره من أبواب العقائد والأحكام

هذه أمور ليست بالسهلة ولا ينبغي للإنسان أن يتهاون فيها؛ لأنَّ لله ما خلقه إلا ليعرف ربَّه ويعرف حقَّه ويعبده حقَّ عبادته ﷻ؛ فالله يقول ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وحينما كان رسول الله ﷺ يبعث رُسُلَه وأمراءه وقُوَّادَ جيوشه كان يأمرهم بالدَّعوة إلى الله -تبارك وتعالى- وإلى معرفة الله ﷻ وإلى معرفة دينه الحق؛ فلمَّا بَعَثَ مُعاذًا إلى اليمن قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وفي رواية: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَعْرِفُوا اللهَ -تبارك وتعالى-» والشهادة لله بالوحدانية وبالألوهية لا تأتي إلا بعد معرفته؛ فلا خلاف بين الرِّوايتين «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[1].

فهذا الحديث فيه طلب معرفة الله -تبارك وتعالى- بأسمائه وصفاته؛ فمعرفة الله بجلاله وعظمته وأنَّه ربُّ هذا الكون وسيِّده ومالكه، وأنَّه على عرشه استوى كما أخبر بذلك في آيات كثيرة، وأنَّه في السَّماء، وأنَّه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وأنَّه كان معراج رسول الله ﷺ إلى ربِّه -تبارك وتعالى- إلى السَّموات العُلا، ومرَّ في هذه اللَّيلة على الأنبياء، في كلِّ سماء نبي أو نبيان حتى وصل ﷺ إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وكلَّمه ربُّه ﷻ وفرض عليه الصَّلوات الخمس، فرضها أولًا خمسين، ثم نزل إلى موسى ﷺ فسأله ماذا افترض الله على أُمَّتك؟ قال: «افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ فَعَجَزُوا أَوْ نَكَلُوا، فَرَاجِعْ رَبَّكَ وَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ» فما زال يُراجعُ رَبَّهُ -تبارك وتعالى- مَرَّاتٍ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ وَيَنْزِلُ إِلَى مُوسَى حَتَّى تَحَوَّلَتْ الْخَمْسِينَ إِلَى خَمْسٍ- ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى: رَاجِعْ

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ٣٥٧رقم١٤٩٦ - فتح) ومسلم في الصحيح (١/ ٢٧٢رقم١٩ - نووي) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

رَبِّكَ، قَالَ: إِنِّي اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: هُنَّ خَمْسٌ وَهُنَّ خَمْسُونَ فِي الأَجْرِ»[1].

فهذه من الأمور التي يجب أن يعرفها المسلم؛ يعرف جملتها، وعلى طلاب العلم أن يعرفوا تفاصيلها؛ فإنَّ هناك أمورًا محتمة ومتعيِّنة على كلِّ فرد أن يعرفها

فمن الأمور المتعيِّنة على كلِّ شخص: هي الشهادة لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرِّسالة، والإيمان بالله وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وأنَّ هناك خمس صلواتٍ مكتوبة يجب أن يتعلم المسلم ما تصح به الصلاة وما يفسدها، وأنَّ هناك زكاة واجبة على المسلمين؛ فإذا كان ذا مالٍ؛ فيجب أن يعرف تفاصيل هذه الزَّكاة، وأنَّه يجب عليه الحج؛ فإذا تعيَّن عليه الحج وتوفَّرت شروط الوجوب فعليه أن يعرف تفاصيل الحج وما يصح به وما يفسده، وكذا يعرف من المحرَّمات، مثل تحريم الخمر، وتحريم الخنزير، وتحريم الرِّبا، وتحريم الزِّنا، وأكل مال اليتيم بالباطل، وما شاكل ذلك من الأمور التي يتعيَّن على كلِّ مسلم حُرًّا كان أو عبدًا ذكرًا كان أو أنثى، عليه أن يعرف هذه الأمور في جملتها، ويعرف من تفاصيلها ما يتعيَّن عليه معرفته.

ثم يجب أن يكون هناك من طلَّاب العلم من يعرفون فروض الكفايات والتفاصيل في العقائد الغيبية وفي الشَّرائع وفي الحلال والحرام يتعيَّن معرفتها على العلماء وطلَّاب العلم، وينبغي لكلِّ مسلم أن يُعِدَّ نفسه لأن يكون من طلَّاب العلم؛ ليعرف الله ويعرف دينه ويعرف رسوله ويعرف شرائع الإسلام ثم يدعو إليها، هذا أمر لا بدَّ منه وأن يكون في المسلمين من يقوم به.

فينبغي لكلِّ من تتوفر فيه الكفاءة أن يُرَشِّحَ نفسه أن يكون ممن يقوم بهذه الفرائض، فرائض الكفاية؛ فيؤديها للمسلمين ويؤديها عن المسلمين؛ فإذا توفر العدد الكافي للنُّهوض بهذا الواجب لم يبق على سائر المسلمين إلا معرفة ما يتعيَّن عليهم معرفته، يجب على العامي وسائر أفراد المسلمين أن يعرفوا ما أوجبه الله

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٤٥٨،رقم٣٤٩ - فتح) ومسلم في الصحيح (٢/ ٢٨٤،رقم١٦٣ - نووي) من حديث أبي ذر وأنس بن مالك رضي الله عنهما.

عليهم من فروض الأعيان، ثم بعد ذلك الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والبر بالمؤمنين واحترام أموالهم وأنفسهم وأعراضهم.

فإنَّ كثيرًا من النَّاس يتساهلون في هذه الأمور، في حقوق الله -تبارك وتعالى- وفي حقوق المسلمين ولاسيما في هذه الأيام، كثر الظلم وانتهاك الأعراض ظلمًا ونهبًا وعدوانًا أعراض المؤمنين الأبرياء، وخاصَّة من يدعون إلى منهج الله الحق وإلى منهج السلف الصالح يدعون إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ فيتصدى لهم أهل الأهواء وأهل الفتن بالطَّعن والتشويه على طريقة أعداء الأنبياء؛ فإنَّ هذه الأصناف تؤذي ورثة الأنبياء الدُّعاة إلى دين الله وشرعه، فيجب أن يرجع هؤلاء إلى الله، وأن يتوبوا إلى الله، وأن يُدركوا أنهم وقعوا في وادٍ من أودية الهلاك - والعياذ بالله - حيث يصدُّون عن سبيل الله الحق بتصرفاتهم هذه ومواقفهم التي تصدُّ عباد الله عن دين الله، وعن شريعة الله، وعن منهج الله الحق، ويجب على هؤلاء أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يقفوا بين يدي الله -تبارك وتعالى-؛ فيحاسبهم الحساب الشَّديد، وليعرفوا أنَّه ما من كلمة يقولونها إلا وهي مُسجَّلة في صحائف سيئاتهم السَّوداء، ما من كلمة باطل يقولونها للصدِّ عن سبيل الله وتشويه أوليائه والدعاة إلى منهجه إلَّا سوف يحاسبهم الله -تبارك وتعالى- عليها وسوف يوفيهم جزاءهم إلا أن يتوبوا إلى الله وينيبوا إليه ويُكَفِّروا عن هذا الأمر الذي وقعوا فيه وأوقعوا فيه كثيرًا من النَّاس.

قال الرسول ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لها بَالًا يرفع الله بها دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لها بَالًا يهوي بها في جَهَنَّمَ»[1].

فيجب أن يَتَحَرَّى الكلام الذي يرفعه عند الله درجات، ويبتعد عن الكلام والأقوال والشَّائعات الظالمة التي تهوي به في جهنَّم إلى دركات ودركات - والعياذ بالله -.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١١/ ٣٠٨، رقم ٦٤٧٦ - ٦٤٧٧ - فتح) ومسلم في الصحيح (١٨/ ١٥٨ رقم ٢٩٨٨ - نووي)

قال الله ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال النبي ﷺ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[1]، فنعوذ بالله ونعوذ بالله من هذا المصير؛ أن نحصد شرور ما تجنيه ألسنتنا.

فقيِّد لسانك بتقوى الله -تبارك وتعالى- ومراقبة الله، واستشعر أنك ما يخطر في قلبك من باطل وشر إلا ورب مُطّلع عليه ﷻ ولا يتحرك لسانك بشرٍ وباطل إلا والله مراقبك والملائكة يكتبون ذلك عنك ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٤].

ويقول الرسول الكريم ﷺ: «عَلَامَةُ المنَافِقِ أَرْبَعٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[2]، هذه من علامات المنافق «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» كأن تكون بينك وبينه خصومة في أمر دنيوي أو أمر ديني فيذهب يفتري الأكاذيب الظالمة وينهش أعراض الأبرياء الذين يخاصمونه، ويشيع هذا في أرجاء الأرض ويذهب كثيرٌ من الناس يردِّد هذا الباطل ويحارب الحق ويخاصم - والعياذ بالله - في باطل، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ -تبارك وتعالى- حَتَّى يَنْزِعَ مما قال، وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللهُ رَدْغَةَ الخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مما قَالَ»[3].

---

(١) صحيح لغيره.
أخرجه الطيالسي في المسند (٧٦رقم٥٦٠) وعبد الرزاق في التفسير (٣/ ١٠٩) وأحمد في المسند (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧) والترمذي في السنن (٥/ ١١رقم٢٦١٦) والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٢٨رقم١١٣٩٤) وابن ماجه في السنن (٤/ ٣٤٢رقم٣٩٧٣) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٧) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».
والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٦٥٦رقم٣٩٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٨٩رقم٣٤ - فتح) ومسلم في الصحيح (٢/ ٦١رقم٥٨ - نووي) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) صحيح لغيره.
أخرجه ابن فضيل في الدعاء (٢٦٩رقم٩٣) وأحمد في المسند (٢/ ٨٢) وأبو داود في السنن (٣/ ٣٠٥رقم٣٥٩٧) والطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٣٠٩رقم٦٤٩١) والمعجم الكبير (١٢/ ٣٨٨رقم١٣٤٣٥)=

هذه أمور عظيمة جدًّا، خصوصًا إذا كانت الخصومة في دين الله، في الصّراع بين الحق والباطل وفي الصّراع بين المناهج الصحيحة والمناهج الفاسدة وفي الصّراع بين العقائد الصحيحة والعقائد الفاسدة، فما يكتفي الإنسان بفساد منهجه وفساد عقيدته ويقف عند هذا الحد الخطير، بل يتجاوز ذلك إلى مخاصمة الحق بالباطل -والعياذ بالله-، فهذا يسكنه الله -تبارك وتعالى- في ردغة الخبال، وردغة الخبال كما فسّرها رسول الله ﷺ: «هي صديد أهل النار»، لعل هذه المنطقة التي يسكن فيها المخاصم في الباطل، والمتقوّل على الأبرياء ما ليس فيهم هي أخسُّ زوايا جهنم وأقذرها وأنتنها وأخبثها - والعياذ بالله - إن لم ينزع عمّا قال ويتوب إلى الله.

فلينظر المسلم فإنه إذا خاصم أهل الحق فإنما يخاصم الله -تبارك وتعالى- إنما يحارب الله -تبارك وتعالى- ويحارب دينه ﷻ ولن ينفعه أهل الباطل إذا انتصر لهم بالأكاذيب والشّائعات والافتراءات، لن يغنوا عنه من الله شيئًا، وسوف يتبرأ بعضهم من بعض، وسيصبح بعضهم يلعن بعضًا، كما قال ﷻ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، المتّقي هو الذي يلتزم أوامر الله، ويجتنب نواهيه ويحفظ قلبه ولسانه وجوارحه من كلّ ما يغضب الله ومن كلّ ما يسخط الله، ويُلزم قلبه ومشاعره وجوارحه كلّ ما يرضي الله -تبارك وتعالى-.

فعلينا أيها الإخوة أن نتحرى مرضاة الله -تبارك وتعالى-، وأن نتجنّب مساخطه في عقائدنا ومناهجنا وعباداتنا وأعمالنا وأقوالنا، ونخلص الدين لله -تبارك وتعالى- كما أمرنا الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ما أُمروا إلا بهذا، وما أُمروا بالأكاذيب والأباطيل والافتراءات - والعياذ بالله -، بل نهاهم الله أشدّ النهي وتوعدهم أشدّ الوعيد على الباطل وارتكاب الباطل في الأقوال والأفعال والتصرّفات.

= وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢١٩) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٨٢) من حديث عبد الله بن عمر ﵄.

قال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٢/ ٧٩٨ رقم٤٣٧).

فلنتحرَّ مرضاة الله -تبارك وتعالى- ولنخلص لله ديننا بأن نُمحِّص عقائدنا من شوائب الأباطيل والخرافات والبدع والكهانة والسحر والالتفاف حول السحرة والكهنة والمشعوذين؛ بل نلتفُّ حول أهل الحق ونطلب منهم دين الله الحق، ونتعلم منهم العقائد الحقة الصحيحة الصادقة المستمدَّة من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ، ونخلص لله في أقوالنا ونخلص لله في أعمالنا، ونخلص لله في سائر تصرُّفاتنا؛ فإنَّنا عباد الله، وما خُلقنا إلا لعبادة الله، وما أُمرنا إلا بإخلاص الدِّين لله؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة ٥] يعني مائلين عن الباطل وعن الشِّرك إلى الحق إلى مرضاة الله -تبارك وتعالى ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

إقامة الصَّلاة وما أدراكم ما إقامة الصَّلاة! فإنَّ المؤمن الحق إذا وقف في الصَّلاة ترتعد فرائصه خوفًا من الله -تبارك وتعالى-؛ فإنَّه في موقف رهيب بين يدي جبَّار السَّموات والأرض وهو يناجي الله -تبارك وتعالى-، فليخشع لله -تبارك وتعالى-، وهذه الصَّلاة مليئة بتوحيد الله -تبارك وتعالى- أركانها كلها قائمة على توحيد الله ﷻ؛ حينما تدخل في الصَّلاة تقول: «الله أكبر» تُوَحِّد الله -تبارك وتعالى- وتعترف بعظمته وجلاله وأنَّ كلَّ شيء يتضاءل ويتلاشى أمام عظمة الله وكبريائه ﷻ، وحينما تقرأ أمَّ القرآن المشتملة على توحيد الله، هذه الفاتحة مشتملة على توحيد الأسماء والصِّفات وعلى توحيد العبادة وعلى ذكر الجنة وأهلها والنار وأهلها، لا يُدرك ذلك إلَّا الفقهاء الذين يفقهون دين الله.

فإنَّ قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة ٤] هذا جمع كلَّ أنواع التوحيد ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، لا نعبد إلا إيَّاك ولا نخلص الدين إلا لك لا نصلي ولا نصوم لا نزكي ولا ندعوا لا نتوكل ولا نستغيث إلا بك ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ في أمور ديننا ودنيانا كلها؛ فلا حول لنا ولا قوة إلا بك؛ فهذا توحيد بل التوحيد كله مداره على قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة ٤] ولهذا يقال لهذه السُّورة أمّ القرآن لأنها جمعت حقائق التوحيد والأحكام والحلال والحرام والجنة والنار ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة ٦ - ٧]، فيه براءة من اليهود وفيه براءة من النَّصارى

وفيه براءة من كل أهل الشرك وأهل الضلال وأهل البدع والخرافات، فيه تولي أولياء الله -تبارك وتعالى- والدعوة إلى أن يسلكنا الله -تبارك وتعالى- في صراطه المستقيم وفي سبيلهم الواضح.

ثم تقول: «الله أكبر» وتهوي إلى الركوع تعظمه ﷻ «سبحان ربي العظيم» هذا توحيد وتصوُّر عظمة الله -تبارك وتعالى- وأنَّ الكون كلَّه تحت قهره وخاضع لتدبيره وتنظيمه، وكلُّ من في السموات والأرض يخشعون له ويَذِلُّون أمامه؛ كما قال ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم ٩٣ - ٩٥].

وأمورٌ عظيمةٌ إذا سجد؛ قال النبيُّ ﷺ «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[1]، حينما تكون في هذه الصَّلاة قائمًا وراكعًا فأنت قريب من الله -تبارك وتعالى-؛ لأنك تتصوَّر أنَّ الله يراك، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك وهذا مقام الإحسان؛ فأنت في هذه الصلاة قريبٌ من الله تناجيه لكنَّك أقرب ما تكون من الله -تبارك وتعالى- حينما تكون في السُّجود وتقول: «سبحان ربي الأعلى وبحمده»، وهذا قرب للرُّوح من الله -ﷻ-؛ فالله فوق سمواته مستوٍ على عرشه، وأنت في الأرض ساجدٌ لله يقرب روحك، لأنك تتصوَّر عظمة الله وجلاله وتخشع له وتذل له وأنت حينئذٍ في غاية الذُّل وغاية الخشوع لعظمته وجلاله.

فأنت إذن في حال أنت فيها أقرب إلى الله -تبارك وتعالى- من كلِّ الأحوال سواء كنت في داخل الصَّلاة أو في خارجها.

فليتصوَّر المسلم في صلته بالله وفي صلاته وفي ذكره لله يتصور أنَّ الله يراه، ويعبد الله كأنَّ الله يراه؛ لأنه إذا استصحب هذا المقام؛ مقام مراقبة الله -تبارك وتعالى- خشع لله، وصحَّت صلاته، وتمَّت صلاته أركانها وشروطها وواجباتها على أكمل الوجوه؛ ولهذا يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون ١ - ٣]، إلى أن يقول: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٤/٢٦٦ رقم ٤٨٢ - نووي) من حديث أبي هريرة ﷺ.

هذا أمر عظيم ندرك أهمية العقيدة وأهمية التوحيد وأهمية الصَّلاة التي هي الرُّكن الثاني بعد الشَّهادتين؛ لأنَّ جبريل ﷺ جاء إلى الرَّسول ﷺ يسأله ليُعلِّمَ النَّاس دينهم، فجبريل ﷺ سأل أسئلة عظيمة، وأجاب عليها رسولُ الله ﷺ إجابةً عظيمةً استوفت أمورَ الدِّين وهو الحديث المشهور بحديث عمر بن الخطاب ﷺ في الصَّحيح أنَّه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ»[1]، وهذه جلسة علَّم فيها المسلمين كيف يكون الأدب مع رسول الله ﷺ، وبالتَّالي كيف يكون الأدب مع العلماء الذي كاد يتضاءل وكاد يتلاشى في هذه الفترة العصيبة؛ فسأل رسولَ الله ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ: الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ» لأنَّ من عادة الجاهل إذا سأل عن أشياء لا يعرفها لا يقول للمجيب صدقت وإنما يقول صدقت من يعرف تلك الإجابة «فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ».

«قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ قَالَ: الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ قَالَ: الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، ثُمَّ ذَهَبَ وَمَكَثَ مَلِيًّا، فَقَالَ رسول الله ﷺ: أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم قَالَ: ذَلِكَ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ»؛ فهذه الأمور يجب على عوام المسلمين وخواصِّهم أن يعرفوها حقَّ المعرفة، يعرفها من يعرفها إجمالًا ويؤمن بها حقَّ الإيمان ويطبِّقها في حياته، ويعرف العلماءُ تفاصيلَها، والعامِّي يجب عليه من تفاصيلها ما تصح به صلاته وزكاته وصومه وحجه وعقيدته وإيمانه.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٥١ - ٥٢) ومسلم (كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان) برقم (٨)

فنسأل الله -تبارك وتعالى- أن يطهِّر قلوبنا من الأحقاد والزَّيغ والظلم والحسد، وأن يطهِّر ألسنتنا من الافتراء والكذب، وأن يُلزمنا الصِّدق وأن يجعلنا وإيَّاكم من الصَّادقين وممن يتحرَّون الصِّدق و«إِنَّ الصِّدْقَ لَيَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا»[1] فالصِّدق من أُسُس الفضائل لا تستقيم الحياة إلا به، والكذب والفجور من المعاول الهدَّامة التي تهدم الأخلاق وتهدم العقائد والأديان وتهدم المجتمعات وتفسد الحياة فليحذره المسلمون؛ لهذا يقول ﷺ: «وَإِنَّ الكذب ليهدي إلى الفجور وإن الفجور ليهدي إلى النار وإن الرجل لَيَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»؛ فنسأل الله -تبارك وتعالى- أن يوفقنا وإيَّاكم لتحرِّي الصِّدق حتى نُكتب عند الله من الصِّديقين، وأن يُجنبنا غوائل الكذب والفجور حتى لا نكون - والعياذ بالله - فجارًا ولا من المكتوبين عند الله من الكذَّابين، - ونسأل الله أن يعافينا ويعافي جميع المسلمين، وأن يتوب علينا وعليهم من جميع الذنوب صغائرها وكبائرها؛ إنَّ ربنا لسميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (١٦/ ٢٤١رقم٢٦٠٧ - نووي) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

التوحيد يا عباد الله!



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

قال اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]؛ فاللَّه ﷻ يناديِ النَّاس على مُختلَف أجناسهم من أسود وأبيض وأحمر، وعلى اختلاف مِلَلِهم ونِحَلِهم من مسلمين ومشركين ووثنيِّين وأهل كتاب ومنافقين وغيرهم ممن تشملهم كلمة النَّاس؛ لأنَّ رسول اللَّه محمدًا ﷺ خاتَم النَّبيين أرسله اللَّه إلى العالمين إلى النَّاس أجمعين؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨] وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فاللَّه ﷻ ينادي النَّاس جميعًا ليقوموا بالواجب العظيم الذي خَلَقهم من أجله، وهو عبادته وإخلاص الدِّين له ﷻ، وإنَّ هذه العبادة غايةٌ عظيمة من أجلها خَلَقَ اللَّه الجنَّ والإنس والملائكة وسخر خلقه، وسَخَّر ما في السَّموات وما في الأرض لهؤلاء المخلوقين العُقلاء المُكلَّفين؛

ليقوموا بهذه العبادة العظيمة والواجب الأصيل الكبير الذي ما خَلَقَ اللهُ هذا الكون إلا من أجله.

وقوله ﷻ: ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: سيِّدُكم وخالقكم ومُرَبِّيكم، والمنفرد بإسداء النِّعم إليكم، وإسباغِها عليكم ﷻ، فهو المُتفرِّد بكلِّ ذلك، وساق الأدلة التي تَفرضُ عليهم وتوجب عليهم أن يعرفوا الله ويعترفوا بحقِّه فيعبدوه فقال ﷻ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي: مهَّدها ووطَّأها وذلَّلها، وأرساها بالجبال، ومهَّد لهم الطرق، وجعل خلال الجبال فجاجًا؛ ليعيشوا عليها ويبتغوا الرِّزق في مناكبها، وأسبغ عليهم كلَّ النعم؛ ليعبدوه على هذه الأرض.

وقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ المراد بالسَّماء هنا: السَّحاب؛ لأنَّ السَّماء كلُّ ما سما وعلا؛ فكلمة سماء تتناول كلَّ ما علا هذه الأرض ومن فيها؛ فالسَّحاب فوقنا فهو سماء، والسَّموات السبع نسمِّيها سموات؛ لأنَّها فوقنا من السُّمو وهو العلو، ونقول: الله في السَّماء أي فوق السَّموات كلِّها؛ لأنَّه فوق كلِّ شيء ﷻ.

وقوله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ من كلِّ أنواع الثِّمار المعروفة عند البشر، فالله أنزل المطر وصبَّه على الأرض صبًّا كما قال ﷻ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢] هذه الأنواع المذكورة في سورة عبس وفي غيرها من السُّور هي هذه الأرزاق التي أَجْمَلَ ذكرها في قوله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

فالشاهد من الآيات أنَّ الله هو ربكم وسيِّدكم ومالككم، وخالق السَّماء وخالق الأرض...؛ فهو الذي يستحق العبادة وحده؛ فاعرفوا هذه العبادة التي كُلِّفتم بها من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ؛ لأنَّك إذا لم تعرف حقَّه الذي هو العبادة كيف تعبده؟!

لابدَّ أن نتعلَّم العبادات التي شرعها الله ﷻ من الواجبات والمستحبات وسائر التطوعات، التي من أعظمها بعد الشهادتين الصَّلاة؛ المكتوبات الخمس

وسائر التطوعات من الرواتب كالوتر، وسُنَّة الفجر التي قال فيها رسول الله ﷺ: «رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1] والنوافل كصلاة الضُّحى، وقيام الليل... هذه أمور كلُّها عبادات وجنسها الصَّلاة؛ لأنها ترجع إلى الصَّلاة، وسائر الذِّكر الأذكار المقيَّدة، والمطلقة كالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير؛ فإنَّ هذا من أعظم العبادات، قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ للَّه، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، وَاللَّهُ أَكْبَر؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس»[2] فاعرفوا هذه الصَّلاة، واعرفوا فضلها، وتقرَّبوا بها إلى الله خاشعين صادقين مخلصين كما قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون ١ - ١١] هذه الآيات أثنى فيها الله على هؤلاء المؤمنين المتصفين بتلك الصفات ووعدهم بالفلاح كما أنَّ الصَّلاة إذا نودي إليها يقال: «حَيَّ عَلَى الصَّلَاة، حَيَّ عَلَى الفَلَاح» أي: على النَّجاح والفوز العظيم؛ لأنَّ هذه الصَّلاة إذا أخلصنا فيها لله ﷻ ووحَّدنا الله فيها محسنين أداءها كانت من أعظم أسباب الفلاح بعد توحيد الله ﷻ.

كذلك الدُّعاء هو العبادة؛ كما جاء في الحديث[3] والقرآن؛ كما في قوله ﷻ:

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٦/ ٧رقم٧٢٥ - نووي) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (١٧/ ٣١رقم٢٦٩٥ - نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح لغيره: ولفظه: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَة».

أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣/ ١٨٢) وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٢١رقم٢٩١٦٧) وأحمد في المسند (٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) والبخاري في الأدب المفرد (٢٤٩رقم٧١٤) وأبو داود في السنن (٢/ ١٦١رقم١٤٧٩) والترمذي في السنن (٥/ ٢٤٩، ٤٢٦ رقم٣٢٤٧، ٣٣٧٢) وابن ماجه في السنن (٤/ ٢٦٢رقم٣٨٢٨) والبزار في المسند (٨/ ٢٠٥رقم٣٢٤٣) والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٥٠رقم١١٤٦٤) وابن جرير الطبري في التفسير (١١/ ٧٣رقم٣٠٣٨٢ - ٣٠٣٨٤، ٣٠٣٨٧) وابن أبي حاتم في التفسير (٥/ ١٤٩٩رقم٨٥٩٠) و(١٠/ ٣٢٦٩رقم١٨٤٤٤) وابن حبان في الصحيح (٣/ ١٧٢رقم٨٩٠) والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٠، ٤٩١) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه. =

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤] وفي قوله ﷻ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] فتدعو الله - تبارك وتعالى - بصدق وجدّ وإخلاص وثقة في الله ﷻ أنه يستجيب لك كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ فالدُّعاء هو العبادة.

وإذا استعرضتَ الأعمال من الذِّكر والصَّلاة... تجد أكثرها يقوم على الدُّعاء، وورد في بعض الأحاديث: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[1] واختلف العلماء في تصحيحه وتضعيفه؛ لكن الواقع كذلك؛ فالصَّلاة كم تجد فيها من الدُّعاء والذِّكر لله ﷻ؟ التشهد دعاء، الفاتحة فيها دعاء، في الرُّكوع دعاء، في السُّجود دعاء، بين السجدتين دعاء وهكذا...

= قال الترمذي: «الحديث حسن صحيح».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في أحكام الجنائز (٢٤٦).

وقال الحافظ في فتح الباري (١/ ٤٩): «إسناده حسن».

(١) ضعيف:

أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٤٥٦، رقم ٣٣٧١) والطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٢٩٣، رقم ٣١٩٦) وفي الدعاء (٢/ ٧٨٩، رقم ٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

قال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة».

وقال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبيد الله تفرد به ابن لهيعة».

وقال ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (٢٤٧): «في ابن لهيعة، وهو ضعيف لسوء حفظه، فيستشهد به إلا ما كان من رواية أحد العبادلة عنه، فيحتج به حينئذ، وليس هذا منها، لكن معناه صحيح بدليل حديث النعمان».

والحديث ضعفه المنذري في الترغيب بتصديره بـ«روي».

قال ابن عبد البر في الاستذكار (٣/ ٨٤): «الدعاء مخ العبادة لما فيه من الإخلاص والخضوع والضراعة والرجاء وذلك صريح الإيمان واليقين».

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٤/ ٣٠٥): «الدعاء مخ العبادة: مخ الشيء خالصه، وإنما كان مخها لأمرين:

أحدهما: أنه امتثال أمر الله تعالى حيث قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فهو محض العبادة وخالصها.

والثاني: أنه إذا رأى نجاح الأمور من الله قطع أمله عما سواه ودعاه لحاجته وحده، وهذا هو أصل العبادة، ولأن الغرض من العبادة الثواب عليها وهو المطلوب بالدعاء».

فنتعلَّم الأدعية الشَّرعية الواردة في الكتاب والسُّنَّة وندعو اللَّه ﷻ بها في الصَّلاة وخارجها، ونخلص له الدُّعاء، ونخلص له سائر العبادات، وإخلاصها للَّه بألَّا نجعل له فيها شريكًا لا الشِّرك الأكبر ولا الشِّرك الأصغر بما فيه الرياء وما شاكل ذلك، بل نيَّةٌ خالصة كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١-١٢]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ومن أعظم ما وقع فيه كثيرٌ من المسلمين شرك الدُّعاء والذَّبح والنَّذر وهذه من صميم العبادات؛ فالتقرُّب إلى اللَّه بها تقرب بأعظم العبادات، والتقرُّب إلى غيره بها من أعظم وأكبر أنواع الشِّرك باللَّه ﷻ؛ ولهذا يُكفِّر اللَّهُ ويُضلِّل من يدعو غيره.

هذه الحقيقة ما عرفها كثيرٌ من ضُلَّال المسلمين من الرَّوافض وأصحاب الطُّرق الصوفية الذين يستغيثون بغير اللَّه في الشَّدائد، ويعتقدون في الأموات الذين لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، يعتقدون فيهم أنهم يستجيبون الدَّعوات، ويكشفون الكُرُبات، ويعلمون الغيوب ويتصرَّفون في هذا الكون؛ فيقعون في أعظم أنواع الشِّرك في الألوهية والرُّبوبية - والعياذ باللَّه - ويزعم لهم الشيطان أنَّ هذا هو الدِّين! وهذا هو الإسلام! وأنَّ ما خالفه ولو كان في القرآن فهو الضَّلال!

تُقرأ عليهم آيات التوحيد وآيات الإخلاص والآيات التي فيها أنَّه لا يعلم الغيب إلَّا اللَّه، وأنَّه لا يدبِّر ولا يصرِّف أمر هذا الكون إلا اللَّه، تلك الحقائق التي كان يعترف بها مشركو العرب كما أخبر اللَّه ﷻ عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]،

وقال ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

فهم يعترفون بأنَّ اللَّه هو خالق هذا الكون وسيِّده ومدبِّره ومنظمه، وأنَّ هذه الآلهة لا تملك شيئًا ولا تعلم الغيب، ولا تتصرَّف في الكون، ولا في شيء منه، وإنما يعبدونها لأنها تقرِّبهم إلى اللَّه زلفى!! فهم يعترفون بأنَّ دعوتهم عبادة، وأنَّ الذَّبح لهم عبادة، وأنَّ الاستغاثة بهم عبادة...

ولكن هؤلاء الضُّلَّال من المنتسبين للإسلام لا يعترفون بأنَّ هذه الأمور من العبادات؛ فهم أكثر مغالطةً من المشركين، وأكثر تلبيسًا على عوام المسلمين من المشركين الأولين؛ لأنَّ المشركين إذا وَاجَهْتَهُم بهذه العقائد يعترفون، أمَّا هؤلاء فيجعلون مع اللَّه شركاء في تدبير الكون من الأقطاب! والأوتاد! والغوث!...، يعقدون مؤتمرات شهرية أو سنوية ينظرون في أمر هذا الكون ويتصرَّفون فيه! وهم يسقطون الدُّول! ويولُّون الملوك! فهؤلاء إذن حونة، يولُّون اليهود والنَّصارى ويسلطونهم على المسلمين!!، هذا من الكذب على كلِّ حال

ومن الكفر الأكبر أن تعتقد في مخلوق أنه يعلم الغيب ويدبِّر أمر هذا الكون، واللَّهِ إنَّ الملائكة والرُّسل وعلى رأسهم محمَّد -عَلَيْهِم الصَّلَاة وَالسَّلَام- لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، بل حارَبت الرُّسل من يعتقد هذه العقائد الخبيثة وكفَّرُوهم، وجاهدوهم أشدَّ الجهاد، والصِّراع بينهم وبين أعدائهم في هذه الأمور، بل في أقلَّ من هذه الأمور التي يفتعلها الرَّوافض وغلاة الصوفية على مختلف طرقهم.

إنَّ أولئك المشركين إذا سُئلوا من خلق السَّموات والأرض فإنهم يقولون: اللَّه؛ ولهذا تجد رسالات الرُّسل كلِّها إنما تناقش قضية العبادة لا تناقش قضايا الرُّبوبية؛ لأنهم مُسَلِّمُون بأنَّ اللَّه هو ربُّ هذا الكون وسيِّده وخالقه ومدبِّره ومُنظِّم شئونه ﷻ؛ فكان الخلاف بينهم وبين أممهم في قضيَّة التوحيد توحيد العبادة كما أخبر اللَّه ﷻ عنهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ما قالت الرُّسل لأقوامهم: لا تقولوا لا خالق إلا اللَّه لا رازق إلا اللَّه لا مدبر إلا اللَّه إذ هم مقرُّون به ولم يخطر ببالهم غيره، وإنما دسَّ الزَّنادقة الملاحدة في صفوف الرَّوافض والصوفية هذه العقائد الخبيثة التي ما كان يعتقدها الوثنيون على امتداد التَّاريخ الإنساني -والعياذ باللَّه-، زنادقة اليهود والباطنية هم

الذين شحنوا أذهان الصوفية وأغبياء الرّوافض، شحنوهم بهذه العقائد الخبيثة، وقالوا: إنها هي أفضل ما جاء به الإسلام! قاتلهم الله أنى يؤفكون!

الشاهد أنَّ قضايا الدُّعاء والذبح والنذر والاستغاثة من أعظم ما نُكِبَ به المسلمون، وكاد لهم أعداء الله هذه المكائد، وزيّنوا لهم هذا الكفر وجعلوه من أعظم القُرُبات، ومن أعظم أسباب كشف الكروب والنّجاة في الدنيا والآخرة، يقول قائلهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

معناه أنه نسي الله ﷻ!

فإنَّ من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي وإلا فقل: يا زلّة القدم

نسي الله -تبارك وتعالى- وأسند إلى رسول الله ﷺ خصائص ربِّ العالمين.

فلا يُنجي من الكروب في الدُّنيا والآخرة إلَّا الله، ولا يعلم الغيب إلَّا الله، والرَّسول ﷺ لا يعلم الغيب ولا يدَّعي ذلك؛ فإذا شاء الله أن يعلّمه شيئًا من الغيب علّمه إياه، ويبلّغه هذا الرَّسول ﷺ لأمته؛ فالجنّة والنار والصِّراط والبعث غيوب؛ فإذا علمها المسلم هل يجوز له أن يدَّعي أنَّه يعلم الغيب؟! حاشى وكلَّا؛ ولهذا يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ١٨٨]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن ٢١].

فقوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ هذا صدق أو ليس بصدق؟ نعم هو صدق والشك في صدقه كفر، فالله ﷻ لقّنه هذا، وهو في القرآن يقرؤه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، لماذا يقرءونه؟ ليعملوا ويعتقدوا بما تضمنه، أو أنَّ كلَّ واحد يتلاعب بدين الله ويتديَّن كما يريد؟! هذه حقيقة لابدَّ من الإيمان بها، ولو كانت في شخص الرَّسول الكريم -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- أكرمِ الخلق وأفضلِهم لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؛ كما أخبر الله ﷻ، ومن يقول غير هذا فقد عاند القرآن وكذَّب الله ورسوله ﷺ ولو ادَّعى لنفسه ما ادَّعى فإنه مُكذِّب

معاند - نعوذ بالله من ذلك -.

وقوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي: لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، ولدفع عن نفسه الشر، لكنه لا يعلم من الغيب -عليه الصلاة والسلام- إلا ما علمه الله ﷻ كما قال ﷻ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن ٢٦-٢٨].

فهو ﷻ عالم الغيب، ويوحي إلى أنبيائه بهذه الرسالات، ويحفظها لهم، ويحميها من دس الشياطين حتى يبلغوها، وهو وحده عالم الغيب، وهو الذي أحصى كل شيء عددًا، وليس للرسل ولا لغيرهم من ذلك شيء؛ لأن هذا من خصائص الربوبية والألوهية ولا تتعدى إلى الرسل ولا إلى الملائكة ولا إلى الصالحين ولا إلى أحد من الخلق، فخصائصه ﷻ هي التي استحق بها أن يكون سيد هذا الكون؛ فلزم أن يُخصّ بالعبادة وحده ولا يُشرك به أحد في ذرة من هذه العبادة؛ فلنخلص لله العبادة ولنخلص لله الدعاء، ولنخلص لله النذور وسائر التقربات كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ يعني ذبحي ﴿وَمَحْيَايَ﴾ حياتي كلها ﴿وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيء من ذلك من هذه المذكورات، كلها لله وحده لا شريك له، لا من الملائكة ولا من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

هذا الذي جاء به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وجاء أعداء الله من اليهود والنصارى والزنادقة والوثنيون بخلاف هذا، جاءوا بما يناقض ويصادم هذه الإخبارات الصادقة من رب العالمين وهذه الحقائق العظيمة التي تتفطر السموات والأرض وتخر الجبال هدًا من مناقضتها، فيدعون لله الولد ويدعون لله البنات؛ فيقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم ٨٩-٩٤].

فالنصارى يعبدون عيسى ﷺ ويقولون هو ابن الله، لماذا؟ ليبرروا عبادتهم

لغير الله ﷻ والذين يعبدون الملائكة يقولون: هم بنات الله ليبرروا عبادتهم لغير الله كذلك.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ والله يهتز الكون ويضطرب من شدة وطء هذا الكفر وهذا الضلال وكل أنواع الشرك، لا يحتمله هذا الكون على عظمته من سموات وأرضين وجبال وبحار.. وكل من يعبد الله بحق لا يحتمل هذا والملائكة وغيرها من مخلوقات الله ﷻ من المؤمنين، والله لا يحتملون هذا ولا يطيقونه أبدًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، هؤلاء أي المشركون أهانهم الله وأذلهم الله وأخزاهم - والعياذ بالله -؛ ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، فلو وقف الناس جميعًا أو واحد يدعو الأنبياء والملائكة ليل نهار والله لا يسمعون نداءه، ولا يملكون إجابته ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، الخبير الله هو ﷻ وهو الذي أعلمنا أن غيره لا يملك قطميرًا من هذا الكون، الكون هذا كله ملك لله؛ السموات والأرضين والجبال والبحار والملائكة والجن والإنس والحشرات والدواب كلها مملوكة لله وحده لا شريك له، هو الذي انفرد بإيجادها، وانفرد برزقها، وهو الذي أمدها بالحياة، وهو الذي يحيي ويميت ﷻ، ولا يشركه أحد في ذرة من كل هذه الأشياء، ولو كان من أفضل الخلق ما شركه في أتفه الأشياء.

هذا الكون العريض الواسع الذي لا يعلم مداه إلا الله ﷻ والله لا يشركه أحد في مثقال ذرة ولا في فتيل ولا في قطمير... هذه الحقائق جاء بها القرآن الذي أوحاه الله إلى محمد ﷺ؛ ليدين بها المؤمنون، وتستقر هذه الحقائق في نفوسهم، لا يشكون في شيء من ذلك، بل يوقنون غاية اليقين بها، فاعرفوا هذا من القرآن وخذوه منه وبلغوه للناس فقد قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا

خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[1].

والله لقد جَنَت الفِرَق الضَّالة على الإسلام جنايةً لا نظير لها؛ ولهذا قال العلماء الفحول: «إنَّ أهل البدع أضر على الإسلام من اليهود والنَّصارى»[2]؛ لأنَّ اليهود والنصارى مكشوفون، لو جاء اليهودي ببعض الكلام الذي فيه الصِّدق أمكن ألا يُقبل منه؛ لكن هذا الدَّجال يأتيك بالطوام يأتيك بالكفر والشِّرك والضَّلال تصدِّقه؛ لأنَّه يأتيك بجبة وهيئة وعمامة، ويهلِّل ويسبِّح، ويعطيك السُّموم فتقبل منه السُّموم والبلايا والضَّلال!

ولهذا ترى هذه القبور منتشرةً في العالَم الإسلامي، فتُشَاد في بعض البلدان مدنٌ من القبور، فتُشَدُّ إليها الرِّحال وتُسَاق إليها الذبائح والنُّذور، وترى الأبقار والأغنام يسوقونها هناك، فهذا البدوي بمصر يجتمع إليه ملايين من النَّاس، ففي سنة من السَّنوات اجتمع عليه ثلاث ملايين! أكثر من اجتماع المسلمين في عرفات! هذا البدوي الذي يقولون عنه أنه كان من جواسيس الباطنية! جعلوه معبودًا يعبده كثير من أهل مصر وغيرهم، - أهل مصر فيهم موحِّدُون والحمد لله - ، يعبدونه، ويشدُّون إليه الرِّحال، ويقرِّبون له القرابين، وقل مثل ذلك في العرَاق، وقل مثل ذلك في إيران، وقل مثل ذلك في باكستان، وقل مثل ذلك في السُّودان، والمغرب

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٦/ ١٤٤رقم٣٠٠٩ - فتح) ومسلم في الصحيح (١٥/ ٢٥٣رقم٢٤٠٦ نووي) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) قال ابن الجوزي في (الموضوعات - ١/ ٥١): «قال أبو الوفاء علي بن عقيل الفقيه: قال شيخنا أبو الفضل الهمذاني: مبتدعة الإسلام، والوضَّاعون للأحاديث أشدُّ من الملحدين؛ لأنَّ الملحدين قصدوا إفساد الدين من الخارج، وهؤلاء قصدوا إفساده من الداخل؛ فهم كأهل بلد سعوا في إفساد أحواله، والملحدون كالمحاصرين من الخارج، فالدخلاء يفتحون الحصن؛ فهم شرٌّ على الإسلام من غير الملابسين له».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في (الفتاوى (٢٨/ ٢٣١ - ٢٣٢): «إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء - أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة - وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً».

العربي والجزائر، وغيرها من البلدان، جاء بهذا أهل الضَّلال ولاسيما الصوفية الذين خدعوا المسلمين، وأوقعوا كثيرًا منهم في حبائل الشِّرك بالله -تبارك وتعالى- ، فإن قام أحدٌ يدعو إلى توحيد الله الخالص حاربوه، ووصفوه بأنَّه عدوٌّ لرسول الله -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-! إذا قيل لهم: لا تَدْعُوا الأنبياء ولا الأولياء، يقولون: هذا عدو الأنبياء والأولياء! - قاتلهم الله أنى يؤفكون - ؛ فاعرفوا مكائدَهم وحاولوا إنقاذ النَّاس من براثنهم كما قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[1].

والذين يشغلون النَّاس بادئ ذي بدءٍ بالسِّياسة فقط هؤلاء ضُلَّال، وكثيرٌ منهم قبوريون، وكثيرٌ منهم روافض، وكثير منهم علمانيون لا يسلكون مسالك الأنبياء في إصلاح الناس، فإنَّ الأنبياء -عَلَيهِم الصَّلَاة وَالسَّلَام- بدءوا بإصلاح العقائد أولًا، التوحيدُ أولًا قبل كلِّ شيء، وهذا القرآن أكبر شاهد على ذلك.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

* * *

---

(١) سبق تخريج.



لمحة عن التوحيد



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أيُّها الحضور الكرام من الإخوة والأبناء! مرحبًا بكم في هذا اللقاء الطيب المبارك في أقدس البقاع في مكة المكرمة في منى، حيث تُؤَدُّون مناسك الحج وتحترمون مشاعره وشعائره، اجتمعتم لإعلاء كلمة اللَّه كلمة توحيد اللَّه ﷻ إظهار شعار التوحيد؛ فمنذ يُلبِّي المسلم بأيِّ نُسُك من الأنساك يرفع عقيرته بالتوحيد: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكَ»[1].

هذه التلبية سمَّاها جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه بالتوحيد؛ لأنها فعلًا توحيد اللَّه، وإخلاص الدِّين للَّه، وأداء لركنٍ من أركان الإسلام وهو الحج الذي يتخلل كلَّ شعيرة وشريعة منه توحيدُ اللَّه -تبارك وتعالى-، وأركان الإسلام قائمةٌ على

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (خ/ ١٥٤٩) ك/ الحج، باب التلبية، (م/ ١١٨٤) ك/ الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها.

وأخرجه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه (١٢١٨) ك/ الحج، باب حجة النبي ﷺ.

التوحيد، وأركان الإيمان قائمة على التوحيد، والقرآن كلُّه يدور على التوحيد، ويجب على الأمَّة كلّها أن تكون أمَّة توحيد، لو تدبَّرت الأمَّة التوحيد في كلِّ قضية من قضايا دين الله ﷻ لما وقع كثير منهم فيما وقعوا فيه من مخالفة التوحيد.

تأمَّلوا هذه التلبية التي سماها جابر رضي الله عنه بالتوحيد؛ فمعنى «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ»: استجابةً لك بعد استجابة، أو إقامةً على الحقِّ بعد إقامة، يعني أنَّ الاستجابة لأمر الله دائمة وثابتة ومستمرة، أو إذا قلنا: الإقامة؛ هذه الإقامة لا تتزلزل ولا تتغير، هذا الذي يجب أن يستشعره المسلم حينما يقول: «لبيك اللَّهم لبيك»، لا يردِّد كلمات لا يعرف ما تدل عليه، هذا معنى «لبيك اللَّهم لبيك»، استجابةً لك بعد استجابة، أو إقامةً على طاعتك بعد إقامة، معناه إني مستجيب لك دائمًا ومقيم على طاعتك دائمًا؛ فكأنَّنا معشر المسلمين نقطع عهدًا مع الله -تبارك وتعالى- حينما نرفع عقيرتنا بهذه الشعيرة العظيمة -شعيرة التوحيد-، إنَّنا نقطع عهدًا مع الله بالثبات على دين التوحيد والاستجابة الدائمة لهذا التوحيد، ونؤكد ذلك بقولنا «لا شريك لك»، لا شريك لك؛ لا في ذاته وأسمائه وصفاته ولا في أفعاله ولا في عبادته ﷻ.

ونُقَدِّسه عن الأنداد وعن الشُّركاء وعن النُّظراء وعن الأكفاء ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١ - ٤]، وهذه السُّورة تُسمَّى سورة الإخلاص، لأنها أُخلصت لتوحيد الله ﷻ والإشادة بعظمته وجلاله وتمجيده وتنزيهه تعالى عن الشُّركاء والنُّظراء، ويجب أن نفهم معنى هذه السُّورة حقَّ الفهم ونفهم نظيرتها سورة التوحيد الأخرى، توحيد العبادة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون ١ - ٦] السُّورة الأولى على قِصَرها تعدل ثُلُثَ القرآن لماذا؟ لأنَّ القرآن ثلاثة أقسام:

القسم الأول: التوحيد وهو لُبُّ القرآن ولُبُّ الإسلام وعليه مدار توحيد الله تبارك وتعالى؛ فهذه السُّورة لَمَّا تضمنت هذا التوحيد - لفضل التوحيد - عدَّها رسول الله ﷺ معادلةً لثلث القرآن.

فالقرآن ثلثه توحيد، وثلثه وعد ووعيد وقَصَص وأخبار، وثلث أحكامٌ وتشريعات، هذه مقاصد القرآن ومحاوره التي يدور عليها، أقول هذا الكلام ويجب أن يكثر الكلام ويكثر الكلام في هذا الموضوع الأساسي العظيم الذي يجهل قيمتَه كثير من المنتسبين إلى الإسلام من مختلف الطّوائف والفِرَق، وقلَّ من يعرف أنَّ القرآن كلَّه كتابُ توحيد وهو حق.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ما معناه: إنَّ القرآن كتابُ توحيد، القرآن كلُّه توحيد كيف هذا؟ قال: لأنَّ القرآن إمَّا خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته وهذا هو التوحيد العلمي الخبري، وإمَّا دعوة إلى نبذ الشِّرك والأوثان وهذه دعوة إلى إخلاص الدِّين له وعبادته وحده ﷻ، وإمَّا دعوة إلى إكمال هذا الدِّين بالعبادات والتشريعات، وإمَّا بيان لحال أهل التوحيد في الدُّنيا وجزائهم في الآخرة، وإمَّا بيان لحال الكافرين بهذا التوحيد والمشركين وبيان جزائهم في الآخرة؛ حيث تركوا التوحيد، إذن القرآن كلُّه يدور على التوحيد كما فصَّل هذا الإمام هذا التفصيل بحق ووعي.

أقول هذا ليعرف المسلمون مكانة التوحيد والذي يُرَدَّد على المآذن كلَّ يوم كرَّات ومرَّات، ومع ذلك تجد القبور تُشاد وأنَّ الأولياء يُتَّخذون مع الله أندادًا، وإلى آخر الأفاعيل السَّيئة والانحرافات الخطيرة التي توجد في كثير من المنتسبين إلى الإسلام، وهم مع الأسف الشديد لا يعرفون حتى معنى الأذان الذي يُرَدَّدُ على أعلى المنارات كلَّ يوم خمسَ مرَّات، هذا تَرْدَادٌ للتوحيد لتظلَّ الأمَّة مرتبطة بالعقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد «الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله . . . ، أشهد أن محمدًا رسول الله . . .»، الأذان كلُّه توحيد، كيف يُرَدَّد بين ظهراني المسلمين كلَّ يوم كرَّات ومرَّات ويقعون فيما يخالف التوحيد؟ ما هو السِّر أيُّها الإخوة في هذا؟

السِّر: أنَّ علماء السُّوء من علماء الكلام الذين تَلَقَّوا عقائدهم ومناهجهم من غير القرآن والسُّنة وتَلَقَّوْها عن المجوس، وعن اليونان الملاحدة، وعن النَّصارى والهنادك وغيرهم، فَسَّروا «لا إله إلا الله»، كلمة التوحيد فسَّروها تفسيرًا ضالًا ابتعد بكثير من الأمَّة عن معرفة توحيد الله، وعمَّا تدل عليه هذه الكلمة العظيمة؛ هذه الكلمة مدلولها الصحيح مدلولها الحقيقي: لا معبود بحق إلا الله؛ فجاء

هؤلاء الضَّالون وقالوا: معنى «لا إله إلا الله» لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا مدبر إلا الله؛ فضلُّوا وأضلُّوا، ضلُّوا في فهم معنى «لا إله إلا الله»؛ فسَّروها تفسيرًا خاطئًا وأضلُّوا النَّاس حيث تابعوهم في هذا التفسير.

فالله -تبارك وتعالى- هو الخالق والرَّازق والمدبِّر؛ ولكن «لا إله إلا الله» ليس معناها لا خالق لا رازق لا مدبِّر...، معناها: لا معبود بحق إلا الله، العبادات جميعُها لله وحده لا يستحق أحدٌ منها ذرَّة واحدة لا الأنبياء والمُرسَلون ولا الملائكة المقرَّبون ولا عباد الله الصَّالحون؛ كلُّهم عباد الله كلُّهم أذلاء أمام عظمة الله كلُّهم خاضعون لله؛ لأنَّ الله خلقهم لعبادته وقَهَرَهم بقدرته وألزمهم بدينه؛ فلا إله إلا الله كما قلنا معناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله.

وجنى من ذكرناهم سلفًا على الإسلام والمسلمين جنايةً عظيمة؛ إذ حرَّفوا تفسير هذه الكلمة إلى أمور لا يريدها الله بهذه الكلمة، تلك الأمور التي فُسِّرت بها هذه الكلمة دلائلها كثيرة جدًّا في القرآن، دلائل أنَّ الله هو الخالق موجودة في القرآن، وأنَّ الله هو الرَّازق وأنَّه هو الذي يحيي ويميت إلى آخر الأمور التي فسَّروا بها «لا إله إلا الله» لها نصوصها الخاصَّة من كتاب الله ومن سنة رسول الله -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، أمَّا «لا إله إلا الله»؛ فلا تعني إلا أنَّ على العباد أن يُفردوه بالألوهية ويُفردوه بالعبادة وينفوا عنه كلَّ الشُّركاء والأنداد، لا إله إلَّا الله، لا معبود بحق إلا الله، إذ جعل الناس من الأشجار ومن الأحجار ومن الأنبياء ومن الملائكة وعزير وعيسى جعلوهم أندادًا لله، وعبدوا الشَّمس والقمر والنبت والشَّجر وكثيرًا من الحيوانات ومن الأحجار والأصنام وإلى آخره، فجاءت هذه الكلمة تنفي عن غير الله الألوهية؛ إذ لا يستحق شيء منها ذرَّة من هذه العبادة، وهذا التأله لا يستحق أحد منه شيئًا.

والعبادة التي تضمنتها «لا إله إلا الله»؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «هي اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[1]؛ فهذا تعريف جامع لكلِّ أصناف العبادات التي نتقرب بها إلى الله عز وجل

(١) رسالة (العبودية / ص ١).

من الأقوال التي نَنطِقُ بها، والأفعال التي نتحرك بها، والعقائد الظاهرة والباطنة ما نُكنُّه وما نعلنه من خوف ورجاء ومحبة ورغبة ورهبة، هذه العبادات القلبية، إلى جانب العبادات القولية، إلى جانب العبادات المتعلقة بالجوارح هذه هي العبادة كلُّها لله.

وعلى المسلمين جميعًا أن يتعبَّدوا الله بأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وخلجات نفوسهم، أن يتجهوا بها إلى الله وحده ﷻ ولا يصرفوا لغيره ذرَّة من هذا التوحيد ومن هذه العبادة؛ لأنَّ المخلوقات كلَّها خُلِقَت لعبادة الله ﷻ والكون كلُّه خاضع لله، والأحياء التي فيه من الملائكة والبشر والجن والإنس كلُّهم خُلِقوا لعبادة الله، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

ويقول تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]؛ فهذا نقد شديد للذين اتخذوا مع الله أندادًا، ونسبوا إليه الأولاد من النَّصارى والهنادك ومشركي العرب وغيرهم، ممن ينسب إلى الله الأولاد والبنات ويجعلونهم أندادًا لله -تبارك وتعالى- أنَّبهم الله ووبخهم أشدَّ التوبيخ، وبيَّن خطورة ما ارتكبوه من جرائم عظيمة جدًّا يتزلزل منها الكون ويضطرب وتكاد الجبال أن تخرَّ منه هدًّا؛ لأنهم تنقصوا الله -تبارك وتعالى- أشدَّ التنقص وهو ربُّ هذا الكون وسيِّد هذا الكون؛ فهذا القول الخطير أمرٌ إدٌّ وخطيرٌ وكبيرٌ جدًّا جدًّا أن يقال مع الله أنداد ولله أولاد ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾

أدركوا يا إخوة مكانة التوحيد عند الله -تبارك وتعالى-، هذا الكون يكاد يضطرب، ويكاد ينتهي لشناعة وبشاعة ما ارتكبه البشر من إساءات إلى الله -تبارك وتعالى-؛ حيث يعتقدون أنَّ عزيرًا ابن الله ويعتقدون أنَّ عيسى ابن الله هذه عقيدة النَّصارى واليهود ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ

يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

كلُّ هذا كفر عظيم يزلزل هذا الكون، ثم بيَّن الله حال هؤلاء الذين يدَّعي هؤلاء الضَّالون أنهم أبناء الله هم وغيرهم ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ عبدًا ذليلًا خاضعًا إذْ أوجده الله -تبارك وتعالى- من نُطفة أو من العدم، وكوَّنه، وربَّاه، وشقَّ سمعه وبصره، وأنطق لسانه، وإذا كان نبيًّا اختاره للدَّعوة إلى توحيده وإخلاص الدِّين له وسوف يبعثه الله يوم القيامة مع النَّاس جميعًا ويأتيه كلُّ واحد فردًا، فلو كان يملك الأرض كلَّها سوف يأتي بغير خَدَم، وبغير حَشَم، وبغير أبناء، وبغير مال، ومجرَّدًا من السُّلطات، ومن كلِّ شيء، يأتيه فقيرًا ذليلًا خاضعًا لله. فإن كان له عمل صالح أثابه الله ﷻ على دينه الصحيح وعمله الصالح يدخله الجنة بفضله ورحمته ﷻ وإن كان عاصيًا أو كافرًا جازاه الله - والعياذ بالله - الجزاء الذي يستحقه، إن كان كافرًا خلَّده الله في النار.

فيقول ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٦].

هؤلاء الجبابرة المتكبرون ذوو السُّلطان والملك العريض إن لم يخضعوا لله ويعبدوه ويحققوا الغاية التي خلقهم من أجلها سيأتيه كلُّ واحد منهم فردًا مجرَّدًا من كلِّ شيء، من المال والسُّلطان والجاه والقريب والبعيد، ويأتيه حافيًا عاريًا كيوم ولدته أمُّه، ويكون مصيره بعد ذلك إلى النار.

يا إخوة يجب أن نتدبر القرآن الكريم وندرك عظمة الله وجلاله، وضآلة هذا الكون أمام عظمته وجلاله ﷻ وتضاؤل كلِّ العظمات، والجبروت والطُّغيان

يتضاءل أمام عظمة الله ﷻ هو الله الواحد القهار ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر ١٦]، فيجب أن نتصور هذه العظمة حتى نهاب الله ﷻ وحتى نخشاه، وحتى نتقي محارمه، وعلى رأسها الشِّرك أكبر الكبائر وأعظم الجرائم والذَّنب الذي لا يُغفر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء ١١٦]

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج ٣١].

والله لو أشرك العبدُ بمحمَّد ﷺ و تخذه نِدًّا مع الله يدعوه ويرجوه ويستغيث به في الشدائد والله لعذَّبه الله هذا العذاب الذي توعَّد به المشركين الذين أرسِلَ إليهم محمَّد ﷺ ألا تعبدوا ولا تتوجهوا لا للَّات ولا للعُزَّى ولا لمناة ولا للشمس ولا للقمر، فقالوا: لا واستكبروا!

إذن أدركنا أنَّ الشِّرك الذي حصل في الأمم وخاصموا فيه الأنبياء إنما هو فقط توحيد الألوهية مضمون هذه الكلمة مضمون «لا إله إلا الله»؛ فالصراع والخصام والقتال والجهاد كلٌّ ذلك من أجل هذه الكلمة العظيمة التي جَهِلَ منزلتها كثيرٌ من المسلمين، هذه الكلمة التي قال في شأنها رسولُ الله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا»[1].

هذه الكلمة التي بُعِثَ بها جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وشُرِعَ من أجلها الجهاد ماذا تلقى الآن من كثير من المسلمين؟! ماذا تلقى من التَّنكُّر؟ وماذا يلقى أهلها من العَنَت من خصوم التوحيد؟ أمرٌ عظيم أمر عظيم! مع أنَّ دلائلها في القرآن لا تُحصى ولا تُعَدّ، بيان بطلان اتخاذ أنداد مع الله في الدُّعاء أو غيره، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ (خ / ١٣٩٩) ك / الزكاة، باب وجوب الزكاة، (م / ٢٠/ ١٢٤) ك / الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وانظر لزيادة الفائدة حول هذا الحديث (صحيح الجامع/ ١٣٧٠) و(السلسلة الصحيحة / ٤٠٧)

يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

آيات كثيرة جاءت بمعنى هذه الآية ولم يفقهها كثير؛ من مدارس جامعية لا تفقه معنى «لا إله إلا الله»؛ كما فقهها الأنبياء وكما فقهها خيار هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم إلى يومنا هذا، لا يفهمونها هذا الفهم، وإنما ساروا فيها على طريقة المتكلمين التي ذكرناها لكم؛ ولهذا يَدْعون غير الله ويجيزون الدُّعاء لغير الله ويؤلفون في ذلك المؤلفات، ويكتبون في ذلك المجلدات لنصرة الشِّرك والضَّلال! ومحاربة التوحيد! وللدَّعوة إلى أن أولياء الله يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون!... وقد كذَّبوا بهذه الآيات من سورة فاطر ونظيراتها من السُّوَر الأخرى؛ إذ كان الله ﷻ يقول: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ والذين يُدْعَوْن من دون الله فيهم الأنبياء وفيهم الصُّلحاء وفيهم الملائكة، - ووالله - ما يملكون من هذا الكون قطميرًا، والقطمير: هو اللُّفافة الرقيقة التي تحيط بالنَّواة، لا قيمة لها ولا وزن، كلٌّ من في السَّموات والأرض: أنبياء وملائكة معبودون وغيرهم لا يملكون من هذا الكون قطميرًا ولا ذرَّة ولا أدنى أدنى أدنى من مثقال ذرَّة؛ إذ هم عباد لله مملوكون لله ربِّ العالمين لا يملكون شيئًا.

ومن هذا حاله كيف يُدعى؟! كيف يُستغاث به؟! كيف يُستنجد به؟! كيف يُنسى الله -تبارك وتعالى-، ويُتَّجه إلى هؤلاء وهم هذا حالهم؟! ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾، هل الذي يدعو غير الله آمن بهذه الآية وأمثالها؟ هل عرفها وآمن بها واعتقد مضمونها؟ مع الأسف قلبه خالٍ وخاوٍ من هذه المعاني العظيمة التي دلَّت عليها هذه الآية مع الأسف الشديد، مع الأسف الشديد! هذه البدهيات يجهلها كثير من الناس مع الأسف! ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ يقول -هؤلاء النَّاس-: والله هم يسمعون، قد ينادي الرَّسول ﷺ، وقد ينادي عبد القادر، وقد ينادي غيرَه من الأولياء والصَّالحين، وبين المنادي والمنادى آلاف الأميال، فيجعله ندًّا لله في الربوبية! يجعله علَّامًا للغيوب! وكشَّافًا للكروب! وغفارًا للذنوب! مع الأسف الشديد!، فأيُّ مضادَّة لله تفوق هذا البلاء الذي يقع فيه أمثال هؤلاء؛ حتى إنَّ بعضهم يزعم لنفسه أنه الله، من هؤلاء

الزنادقة والملاحدة الذين ضلُّوا وأضلُّوا أجيالًا من المنتسبين للإسلام.

وكنت عين وجود القدس في أزل ... يسبح الكون تسبيحًا لإجلالي

فالعرش والفرش والأكوان أجمعها ... الكل في سعتي مُسْتَهْلَكٌ بالي

وكل فضل سما للكون مرتفعًا ... فإنما هو من مَنِّي وإفضالي[1]

هذا يقوله رجل يعتقد فيه النَّاس أنَّه من أولياء اللَّه، وأنَّه نال هذه المرتبة التي ادَّعاها.

وكنت عين وجود القدس في أزل: معناه كنت اللَّه في الأزل، أنا اللَّه!!

يسبح الكون تسبيحًا لإجلالي: الكون كلُّه يُسَبِّح لهذا الرجل عرفتم؟ أيُّ زندقة تفوق هذه؟ هذه ما قالها اليهود ولا النَّصارى!

وكل فضل سما للكون مرتفعًا ... فإنما هو من مَنِّي وإفضالي

وهذا في كتب تُطبع وتُنشر وتُحفظ وتُردد أناشيد!، يتغنى بها ناس يُسمُّون أنفسهم مسلمين!

ولها نظائر في قصائد هؤلاء الدَّجاجلة الزنادقة، لها نظائر كثيرة ولها مؤلفات كثيرة ولها جماعات ولها حُماة ولها دُعاة ولها مدارس، لها مدارس هنا وهناك، كثيرًا ما تجد في عقائد الرَّوافض والصُّوفية من أمثال هذا الهُراء وهذا الضَّلال وهذا الذي تتقاصر عنه عبارة شرك! كلمة شرك لا تفي بهذا الضَّلال وهذا الإلحاد وهذه الزندقة! أمر خطير جدًّا، ثم يعيش هؤلاء في أوساط المسلمين بأنهم هم المسلمون حقًّا! ومن ينكر عليهم هذا الإلحاد وهذه الزندقة هو الملحد وهو الزِّنديق، هو الوهابي الضَّال! - ونسأل اللَّه العافية - وتقوم دعوات هنا وهناك تَرَبَّتْ على أكتاف هؤلاء وتقول عنهم أنتم المسلمون! وأنتم سادتنا! وأنتم قادتنا!

لا نعرف منكرًا أكبر من هذا المنكر ولا إلحادًا يفوق هذا الإلحاد، يجب أن يُحارَب، يجب على المسلمين أن يُشَمِّروا عن ساعد الجِّد في طلب العلم، ويفهموا القرآن كما فهمه الرَّسول ﷺ وفهمه الصَّحابة الكرام والسَّلف الصالح، وتتظافر

---

(١) قائل هذه الأبيات الشركية هو الحسن الميرغني أحد زعماء الطرق في السُّودان.

الجهود هنا وهناك في مشارق الأرض ومغاربها بين طُلَّاب العلم في إزالة هذا الباطل من أذهان المسلمين ومن بقاع المسلمين ومن حياة المسلمين

الدَّعوات اشتغلت بما يؤكد هذه الضَّلالات والتُّرهات من التصوف والخرافات والأساطير! أو اشتغلت بالسِّياسة، السِّياسة التي تؤدي بأهلها إلى وحدة الأديان والمصالحات مع كلِّ الملل والنِّحل؛ بدءًا من هذا الإلحاد الصُّوفي الرَّافضي وينتهي بأُخوَّة الأديان الأخرى! هذا مآل الدَّعوات السِّياسية الآن وتُسمَّى الآن بحوار الأديان! وعُقِدت مؤتمرات لوحدة الأديان باسم الإسلام.

ووالله إنها لكوارث ونكبات تتوالى على الأمَّة، تنبع هذه الكوارث من داخل هذه الأمَّة لا من خارجها! وكلُّ ما نزل بالأمَّة من ذلٍّ وهوان فإنما هو لجهلهم بالتوحيد أو تجاهله وإدارة الظهور له إلا من حفظ الله ووفقه وسَدَّدَه فعَضَّ على توحيد الله ومنهج رسول الله ﷺ بالنَّواجذ

وفي هذه المناسبة التي يلتقي فيها الإخوان من مشارق الأرض ومغاربها يجب أن يُدركوا أهميَّة التوحيد، وأنَّ النَّكبات التي حاقت بالمسلمين نبعت من داخل المسلمين على أيدي قادة، ممن انساق إليهم من السَّابق واللَّاحق.

هذه الأدواء وهذه النَّكبات نزلت بالأمَّة من وقت مُبكِّر، وعالجها الدُّعاة والمخلصون، وبذلوا جهودًا جَبَّارة لتخليص الأمَّة منها؛ ولكن هؤلاء يُشكِّلون عقبات في وجه أهل الحق؛ فيثيرون زوابع الفتن في وجوه الدُّعاة والمصلحين، ويكيلون لهم الاتهامات، ويُصِرُّون على بقاء الأمَّة على هذه الضَّلالات والدَّوران في هذه المتاهات المُهلكة.

فعلى شباب الأمَّة أن يدرك خطورة الشِّرك والبدع والضَّلالات، وأن يُدرِك منزلة التوحيد الذي بعث الله به جميع الرُّسل، وشَرَع من أجله الجهاد حتى لا تكون في الأرض فتنة، وشمَّر الصَّحابة الذين فَقِهوا دين الله وفَقِهوا هذا القرآن وعرفوا هذه الرِّسالة التي جاء بها جميع الأنبياء وجاء بها خاتمهم ﷺ؛ فانطلقوا في الأرض ينشرون هذه الرِّسالة يضيئون بها الدُّنيا ويبدِّدون بها ظلمات الشِّرك والكفر والإلحاد، ورفع الله راية التوحيد ومنارات الإسلام وأباد منها الشِّرك والباطل

والضلال فمُجيّ من أكثر أقطار الأرض، ولا ينتظر الإسلام من المسلمين إلَّا رجالًا يفهمون هذه الرِّسالة فيعيدون الكَرَّة في فهم هذا التوحيد، وتربية المسلمين عليه، وفهم هذا المنهج الذي جاء به الأنبياء وتربية الأمَّة عليه، وغسل عقول الأمَّة من أدران وأوضار الخرافات والشِّركيات والبدع حتى تكون أمَّة توحيد بحق وجدارة، وحينئذٍ يستحقون من اللَّه الكرامة في الدُّنيا والآخرة ويَصدُق عليهم أنهم أمَّة التوحيد؛ فيستحقون منه النَّصر والتأييد، ويستحقون منه الإكرام والإعزاز.

ولكن الأماني لا تنفعكم يا معشر المسلمين، والاتكال والتواكل لن يغني عنكم شيئًا أبدًا حتى تؤمنوا باللَّه وحده، تؤمنون بتوحيد اللَّه الخالص، وتجمعون الأمَّة عليه، فإذا قلنا لا إله إلا اللَّه قلناها بوعي ومن قلوب مؤمنة، ومن شفاه وألسِنَةٍ طاهرة لم تتلوث بأدناس الشِّرك والبدع والخرافات.

وأسأل اللَّه -تبارك وتعالى- أن يُهَيِّئ الأمَّة لهذا اليوم الذي يتطلع إليه كلُّ مسلم، فتجتمع كلمة المسلمين على لا إله إلا اللَّه وعلى هذا القرآن وعلى هذه السُّنَّة التي يبذل من أخلص للَّه ونصح لدين اللَّه ولهذه الأمَّة يبذلون جهودًا لتحقيق هذه الغاية، ولا يزالون يبذلون، ونسأل اللَّه أن يأتي به؛ لتعلو هذه الأمَّة إلى الصعيد والمستوى الذي ارتقى إليه أسلافهم.

أما الآن بسبب هذه الخرافات والتُّرَّهات فواللَّه لقد ديست كرامة المسلمين، وداسها أذلُّ الأمم وأحطُّهم، فأين غيرة المسلمين على أنفسهم؟! وأين غيرتهم على عقيدتهم؟! وأين غيرتهم على قرآنهم؟! ولقد بلغنا أنَّ في بعض البلدان مُزِّقَ القرآن وقُطِّعَ المصحف لماذا؟ لأنَّ الأوثان في بعض البلدان قد هُدِّمَت! وهذه خطوة طيِّبة من ذلك البلد الذي قام بهذا الأمر العظيم؛ فإنَّ رسول اللَّه ﷺ كان يبعث السَّرايا والجيوش لهدم الأوثان والأصنام والقبور.

وإنَّا لنأمل من ذلك الشعب الذي خطا هذه الخطوة التي زلزلت أقدام الكفار والوثنيين أن يخطو خطوة أخرى؛ لهدم القبور التي اتُّخِذَت مع اللَّه أندادًا؛ فقد كان رسول اللَّه ﷺ يبعث لهدم القبور ويبعث لهدم الأوثان؛ فكما نفذوا خطة رسول اللَّه ﷺ في هدم الأوثان واستئصال شأفتها فليستأصلوا أخواتها من المشاهد

والأضرحة؛ فإنَّ القبور هي قرينة الأوثان إذْ ما ضلَّ الناس إلا بحب أهل القبور، ونشأت الوثنية عن هذا الحب الغالي في أهل القبور - فنسأل الله - تبارك وتعالى - أن يوفق ذاك البلد ليأخذ بالإسلام كاملًا عقيدة وشريعة، وعلى رأس ذلك التوحيد.

ولقد بلغني مع الأسف أنَّ بعض أدعياء العلم وأدعياء الإسلام قد غاظه هذا التصرُّف فذهب ينقم وينتقد من قام بهدم الأوثان، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على الجهل المطبق بهذه الرِّسالة العظيمة التي من أعظم غاياتها وأهدافها محو الأوثان من الوجود فهؤلاء المعترضون على هذا العمل الشرعي إمَّا جهلاء لم يعرفوا ماذا صنع محمد ﷺ وماذا صنع الأنبياء - عليهم الصَّلَاة والسَّلام - بهذه الأوثان.

ألم يذهب إبراهيم - عليه الصَّلَاة والسَّلام - يُحَطِّم الأوثان - صلوات الله وسلامه عليه - حتى تركها جذاذًا؟ ألم يهدم محمد ﷺ الأوثان ثلاثمائة وثن أحاطت بالبيت في لحظات؟!

ألم يبعث محمدٌ ﷺ جيشًا مُكَوَّنًا من مائة وخمسين فارسًا من المدينة إلى أوساط زهران الآن إلى ذي الخلصة قال: «مَنْ يُرِيحُنِي مِنْ ذِي الخَلَصَةِ؟!»[1]؛ إذْ كان وجود ذي الخلصة ولو على أبعد مسافة عن هذا الرسول الكريم ﷺ كان يَقُضُّ مضجعه فلا يستريح، «مَنْ يُرِيحُنِي مِنْ ذِي الخَلَصَةِ»؛ فانْبَرَى جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه وهو من تلك المنطقة في خمسين ومائة من أحمَس وذهبوا لذي الخلصة فأحرقوه ودَمَّروه.

الرَّسول ﷺ ما استراح لوجود وثن واحد، كيف لو رأى آلاف الأوثان والمقابر تعبد في بلاد المسلمين؟! كيف يستريح هذا الرسول الكريم ﷺ وهو القائل: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[2]، يقول هذا الكلام ويُرَدِّده في آخر لحظات حياته - عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام - وهو يُوَدِّع الحياة

(١) متفق عليه من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه (خ/ ٤٣٥٥) ك/ المغازي، باب غزوة ذي الخلصة و(م/ ٢٤٧٦/ ٦٣١٥) ك/ فضائل الصحابة، باب من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم (خ/ ٤٤٤٣/ ٤٤٤٤) ك/ المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (م/ ٥٣١/ ١١٨٧) ك/ الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد.

والآن علماء يدعون العلم وأنهم علماء وأنهم مفتون يستاءون من هدم الأوثان! ألا يدل على ضياع العقيدة وضياع التوحيد في أوساط المسلمين إلا من وفقه الله -تبارك وتعالى-.

إذن يجب أن نهتم بتوحيد الله ﷻ، ولا نقيم وزنًا لدعوة هؤلاء مهما تطاولوا ومهما ادَّعوا لأنفسهم من الادِّعاءات الفارغة.

إذن يجب تربية المسلمين على عقيدة التوحيد توحيد الأنبياء -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، وأن نملأ نفوسهم وعقولهم بأهمية هذا التوحيد، وأن نقول لهم هذا الكتاب كتاب توحيد ليس كتاب شعارات طنانة، كتاب توحيد يجب البدء بالتوحيد والتربية على التوحيد، ورفع راية الجهاد من أجل التوحيد والحياة والموت من أجل هذا التوحيد.

أسأل الله أن يوفق الأمَّة لتدرك رسالة التوحيد رسالة الأنبياء جميعًا -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، فيبذلون مُهَجَهُم وحياتهم وما يمتلكون من أموال ومن وسائل في هذه الحياة لإعلاء كلمة التوحيد.

أسأل الله أن يُفَقِّه المسلمين في ذلك، وأن ينصرهم، وأن يأخذ بنواصيهم ويرفعهم إلى هذا المستوى العظيم التأسي بالأنبياء -عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- وأتباعهم الصَّادقين؛ إنَّ ربنا لسميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *



تفسير كلمة التوحيد



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

فإنَّ التمسك بالكتاب والسنة عقيدةً ومنهجًا أمرٌ لابدَّ منه لكلِّ مسلم؛ فعلينا أن نستمسك بكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ التي أوتي رسولُ اللَّه ﷺ فيها جوامع الكلم.

ومن جوامع كَلِمِه ﷺ التي تحتوي الدِّين كلَّه حديث جبريل المشهور كما روى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ. فَقَالَ: الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ»؛ لأنَّ من عادة الجاهل إذا سأل عن أشياء لا يعرفها لا يقول للمجيب: صدقت وإنما يقول: صدقت من يعرف تلك الإجابة «فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ».

«قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ قَالَ: الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

وَالْيَوْمُ الآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ قَالَ: الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ: مَا الْمَسْئُولِ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِها قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ؛ ثُمَّ ذَهَبَ وَمَكَثَ مَلِيًّا؛ فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ: ذَلِكَ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ»[1].

جاء جبريل في هذه الصُّورة الغريبة التي حكاها عمر ﷺ بأمر من الله؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]، وجبريل ﷺ لا يأتي إلا بأمر من الله، فقد أبطأ على النبي ﷺ يومًا، فسأله النَّبي ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

قال النَّبيُّ ﷺ: «أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ»؛ لأنَّ هذه أسئلةٌ عظيمة حَوَتْ أركانَ الإسلام وأركانَ الإيمان والمرتبةَ الثالثة الإحسان، ونصوص القرآن والسُّنَّة تدور على هذه الأصول وتضيف إضافات في العقائد والمعاملات وغيرها، ذكر أركان الإيمان وأركان الإسلام التي لابدَّ منها، لابدَّ أن تتوفر جميعًا في المسلم؛ فإذا فَقَد واحدةً منها فلم يؤمن به فليس بمسلم ولا مؤمن، وجعل أركانَ الإسلام خمسة؛ كما في حديث عبد الله بن عمر ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»[2]؛ فهذه أركان الإسلام.

شهادة أن لا إله إلا الله. وهي أساس الدِّين كلِّه، ولا يدخل المرء في الإسلام إلا بها، وإذا أتى بما ينقضها خَرَجَ من الإسلام، ومعناها لا معبود بحقٍّ إلا الله، تقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»، يعني: تشهد بأنَّ الله وحده هو الذي يستحق العبادة، وعبادة غير الله كلُّها باطلة، الأنبياء والملائكة والصَّالحون والأشجار

(١) أخرجه أحمد (١/ ٥١-٥٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، برقم (٨).
(٢) رواه أحمد (٢/ ١٢٠) والبخاري، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم برقم: (٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام برقم (١٦).

والأحجار والشمس والقمر كلُّ هذه الأشياء عُبِدَت من دون الله، ولكنَّ عبادتها باطلة، فيشهد المؤمن أنَّ الله وحده هو الذي يستحق العبادة، لا يشاركه أحد في ذَرَّةٍ منها؛ فإذا صَرَفْتَ شيئًا من هذه العبادة التي يجب إخلاصُها لله وصرفُها إليه وحده والتوجُّه إليه بها وحده، إذا صَرَفت شيئًا من هذا لغير الله أشركت بالله - والعياذ بالله -.

فيجب أن نعرف معنى العبادة ونعرف معنى «لا إله إلا الله»، فإنَّ أناسًا كُثُرًا لا يعرفون معنى العبادة ولا يعرفون معنى هذه الكلمة «لا إله إلا الله»، يقولون معناها: لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا ضار ولا نافع إلا الله... وهكذا، وهذا الكلام حق، لكن ليس هو معنى «لا إله إلا الله»، فإنَّ هذا الكلام الذي يقولونه إنما هو الإيمان بتوحيد الربوبية الذي كانت تؤمن به قريش ومن سبقها من الأمم التي كذَّبت الأنبياء، وهم يؤمنون بأنَّ الله هو ربُّ السماء وربُّ الأرض، وأنَّه خالق هذا الكون ومدبِّره ومنظِّمه؛ ولكن لا يعترفون بأنَّه هو الذي يستحق العبادة وحده.

ومن الأدلة على الفَرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية - كلُّها حقٌ والله - أنَّ الربوبية لها معنى خاص وصفات خاصة، والإلهية لها معنى خاص، - ولابدَّ منهما -، فالكفار كانوا يفرِّقون بين توحيد الربوبية وبين توحيد الألوهية يعترفون بتوحيد الربوبية؛ كما قال ﷻ عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، لا يكابرون في هذا.

وفي آيات كثيرة جاءت في سُوَرٍ عديدة من القرآن أنهم يؤمنون بتوحيد الربوبية، لكنهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهية، قال تعالى مخبرًا عن حالهم وواقعهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] وقال ﷻ عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥-٦]، أي: أمورٌ مُبيَّتةٌ ضدَّ آلهتنا، فيتخذون الآلهة في عباداتهم في حين يقرُّون بتفرُّد الله ﷻ بالخلق والرِّزق، لكن العبادة مشتركة في نظرهم الضَّال! ويأتي النَّبي ويدعوهم إلى هذا التوحيد توحيد الألوهية؛ فيكذِّبونه ولا يكذِّبونه في

توحيد الربوبية.

كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾، فآمن بهذا التوحيد واتبع الرُّسل وأطاعهم ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فكذَّب بهذا التوحيد ووقع في الضَّلال البعيد وكفر بالله وأشرك به وكذَّب رُسله-، المقصود أنَّ الأمم الكافرة التي كذَّبت الرُّسل ما كانت تنكر توحيد الربوبية؛ يؤمنون بربوبية الله ﷻ وأنَّه هو الذي خلقَ هذا الكون ودبَّره ونظَّمه وخلقَهم وأعطاهم السَّمع والبصر وأنزل لهم المطر من السَّماء وأنبت لهم النبات، كلُّ هذا يعترفون به ولا يُنكِرونه.

وهذا التوحيد هو الذي وقف عنده كثيرٌ من فِرَقِ الضَّلال لا يعرفون غيره وكلمة «لا إله إلا الله» يقولونها ويؤذِّنون بها على المآذن، يعلنونها في اليوم خمس مرَّات؛ لكنَّهم لا يعرفون معناها ولا يعرفون شروطها، والذي أضلَّهم في هذا الباب أهلُ الفلسفة والمنطق، أهل الكلام الضَّال الذين قال فيهم الإمامُ الشافعي رحمه الله «حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنِّعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك كتاب الله وسنة رسول الله وأقبل على الكلام»[1].

وأئمَّة الإسلام كلهم حرَّموا هذا الكلام الباطل الذي أقبلت عليه الفِرَق الضَّالة من الخوارج والرَّوافض والمعتزلة حتى الأشاعرة التحقوا بهم والصُّوفية؛ فأضلَّهم علم الكلام الذي أجمع سلفُ الأمَّة على تحريمه وضلال أهله وقال فيه الشافعي رحمه الله: «لأن يَلقى اللهَ العبدُ بكلِّ ذنبٍ ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الهوى»[2]، -والعياذ بالله-؛ فإنَّه أوقعهم في ضلالٍ بعيد، أوقعهم في تعطيل أسماء الله وصفاته فعطَّلوا صفات الله بآرائهم وعقولهم وفلسفتهم، وأفسدوا معنى توحيد العبادة، وأعطوا لهذه الكلمة «لا إله إلا الله» معانٍ ليست منها ولا تدل

---

(١) رواه البغوي في (شرح السنة/ ج١/ ص٢١٨) ونصر المقدسي في (مختصر كتاب الحجة على تارك المحجة، ص٤٧٥) وأبو نعيم في (الحلية/ ج٩/ ص١١٦) والسيوطي في (الأمر بالاتباع/ ص٨٣)

(٢) أخرجه البيهقي في (الاعتقاد) (ص ١٥٨)، كما في التعليق على «شرح السُّنَّة» للبربهاري، للشيخ خالد الردادي (ص ١٢١)

عليها هذه الكلمة، فإنَّ الأمر الذي تدل عليه إنما هو أن الله هو المعبود المستحقُّ للعبادة وحده لا يشركه فيه أحد، والقرآن دلَّ على أنَّ الأنبياء كلَّهم دَعَوْا إلى معنى هذه الكلمة وإلى تحقيقها.

وقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: ليقولوا: «لا إله إلا الله» ويعبدوه ويتقربوا إليه بما يستحقُّ من العبادة التي شرعها وأذِن فيها.

فيجب أن نعرف معنى «لا إله إلا الله»؛ بأنَّه لا معبود بحق إلا الله، وأنَّ غيره من الأنبياء جميعًا والرُّسل والملائكة والصَّالحين لا يستحقون ذرَّةً من العبادة؛ بل هم كلُّهم عباد الله، قال الله ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وكلُّهم يدعون إلى إخلاص العبادة لله ﷻ؛ فهم أعبدُ النَّاس، الأنبياء هم سادة العُبَّاد وقادتهم، يخافون الله أشدَّ الخوف، ويُصَلُّون له ويصومون له، ويُزَكُّون ويخشعون، ويخضعون، ويخافون، ويرتجفون خوفًا من الله ﷻ ويستحيون من الله ﷻ، ويتوكلون على الله ﷻ، ويعتمدون عليه في كلِّ شئونهم وأمورهم، ويدركون أنه لا حول لهم ولا قوة إلا بالله ﷻ، ويعتقدون أنهم لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولا يملكون لغيرهم شيئًا من هذه الأمور.

وقد قال الله لأفضلهم وأكرمهم وهو محمَّد ﷺ وخاتمهم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، الله يأمر الرسول أن يقول هذا يقولها مؤمنًا بها وداعيًا إليها ﷺ بصدقٍ وإيمانٍ وإخلاص، وأمره ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]؛ فإذا كان هذا حال رسول الله ﷺ أفضل خلق الله وأقربهم إليه لا يملك لغيره نفعًا ولا ضرًّا فكيف بمن سواه ومن هو دونه؟! ولمَّا أنزل الله عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد على الصفا وقال: «يا بني فلان ويا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لوي!» فاجتمعوا

فقال: «إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيد، أَرَأَيْتُمْ لَوْ قُلْتُ لَكُمْ أَنَّ خَيْلًا مِنْ وَرَاءِ هَذَا الجَبَلِ أَتُصَدِّقُونِي؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيد»[1]، فغضب أبو لهب - قبّحه الله - وشتمه وقال: تبًّا لك ألهذا دعوتنا؟! دعاهم رسول الله ﷺ إلى عبادة الله وحده وإلى ترك عبدة اللّات والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى وما شاكلها من المعبودات، وأبو لهب على رأس الزعماء المعارضين لرسول الله ﷺ والمكذّبين له، وقد آذى رسولَ الله ﷺ أذًى شديدًا من أجل هذا التوحيد، فلو أنّه قال لهم: مَنْ ربكم؟ مَنْ خلقكم؟ يقولون: الله، وعلى رأسهم أبو لهب، مَنْ خَلَقَ السَّماء؟ من خَلَقَ الأرض؟ يقولون: الله، ما يكابرون أبدًا، لكن عندما يقول لهم: «لا إله إلا الله» يستكبرون.

فأهل الكلام جاءوا بمعانٍ فاسدة لـ«لا إله إلا الله»، أضلت أممًا عن معنى هذه الكلمة، وإلى الآن كلُّ الفِرَق إلَّا أهل المنهج السَّلفي - والله أعلم - ولا أدري لعل بعض الأفراد يشاركونهم، وإلَّا فالمناهج والمدارس - مدارس الصُّوفية ومدارس الرَّوافض - على هذا التفسير الباطل؛ فلهذا ترى عبادة القبور، والتعلق بغير الله، واعتقاد أنَّ الأولياء يعلمون الغيب ويتصرَّفون في الكون.. حتى وقعوا في الشرك في توحيد الربوبية؛ لجهلهم بمعنى «لا إله إلا الله»؛ ولجهل بعضهم حتى بمعاني الربوبية الأمر الذي ما جهله الكافرون؛ لأنه اندسَّ في صفوف هذه الفِرَق من الرَّوافض والصُّوفية ملاحدة وزنادقة يريدون هدم الإسلام؛ فَيَلْبَسُ هذا الملحد وهذا الزِّنديق، فَيَلْبَسُ لباسًا إسلاميًّا لباس العُبَّاد الزُّهَّاد وهو ملحدٌ في نفس الوقت، فيَدُس الشِّرك والإلحاد والحُلول ووحدة الوجود.

كلُّ هذه الأمور انتشرت في فِرَق التصوُّف؛ حتى لا أظن الآن فرقة صوفية على وجه الأرض إلَّا وتقع في الشِّرك وفي الحلول ووحدة الوجود - في الجملة - وقد يَسْلَم بعض الأفراد من الوقوع في هذا الإلحاد؛ لكن رءوس هذه الفِرَق فيما أظن لا يَنْجونَ من هذا الضَّلال، ومن اعتقاد أنَّ الأولياء يعلمون الغيب ويتصرَّفون في

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري / كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ برقم (٤٧٧٠)، ومسلم/ كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ برقم (٢٠٨).

الكون، ومن عقيدة الحلول ووحدة الوجود ومن الدعاء لغير الله والذبح لغير الله والاستعانة بغير الله؛ فنسأل الله العافية - .

فعلينا أن نعرف معنى «لا إله إلا الله» معرفةً واضحة جلية، ونعرف معنى العبادة التي تضمنتها «لا إله إلا الله».

والعبادة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «العبادة اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه اللهُ ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»، يجمع عبادة القلوب وعبادة اللِّسان وعبادة الجوارح.

فالتي تتعلَّق بالقلب: الخوف والرجاء والرَّغبة والرَّهبة والتوكل والمحبة وما شاكل ذلك من الأمور القلبية، هذه عبادات قلبية لابدَّ منها ولا يجوز أن نصرف منها شيئًا لغير الله.

وعبادة اللِّسان يأتي في مقدِّمتها النُّطق بالشهادتين، ثم سائر الأذكار من تلاوة القرآن والواجبات والمستحبات؛ فيكون النطق باللسان في الصَّلاة واجبًا بقراءة الفاتحة في كلِّ ركعة؛ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»[1]؛ فهذه من الأمور التي يجب على المسلم أن يطبِّقها ويتكلم بها، ومنها أمور مستحبة مثل تلاوة القرآن ومثل ذكر الله وتسبيحه وتهليله أعقاب الصَّلوات وعند النوم وفي السَّفر وفي الحضر وما شاكل ذلك، فالعبادات تنقسم إلى واجبات ومستحبات، فعلى المسلم أن يعرفها ويتقرَّب بها إلى الله ﷻ.

والجوارح: يأتي في طليعة أعمالها القيام في الصَّلاة والرُّكوع والسُّجود، وأعمال الحج من الطواف وسائر المناسك والشعائر، وغير ذلك من عبادات الجوارح، تصلي لله بجوارحك مع قلبك ولسانك تركع وتسجد وترفع من الركوع وتجلس بين السجدتين، والحج ترحل ببدنك لتؤدي هذا الرُّكن، تطوف بالبيت وتسعى بين الصَّفا والمروة وتؤدي المناسك في عرفات وغيرها، هذه عبادات تُمارَس بالبدن بالإضافة إلى أنك تحتاج إلى مالٍ تحقق به هذه العبادات.

---

(١) متفق عليه: خ/ كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، برقم (٧٥٦)، م/ كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، برقم (٣٩٤).

والعبادات بهذا الاعتبار كثيرة؛ عبادات القلب وعبادات اللِّسان وعبادات الجوارح يجب أن نؤديها لله بإخلاص، الإخلاص لابدَّ منه في كلِّ عبادة نتقرَّب بها إلى الله ﷻ نسأل الله تعالى أن يُلهمنا وإيَّاكم الرشد، وأن يوفقنا ويرزقنا الفقه في دينه خاصَّة في أبواب دين الله ﷻ، فإنَّ الفقه في العقيدة يُسَمَّى بالفقه الأكبر، والفقه في الأحكام يُسَمَّى بالفقه الأصغر والفقه الأصغر بكلِّ تفاصيله مبنيٌّ على الفقه الأكبر الذي هو العقيدة.

نسأل الله أن يفقهنا وإيَّاكم في دينه.

وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * *

الأسئلة والأجوبة:

السؤال الأول: ما رأيكم فيمن يدَّعي أنَّ الكلام في التوحيد والعقيدة يُفرِّق المسلمين؟

الجواب:

هذا كلام يقال من فئات معروفة احترفت السِّياسة وتهاونت بأساس الإسلام والإيمان وهو العقيدة التي جاء بها جميع الأنبياء -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، ولا شك أنَّ الدَّعوة إلى التوحيد تُفرِّق، تُفرِّق بين من؟ بين أهل الحق وأهل الباطل بين أهل التوحيد وأهل الشِّرك؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] قوم صالح لما جاءهم يدعوهم إلى الله ﷻ إذا هم فريقان يختصمون.

وهكذا انقسم قوم نوح؛ كما قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] والبقية افترقوا وتركوه واتَّبعوا الشيطان.

كذلك إبراهيم ﷺ خالفه قومه وما آمن معه في بلده الأصلي إلا زوجه سارة وابن أخيه لوط، وبعد وقت طويل دعا الله ﷻ في آخر عمره فوهبه إسماعيل

وإسحاق، وما من نبيٍّ إلَّا ويفترق عليه النَّاس، ما يتبعه النَّاس كلُّهم؛ كما قال ﷻ:
﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف ١٠٣]

فعلى سياسة هؤلاء يكون نوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء أخطئوا! كيف؟ لأنهم فرَّقوا الأمَّة! كان ينبغي أن يحافظوا على وحدة الأمَّة الوحدة الوطنية والوحدة القومية، أليس كذا على منطق هؤلاء؟! حتى تجدهم يتآخون مع النَّصارى واليهود والرَّوافض والباطنية، حفاظًا على الوحدة الإنسانية، لا يتصادمون مع اليهود والنَّصارى ولا مع إخوانهم الرَّوافض، هذا واقع هؤلاء وهذه دعوة هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام، وهذه ضدّ الرِّسالات كلِّها وضد دعوات الرُّسل جميعًا ومنهم خاتمهم محمد ﷺ.

والله سمَّى القرآن فرقانًا؛ لأنَّه يفرِّق بين الحق والباطل، ومحمَّدٌ فَرْقٌ أو فرَّق بين الناس، فرَّق بين أهل الحق والهدى والإيمان، وبين أهل الكفر والكذب والفجور والشِّرك والضَّلال، ولابدَّ أن يجعلهم الله ﷻ يوم القيامة فريقين، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السَّعير.

فهؤلاء أهل ضلال وأهل أهواء، الذي يسبُّ الصَّحابة لا يضره! يكفِّرهم ما يضره! لماذا؟ حفاظًا على الوحدة! وقد يسمع أحدُهم من النَّصارى طعنَ الإسلام وفي الرَّسول ﷺ ويسكت! إخوانهم! هذه طرق ضالة.

علينا أن نعرف منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وندعو إلى توحيد الله أولًا قبل كلِّ شيء، وإلى تحقيق معنى «لا إله إلا الله»، وإلى تحقيق معاني الإسلام الأخرى التي تقوم على هذه الكلمة وتقوم على الإيمان، ولا نلتفت لمثل هذه التشويهات على الدعوة إلى الله وأهلها.

فإنَّ الأنبياء وجدوا مثل هذه التشويهات وأشد؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ»(١)، أشدُّ النَّاس أذى

---

(١) صحيح لغيره:
أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٧٢) والترمذي في السنن (٤/ ٦٠١رقم٢٣٩٨) وابن ماجه في السنن (٤/ ٣٦٩رقم٤٠٢٣) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٠٩) والدارمي في السنن (٢/ ٣٢٠) وابن حبان في=

واجهوه هم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهم أسوتنا، والذي يسلك طريقهم لابدَّ أن يُؤذى، وقد يُقتل وقد يشُرد وقد يُسجن. . ، هذا أمر عظيم تُبذَل فيه المُهَج والأموال.

لكن الحريصين على الكراسي وعلى الحياة يحشدون النَّاس حولهم ولا يهمهم أن يموت ابنه وأخوه وجاره وصديقه في النَّار، ولو رآه يسجد لغير الله ﷻ ويشرك به لا يبالي! هذا من الغش - والعياذ بالله - ويحملون أوزارهم وأوزار الذين يتبعونهم، وتصدق عليهم الآيات مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وقوله ﷻ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

كيف ترى النَّاس يطوفون بالقبور ويستغيثون بغير الله ويذبحون لغير الله وتقول الدعوة إلى التوحيد تسبب فرقة؟! هو واقع في الشرك وما تبيَّن له دين الله الحق ولا تبيَّن له التوحيد ولا تبيَّن له الفرق بين التوحيد والشِّرك؛ ثمَّ إذا ما قَبِلَ دعوتك لا يدخل في صفك؛ فهؤلاء حريصون على حشد النَّاس حتى يصلوا إلى الكراسي، وإذا وصلوا إليها لا يُطبِّقون شعاراتهم - لا حكم إلا لله - يصبح الحكم لهم لا لله ﷻ -نسأل الله العافية-.

السؤال الثاني: إذا كان الأشاعرة وأهل الكلام لا يعرفون توحيد العبادة ويفسِّرون التوحيد بتوحيد الربوبية، فهل يعني هذا أنهم لا يكفِّرون من صرف شيئًا من العبادة لغير الله؟

= الصحيح (٧/ ١٦٠رقم٢٩٠٠) والحاكم في المستدرك (١/ ٩٩) والضياء في المختارة (٣/ ٢٤٦رقم١٠٥٣) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

والحديث صححه الحاكم وابن كثير في التفسير (٣/ ٤٠٥) والألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١/ ٢٧٣رقم١٤٣ - ١٤٥).

الجواب:

إذا كانوا لا يعرفون معنى العبادة كيف يُكَفِّرون من يقع في عبادة غير الله؟! يقولون في كلامهم: العبادة عندهم السُّجود للصنم، السُّجود للصنم هذه عبادة لغير الله، أمَّا الدُّعاء أمَّا الذَّبح أمَّا النَّذر فلا يرون أنها تنافي «لا إله إلا الله».

فإذا رأيته ينكر هذه الأشياء ويقول أنها شرك فمعناه أنه عرف معنى «لا إله إلا الله»، لكن هل كلُّ أشعري هكذا يعرف معنى «لا إله إلا الله»؟ كيف يعرف معنى «لا إله إلا الله» وهو يقول لا خالق ولا رازق إلا الله؟!، فإذا قلت لا معبود بحق إلا الله والدُّعاء عبادة والذبح لغير الله عبادة والشِّرك وكذا وكذا يقول لك: لا! أنت تكفِّر المسلمين تقول هذا شرك!

فعدم فهم معنى «لا إله إلا الله» يترتب عليه هذا الضَّلال، هذا الضَّلال الموجود الآن؛ التعلُّق بالقبور وكذا نشأ عن هذه التفسيرات الفاسدة لمعاني «لا إله إلا الله».

قد يعرف بعض الأشاعرة لاسيما بعد جهاد ابن تيمية وابن عبد الوهاب -رحمهما الله- معنى «لا إله إلا الله» لكن يَضِل مع قومه ويَظَل معهم من أجل الدنيا -والعياذ بالله- قد يعرف هذا أو شيئًا منه، وقد يدرك أن هذا شرك ويدرك أن المنهج السَّلفي هو الدعوة الحق ثم يَظَل مع قومه، وقد صرَّح كثيرٌ من رؤسائهم بهذا، يقول: الحق مع السَّلفيين، لماذا لا يترك هؤلاء؟ يقول: لمن أتركهم؟! أنا لا أتركهم، ولا يبيِّن لهم -فنسأل الله العافية-.

لو كان الأشاعرة والصُّوفية وهؤلاء على طريقة محمد ﷺ وصحابته وأئمة الإسلام في معنى «لا إله إلا الله» أترى هذه القبور الآن التي تملأ الدنيا، يعني رءوس المدارس والجامعات يشاركون في أعياد مثل البدوي وأمثاله، وعبد القادر، يشاركون في الأعياد الشِّركية، أصحاب عمائم وحملة شهادات عليا وهم لا يتورَّعون من مشاركة الجهال والعوام في هذا الشِّرك بالله ﷻ.

السؤال الثالث. لا يخفى على فضيلتكم أهمية التوحيد، وما قام به أئمة الدعوة في هذا العصر وعلى رأسهم الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لكن هناك من يقول بأنَّ

الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لم يفعل شيئًا ولم يُقدِّم شيئًا؟

الجواب:

الذي قال هذا الكلام جاهل لا يعرف ما يقول، ولا يعرف سيرة هذا الرجل، وأنَّ أزِمَّة الأمور كانت بيده، وكان آل سعود يأتمرون بأوامره، ويتصرَّف في أمر الدولة من هذا الموقع الكبير الذي يحترمه؛ لأنَّه إمامهم وأستاذهم ومعلِّمهم، وهم يدركون أنهم أنقذهم الله به من الضَّلال، وهم أهل أخلاق عالية وفِطَر سليمة؛ فكانت أزِمَّة الأمور بيده لا يُصدِرُون أمرًا إلَّا بأمره، ولا يفعلون شيئًا إلا بإشارته، فهو كبير الدَّولة وإمامها لا شك؛ فهذا الجاهل لا يعرف تأريخ هذا الرَّجل، ولا يعرف واقعه ولا واقع من حوله من آل سعود - نسأل الله العافية -.

السؤال الرابع: هل هناك ضابطٌ يُفرِّقُ به بين الشِّركين الأكبر والأصغر؛ فإني قرأت كثيرًا في كتب التوحيد؛ فإذا جاءوا إلى تعريف الشِّرك الأصغر لم يزيدوا على ذكر الأمثلة ولا يذكرون ضابطًا يُعرف به الشِّرك الأصغر؟

الجواب:

الأمثلة هي التي تبين لك الفَرْق، الشِّرك الأكبر هو الذي ينافي أصل التوحيد، ينافي «لا إله إلا الله» والشرك الأصغر هو الذي ينافي كمالها، كمال التوحيد، وقد بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه كتاب التوحيد على هذا الأصل، بدأ بما ينافي أصل التوحيد ثم أتبعه بما ينافي الكمال من الحَلِف بغير الله ومن الرِّياء وما شاكل ذلك، هذا هو الضابط، تَعلُّق التميمة إذا كان ما فيها تعظيم، وما شاكل ذلك.

السـؤال الخامس: هل يجوز لي اقتراض قرض من بنك ربَوي لشراء بيت أفيدونا جزاكم الله خيرًا؟

الجواب:

لو كنت تحتاج إلى خبزة لتأكل بها وتنقذ بها نفسك من الموت فلا تأخذ من البنك شيئًا فضلًا عن بناء بيت أو شراء سيارة، الله أحلَّ لك الميتة ولحم الخنزير والموقودة والمتردِّيَة، أحلَّها لك في حال الاضطرار، وما أحل لك الرِّبا، الرِّبا خطيرٌ جدًّا خطيرٌ جدًّا، فلا تتعامل بالرِّبا واصبر؛ فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فالرِّبا إثمٌ كبير، وأمرٌ خطير، والذي يستحلُّه يكفر؛ فإن احتجت بيتًا فاصبر حتى يرزقك الله، والجأ إلى الله وابذل الأسباب حتى يُهيِّئ الله لك بيتًا، وإلا تموت وأنت سليم من محاربة الله؛ لأنَّ المرابي محارب لله - والعياذ بالله - ؛ كما قال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩] أعلن الحرب على أهل الرِّبا، و«لعن رسول الله ﷺ آكل الرِّبا وموكله وكاتبه وشاهديه»[١].

ماذا تريد بعد اللَّعن؟! هل ينفعك البيت وأمامك جهنَّم؟! فليتق الله المؤمن وليصبر على فقره وعلى حاجته؛ فإنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، اصبر ويعطيك الله هذا الجزاء العظيم، بدل أن تتعرض للعنه وغضبه وسخطه وعقابه، تحمَّل هذه الشِّدة في الدنيا، وليست بشيء بالنسبة لغضب الله وعقابه .

نسأل الله أن يكفينا بفضله ومَنِّه كلَّ ما يسخطه ويغضبه؛ إنَّ ربنا لسميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (١١/ ٣٦ رقم ١٥٩٨ - نووي) من حديث جابر ﷺ.



وجوب الاتباع

والتحذير من
مظاهر الشرك والابتداع



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أيُّها الإخوة نشكُر الله -تبارك وتعالى- على نعمةِ الإسلام، ونسألُ الله أن يُؤلِّف بين قلوب المسلمين جميعًا وخاصةً شبابهم أن يُؤلِّف بين قُلوبِهم على الحق، وأن يجمع كلمتَهم على التَّوحيد والسنة، وأن يُوفِّق الجميع لأن يعتصموا بكتابِ ربِّهم وسُنَّةِ نبيِّهم، وأن يجعلهم مُدرِكين تمام الإدراك أنَّ إمام هذه الأمَّة وقائدها هو محمَّد الذي إذا قال يجب أن يُطاع وإذا أمَر يجب أن تُنفَّذ أوامرُه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-، والذي إذا أخبَر يجبُ أن يُصدَّق، أرجو أن تتعمَّق هذه المعاني في نفوسِ هذه الأمَّة وخاصَّةً الشَّباب الذي يَعتزُّ بالانتماء إلى الإسلام.

وبعد هذا؛ فأقول: إنَّ الاتباع لما جاء به محمَّد عبادةً وشريعةً وأخلاقًا وسياسةً هو أمر مُحتَّم ليس لنا فيه أيُّ خِيار ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ليس لنا أيُّ خِيَار إذا قضى الله أو رسولُه أمرًا سواءٌ ذلكم الأمر يتعلق بالعقيدة، أو عبادة أو غيرهما ممَّا أشرنا إليه سابقًا، فإنَّه لا يَسَعُنا إلَّا الامتثال لهذا

الرَّسول - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - الامتثال لما قضاه الله وقضاه رسوله أرجو أن يَتَعَمَّق هذا المعنى في نُفُوسِنا، وألَّا يكون كلامًا تَلُوكُه الألسُن ثم يَتَبَخَّر أمام الأوامر والنَّواهي والأخبار التي جاء بها محمَّد - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام -.

أمَّا صحابة رسول الله، أمَّا القرون المُفَضَّلة التي شهد لها رسولُ الله بالخيريَّة فما كان لهم قائد ولا إمام إلا هذا الرَّسول، وليس لهم كتاب إلا هذا الكتاب، وليس لهم سُنَّة إلَّا سُنَّة محمَّد - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين التي أمَرَنا رسولُ الله - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام - أن نعضَّ عليها بالنَّواجذ[1].

يا شباب الإسلام! يجب أن نتخلص من الأهواء والتحزُّبات التي لا نجني منها إلَّا الشَّر والضَّياع والذُّل والهوان، يجب أن تُدرِكُوا أيُّها الشَّباب أنَّ العزَّة كلَّ العزَّة والسَّعادة كلَّ السَّعادة في الدُّنيا والآخرة لم تُضمَن إلَّا لمن يَرفَعُ رأسَه بما جاء به محمَّد ﷺ، ويعتز بما جاء به محمَّد ﷺ إذا سَادَ في أوساط الشَّباب قال اللهُ قال رسول الله ﷺ، وتُطَأطِأُ الرُّءوس سمعًا وطاعةً لذلك، فإنَّا نكون قد سلكنا الطَّريق الصَّحيح إلى السِّيادة والعزَّة في الدُّنيا، وإلى النَّجاة من غضب الله، وإلى دخول جنات عرضها السموات والأرض، وإلى إحراز رضوان الله -تبارك وتعالى- وإذا كان يسود في السَّاحات قال فلان! وقال فلان!، الطَّائفة الفُلانية .. والطَّائفة الفُلانية ... دون تمييز بين الحق والباطل ودون تمييز بين الخطأ والصواب والهدى والضلال فإنَّنا في طريقنا إلى الضَّياع ليس في أوَّل الطَّريق، بل نحن في آخر الطَّريق.

فهذا الواقع المُؤلِم الذي جَنَتْ منه الأُمَّة ولا تزال تجني من الذُّل والهوان والضَّياع ما لا يعلمه إلَّا الله؛ فإنَّنا ندعو شباب الأُمَّة وشيبها في كلِّ مكان في كلِّ بُقعة من مشارقِ الأرض ومغاربِها إلى أن يعودوا إلى ما كان عليه أسلافُهم

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦ - ١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣، ٤٤) وغيرهم من حديث العرباض بن سارية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «... أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في (ظلال الجنة) برقم (٢٧).

الصالحون الذين كانوا لا يقولون إلا قال اللهُ قال رسول الله ﷺ، والجهلة منهم يرجعون إلى هؤلاء ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾، الذِّكر هو الوحي ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فكان علماؤهم يُرَبُّون الأجيال على قال اللهُ قال رسول الله ﷺ، ويجيبون المستفتين بـ: قال اللهُ قال رسول الله ﷺ، ويستنبطون مِنْ قال اللهُ قال رسول الله ﷺ، وليس هناك أحزاب وليس هناك فِرَق، ففتحوا الدُّنيا، ولمَّا فتحوا هذه الدُّنيا ونَصَرَهُم الله -تبارك وتعالى- على أعداء الله على القُوَى الكُبرَى في ذلك الوقت، وَدَخَلَت الشُّعُوب تحت راية التَّوحيد كانوا يُعَلِّمُون العَجَم على اختلاف لغاتِهم ولهجاتِهم وأجناسِهم يُعَلِّمُونَهم قال اللهُ قال رسول الله ﷺ، ويُرَبُّونهم على قال اللهُ قال رسول الله ﷺ، ويُرَبُّونهم على الالتفاف حول هذا القائد محمَّد ﷺ الذي لو كان موسى حيًّا ما وَسِعَه إلَّا اتباعه كما قال ذلك للفاروق عُمر بنِ الخَطَّاب ﷺ حين استكتب شيئًا من التَّوراة فرآه رسولُ الله ﷺ في يدِه فقال: «مَا هَذَا يَا بْنَ الخَطَّاب؟ قال: شيءٌ كتبته من التَّوراة يوافق ما عندنا فقال: أَمُتَهَوِّكُونَ يَا بْنَ الخَطَّاب، والله لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»[1].

والله إنَّ ذلك لحق، وإنَّ عيسى بنَ مريم ﷺ سينزِل حَكَمًا عَدْلًا مُقسِطًا[2] لا يأتي بشريعة إنَّما يُنَفِّذ هذه الشَّريعة التي جاء بها محمَّد ﷺ، ولو جاء جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ما يَسَعُهُم إلَّا اتِّبَاع هذا الرَّسول الكريم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلام-[3]؛ فكيف نستجيزُ أن نتَّبع غيرَه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - فيما

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧ برقم ١٤١٠٤) وابن أبي شيبة (١٧٢) وابن أبي عاصم في «السنة» (٥/ ٢) وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في «ظلال الجنة»، و«الإرواء» برقم (١٥٨٩) (٦/ ٣٤).

(٢) إشارة إلى ما أخرجه البخاري (٣٤٤٨) ومسلم (١٥٥/ ٣٨٨) وغيرهما عن النبي ﷺ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُم ابنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا ...».

(٣) قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (١/ ٥٨٩) يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كلِّ نبيٍّ بعثه من لدن آدم ﷺ إلى عيسى ﷺ-

يخالف الكتاب والسنة؟!

فإنَّ الأُمَّة فعلًا قد تَفَرَّقَت إلى فِرَق وإلى مذاهب شتى ففعلت هذه التَّفرقة وهذا التَّمذهُب وهذه الاختلافات الأفاعيل في هذه الأُمَّة؛ ممَّا جعلهم لُقمةً سائغةً لأعداء الله، وجعلهم يخضعون لأذَلّ الأُمَم؛ أليس بَنُو إسرائيل قد كتب الله عليهم الذِّلة والمَسكَنَة وباءوا بغضب من الله؟!

إنَّ أغلب المسلمين الآن من هذه الأُمَّة أذل من إخوان القِرَدَة والخنازير، لماذا؟ لأنَّ أولئك ضيَّعُوا التَّوراة فأذَلَّهُم الله، وهؤلاء ضيعوا أعظم من التَّوراة فأذلهم الله؛ فيجب أن يخرج المسلمون من هذه الدَّوامة بالاعتصام بكتاب الله وبسنة رسول الله وبفقه سَلَفِنا الصَّالح الفقه الصَّحيح في العقائد، وفي العبادات، وفي السِّياسة، والأخلاق، وفي كلِّ ميدان من الميادين، وإلَّا فإنَّ الأمر سيزداد شِدَّةً ومَرَارَةً على مَرَارَةٍ.

ونحن قد لَمَسنَا هذا الذُّل لمسًا باليد، فماذا نريد بعد هذا؟! وإلى متى نتيه في هذه الظُّلمات والقرآن بين أيدينا وسُنَّةُ رسول الله ﷺ بين أيدينا وفيهما النَّجاة وفيهما الضَّمان من الهلاك والذُّل والخِزي؟! ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

فقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ ضمانٌ من الضَّلال وضمان أكيد من الشَّقاء معناه الهداية الكاملة لمن يتبع هذا الهُدَى والضَّمان الكامل من الشَّقاء المُخزي في الدُّنيا والآخرة، وأيُّ خِزي وأيُّ شَقَاء أشَدُّ من هذا الخِزي الذي يعانيه المسلمون؟ وأيُّ ضَلَالٍ أشَدُّ من هذا الضَّلال الذي يعيشه كثير من المسلمين؟ لعقائد

= لهم أن الله أخذ عليهم من كتاب وحكمة وبلغ أيَّ مبلغ ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، ثم نقل عن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم أنهما قالا: ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمدًا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنَّه.

تخالف كتابَ الله، العبادات عند كثيرٍ من النَّاس تخالف العبادات التي جاء بها محمَّد - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - بدءًا من توحيد العبادة؛ باب الأسماء والصِّفات تقوم مدارس على غير كتاب الله وعلى غير سُنَّةِ رسول الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - حتى بَلَغ ببعض أتباع الهوى والإغراق في الضَّلال أن يقول: إنَّ الأخذ بظواهر القرآن والسُّنَّة شركٌ وكُفر!![1]

إلى هذا المنحَدَر انحَدَر كثيرٌ من النَّاس إلى أنَّهم لا يعتقدون أنَّ في كتاب الله الهداية الكاملة فلا يعتمدون في عقائدِهم على قال اللهُ ولا على قال رسول الله ﷺ، يعتقدون فلسفةَ اليونان ومنطِقَهم ويُسَمُّونها بالمعقولات! ويُحَرِّفُون كتابَ الله لأجل هذه الفلسفة الجاهليَّة التي غَزَتْنا من الغرب!

كثيرٌ من النَّاس يتصوَّر أنَّ الغزو الفكري جاء في هذه القرون المتأخرة؛ بل إنَّ الغزو الفكري جاء من القرون المتقدِّمة يوم أُوذِيَ أحمد بنُ حنبل وإخوانُه من أهل الحق وضُرِبُوا وقُتِلَ بعضُهم من ذلكم الوقت بل وقبله صَدَمَ هذا الغزو الأُمَّة في أصلِ أُصُولها من ذلكم الوقت، وانتشرت الفلسفات وتصوُّف المجوس والرهبان وغيرِهم من ذلكم الوقت؛ فلم يأت الغزو الحديث إلا مكملًا للغزو السابق!!

إن الفِرَق الضَّالة التي أخبر عنها رسولُ الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - وأنَّها كلُّها في النَّار إلَّا ما كان عليه رسولُ الله وأصحابُه هذه الفِرَق بدأت من أواخر عصر الصَّحابة ﷺ ثم انتشرت وتفشَّت في المجتمعات الإسلاميَّة حتَّى صار أكثر المسلمين لا يخرجون عن هذه الفِرَق، وقَلَّ من هو على ما كان عليه رسولُ الله وأصحابُه وهم الطَّائفة النَّاجية والمنصورة.

والآن في هذا الوقت بعد متاهاتٍ طويلة تاه فيها كثير من المسلمين تنتشر فكرة العودة إلى منهج السَّلفِ الصَّالح، وبوُسعِ كُلِّ مسلم طالب للحق قد تسلح بالعلم أن

---

(١) قال الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين عند قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف ٢٣ - ٢٤]: «ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية!! فالخارج عن المذاهب الأربعة ضالٌ مُضِلٌّ، وربما أداه ذلك للكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر!!!»، وانظر الرد عليه في تفسير الإمام محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد ٢٤].

يُمَيِّزَ بين الحقِّ والباطل، وأن يُدرِكَ ما كان عليه رسولُ الله وأصحابُه، وما عليه هذه الفِرَق التي حكم عليها رسولُ الله ﷺ أنها في النَّار؛ «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ إِلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى إلى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ إِلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَة كُلُّهَا في النَّار إِلَّا وَاحِدَة، قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[1]، أمَّا الذين يُؤمنون بهذا الحديث وهو حديثٌ صحيح؛ فهم يَبُثُّونَه في النَّاس ويُحَذِّرُون المسلمين من الهلاك ويَهتِفُونَ بِهم إلى ما كان عليه رسولُ الله وأصحابُه.

وأمَّا أهلُ الأهواء فإنَّهم يتأولون هذا الحديث وإمَّا يدَّعون أنَّه ضعيف لماذا ؟ لأنَّه يبيِّن ما عندهم من الضَّلال، ويشهد عليهم بالهلاك، ولكن لهم مصالح في هذا التَّفَرُّق! لهم أتباع يحتفُّونَ بهم ويُشيدُونَ بمكانَتِهم! فحفاظًا على هذه المكانة وعلى المصالح الماديَّة يُنكرون هذا الحديث ليبقى لهم جاهُهُم! أو يُؤَوِّلُونه حتى يَبقَوا على ما هم عليه من الانحراف!، وحتى لا يتَّضح هذا الحديث فيفضحهم؛ فيقول لهم الشباب أين أنتم من الفِرقَة النَّاجية؟ ولماذا تَتَمادَوْنَ في ميادين الضَّلال؟ ولماذا تكونون من هذه الفِرَق الهالكة؟ فيأتون بمثل تلك التأويلات وبمثل تلك التحايلات؛ حتى تبقى غالبية الأمَّةُ سادرةً في غيِّها بعيدةً عن منهج الله؛ لأنَّ هؤلاء دعاةُ الضَّلال لا يعيشون إلَّا في الظَّلام، لا يعيشون إلا في دوَّامَة المغالطات!

فيا إخوتاه! يجب أن ننتهي، وأن نَضَعَ حدًّا للانقياد لهذه المغالطات، وأن نقول للمحسن: أحسنت وللمسيء أسأت، ونقول لِلمُحِقِّ: أنت مُحِق؛ لأنَّ كتاب الله معك وسنة رسول الله ومنهج السَّلف الصالح؛ فأنت مُحِق ونقُولُ للمبطل: أنت مُبطِل وأنت على باطل، وأنت تقود الأمَّةَ إلى الهلاك والدَّمار؛ فإلى متى ننقاد لأمثال هؤلاء يا أيُّها المسلمون وكتاب الله بين أيديكم، وسُنَّةُ رسول الله ﷺ بين أيديكم، وتفاسير السَّلف بين أيديكم، وعقائد السَّلف بين أيديكم؟! السَّلف الصالح الذين قال الله في شأنهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢) وأبو داود (٤٥٩٦) والترمذي في «الإيمان» حديث (٢٦٤٠) من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن صحيح، وقال: وفي الباب عن سعد وعبد الله بن عمرو وعوف بن مالك.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، أجل والله الذي ينحرف في عقائده وفي مناهج حياته عن كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ فإنه مُشاق للرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ، وإنه متبع لغير سبيل المؤمنين، وسبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن أئمة الهُدَى رضوان الله على الجميع هم المقياس للحق، وسبيلهم مقياس يُميِّز بين الحقِّ والباطل، ووالله ما كان سبيلهم ما كان منهاجُهم إلَّا كتاب الله وسُنَّة رسول الله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

فيا إخوتاه! كفانا أن تنطلي علينا الخُدَع وألاعيب المخادعين ومغالطات المغالطين، كتاب الله بين أيدينا وسُنَّة رسول الله ﷺ بين أيدينا، وبيانها من رسول الله واضح، وعقائد السَّلف واضحة ومنهجهم، وقد هيَّأ الله لها فطُبعَت ونُشرت فمثل هذه الكتب عندكم «البخاري» و«مسلم» وغيرهما من كتب السنة وعندكم «تفسير ابن جرير» وعندكم «تفسير ابن كثير» وعندكم «السنة لعبد الله بن أحمد» وعندكم «السنة لأحمد» وعندكم «التوحيد لابن خزيمة» و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للألكائي و«الإبانة الكبرى والصغرى» لابن بَطَّة و«الشريعة» للآجُرِّي هذه هي التي تُمثِّل سبيل المؤمنين تمثيلًا واضحًا لا غُبارَ عليه.

فعلينا أن نَدرُسَ هذه الكتب حتى نعرف سبيلَ المؤمنين ويستبين لنا سبيلُ المجرمين من هذه الكتب، يستبين لنا سبيلُ المؤمنين ويُفضَح سبيلُ المجرمين، وما أكثر الطُّرق التي يمكن أن تُدان بأنها على سبيل المجرمين.

إنَّ الله -تبارك وتعالى- كما ذكرت آنفًا لم يجعل لك أيَّ اختيار إذا جاء أمرُ الله أو جاء أمر الرَّسول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، لا يَسَعُنا إلا الاتِّباع، ولا يَسَعُنا إلا الاحتكام في قضايا الاختلاف إلى الله ورسوله ﷺ، ولن نكون مؤمنين أبدًا حق الإيمان إلا إذا حاكمنا قضايا الخلاف إلى الله ورسوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، يقول العلماء -علماء اللُّغة-: إنَّ هذا أقوى وأشد وآكد أنواع القَسَم؛ لأنَّ العرب إذا أرادوا أن يُؤكِّدوا القَسَم صدَّروه بأداة النَّفي «لا» هذه وما شاكلها؛ فـ«لا» إذا أتى القَسَم بعدها، كانت لتأكيد القَسَم ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما في

قوله ﷻ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١].

«لا» النَّافية والقَسَم بعظمة اللَّه وجلاله على عدم إيمان من لا يُحَكِّمُ رسولَ اللَّه حتى يُحَكِّمُوا رسولَ اللَّه، ولا يكفي هذا التحكيم أبدًا حتى تنشرح الصُّدُور بحُكم رسول اللَّه - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام -، وترضى به وهذا لا يكفي حتى يسلِّم تسليمًا كاملًا لرسول اللَّه ﷺ، وأكَّد الفعل «يُسَلِّمُوا» بالمصدر، تأكيداتٌ كثيرة: قَسَمٌ باللَّه بذاته العظيمة، أكَّده بالقَسَم المؤكَّد، أكَّد الفعل بالمصدر، تأكيدات عظيمة على نفي إيمان من لا يُحَكِّم هذا الرَّسول الكريم ﷺ، فهل حَكَّمَ كثيرٌ من أهل الأهواء رسول اللَّه ﷺ فيما خالفوا فيه كتابَ اللَّه وسُنَّة رسول اللَّه ﷺ؟ كلَّا واللَّه لو حَكَّمُوا رسولَ اللَّه ﷺ لانتهت هذه الخلافات، ولقد أحالنا اللَّه على شيء وإنَّ فيه فَصلًا كاملًا للخلافات، وحُكمًا حَسِمًا في قضايا الخلاف.

فاللَّه عليكم! نأتي إلى قضيتين رَكَّز عليهما القرآن والسُّنَّة جاءت فيهما نصوص كثيرة، نرى منهج السَّلف في جانب ونرى أهل الأهواء في جانب آخر، قد يشترك عشرات الفِرَق في بدعة من البدع وفي ضلالة من الضَّلالات وينشأ على هذه الضَّلالات أجيال وأجيال، وتُنشأ لها مدارس، ويبقى هؤلاء ثابتون على ما هم عليه من الضَّلال ومن المخالفة الواضحة لما جاء به محمَّد ﷺ كتابًا وسُنَّة.

ولابن الوزير اليماني في كتابه «إيثار الحق على الخلق» كلام جيِّد يُكتب بماء الذهب - أرجو أن يفهمه كلُّ شاب وأن يحفظه -، قال وهو يناقش المعتزلة والأشعريَّة وغيرهم من الفِرَق التي حادت عن المنهج الإسلامي الحق، وعن القرآن والسُّنَّة، ما معناه: «إنِّي لأتعجَّب ممن ينتمي إلى أهل السُّنَّة أن يُنكِرَ صفة الرَّحمة - صفة رحمة اللَّه ﷻ - يؤولها بالإحسان وينفر من الرَّحمة لأنَّ الرحمة رِقَّة وضعف في نظره» قال: أتعجَّب لهؤلاء، هذه الصِّفة التي وَرَد ذكرها في القرآن في أكثر من خمسمائة موضع مُؤَكَّدة ومُكَرَّرة(١)، يشير إلى قاعدة أو قاعدتين عند

---

(١) قال رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ١٢٥-١٢٦): «وذكر اللَّه تعالى التمدح بالرحمة مرارًا جمة أكثر من خمسمائة مرة من كتابه الكريم منها تسميته الرحمن أكثر من مائة وسبعين مرة وتسميته الرحيم أكثر من مائتي مرة، وجمعهما بالتأكيد مائة وست عشرة مرة، وأكد الرحيم بجمعه مرارًا مع التواب ومرارًا مع الرؤوف، والرأفة أشد

النحويين والبلاغيين وهو أنَّ التكرار يرفع احتمال المجاز، والتأكيد كذلك يرفع احتمال المَجاز، كيف؟ اقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فيه تكرار وتأكيد في نفس الوقت الهدف منه إثبات صفة الرَّحمة لله -تبارك وتعالى- ما اكتفى باسم الرَّحمن أكَّدَه بالرَّحيم، هذا عند العرب يثبت هذه الصِّفة ويرفع احتمال المجاز؛ لأنَّ فيه تأكيدًا، وهذا الأسلوب أسلوب عربي، ذكر الرَّحمة ثمَّ أكَّد بذكرها مرَّةً أخرى، هذا عند العرب يرفع احتمال المجازات.

كيف احتمال المجاز؟ يقولون لك: إنَّه إذا قال شخص: «جَاءَ زَيْدٌ، جَاءَ عَمْرو، جَاءَ بَكْرٌ، جَاءَ عَلِيٌّ» وسَكَت، احتمل الحقيقة واحتمل المجاز، يحتمل أن يكون جاء بنفسه ويحتمل أن يكون أرسل رسولًا أو كتب كتابًا، لكن إذا قال: «جَاءَ زَيْدٌ جَاءَ زَيْدٌ» هذا يُسمُّونَه تأكيدًا لفظيًّا، ارتفع احتمال المجاز وثبتت الحقيقة وهو أنَّ زيدًا قد جاء فعلًا، وإذا أكَّدَه تأكيدًا معنويًّا فقال: «جَاءَ زَيْدٌ نَفْسُه» أو «جَاءَ زَيْدٌ عَيْنُه» ارتفع احتمال المجاز وثبتت الحقيقة، هذا الذي يشير إليه ابنُ الوزير في كتابه «إيثار الحق على الخلق».

* الرحمة ومرَّ مع المعوز وهي أكثر، عرفت منها سبعة وستين موضعًا، والأمر أنه كتب على نفسه الرحمة مرتين، وأنه لا عاصم من أمره إلا من رحم، وأن من لم يرحمه يكون من الخاسرين، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم، وإنَّ النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم، وأنَّه ذو رحمة واسعة إلى غير ذلك من صيغ المبالغات القاضية بأنَّ ذلك من أحب الثناء والمدائح والمحامد إليه ﷻ، وبذلك نطقت الملائكة الكرام في مدائح الرب سبحانه بذلك فأوردت أبلغ صيغ المبالغات فقالت ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، ومدح الله ذاته الكريمة بهذه الصيغة البليغة فقال ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وفي كتاب سليمان ﷺ الذي حكاه الله عنه في كتابه الكريم لشرفه العظيم ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وحكى الله نحو ذلك في كتابه الكريم عن إبراهيم ويعقوب وموسى وأيوب وصالح وعيسى بن مريم ﷺ دلالة على اتفاق الأديان النبوية الأولى والأخرى على مدح الله تعالى بذلك وخاطب الأنبياء ﷺ بذلك جفاة الأجلاف من المشركين ونحوهم ممن لا يفهم دقائق الكلام فصرفه إلى مقاصد أهله فقال الخليل ﷺ في خطاب أبيه ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، وكان هارون عليه السلام بعد العجل ما ذكره الله عنه ومدحه به حيث قال ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، وكتب كذلك سليمان إلى بلقيس وقومها وأمر الله تعالى في كتابه الكريم بالفرح برحمته والفرح بها فرح التصديق بها فقال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، وفي عطفها على فضله دلالة على المغايرة بينهما وذلك خلاف ما يقول من تأولها».

طيِّب إذا قال الله -تبارك وتعالى- في صدرِ القُرآن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ هذا يكفي لإثبات أنَّ لله هذه الصِّفة العظيمة صفة الرَّحمة، وتتبدَّد دعوى المجاز واحتمالات المجز، إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تأكيدٌ وتكرار.. إذا صدَّر كلَّ سورة من السُّور بـ«بِسْم الله الرَّحمَن الرَّحِيم» إلَّا سورة براءة، إذا خَتَم كثيرًا من الآيات بصفة الرَّحمة والرَّأفة هل يبقى هناك مجال للتأويل أو للمجاز أو لشيءٍ من هذا؟!

أمَّا الذي يحتكم إلى الله وإلى رسولِه فيكفيه نصٌّ واحد من هذه النُّصوص لإثبات هذه الصِّفة صفة الرَّحمة التي وَسِعَت كلَّ شيء، فهل رحمة الإنسان وَسِعَت كلَّ شيء؟! رحمة الإنسان ما تَسَعُ نَفْسه! ورحمة الله وَسِعَت السَّموات والأرض والملائكة والجن والإنس...، فهل هناك نظيرٌ لهذه الرَّحمة حتى نضطر إلى تأويلها أو تحريفها أو تعطيلها؟! كلَّا والله؛ فالمؤمن الصَّادق الذي يؤمن بكتاب الله وسُنَّة الرَّسول يعتقد أنَّ لِله رحمةً وَسِعَت كلَّ شيء، وأنَّ كلَّ ما تراه من الخير في السَّموات والأرض وفي الدنيا والآخرة من آثار رحمة الله -تبارك وتعالى-، وكل ما تجده من الرَّحمة في قلوب النَّاس والحيوانات والملائكة وغيرها جزء واحد من مائة جزء من آثار رحمة الله -تبارك وتعالى-، فهل يلتبس في مثل هذه الصِّفة صفة المخلوق بصفة الخالق أو يتصور عاقل أن هناك مشابهة بين صفة الخالق والمخلوق حتى يضطر إلى التأويل؟!

أمَّا الذي يؤمن بصفات الله -تبارك وتعالى- على هذا الوجه فإنَّه والله لا يحتاج إلى تأويل ولا إلى تحريف، بل يضطر بسبب هذا التكرار الكثير لهذه الصِّفة العظيمة إلى التصديق والإيمان الجازم بأنها ممَّا مدح الله به نفسه ويحبُّ أن يمدحه بها عبادُه، فما وصف الله نفسه بأدنى أدنى شيء من النقص ولو مرَّةً واحدةً فضلًا عن تكرارها.

وأضرب لكم مثالًا: نَسَبَ اليهود إلى الله الولد وقالوا: عزير ابن الله، النَّصارى نَسَبُوا إلى الله الولد وقالوا: عيسى ابن الله، ونَسَبَ العرب الملائكة إلى الله وقالوا: إنهم بنات الله، ماذا قال الله -تبارك وتعالى-؟ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ [مريم: ٨٩ - ٩٣]، الشاهد أنَّ هذه الصِّفة فيها نقص قال الله فيها: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وكم نَعَى باللائمة على من ينسبون لله الولد فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥].

﴿جُزۡءًا﴾ قالوا: عيسى ابن الله، وقالوا: عزير ابن الله، وقالوا: الملائكة بنات الله ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾؛ أنكر الله هذا أشدَّ الإنكار، لماذا؟ لأنَّ فيه نَقْصًا لله -تبارك وتعالى-؛ فإذا كان يستنكر هذا -أي: نسبة الولد إليه- بهذا الأسلوب العظيم القطيع، ونسبة الولد لغير الله كمال ولكنَّه بالنسبة لله نقص فأنكره الله أشدَّ الإنكار فكيف يمدح نَفْسَه بصفة فيها النَّقص ويكرِّره مئات المرَّات؟! كلَّا والله، هذا مثالٌ واحد مما حاد أهلُ الأهواء عن الاحتكام إلى الله فيه، ويُضلِّلون السَّلف وفيهم الصَّحابة وفيهم الرَّسول ﷺ، ويقولون للذي يؤمن بهذه الصِّفة مجسِّم مشبِّه مع الأسف الشَّديد! وقد يُكفِّرون من يُثبت لله هذه الصِّفة!

يأتيك مثل آخر: الله -تبارك وتعالى- مَدَح نَفْسَه بأنَّه استوى على العرش في سبع آيات في القرآن صريحة في الاستواء على العرش، والآيات: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، في عشرين نوع من الأنواع تجمع عددًا من النُّصوص تثبت عُلُو الله -تبارك وتعالى- بالإضافة إلى أدلَّة الفطرة وإلى أدلَّة العقل، كلُّ هذه الأشياء تتواكب بإثبات هذا الوصف لله -تبارك وتعالى-، فيأتي كثيرٌ من الفِرَق المنحرفة عن القرآن والسُّنَّة وعما كان عليه السَّلف الصالح.

يروي البخاري والبيهقي[1] وغيرهم عن الأوزاعي أنَّه قال: «كُنَّا والتابعون

---

(١) في كتابه «الأسماء والصفات» ونقله عنه الذهبي في «العلو للعلي الغفار» وقال: إسناده جيِّد، ونقله ابن القيِّم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٦٨) وقال: إسناده صحيح، وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٤٥٠).

متوافرون يقول: إنّ الله -تبارك وتعالى- في السّماء وعلى العرش استوى[1].

التابعون متوافرون يقولون هذا، هذه عقيدة التابعين، والتابعون أخذوها من الصّحابة، والصّحابة أخذوها من نبي رسول الله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- ومن القرآن والسُّنَّة.

وجاء الجهم بن صفوان وقال: إنّ الله في كلّ مكان، وجاء ناسٌ آخرون وأغرقوا في الضّلال فقالوا: إنّ الله لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا داخل العالم ولا خارجه!! وهذه الصّفات لا تصدق إلا على المعدوم -وَالعِيَاذُ بِالله-؛ فهذه الشّبهات الكثيرة التي أنكروا بها وجود الله -تبارك وتعالى- من حيث لا يدرون؛ لأنهم وإن كانوا يؤمنون بوجود الله إلا أنّهم وصفوه بصفات العدم؛ بل يقولون وصفوه بوصف المستحيلات لا بصفات العدم!

والله عليكم! هؤلاء لو كانوا ينشدون الحق والله لوجدوه في كتاب الله، ووجدوه في سُنّة رسول الله ﷺ، ووجدوه في تفسير أمناء وسادة وفقهاء هذه الأمّة، فالذي يقرأ في «تفسير ابن جرير» و«تفسير البغوي» و«تفسير ابن كثير» يجد النُّقول بالأسانيد الثابتة إلى رسول الله ﷺ وإلى صحابته الكرام ﵃ وإلى أئمّة التابعين في إثبات هذه الصّفات.

وألّف البخاري كتابًا سمّاه «خلق أفعال العباد» يثبت فيه صفات الله -تبارك وتعالى-، وأنّ القرآن كلام الله ﷻ، وينقل كلام السّلف فيمن ينكر علو الله -تبارك وتعالى-، بل ينقل تكفيرَه ويقول: إنّي أتعجب ممن يشك في كفر الجهمية[2]! لماذا يُكفّرُهم؟ لأنّهم عطّلوا صفة العلو لله -تبارك وتعالى- وعطّلوا غيرها.

---

(١) قال عباد بن العوام: قدم علينا شريك بن عبد الله منذ نحو من خمسين سنة فقلت له: يا أبا عبد الله، إن عندنا قومًا من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث: «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا»، و«إنّ أهل الجنة يرون ربَّهم»، فحدّثني شريك بنحو من عشرة أحاديث في هذا، ثم قال: أمّا نحن فأخذنا ديننا عن أبناء التابعين عن الصحابة، فهم عمن أخذوا؟ وقد صححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «مختصر العلو للعلي الغفار».

(٢) قال أبو عبد الله البخاري: «نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيت أضل في كفرهم منهم، وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم». خلق أفعال العباد.

ولكنه يأتي على رأس قائمة هذه الصفات إنكار صفة علو الله؛ فكانوا إذ كفّروا جهمًا إنما يُكفّرونه لأنه أنكر علوّ الله واستواءه على عرشه، وتجد كثيرًا من المدارس التي تنتمي إلى السُّنَّة على هذا المذهب الجهمي الضَّال! ويقرءون كتب التفسير وكتب الحديث وكتب العقائد؛ كتب عقائد الأئمة المعتبرين عند الأمة حتى إنَّ هؤلاء لَيُسَلِّمون بعدالة وجلالة هؤلاء الأئمة الذين نقلوا لنا عقائد السَّلف التي كان عليها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﷺ!

يا إخوتاه! هذان مثلان من أمثلة كثيرة جدًّا تاهت فيها كثيرٌ من الفِرَق وهذه الفِرَق - مع الأسف - يوجد فيمن ينتمي إلى السُّنَّة من يدافع عن هذا الضَّلال، ويرى أنَّ الأمَّة تجتمع يكفيها أن تجتمع على عِلَّاتها، حتى الرَّوافض يدخلون في هذا التجمع، وغلاة الصُّوفية يدخلون في هذا التجمع، ويريدون أن يجمعوا الأُمَّة على الباطل، ويرون أنَّ هذا التجمع يكفي الأُمَّة، ويضمن لها عِزَّتها وسعادتها ونجاتها في الدُّنيا والآخرة!

وليس واللهِ هذا هو طريق الإصلاح، طريق الإصلاح الذي دعا إليه كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ وسَلَفنا الصَّالح: هو أن نُثَبِّتَ النَّاس على كتاب - تبارك وتعالى -، ونُمَسِّكهم بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، ونبذل كلَّ ما نستطيع من جهد في إنقاذ هذه الفِرَق الهالكة من ضلالها، ونحاول أن نعيدها إلى المنهج الحق وإلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﷺ؛ ذلكم الوصف الذي خصَّ به رسول الله ﷺ تلكم الطائفة التي بقيت على ما كان عليه رسول الله ﷺ.

فيا أيها الشباب! ابحثوا عن عقائد رسول الله ﷺ، وعن سياسة رسول الله ﷺ، وعن أخلاق رسول الله ﷺ، وعن عبادة رسول الله ﷺ؛ فالصَّحابة والخلفاء الرَّاشدون ﷺ ما كانوا إلَّا على هذا المنهج، وتَمَسَّكوا به وعَضُّوا عليه بالنَّواجذ، واحذروا البدع التي حَذَّر منها رسول الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام -، وَحَذَّرَ منها سادة هذه الأُمَّة وخيرُها، ووَقَفوا للمبتدعين بالمرصاد يُفَنِّدُون ما عندهم من البدع، ويحَذِّرُون منهم، وحافظوا على كيان أهل السُّنَّة والجماعة قرونًا، ثم حصل الاسترخاء وحصل التراخي، وجاءت القرون التي قال فيها رسول الله ﷺ بعد أن ذكر القرون المُفَضَّلة: «... ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُون،

وَيَخُونُونَ وَ لَا يُؤْتَمَنُون، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُون وَيَظْهَرُ فِيهِم السِّمَن»[1] لمَّا جاء دور هؤلاء حصل منهم الاسترخاء؛ لأنهم لا يهتمون إلا بالدُّنيا إلَّا من عَصَمَه الله وحَفِظَ من أفراد قليلين، فاختلط الحابل بالنَّابل وسادت البدع في المجتمعات الإسلامية مع الأسف الشديد، وسادت عبادة القبور، وساد الحلول ووحدة الوجود والخرافات، حتى صارت مظاهر الشرك في المجتمعات الإسلامية أكثر مما يشاهده العاقل في بلدان اليهود والنَّصارى!

فكم - بالله - من قبر يُعبَد في أوربا وأمريكا؟! وكم - بالله - قبرًا يُعبَد في بلاد اليهود؟! اعْدُدْ القبور المبثوثة في آفاق العالَم الإسلامي! تجد مساجد مليئة بالقبور رغم أنَّ رسول الله ﷺ لَعَن أشدَّ اللَّعن وحَذَّرَ أشدَّ التحذير من اتخاذ القبور مساجد فقال ﷺ «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّه عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِد»[2]، «لَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد»[3]، الحديث في الصحيحين من رواية عائشة وابن عباس رضي الله عنهما، وقال تعليقًا على هذا الحديث «يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»، يعني يحذِّر هذه الأمَّة ما صنعت اليهود والنَّصارى.

اليهود والنَّصارى يكرمون الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ويحتفون بهم كثيرًا ويُعَظِّمونهم، ومن هذا المنطلق بَنَوْا عليهم وجعلوا قبورَهم مساجد، فماذا استحقوا من الله -تبارك وتعالى- ؟ استحقوا من الله الغضب واستحقوا من الله اللَّعن، فمن يفعل فِعْلَهم ماذا يستحق من الله؟ يستحق أشدَّ منهم! من اللَّعن والمقت والغضب.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري ك/ الرقاق: باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم(٦٤٢٨)، ومسلم ك/ فضائل الصحابة: باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم (٢٥٣٥/ ٦٤٢٢)

(٢) رواه مالك في (الموطأ) برقم (٤٦٦) [٥، ١٧٥ التمهيد] عن عطاء بن يسار مرسلًا، وعبد الرزاق (١/ ١٠٦) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥) عن زيد بن أسلم مرسلًا كذلك، ووصله أحمد (١٣/ ٨٦) وغيره عن أبي هريرة ﷺ ولفظه «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا، لَعَنَ اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد» وجزؤه الأول حسن وجزؤه الثاني صحيح.

(٣) متفق عليه (خ/ ٤٤٣٤/ ٤٤٤٤) ك/ المغازي: باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (م/ ٥٣١/ ١١٨٧) ك/ الصلاة: باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد.

هذه النصوص في الصحيحين وفي غيرها والمسلمون يقرءون الصحيحين للبركة! وقد يقرءون الصحيحين عند هذه القبور في المساجد ولا يتصوَّرون أبدًا أنَّ هذا التحذير يتناولهم قبل اليهود والنَّصارى! وأنَّ هذا اللَّعن قد يَنصَبُّ عليهم أكثر مما ينصب على اليهود والنَّصارى! أجل - واللَّهِ - يقرءون «البخاري» و«مسلم» للبركة في مساجد تشاد فيها القبور! فماذا يستحقون من الله؟ هذه القبور ماذا يصنع عندها؟ - واللَّه - يُطَاف بها ويُركَع لها، ويُسجَد لها، وتُحَب أكثر من اللَّه، وتُخشى أكثر من اللَّه -تبارك وتعالى-، وتُقَدَّم لها القرابين أكثر مما تُقَدَّم للَّه -تبارك وتعالى- هذا هو الحاصل، ويُحلَف بها، ويجرؤ كثيرٌ من المتعلقين بهذه القبور أن يحلف باللَّه كاذبًا ولكن لا يجرؤ أن يحلف بهذا الولي؛ لأنَّه يعتقد فيه أنه يبطش به أكثر مما يبطش اللَّه به! هذا شيء موجود وشيء ملموس.

ونحن - واللَّه - شاهدنا بهذه الأعين وعندنا الشهود العدول، رأينا الطواف حول هذه القبور والركوع والسجود والبكاء - واللَّه - كأنَّني الآن أشهد منظرًا فظيعًا جدًّا: دخلنا مسجدًا فيه خمسة قبور في - دلهي - بقرب مركز جماعة التبليغ ما بينها وبينه إلا بضعة أمتار! وجاء شخص صاحب وفرة عليه إزار ورداء بصفة الإحرام؛ بل هو محرم لهذه القبور، وأتى إلى أكبر هذه القبور - قبر نظام الدِّين - وخرَّ - واللَّه - له ساجدًا! وسجد طويلًا طويلًا! ثم قام يمشي إلى الوراء حتى وصل إلى عتبة القُبَّة ثم خرَّ ساجدًا مرَّةً أخرى! ونحن مشدوهون - أنا وعبد الرَّزاق ابن الشيخ عبد المحسن العباد وعبد الرَّب نوَّاب - من هذه المناظر المفظعة المخزية، فجاءنا رجل يهدر كالجمل لا ندري ماذا يقول يصيح علينا بالأوردية، فسألنا عبد الرَّب نوَّاب: ماذا يقول هذا؟ قال: يستنكر وقوفنا كيف تتفرَّجون والنَّاس في عبادة؟!، لماذا لا تعبدون؟ العبادة لهذه القبور!

هذا له أمثال لا حصر لها ولا عد في حياة المسلمين، تقوم بعض الدعوات، وتنتشر في مشارق الأرض ومغاربها ولا تنكر من هذا شيئًا، ويربتون على أكتاف هؤلاء القبوريين، ويقولون لهم: أنتم مسلمون، وتعالَوا نجتمع ضد اليهود والنَّصارى، كانوا يجمعون النَّاس باسم محاربة الاستعمار، والاستعمار قد خرج من مصر، وخرج من السُّودان، وخرج من دول المغرب، وخرج من باكستان،

وخرج حتى من الهند، هذه اللعبة التي يضحكون بها على عقول الناس؛ فباكستان تحررت أصبحت دولة إسلامية، فكأنما تفرغ جل أهلها لعبادة القبور وتشييدها! وأقوى الدعوات قائمة فيها، دعوات سياسية أو صوفية والسلفيون قلة، وإذا جاءت الانتخابات تذهب هذه الجماعات السياسية ليضعوا الزهور على هذه القبور ليكسبوا الأصوات! والسياسيون أو دعاة الصوفية والخرافة يشاركون الطائفين بهذه القبور باسم الحكمة في الدعوة! ولا ينكرون من هذا شيئًا، ولا يغيرون منه شيئًا، وهو - والله - شرك يفوق شرك أبي جهل!

زرت - بنقلاديش - فجاءني أحد خريجي الجامعة الإسلامية وقال: لأطوفن بك الليلة على اثني عشر قبرًا ترى فيها مشاهد فظيعة ما رأت عيناك مثلها؛ فذهبنا وكان المشوار طويلًا فجئنا إلى مسجد فيه قبر عليه مقصورة من أفخر أنواع الخشب، والعشرات من الناس مُجندَلين صرعى حول القبور باكين خاشعين، وهذا راكع وهذا ساجد، و السوق حول هذا المسجد قائم لشراء الزهور والنذور والخرافات...!.

ورأيت منظرًا آخر مُفظعًا - مع الأسف الشديد - فقلت - والله -: لو رأى أبو جهل هذه المناظر لخجل منها! ما كانت قريش تفعل هذا؛ ما كانوا يصلون إلى هذا المنحدر السخيف السحيق، هذا يفعله أناس يقولون: إنهم مسلمون؛ في بلد ما في الهند بالذات في - حيدر آباد - رأيت قبرًا على حافة الطريق يقابله تمامًا وثن للهنادك، هذا الوثن يمرُّ به الوثنيون يقولون هكذا، أي يسلِّمون وينصرفون، أمّا القبر فبُنِيَت عليه قُبَّة وعليه تابوت مجلَّل بالحرير والبخور من أفخر أنواع البخور من العود العالي يتصاعد، والنّاس عاكفون خاشعون حول هذا القبر، قلنا لهم: هؤلاء ماذا يقولون للوثنيين؟! إلى ماذا سيدعون؟! ما هو الإسلام الذي سيدعون إليه؟! سيجيبونهم: والله أنتم تعبدون الأوثان أكثر منّا! أنتم وثنيون غارقون في الوثنية أكثر منّا!...

وشيءٌ كثير وكثير ودعوات تقوم لا تحرِّك أيّ ساكن من هذا الوباء

ونحن إذا استعرضنا القرآن الكريم نجد دعوات الأنبياء -عليهم الصلاة

والسلام - أوّل ما تتجه إلى محاربة هذا اللّون من الشرك بالله قبل الانحراف الذي يزعم محاربته السياسيون! وقبل غيره من الانحرافات، أوّل ما يبدءون به من الإصلاحات في عقائد النّاس وفي دين النّاس وفي حياة النّاس هو محاربة الشرك الذي يعيش عليه كثيرٌ من المسلمين.

والأحزاب الإسلامية والتكتلات الإسلامية لا تمس هذا الشرك وهذا الضّلال وهذه الخرافات لا من قريب ولا من بعيد، كانوا في السّابق يجمعون النّاس لمواجهة الاستعمار، وقد خرج الاستعمار العسكري، والآن يضربون للنّاس على هذا الوتر والنّاس أغبياء في غاية الغباء وفي غاية البلادة؛ حتى لو جاءوا إلى بلاد التوحيد يقولون لهم: نحارب الاستعمار، بلاد ليس فيها استعمار ولا فيها شيء وأهلها أهل توحيد!! يخرّبون عقائدَهم ويفسدونها باسم محاربة الاستعمار! والنّاس ما يدركون هذه الألاعيب وهذه الحيل وتنطلي عليهم؛ فيتيه كثير من شبابنا ويصبح مستخفًّا بعقائد التوحيد وبدعوة التوحيد وبالدّعوة إلى هذا المنهج وإلى طريق الطائفة النّاجية؛ هذه دعوة مسكينة، يقولون عنها: الشرك.. بدعة، الشرك.. بدعة.

إي والله؛ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كلّهم جاءوا يقولون: الشرك.. بدعة، نوح ﷺ لبث ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعو إلى التوحيد ويحارب الشرك، ونحن نحارب الشرك ونحارب البدع ونحارب الضّلالات على المنهج السّلفي، ونريد لهؤلاء أحلاس القبور أن يرفعوا راية التوحيد ويخرجوا من هذه الدوّامة.

وتجد الكثير من الدّعوات تقاومك، ليتها تسكت وتمشي في طريقها وتترك لك المجال فسيحًا لتنقذ بإذن الله هؤلاء الهالكين الذين شهد عليهم رسول الله ﷺ بالهلاك، ليتهم يشتغلون بالاستعمار الخيالي! ويفعلون ما يريدون، ويتركون المجال مفتوحًا أمام من يريد هداية هذه الأمّة إلى التوحيد وإلى منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وإلى دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام أجمعين-.

ونقول مرّة أخرى: قال الله ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فكان رسول الله ﷺ يحذِّر من البدع وليس ثمّة بدع، وفي زماننا آلاف البدع تنتشر وعلى رأسها تعطيل صفات الله وأسمائه، وعلى رأسها عبادة القبور، وعلى رأسها خرافات لا أوّل لها ولا آخر، فكيف يُستنكَر على من يحارب البدعة بالأخذ والرّد فيها؟!

وأنت تجد جُلَّ خُطَب رسول الله ﷺ أو كلَّها يفتحها بقوله ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كَلَامُ اللهِ وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1]، - والله - ما كان يومئذ مبتدعة؛ لكن لماذا كان رسول الله ﷺ يُكرِّرُ ويؤكِّد وفي كلِّ خُطَبه يقول هذا الكلام؟ - واللهِ - لأنَّ البدع شرُّ الأمور، لماذا؟ لأنَّ هذا المبتدع مُستدرِك على الله -تبارك وتعالى- قال الله ﷻ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ لأنَّ هذا العمل المُبتَدَع لا يقبله الله - حتى لو كان صلاةً ما دامت مُبتَدعةً .

ومن ذلك صلاة الرغائب، فقد قال العلماء فيها منهم ابنُ الصلاح والنَّووي وابن عبد السلام وابن تيمية وأبو شامة، قالوا: إنَّ هذه من أخبث البدع، وهي صلاة وقراءة قرآن، لماذا؟ لأنَّ رسول الله ﷺ ما شرع هذه الصَّلاة، ونحن لا نعبد إلَّا الله، ولا نعبده إلا بما شرع على لسان محمد ﷺ.

فإذا جاء إنسان كائنًا من كان يشرع لنا عبادة غير ما جاء به محمد - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فإنها تكون بدعة، وتكون ضلالة، وتكون شرًّا؛ لأنَّ هذا الدِّين كامل لا يحتاج إلى من يضيف إليه جديدًا أبدًا؛ قال الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فهذه البدع، هذه القبور هذه الشركيات كانت الشغل الشاغل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- جميعًا على مدار التاريخ.

---

(١) متفق عليه (خ/ ٤٤٣٤/ ٤٤٤٤) ك/ المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (م/ ٥٣١/ ١١٨٧) ك/ الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد

- والله - إنَّ رسول الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - كان يبعث إلى تسوية القبور وإلى هدم الصُّوَر[1] في آنٍ واحد - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام -

وفي مرض موته - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - في آخر لحظات حياته يغطي رأسه بخميصة كما قالت عائشة وابن عباس رضي الله عنهم: فإذا اغتمَّ بها كشفها ويقول ﷺ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[2].

وقبل أن يموت بخمس كما في صحيح مسلم[3] عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنَّ رسول الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - قال: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ؛ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»، يخاف رسول الله ﷺ أنْ يُتَّخَذَ قبرُه مسجدًا وفهموا أنه يُحذِّر وكان يقول في حياته ﷺ «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي»[4] قالت عائشة رضي الله عنها: «وَلَوْلَا ذلكَ لأُبرِزَ قبرُه غير أنَّه خُشِيَ أن يُتخذَ قبرُه مسجدًا»، فاجتهدوا أين يدفنوه، فإذا دفنوه في البقيع اتُّخِذ قبرُه مسجدًا، أين يذهبون إذن؟ قالوا: ندفنه في بيته، اهتدوا إلى هذا، وفيه نظر أيضًا ولكنّها أدنى المفاسد؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان قد نهى عن البناء على القبور، ونهى عن تجصيص القبور[5] - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - ، ونهى عن الصلاة إلى القبور[6]، فوجدوا أحوط شيء أن يُدفَن في هذا

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه مسلم ك/ الجنائز، باب الأمر بتسوية القبور، برقم (٩٦٩، ٢٢٤٠، ٢٢٤١) من حديث أبي الهيَّاج الأسدي قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ «أَلَّا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ» وفي رواية: «... وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا».

(٢) سبق تخريجه (ص ١٣٦).

(٣) ك/ المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، برقم (٥٣٢/ ١١٨٨)

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود في (سننه) ك/ المناسك، باب زيارة القبور برقم (٢٠٤٢) وأحمد (٢/ ٣٦٧)

(٥) أخرجه مسلم ك/ الجنائز، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه برقم (٩٧٠/ ٢٢٤٢) من حديث جابر رضي الله عنه ولفظه: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ».

(٦) أخرجه مسلم ك/ الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه برقم (٩٧٢/ ٢٢٤٧) من حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه ولفظه: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا».

النبي - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْه - من أن تفتتن الأمة.

وبعد دفنه ﷺ ما كان الصحابة يقربون هذا القبر؛ أولًا: لأنه نهاهم أن يتخذوا قبره عيدًا، وثانيًا: لأن عائشة ﷺ كانت تسكن في هذه الحجرة إلى غاية عام ثمان وخمسين، هذا صنعوا بعد موت الصحابة - رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ -؟ وانظر ماذا يصنع المسلمون الآن عند قبر الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام ! - ، جاء الوليد بن عبد الملك وكان ملكًا جبَّارًا، وكان مُغرَمًا ببناء المساجد وغيرها، وأراد أن يُوسِّع مسجد الرَّسول الكريم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - فقال: اشتروا حُجُرَات النبي ﷺ، وأدخلوها في المسجد فبكى بعض التابعين لهذا التصرُّف، الصحابة قد انقرضوا فلم يبق إلا بعض صغارهم، أرادوا أن يبقى قبر الرَّسول ﷺ على وضعه، ولكن هذا الرَّجل فرض رأيه، وأُدْخِلَت الحُجُرَات بأمره في المسجد، وكان قائمًا على هذا العمل عمر بن عبد العزيز فبنى عليه بناءً مُثلثًا حتى لا يمكن استقبال القبر، يَحْسِم به الفتنة في حدود طاقته.

ثم جاء عصر المماليك وبنوا هذه القُبَّة التي تشاهدونها، - والله - هذا ليس عمل الرَّسول ﷺ، ولا أمَرَ به، ولا يرضاه، ولا من عمل الصَّحابة، وقد اجتهدوا غاية الاجتهاد في درء الفتنة - رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ -، ولكن - مع الأسف - حصل ما حصل، وقبل ذلك شُيِّدَت القبور على أيدي الرَّوافض.

أمَّا أهل السنَّة ما كانوا يعرفون البناء على القبور، إنَّما ابتدع هذه البدعة الرَّوافض، ثم ورثها منهم باطنية الصوفية الذين ظاهرهم التصوُّف والتسنن وفي باطنهم زندقة وإلحاد ورفض - مع الأسف الشديد -، فهؤلاء تتبَّعوا القبور وبنوا عليها وشيَّدوها وشدُّوا الرِّحال إليها، وأقاموا الاحتفالات والأعياد... إلى آخر الأباطيل والضَّلالات التي يعيشها أكثر المسلمين اليوم، كلُّ ذلك تسرَّب إليهم عن طريق الرَّوافض العُبيديين الذين قال فيهم علماء الإسلام: ظاهرهم الرَّفض وباطنهم الكفر المحض هؤلاء هم الذين سَنُّوا هذه السنَّة الخبيثة.

ثم بعد ذلك انتشرت عبادة القبور وتشييد القبور على أيدي الصوفية في العالَم الإسلامي؛ حتى هذه الجزيرة انتشرت فيها القبور، وعبادة القبور، والذَّبح للقبور،

وشد الرِّحال إليها، والحلف بها، والاستغاثة بها ... إلى آخر ما تشاهده الآن في البلدان الأخرى؛ ولكن الله -تبارك وتعالى- طَهَّرَ هذا البلد على أيدي حملة لواء الدَّعوة السلفية، الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه وإخوانه الذين اجتهدوا وجاهدوا في إقامة العقيدة، وفي إقامة شريعة الله المتكاملة، وكانوا إذا دخلوا بلدًا فيه قبور هدموا تلك القبور تنفيذًا لأمر رسول الله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- الذي كان يبغض رفع القبور والبناء عليها وبناء المساجد عليها أشدَّ البغض، ويلعن في ذلك -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-؛ فكانوا يُنَفِّذون رغبةَ رسول الله ﷺ وأوامرَه وتوجيهاتِه في هدم هذه القبور، وقد هدموا قبورًا ما رأيتموها، ولعلَّ من تقادم بهم السِّن يكونون قد شاهدوا هذه المقابر التي هُدِمَت.

فأنتم الآن يا شباب الإسلام تعيشون تحت راية التوحيد، فعليكم أن تحافظوا على هذه النِّعمة، وأن تدرسوا كتب السَّلف، وأن تدرسوا كتب شيخ الإسلام ابنِ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وكتب الدَّعوة السَّلفية كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه ومدرسته القائمة على الإسلام الحق، والقائمة على المنهج السَّلفي الصحيح التي شوَّهها أعداء التوحيد المنافحون عن الشرك، والمنافحون عن البدع، فأوسعوا هؤلاء ظلمًا ورموهم بهتًا بأنهم كذا وبأنهم كذا حتى جعلوا من علاماتهم أنهم يبغضون رسول الله ﷺ! وكذبوا؛ فلا يُحبُّ رسول الله ﷺ إلا من يأخذ بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ في عقيدته وفي عبادته وفي تعامله وفي سيرته وفي أخلاقه، هذا الذي يحبُّ رسولَ الله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- كما قال ﷺ. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ونحن والله نؤمن أنَّ رسولَ الله ﷺ أفضلُ الخلق.

لقد سألني سائل، وهو معي في السيارة في أثناء الطريق قال: يا شيخ! قلت: نعم، قال: ما رأيك في الصَّلاة على النَّبي ﷺ؟ وكان قد مر عليه ثلاث سنين وهو يرى منهج هذه الجامعة وأنَّه قائم على الكتاب والسنَّة، وأنَّه على منهج السَّلف الصالح، وعلى حُبِّ الرَّسول ﷺ الحب الذي لا نظير له؛ بل يرى المنصف الحبَّ على غير هذا المنهج دعاوى فارغة وأنَّ الحبَّ الحقيقي إنما يتمثل عند حملة هذا المنهج، أقول: فصُعِقْتُ من سؤاله وكدت أن أصرَع، فقلت: أمَا تتقي الله! أتعتقد

فيه أننا نبغض رسول الله ﷺ؟!، ونحرِّم الصَّلاة عليه ﷺ؟! ما هذا يا أخي؟! أنت عشت ثلاث سنوات في هذه الجامعة وعرفت منهجها وعرفت أهلها معرفةً عن كثب ثم الآن تطرح مثل هذا السؤال؟! يا أسفا!

ثم قلت له: هل تعرف كتاب «الصارم المسلول»؟ قال: لا! قلت: كتاب «الصارم المسلول على شاتم الرَّسول ﷺ» ألَّفه ابن تيمية في بيان حقوق رسول الله ﷺ، وبيان حكم من يشتم هذا الرَّسول الكريم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وأنَّ جزاءه القتل ولو تاب؛ فلا تُقبَل منه هذه التوبة، توبته بينه وبين الله، قلت: هذا الكتاب الذي لم يُكتَب مثله في هذا الباب.

ثم قلت: وهل تعرف «جلاء الأفهام في الصَّلاة على خير الأنام ﷺ» لابن القيم؟ قال: لا! قلت: هذا الكتاب لم يُكتَب في هذا الباب مثله في الصَّلاة على رسول الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وقد حاول السَّخاوي وغيرُه أن يكتب مثلَه فما لحقه، هذا في فضل الصَّلاة على رسول الله ﷺ وأنواعها نحن ندين الله بما في هذين الكتابين، ونحن - والله - نحبُّ رسول الله ﷺ أكثر منكم، وهذا الميدان للاختبار؛ من يأخذ بأقوال الرَّسول الكريم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -؟ من يأخذ بهديه؟ من يأخذ بسنته؟ من يأخذ بعقيدته؟

ثم قلت: بالله ما رأيك يا أخي في رجل جاء إلى بلد تُعبَد فيه القبور، والأشجار، والأحجار، ولا تقام فيه الصلاة، ولا تُؤدَّى فيه الزَّكاة، والفوضى فيه سائدة ضاربة أطنابها يسفِكُ بعضهم دماء بعض، ويسطو بعضهم على بعض... ثم جاء هذا الرَّجل وانتشل هذا المجتمع مما هو فيه من الضلال العقائدي والفكري والسياسي والاجتماعي وأقام هو وأنصاره دولة تحكم بشريعة الله وعلى عقيدة إسلامية، أهذا مصلح أم مفسد؟ قال: إنَّه مصلح، قلت له: إنَّ هذا محمد بن عبد الوهاب الذي انطلقتَ من دعوته بمثل هذا السؤال؛ فقال: أستغفر الله أستغفر الله، ثم جعل يُسَجِّل أسماء الكتب التي ذكرتها له.

الشاهد: أنَّ الدَّعوة شُوِّهت، ولا تزال تُشوَّه، ولكن نقول لهم بيننا وبينكم كتابُ الله، وبيننا وبينكم سنَّة رسول الله ﷺ، وبيننا وبينكم ما دَوَّنه السَّلف الصالح

من عقائد وعبادات وغيرها، فمن ينازع في هذا المذهب وهذا المنهج وأنّه الحق؟! - فلله الحمد - هذا كتاب الله قائم يميِّز بين المُحِقِّ والمبطل، ومنهج السَّلف الصالح يؤكِّد ذلك.

وأسأل الله -تبارك وتعالى- لنا ولكم أيُّها الشباب أن يوفقنا وإيَّاكم لاتِّباع رسول الله ﷺ، وسلوك منهج الخلفاء الرَّاشدين، وسلوك طريق الأئمة المهديِّين في عقائدنا، وفي عباداتنا، وفي أخلاقنا، وفي سياستنا، وفي علاقتنا

ونصيحتي الأخيرة لكم: أن تتَّحدوا على منهج الله، وأن يكون لكم موقفٌ شرعيٌ تُجاه كلِّ منهج يخالف هذا المنهج؛ فقد ذكر ابن تيمية رحمه الله وغيرُه الإجماع على وجوب التحذير من أهل البدع وطُرُقِهم[1]؛ لأنَّنا إذا سكتنا وجاملنا أهلَ البدع فإنَّه ستكون النتيجة المُرَّة هي ضياع الأُمَّة، وقد حصل من هذا الشيء الكثير الكثير؛ فإلى النَّصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامتهم، وإلى التمسُّك بمنهج الله والعَضّ عليه بالنَّواجذ.

وفقنا الله -تبارك وتعالى- لذلك، وثبتنا على صراطه المستقيم، وحقَّق بنا وبكم الآمال؛ إنَّ ربنا لسميع الدُّعاء.

وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في (مجموع الفتاوى) (٢٨/ ٢٣١ - ٢٣٢): «ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين هذا أفضل

فبيَّن أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه = وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً».



عقيدة الأنبياء

- عليهم الصلاة والسلام -



بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ اللهِ، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

عقيدة الأنبياء -عليهم الصَّلاةُ والسَّلام- جاءوا كُلُّهم بعقيدةٍ واحدة ودينٍ واحد أخبر اللهُ عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهذا دين جميعِ الأنبياء -عليهم الصَّلاةُ والسَّلام-، وسمَّى اللهُ جميعَ الأنبياء -عليهم الصَّلاةُ والسَّلام- مسلمين، والآيات في ذلك كثيرة، هذا الدِّين دينُ الأنبياء.

هذه العقيدة هذا التوحيد يتمثل في توحيد الرُّبوبية وتوحيد الأسماء والصِّفات وتوحيد العبادة، توحيد الرُّبوبية يُؤتَى به كأدلة وبراهين على الكافرين لإلزامهم؛ لأنَّهم يعترفون به؛ فتأتي أدلة وبراهين لإلزامهم بما خالفوا فيه الرُّسُل وكذَّبوا فيه الرُّسُل وعاندوا فيه الرُّسُل الكرام -عليهم الصَّلاةُ والسَّلام-، تأتي الحُجج تُلزمُهم بطاعة الرُّسُل واتِّباعِهم وتصديقِهم؛ لأنهم ما جاءوا إلَّا بالحقِّ، وهذا الحق دليله هو توحيد الربوبية؛ لأنَّهم إذا كانوا يعترفون بأنَّ الله هو الذي خلق السَّموات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

تُساق هذه الأدلة والحديث عن خلق السموات وعن خلق الأرض وعن خلق الإنسان والحيوان والنبات والجبال والبحار وتسخير الرياح وتسخير الشمس والقمر، كلُّ هذه الآيات دالة على أن الله هو ربُّ هذا الكون وخالقه ومدبِّره؛ وبالتالي هو الذي يستحق أن يُعبَد.

فإذا قال الرَّسول ﷺ لأمته اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت كان حقًّا عليهم أن يُهرَعوا إلى الاستجابة، يستجيبون له ويصدِّقونه، وكان لكلِّ نبيٍّ من الأدلة والآيات[1] والبراهين ما تقوم به الحُجَّة على أمته التي يدعوها للحق، ثمَّ تخالفه!

وأريد أن أدخل في توحيد العبادة الذي ضلَّت فيه الأمم، وبُعِثَت إليهم الرُّسُل لتصحيح هذا الانحراف وهذا الضَّلال في هذا الميدان؛ كان الناس يتَّخذون من عبادة الأوثان ومن عبادة القبور ومن عبادة الكواكب والشَّمس والقمر يتخذون منها في زعمهم مُنطَلَقًا إلى التقرب إلى الله -تبارك وتعالى-، يتقرَّبون إلى هذه المعبودات التي ذكرناها لغرض -في زعمهم- وقصد أن تُقرِّبَهُم هذه المعبودات، وتشفع لهم إلى الله -تبارك وتعالى- في تحقيق مطالبهم الدنيوية، ويأتي الرُّسُل يوجهونهم إلى طريق الحق وإلى إخلاص الدِّين لله -تبارك وتعالى-، ويؤمن من يؤمن، ويكفر من يكفر، ثم في النهاية يأتي عقاب الله -تبارك وتعالى- الصَّارم للمُكَذِّبين.

كما قصَّ الله عن قوم نوح أنَّه أغرقهم بعد أن دعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا وهم يُكَذِّبُونه، وقال الله ﷻ في شأنهم لما تحدَّث عن الكافرين قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه أحمد (٩٤٥٢) والبخاري (٤٩٨١) ك/ فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ومسلم (١٥٢/ ٢٨٣) ك/ الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته كلهم من أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وهذا لفظ البخاري.

بَلْ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: ٥٢]؛ وإذا جاء يوم القيامة يَسأل الله نوحًا هل بَلَّغت قومَك؟ فيقول: نعم بَلَّغتُهم، فيقول: ومن يشهد لك؟ يقول: أُمَّةُ محمَّد ﷺ، وهم يُكَذِّبون يقولون: ما بَلَّغتَنا، وما جاءنا من نذير![1] - قاتلهم الله - ؛ لهذا قال الله فيهم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: ٥٢].

وجاء قومُ هود وكذَّبوه فأهلكهم الله بالرِّيح الصَّرْصَر ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

ثم جاء قوم صالح فكذَّبوا نبيَّهم صالحًا؛ فأهلكهم الله بالصَّيْحَة.

وهكذا تتالتِ القُرُون على تكذيب الرُّسُل، وتتابعت الرِّسالات تدعو إلى الله، وتُوَاجَه كلُّ رسالة ويُوَاجَه كلُّ رسول بما وَاجَه به أسلافُها الأنبياء السَّابقين.

وبعث الله محمدًا ﷺ خاتم النَّبيين مُتَمِّمًا ومُكَمِّلًا لدعوات هؤلاء الأنبياء، وجاء كتا[بُه] مشتملًا على مضامين الرِّسالات كلِّها، ومُهيمِنًا عليها، وفتح الله قلوبَ أهلِ الأرض أو مُعظمَهم في ذلك الوقت للإيمان بهذه الرِّسالة، ودخلت أُمَمٌ ودخلت شعوبٌ في هذا الدِّين الحق، ورفرفت رايةُ الإسلام على شطر المعمورة في ذلك الوقت أو أكثر.

فتنبَّهَ الأعداءُ والحاقدون للطُّرُق الخبيثة التي يهدمون بها هذا المجد الذي شاده الإسلام؛ فكادوا للإسلام ودَسُّوا من الزَّنادقة ومن الملاحدة من يلبس لباسَ الإسلام، وبَثُّوا سمومَ الإلحاد والكفر والضَّلال في نفوس كثير من ضعفاء المسلمين؛ فأصبحت الأُمَّة هذا جهمي وهذا معتزلي...

ومرَّ الزَّمان وجاءت الفِرَق الصُّوفية وهي مُرَكَّبَة من أديانٍ شتَّى من الهندوكية من النَّصرانية، من المجوسية، من اليهودية، جاءت الفِرَق في طرقٍ كثيرٍ من ضُعَفَاء المسلمين باسم الإسلام، وشاعت عبادةُ القبور ودعاءُ غير الله، وأصبح مُعظم من ينتمي إلى الإسلام يقرأ القرآن يقرأ نصوص التوحيد لا يفهمها، أصبح معنى لا إله

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه أحمد (١٠٨٥٣، ١١١٣٢) والبخاري (٤١٢٧) ك/ التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية. من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

إلا الله: لا خالق ولا رازق إلا الله!

كان للمتكلِّمين دورٌ كبير في تجهيل النَّاس بمعنى لا إله إلا الله التي هي رسالة جميع الأنبياء -عليهم الصَّلاةُ وَالسَّلام-؛ فَفَسَّرُوها بـ: لا خالق ولا رازق ولا مالك إلا الله ...!، وأخطئوا المعنى الصَّحيح المعنى الأساسي لـ(لا إله إلا الله) وهو لا معبود بحق إلا الله، وإذا كان لا معبود بحق إلا الله فمعناه أنَّه لا ندعو إلَّا الله، ولا نستغيث إلَّا به، ولا نلجأ ولا نَضرَع في الشَّدائد إلَّا إليه ﷻ وحده.

وحتى المشركين كان هذا المعنى يقوم في نفوسهم إذ هم واجهوا الصِّعاب، وواجهوا المشاكل، وواجهوا الأحداث الخطيرة التي لا يستطيعون حلَّها، ويعتقدون في قرارة أنفسهم أنَّ معبوداتهم لا تملك حلًّا في مثل هذه الظروف ولا حلًّا لهذه المشاكل، يقول الله ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤١].

هذه الحقيقة قرَّرها الله، وهم لا ينكرونها أبدًا، وما أكثر ما يواجهونها في الأحداث إذا جاءت الأحداث الغريبة ينسون الأصنام، وينسون اللَّات، وينسون العُزَّى، وينسون الملائكة، وينسون الأنبياء، وينسون الصَّالحين، وينسون الكواكب، وينسون كلَّ ما يعبدونه من دون الله -تبارك وتعالى-، وتتعلَّق قلوبهم بالله وحده، وتتجه إلى الله وحده مخلصين له الدِّين، ويوقنون في قرارة أنفسهم أنه لا يُنقذهم من هذه الشِّدَة إلا - الله -تبارك وتعالى-؛ ولهذا ما قالوا: والله أنت كذَّاب أبدًا، أقرُّوا واعترفوا، ما جادلوا في هذا ولا مَارَوْا في هذه الحقيقة؛ لأنها قضية واقعة متقرِّرة كما قرَّرها الله -تبارك وتعالى-.

ومما يُؤسَف له أنَّه لمَّا استشرى داء الفتنة -فتنة الشِّرك ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله واللجوء إلى غير الله في الشَّدائد- بلغ الأمر بكثير ممن ينتمي إلى الإسلام من عُبَّاد القبور أنَّه في الشِّدة ينسى الله ويتجه إلى عبد القادر والبدوي وإلى الرفاعي وإلى الدسوقي وإلى العيدروس، وإلى المعبودات من دون الله

- تبارك تعالى - ؛ وهذه الأخبار متواترة عن كثير من هؤلاء الضُّلَّال.

من أسباب جهل الناس بحقيقة التوحيد كما ذكرت هو ذلك الخطأ الكلامي في العقائد الذي ألّف كُتبًا طويلة عريضة في تقرير توحيد الرُّبوبية، ولم يهتد إلى تقرير توحيد الألوهية؛ وإذا رجعت إلى كتب أهل الكلام وإلى كتب أهل التصوُّف وما أكثرها لا تجد لهذه الحقيقة - حقيقة لا إله إلا الله - فيها أثرًا ولا عينًا أبدًا، ما تجد إلَّا تقرير توحيد الرُّبوبية الذي يعرفه المشركون ويعترفون به، كان هذا من العوامل ومن الأسباب الكبيرة التي أوقعت كثيرًا من الناس في الشِّرك بالله - تبارك وتعالى - ، وعبادة القبور، واعتقاد أنهم يعلمون الغيب، ويتصرَّفون في الكون، حتى إنَّ بعضهم يبلغ به الأمر إلى أن يدَّعي لنفسه الألوهية مع الأسف الشَّديد!

أحب أن أستعرض بعض الآيات التي تعالج قضية واحدة من قضايا هذا الشِّرك الخطير وهي الذَّبح والنَّذر والطواف وشدُّ الرِّحال والاستغاثة . أريد أن أذكر آياتٍ واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار تَدمَغُ من يدعو غير الله بالشِّرك والضَّلال، ويقرؤها كثيرٌ من النَّاس.

وبسبب تفسير أهل الكلام لكلمة التوحيد لا إله إلا الله بأنَّه لا خالق ولا رازق إلا الله، وبسبب تفسير بعض المُفسِّرين الذين إذا جاءوا يُفسِّرون هذه الآيات ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦] أنَّ المراد بها الأصنام، يخطر في ذهنه إلى أنَّ الشِّرك لا يكون إلَّا بدعاء الأصنام، أمَّا إذا دعا رسول الله ﷺ واستغاث به أو، بأبي بكر أو بعمر أو بالجيلاني أو بالرِّفاعي أو بالملائكة أو بغيرهم من الصَّالحين أو غير الصَّالحين هذا ليس من الشِّرك في شيء عندهم؛ بسبب هذا الانحراف في تفسير كلمة التوحيد، وتفسير آيات التوحيد التي تدمغ من يدعو غير الله بالشِّرك الأكبر والضَّلال البعيد.

يقول الله -تبارك وتعالى- في سورة فاطر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤] آية واضحة في غاية الوضوح في أنَّ غير الله لا يملك في هذا الكون قطميرًا واحدًا، والقطمير: هو

اللُّفافة الرقيقة على النَّواة؛ كم وزنه؟ كم قيمته؟ لا شيء! الملائكة، الأنبياء، الرُّسل، الصَّالحون، الملوك لا يملكون هذا القطمير، كلُّ هذا الكون مُلك الله؛ هو الذي خلقه، هو الذي دبَّره، وهو الذي أنشأه من العدم، وهو الذي يفنيه ﷻ، وكلُّ من في السَّموات والأرض لا يملكون من هذا الكون الهائل الواسع لا يملكون منه هذا القطمير ولا النَّقير؛ يبيِّن كمال غنى الله -تبارك وتعالى-، وأنَّه المنفرد بالملك والتدبير، وأنَّ غيره في غاية الافتقار إلى الله، وفي غاية الحاجة، وفي فقر مدقع؛ بحيث إنَّه ما يملك من هذا الكون ذَرَّةً ولا قطميرًا؛ انفرد - الله -تبارك وتعالى- بملكه.

وإذا كان هذا هو الواقع فلماذا يتجه الناس يطلبون من غير الله شيئًا قد يكون من أعظم المطالب؛ قد يكون المطلوب ولدًا، وقد يكون المطلوب مالًا، وقد يكون المطلوب إنقاذًا من شدة، وقد يكون مطالب كثيرة من مطالب البشر ومطالب الحياة؟! يطلبون مِمَّن؟ مِمَّن يملك هذه الأشياء، هذا الذي يجب؛ وهذا الذي يقتضيه المنطق، وصَدَع به مَنطِقُ النُّبوات ورسالاتهم -عليهم الصلاة والسلام- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ انتهوا! ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ هذه حقيقة يُقرِّرُها الله -تبارك وتعالى- عن الأنبياء والملائكة والصَّالحين وغيرهم والأوثان لو وَقَفْتَ طول حياتك تدعو بأقوى المُكَبِّرات!

لو فرضنا أنَّ إنسانًا أخذ مُكَبِّرًا عظيمًا وقال: يا رسول الله عند قبره أنقذني والله ما يسمعه رسولُ الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - ولو كان عند القبر فضلًا إذا كان بعيدًا، ولو وقف عند عبد القادر قريبًا منه، يكون أحدهم في الهند أو في أقصى اليمن أو في أقصى المغرب إذا واجه شِدةً قال: يا عبد القادر! فيقع في شرك الرُّبوبية وفي شرك العبادة لماذا؟ لأنَّه أعطى هذا المدعو صفةَ الله علَّام الغيوب، مفرِّج الكروب، أعطاه صفة الرُّبوبية، وهو لا يستفيد شيئًا؛ لأنَّ هذا المدعو من ملايين المخلوقات، كلُّهم لا يملكون قطميرًا، كم نصيبه من القطمير؟! كم نصيب الواحد من ملايين من الملائكة، من الإنس، من الجن .. كلُّهم إذا اجتمعوا لا يملكون قطميرًا واحدًا، فإذا دعوت واحدًا كم يكون نصيب الواحد منهم من القطمير؟ لا يملك أقل جزء من ملايين الأجزاء من الذَّرَّة كيف تدعوه؟! الله قال

لك: ما يملكون، ثم أخبرك أنهم لا يستجيبون.

فنحن نقسم بالله واثقين أنك لو دعوت نبيًا أو وليًا أو ملكًا أو جنيًا والله ما يسمع هذا النداء أبدًا؛ لأنَّ الله قال: لا يسمعون؛ ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ هذا الدُّعاء الشركي، قد يسمع دُعاءً آخر؛ كأن تُسَلِّم على الميِّت[1] أو على الرَّسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام -؛ فيبلغه سلامُك[2] أو تصلي عليه فقد تبلغه هذه الصَّلاة[3]؛ أمَّا أن تشرك بالله -تبارك وتعالى-؛ فإنَّ الله يصون مسامعَ أنبيائه ومسامعَ ملائكته ومسامعَ الصَّالحين من عباده أن يسمعوا هذا الهُرَاء الشِّركي أبدًا؛ لأنَّ هذا والله يؤذيهم أشدَّ الأذى، ولا يفرحون به أبدًا؛ فالله يَسُدّ كلَّ المنافذ أن تصل هذه الأصوات الخبيثة إلى مسامعهم ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾.

افرض -من باب فرض المستحيل- أنهم سمعوا ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، لو فرضنا من باب فرض المستحيل أنَّ هذا الصوت يصل إلى من دعوته أو إلى مجموعة تدعوها من دون الله لا يستجيبون، لماذا؟ لأنهم لا يملكون شيئًا؛ لم يعطهم الله حقَّ الإجابة، حقُّ الإجابة لله الذي يملك هذا الكون، أمَّا الفقراء المساكين الضِّعاف أمام الله الذين لا يملكون قطميرًا كيف يُلبُّونَ دعوتك؟ وكيف يستجيبون لك وهم لا يملكون شيئًا؟!

فهذه الأشياء تحسم مادة الشِّرك وتستأصل شأفته عند كلِّ من يعقل عن الله -تبارك وتعالى- مثل هذه التوجيهات ومثل هذه التصريحات الصَّادعة بهذه الحقائق الكبرى العظيمة التي لا يليق بعاقل أن يجهلها أو يتجاهلها؛ فيقع في حمأة الشِّرك

---

(١) انظر (مجموع الفتاوى) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٤/ ٣٣١)

(٢) إشارة إلى ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا فإنَّ تسليمكم يبلغني أينَ كنتم»، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٣٧٥) والضياء المقدسي في (المختارة) (٤٢٨) وأخرجه إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» برقم (٢٠) عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا تجعلوا بيوتكم قبورًا، وصلُّوا عليَّ وسلِّموا حيثما كنتم فسيبلغني سلامُكم وصلاتكم»، وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في تحقيقه: صحيح لغيره.

(٣) إشارة إلى ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ولا تجعلوا قبري عيدًا وصلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تبلغني حيثُ كنتم» رواه أبو داود في (سننه) ك/ المناسك، باب زيارة القبور برقم (٢٠٤٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في (صحيح سنن أبي داود) برقم (١٧٨٠) (٦/ ٢٨٢)

بالله -تبارك وتعالى-.

ثم أخبر الله أنَّ هذا الدُّعاء شرك، شرك خطير وأنَّ هؤلاء الذين تدعوهم وتستنجد بهم وتستغيث بهم وتطلب منهم وتُعلِّق قلبك بهم يصبحون خصومَك يوم القيامة، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ هذا نص في أنَّ دعاء غير الله شرك بالله -تبارك وتعالى- ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ما هو هذا الشِّرك؟ هذا الدُّعاء الذي ساقه الله في هذه الآيات محفوفًا بالأدلة الواضحة أنَّه لا يفيد ولا يجدي، ولا أهله يملكون شيئًا، ولا يسمعون منه شيئًا، هذا كلُّه شِرك بالله تبارك وتعالى، يوم القيامة هذا الذي يدعو البدوي والذي يدعو الدسوقي والذي يدعو الحسين الذي يدعو عليًّا والذي يدعو محمدًا والذي يدعو عيسى يوم القيامة يقف النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ- ويقف الرَّجل الصَّالح ويقف الرَّسول ويقف المؤمن الذي يدعونه من دون الله، ويتبرءون إلى الله -تبارك وتعالى- من هذا الشِّرك، هذا الشِّرك إن كان المدعو رسولًا يقول: أنا بلَّغتكم وحذَّرتكم هذا الشِّرك، ودعوتكم إلى توحيد الله وإلى إخلاص الدِّين له، وإن كان عالمًا وصالحًا يقول: والله أنا كنت أُدرِّس - إذا كان مُوَحِدًا سلفيًا وليس خرافيًا قبوريًا - وأقول: إنه لا يجوز دعاء غير الله -تبارك وتعالى-، وأنه شرك بالله -تبارك وتعالى-.

فهنا نستحصل من هذه الآية: أنَّ الله -تبارك وتعالى- انفرد بالمُلك؛ ملك هذا الكون كلُّه سمواته وأرضه وجباله وبحاره وأشجاره وأنهاره وحيواناته وجِنُّه وإنسه وملائكته كلُّ هذه الأشياء مملوكة لله -تبارك وتعالى-، لا يشاركه أحدٌ في ذرَّة منها ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

وأنَّ دعاة غير الله شركٌ بالله -تبارك وتعالى-؛ لا يُسمِعُه الله -تبارك وتعالى- ملائكته ولا أنبياءه ولا الصَّالحين من عباده إذا هم دعاهم أناس بُلَهاء واستنجدوا بهم من دون الله -تبارك وتعالى-، وأنَّه على فرض أن يحصل منهم سماع لهذا الهراء فإنهم لا يملكون حقَّ الإجابة، وأنَّ هذا الدُّعاء شرك بالله -تبارك وتعالى-.

ونأتي إلى آيات من سورة الأحقاف تؤكد أنَّ دعاء غير الله كفرٌ وشرك وأنَّه ضلال،

قال الله -تبارك وتعالى- في سورة الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف ٤-٦] يعني: سَمَّى دعاء غير الله هنا عبادة، عبادة غير الله هي شرك، لا أحد أضل ممن يدعو غير الله -تبارك تعالى-، تصور الضَّلال وكلَّ أنواع الضَّلال فتجد أنَّ أضل النَّاس وأغرقهم في الضَّلال هو الذي يدعو غير الله -تبارك وتعالى-، وقبل هذا ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هنا استنكر الله -تبارك وتعالى- دعاء غيره؛ ثم قال: هؤلاء الذين تدعون ماذا يملكون؟ هل يملكون شيئا في السَّموات؟ لا يملكون شيئًا! هل لهم شرك في السَّموات؟ ما عندهم شيء! عندكم أدلة؟ أظهروها ما عندكم أدلة! عندكم أثارةٌ -بقيَّةٌ- من العلم تستدلون به على جوار دعاء غير الله؟

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّه لا يُدعى إلا الخالق -جلَّ وعلا-، أمَّا المخلوق فهو عبد ويتجه بالدُّعاء إلى خالقه فكيف تدعونه؟! هذا المخلوق الذي خلقه الله -تبارك وتعالى- هو عبد من عبيدي كيف تدعونه وهو عبد ولا يملك شيئًا في هذا الكون وليس له مشاركة؟! لأنَّه لا يُدعى إلَّا من يملك، فإنَّكم تطلبون من مسكين ليس له مُلك، وليس له مشاركة في ملك شيء من هذا الكون، أروني أيَّ جزء من السَّموات أو من الأرض خلقه عيسى أو خلقه إبراهيم أو خلقته الملائكة أو خلقه صنم من الأصنام أو وثن من الأوثان، لا شيء، ولا يملكون الأدلة مهما افترضنا ضعف هذه الأدلة، فلا يملكون ولا معشار دليل ضعيف على أنَّ غير الله يَستحق الدُّعاء من دون الله أو مع الله -تبارك وتعالى-، تحدَّاهم أن يأتوا بالأدلة ولا يملكون، ما قالوا: الأدلة عندنا.

أبو لهب وأبو جهل وغيرهم من الوثنيين وفرعون وهامان وقارون وغيرهم، والله ما منهم أحد يقول: أنا شاركت في خلق السَّماء، أو شاركت في خلق الأرض، أو أملك الشَّمس، أو أملك القمر، أو أنا خلقت ذلك الجبل، أو هذا الجبل مُلكِي أنا أوجدته، لا أحد يقول هذا الكلام؛ مهما ضَلَّ الإنسان وانحرف لا يصل به الضَّلال والانحراف إلى أن يقول أنا عندي دليل والدَّليل هو هذا.

ما يملك ثم عقَّب الله هذا بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لو وقفت إلى يوم القيامة وأنت تدعو يا فلان! يا رسول الله! يا عيسى! يا أبا بكر! يا عمر! تدعو والله لا يسمعون، ولا يستجيبون؛ قال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

وقد أخبرنا الله في سورة فاطر أنهم لا يسمعون هذا النداء من أساسه فكيف يستجيبون؟! ثم بيَّن الله -تبارك وتعالى- أنَّ هذا الدعاء عبادة لغير الله؛ فأنت إذا دعوت حيًّا غائبًا أو ميتًا فأنت بهذا الدُّعاء جعلته إلهًا مع الله، وجعلته شريكًا مع الله -تبارك وتعالى- في العبادة.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ هذا النَّبي الذي تدعوه يصبح عدوَّك، وهذا الولي الذي تدعوه يصبح عدوَّك، وهذا المَلَك الذي تدعوه يصبح عدوَّك! وهذا الصِّديق يصبح عدوَّك!، ويتبرأ من هذا الشِّرك الذي وقعت فيه هذه العبادة التي تقدَّمت بها ظلمًا وعدوانًا هو نفسه لا يرضاها ولا يقبلها ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فسمَّاها عبادة، والكفران هو الجحود، يقول: إنِّي ما أمرتك أن تعبدني، ولا أردت منك هذا الأمر، بل كنت أُحَذِّرك وأُنذِرُك أنت وأمثالَك من دعائي ودعاء غيري من مخلوقات الله -تبارك وتعالى- مهما علا شأنهم من الأنبياء والملائكة وغيرهم.

نستفيد من هذه الآيات ومن هذا التعليق الضعيف عليها أنَّ الله -تبارك وتعالى- قد أقام الحُجج وأقام الأدلة على بطلان دعاء غير الله، وأنَّه شرك بالله، وأنَّ هذا لون من ألوان العبث الدَّنيء أن تدعوَ من لا يسمع دعاءك ولا يستجيب لك، وهو مع كونه عبثًا هو كفر بالله، وهو شرك بالله، وهو تأليه لغير الله -تبارك وتعالى- ، وأنَّ هؤلاء المعبودين المدعوِّين الذين كنت ترجوهم وتظن أنهم ينقذونك من الشَّدائد يتبرَّؤون منك، ويخذلونك أحوج ما تكون إليهم؛ وفي هذا عبرة لمن له عقل وعنده وعي أن ينصرف عن عبادة غير الله -تبارك وتعالى- وعن دعاء غيره، ويفرد الله -تبارك وتعالى- بعبادته، ولاسيَّما هذا الدُّعاء الذي تحدثت عنه هذه الآيات، وأقامت فيه الحُجج والبراهين على بطلانه وأنَّه شرك.

ونكتفي بهذا القدر، نسأل الله -تبارك وتعالى- أن يتيح لنا مثل هذه الفرص التي نرجو أن نستفيد منها نحن ويستفيد منها إخواننا، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه.

* * *



مذكرة الحديث النبوي

في العقيدة والاتباع

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم.

أما بعد:

فهذه أحاديث شريفة ذات مواضيع عظيمة اخترتُها من أحاديث من أوتي جوامع الكلم والذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، منها ما يدعو إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة وإخلاص الدين له، ومنها ما يُحذر من الشرك والبدع والمعاصي الموبقات، ومنها ما يدعو إلى حب الله ورسوله والمؤمنين، ومنها ما يدعو إلى التمسك بالكتاب والسنة واتباع منهج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، اخترتُها لطلاب الدورة التدريبية العربية الإسلامية في المستوى المتقدم والجامعي التي تقوم بها الجامعة الإسلامية التي تبنَّت أهدافًا إسلامية كبرى، منها محاولة إصلاح أحوال المسلمين الدينية والخلقية والاجتماعية، ومحاولة العودة بهم إلى التمسك بالكتاب والسنة، وجنَّدَت ما تملكه من إمكانيات لتحقيق هذه الأهداف السامية.

ومن ضمن برامجها الإصلاحية: إقامة دورات تدريبية في العديد من البلدان الإسلامية لمدرسي اللغة العربية والعلوم الإسلامية في المدارس الإسلامية.

وقد شرحت هذه الأحاديث الشريفة شرحًا أرجو أن يكون مناسبًا لمكانتها وموضح أهدافها ومقاصدها، شرحت مفرداتها، ووضحت مجملاتها واستنبطت

ما فيها من مبادئ ومسائل، ثُمَّ وضعت عليها أسئلة تدريبية تربوية يُمرن الطالب على استخراج المسائل وتُكوِّن ممارستها عنده ملكة مبدئية في الإنشاء، وتُنمِّي قدرته على التخاطب باللغة العربية وتركيب الجمل وفي الوقت نفسه ترسخ في نفسه العقيدة الصحيحة وتشد عقله ومشاعره إلى حب الله ورسوله واتباع الكتاب والسنة.

وإني لأرجو الله أن ينفع بها الكثير من أبناء الأمة الإسلامية، كما أرجو أن يتقبل الله مني هذا الجهد المتواضع وأن يجعله خالصًا له إنه سميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير إلى مغفرة الله ورضوانه
ربيع بن هادي عمير المدخلي
في ١٦ / ٤ / ١٤٠٦هـ

الحديث الأول: منهج الدعوة إلى الله

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لَما بعث معاذًا إلى اليمن قال

«إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله -وفي رواية: إلى أن يُوَحِّدوا الله- فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خَمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

أخرج الحديث البخاري[١]، ومسلم[٢]، والنسائي[٣]، وابن ماجه[٤]، والدارمي[٥]، وأحمد[٦].

* **راوي الحديث:**

عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، ابن عم رسول الله، الحبر البحر لسعة علمه، وهو أحد المكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة من فقهاء الصحابة، مات سنة ثَمان وستين.

* **المفردات:**

بعث: أرسل.

أهل الكتاب: هم اليهود والنصارى.

شهادة أن لا إله إلا الله: الاعتراف بأنه لا معبود بحق إلا الله وأن عبادة ما سواه باطلة وشرك بالله.

---

(١) كتاب الزكاة: حديث رقم (١٣٩٥)، (١٤٥٨).

(٢) كتاب الإيمان: حديث رقم (٣١)

(٣) كتاب الزكاة (٥/ ٣)

(٤) كتاب الزكاة: حديث رقم (١٧٨٣)، (١/ ٥٦٨).

(٥) كتاب الزكاة: حديث رقم (١٦٦٢)، (١/ ٣١٨).

(٦) (١/ ٢٢٣)

يوحدوا الله: يفردوه بالعبادة وحده.

افترض: أوجب وحتم.

صدقة: المراد بها: الزكاة المفروضة.

أطاعوك: انقادوا وامتثلوا.

كرائم: خيار المال وأنفسه وأكثره ثمنًا.

* موضوع الحديث:

بيان منهج الدعوة إلى الله.

* المَعنَى الإجمالي للحديث:

يُبيِّن الحديث الخطوات الواجبة الَّتي يَجب أن يسلكها الداعي إلى الله، فأول شيء يجب أن يبدأ به: هو الدعوة إلى التوحيد وإفراد الله وحده بالعبادة والابتعاد عن الشرك صغيره وكبيره، وذلك يكون بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله

والمقصود بِهذه الشهادة: أن العبادات بكل أنواعها حق ثابت لله وحده لا يستحق سواه منها شيئًا، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا رجل صالح ولا حجر ولا شجر ولا شمس ولا قمر.

فلا يُدعى إلا الله وحده، ولا يستغاث إلا به، ولا يستعان إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يُخاف ويرجى إلا هو.

فمن صرف شيئًا من هذه العبادات أو غيرها لغير الله؛ فقد أشرك بالله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وليس المراد من لا إله إلا الله مجرد النطق بِها، بل لابد من معرفة معناها والعمل بمقتضاها ولابد من استكمال شروطها.

وشروطها سبعة:

الأول: العلم المنافي للجهل.

الثاني: اليقين المنافي للشك.

الثالث: القبول المنافي للرد.

الرابع: الانقياد المنافي للترك.

الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.

السادس: الصدق المنافي للكذب.

السابع: المحبة المنافية لضدها.

والمقصود بشهادة أن محمدًا رسول الله: معرفة معناها والعمل بمقتضاها فليس المراد أيضًا مُجرد التلفظ بِها؛ فهي تعني تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر واجتناب ما نَهى عنه وزجر، وعبادة الله بِما شرع على لسان هذا الرسول الكريم لا بالهوى ولا بالابتداع.

فعلى كل مسلم معرفة معنَى الشهادتين حق الفهم والعمل الجاد بِمقتضاهما، وهو التصديق والإيمان والعمل بِما جاء به رسول الله في الكتاب والسنة، وما يتعلق بالعقائد وما يتعلق بالعبادات والتشريعات في كل مجالات الحياة.

● ما يستفاد من الحديث:

١- أن التوحيد هو أساس الإسلام.

٢- أن أهم الأركان بعد التوحيد: هو إقامة الصلاة.

٣- أن أوجب أركان الإسلام بعد الصلاة هي الزكاة المفروضة، وهي من حق المال.

٤- أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه أو نائبه

٥- وفي الحديث دليل أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد.

٦- وفيه أنه لا يجوز دفعها إلى غني.

٧- وفيه أنه يحرم على العامل في الزكاة أخذ كرائم المال.

٨- وفيه تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم

٩- وفيه قبول خبر الواحد العدل في العقيدة وما يوجب العمل

١٠- وفيه أن يبدأ الداعي بالأهم فالأهم.

الحديث الثاني: فضل عقيدة التوحيد

عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن مُحمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

رواه البخاري[1]، ومسلم[2]، وأحمد[3].

* راوي الحديث:

عبادة بن الصامت الأنصاري، كان مِمّن شهد بيعتَي العقبة الأولى والثانية مع رسول الله ﷺ وشهد معه سائر الغزوات، كان معلمًا للقرآن في المدينة ثم في الشام، توفي في بيت المقدس سنة ٣٢ هـ ﷺ.

* تفسير المفردات اللغوية:

شهد أن لا إله إلا الله: تكلم بِها بلسانه واعتقد ما تدل عليه بقلبه وعمل بِما تقتضيه بجوارحه.

وحده: أي: واحدًا فردًا.

عيسى: هو ابن مريم العذراء.

كلمته: أي: خلقه بقوله: ﴿كُن﴾ فكان عيسى بقدرته وحكمته، وسُمي كلمة لوجوده بقوله تعالى: ﴿كُن﴾.

روح منه: أي: عيسى روح من الأرواح الَّتي خلقها الله وأوجدها.

الجنة حق والنار حق: أي: أنَّهما ثابتتان حقيقة لا شك فيهما

(١) كتاب الأنبياء: حديث رقم (٣٤٣٥).

(٢) كتاب الإيمان: حديث رقم (٤٦)، (٤٧).

(٣) (٥/ ٣١٤).

* المَعنَى الإجمَالي:

يتضمن هذا الحديث خمسة أمور من آمن بها وعمل بما تدل عليه في الظاهر والباطن دخل الجنة:

أولها: قوله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له». يعني: آمن بالله عن صدق ويقين معترفًا بالوحدانية لله تعالى وتجرد عن عبادة غيره، وعمل بما تدل عليه شهادة أن لا إله إلا الله من اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه قولًا وعملًا.

ثانيها: «شهادة أن مُحمدًا رسول الله ﷺ»: يعني: من اعتقد اعتقادًا جازمًا لا يقبل الشك بأن محمدًا رسول الله أرسله الله إلى الثقلين -الجن والإنس- رسالة شاملة كاملة، وأنه خاتم النبيين، ورسالته خاتمة الرسالات، وآمن بأنه عبد من عباد الله شَرَّفه الله بحمل رسالته إلى العالَم فصدقه فيما أخبر به وأطاعه فيما أمر به وابتعد عما نَهى عنه وزجر.

ثالثها: الاعتقاد بأن عيسى ﷺ عبد من عباد الله ورسول من رسله، وأنه ليس ابن سفاح كما يزعم اليهود وليس هو الله ولا ابن الله ولا ثلث ثلاثة كما يزعم النصارى، بل هو عبد من عباد الله أرسله الله إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده.

وقد خلق الله عيسى بكلمة ﴿كُن﴾ الدالة على التكوين وأنه روح من الأرواح الَّتي خلقها الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

رابعها: «أن الجنة حق» أي: واعتقد أن الجنة الَّتي أعدها الله للطائعين من عباده ثابتة موجودة وحقيقة لا ريب فيها وأنها المقر الأخير الخالد للمؤمنين به والمتبعين لرسله.

خامسها: «أن النار حق»: أي: واعتقد أن النار الَّتي توعد الله بها الكافرين والمنافقين حقيقة ثابتة لا ريب فيها أعدها الله لِمن كفر به وجحده وعصاه

هذه الأمور الخمسة من صَدَّقَ وآمن بِها وعمل بِما تقتضيه أدخله الله الجنة وإن كان مقصرًا وله ذنوب؛ وذلك بسبب توحيده وإخلاصه العبادة لله وحده

* ما يستفاد من الحديث:

١- يستفاد منه: فضيلة توحيد الله، وأن الله يُكَفِّرُ به الذنوب.

٢- سعة فضل الله ورحمته بعباده.

٣- يستفاد من قوله في محمد ﷺ: «عبده ورسوله»: معرفة ما للأنبياء من الحق وخاصة مُحمَّد ﷺ بلا إفراط ولا تفريط.

٤- أن العصاة من الموحدين لا يُخلدون في النار.

٥- وجوب الإيمان بالجنة والنار.

* * *

الحديث الثالث: حق اللَّه على العباد

عن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النَّبي ﷺ على حمار، فقال لي: «أتدري ما حق اللَّه على العباد وما حق العباد على الله؟ قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: حق اللَّه على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على اللَّه ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا. قلت: يا رسول اللَّه أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا».

أخرجه البخاري[1]، ومسلم[2]، والترمذي[3]، وابن ماجه[4]، وأحمد[5]

* راوي الحديث:

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابي مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، وكان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن، مات سنة ثمان عشرة بالشام في طاعون عمواس.

* تفسير المفردات:

رديف: راكبًا خلفه.

حق اللَّه على العباد: هو ما يستحقه عليهم من العبادة والطاعة.

حق العباد على الله: هو استحقاق إنعام وفضل، فهو جعل ذلك على نفسه تفضلًا وإحسانًا على الموحدين المخلصين، وليس على اللَّه حق واجب بالعقل كما تزعم المعتزلة.

أفلا أبشر الناس: أخبرهم بما يسرهم.

---

(١) كتاب اللباس: حديث رقم (٥٩٦٧).

(٢) كتاب الإيمان: حديث رقم (٤٨-٥١)، (٥٣).

(٣) كتاب الإيمان: حديث رقم (٢٦٤٣)، (٥/ ٢٦).

(٤) كتاب الزهد: حديث رقم (٤٢٦٩)، (١٢/ ١٤٣٥).

(٥) (٣/ ٢٦٠-٢٦١)

يتكلوا: يعتمدوا.

* المَعنَى الإجمَالي:

بيَّنَ رسول الله ﷺ في هذا الحديث الغاية الَّتي خلق الله الخلق من أجلها ألا وهي: إفراد الله وحده بالعبادة والإخلاص له فإن هذا الحق العظيم ليس إلا لله الخالق العظيم المنعم المتفضل.

كما بيَّنَ الرسول الكريم ما يستحق العباد على الله من الجزاء إن هم قاموا بهذا الواجب العظيم -إخلاص العبادة- أن ينجيهم من عذاب النار ويدخلهم جنات النعيم.

وهذا أمر يُسَرُّ به المؤمن ويستبشر به لذا قال معاذ -يستأذن النَّبي ﷺ -: «أفلا أبشر الناس». ولكن الرسول ﷺ نَهى معاذًا عن ذلك لمصلحة أمته وحبًّا منه أن يجدُّوا في العمل وفيما يقربُهم إلى الله ويتنافسوا فيه لينالوا بهذا الجد والجهاد والتنافس الدرجات العالية عند الله.

وعلى العكس من ذلك لو تقاعسوا عن العمل واتكلوا على مثل هذا الوعد فإنَّهم سوف يفوتُهم خير كثير وأجر كبير.

* ما يستفاد من الحديث:

١- حكمة رسول الله ﷺ في التعليم حيث افتتح هذا التعليم بالسؤال ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم.

٢- فيه: تواضع رسول الله ﷺ وحسن أخلاقه حيث يركب الحمار ويردف أصحابه على مركوبه.

٣- وفيه بيان أعظم حقوق الله على عباده: ألا وهو توحيد الله وإفراده بالعبادة وحده.

٤- وفيه: تفضل الله على عباده بأحسن الجزاء على أداء هذا الحق.

٥- وفيه: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

٦- وفيه: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله، فإن هذا الاتكال يضر كثيرًا من الجهال.

الحديث الرابع: تحريم التبرك بالأشجار ونحوها

عن أبي واقد الليثي ﷺ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونُحن حُدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بِها أسلحتهم يقال لَها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا. يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لَهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، إنَّها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لِمُوسى: اجعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُم آلِهَةٌ، قَالَ: إِنَّكُم قَومٌ تَجهَلُونَ. لتركبن سنن من كان قبلكم».

أخرجه أحمد[1]، والترمذي[2] وصححه، وعبد الرزاق[3]، وابن جرير[4]، وابن المنذر[5]، وابن أبي حاتم[6]، والطبراني[7] بنحوه.

* **راوي الحديث:**

هو أبو واقد الليثي؛ نسبة إلى ليث بن عبد مناف، قيل: اسمه الحارث ابن مالك. وقيل: ابن عوف، خَرَّج له الجماعة وله في الصحيحين حديثان، قيل: إنه شهد بدرًا وقيل: من مسلمة الفتح. مات (سنة ٦٨هـ) وهو ابن ٨٥ سنة.

* **تفسير المفردات:**

حنين: موضع قريب من مكة.

حُدثاء عهد بكفر: أي: قريبٌ عهدهم بالكفر.

---

(١) (٥/ ٢٢٨).

(٢) كتاب الفتن: حديث رقم (٢١٨٠)، (٤/ ٤٧٥).

(٣) (١١/ ٣٦٩) حديث رقم (٢٠٧٦٣).

(٤) (٩/ ٤٥، ٤٦).

(٥) (٦) انظر الدر المنثور (٣/ ٥٣٣).

(٧) (٣/ ٢٧٥) حديث رقم (٣٢٩٠-٣٢٩٤).

سدرة: نوع من الشجر.

يعكفون عندها: العكوف: هو الإقامة على الشيء في مكانه.

ينوطون: يعلقون بها أسلحتهم تبركًا.

السنن: الطرق والمناهج.

* **المَعنَى الإجمالي:**

كان في جيش رسول الله ﷺ في غزوة حنين من دخل في الإسلام جديدًا لَم ترسخ قدمه في الإسلام ولَم يتمكن من فهم الدعوة الإسلامية وفهم عقائدها ومبادئها لقرب عهده بالجاهلية والشرك، فمروا على قوم من المشركين يعكفون حول شجرة تبركًا بها وتعظيمًا لَها فما أن رآهم هؤلاء المسلمون الجدد يفعلون هذا حتَّى طلبوا من رسول الله أن يَجعل لَهم شجرة ينوطون بِها أسلحتهم تبركًا بِها لا عبادة لَها، ظنًّا منهم أن الإسلام يسمح بِهذا النوع من التبرك وأنَّهم بِمثله يُحرزون النصر على أعدائهم.

أدهش رسول الله ﷺ هذا الطلب الغريب العجيب فقال كلمته العظيمة الَّتي ينبغي أن تكون درسًا لأمته إلى يوم القيامة. «الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى. اجعل لنا إلَهًا كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون».

ما أحرى المسلمين بأن يعوا هذا الدرس وما أحرى العلماء بالأخص أن يصرخوا بِهذه الكلمة قوية مدوية في وجه العوام وأشباههم الذين يتبركون بالأحياء والأموات والأشجار والأحجار ظنًّا منهم أن هذا من الإسلام، ويُزيِّن لَهم ذلك من لا يَخشى الله ولا يرجو الله واليوم الآخر من عباد المال والجاه ويستغل عواطف الجهال والسذج فيثبتهم على الباطل ويدفعهم إلى مُحاربة الحق والتوحيد.

* **ما يستفاد من الحديث:**

١- النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

٢- تشبيه النَّبي ﷺ طلبهم بطلب بني إسرائيل.

٣- أن الفعل الذي يذم فيه بنو إسرائيل تذم فيه هذه الأمة إذا فعلته

٤- في الحديث تنبيه على قاعدة سدّ الذرائع .

٥- وفيه عَلَم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر النَّبِي ﷺ .

٦- وفيه الخوف من الشرك وأن الإنسان قد يستحسن شيئًا يظن أنه يقربه إلى الله وهو أشد ما يبعده من رحمته ويقربه من سخطه .

* * *

الحديث الخامس والسادس:
خطورة دعاء غير اللَّه تعالى

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون اللَّه ندًا دخل النار». رواه البخاري[1].

وعن جابر رضي الله عنه: «من لقي اللَّه لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار». رواه مسلم[2].

* **صحابيا الحديث:**

١- عبد اللَّه بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن من السابقين الأولين ومن كبار العلماء من الصحابة، مناقبه جمَّة، وأمَّره عُمَرُ على الكوفة، مات بالمدينة سنة ٣٢هـ.

٢- جابر بن عبد اللَّه بن عمرو بن حرام، الأنصاري، ثم السلمي، صحابي ابن صحابي غزا مع رسول اللَّه ﷺ تسع عشرة غزوة، مات بالمدينة بعد السبعين.

* **تفسير المفردات:**

الدعاء: هو الطلب والرغبة.

النِّد: هو الشبيه والمثيل.

الشرك: هو أن يَجعل لله ندًا يدعوه كما يدعو اللَّه أو يخافه أو يرجوه أو يُحبه كما يُحب اللَّه أو يصرف له نوعًا من أنواع العبادة، فهذا هو الشرك الذي لا يبقى مع صاحبه من التوحيد شيء.

* **المَعنَى الإجمَالي لحديث ابن مسعود:**

الحديث يُبيِّن مكانة الدعاء وأنه من أعظم العبادات ومن أعظم حقوق اللَّه

(١) كتاب التفسير: حديث رقم (٤٤٩٧).

(٢) كتاب الإيمان: حديث رقم (١٥١-١٥٢).

بحيث لو صرفه العبد لغير الله لكان بذلك مشركًا قد اتخذ لله ندًا ومثيلًا في الإلهية وفي استحقاق العبادة.

وهذا تمرد على الله وعناد لأنبيائه وتكذيب لرسله الذين اتفقت دعوتهم ورسالاتهم جميعًا على وجوب إفراد الله بالعبادة ومن أعظمها: الدعاء.

قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة».

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال ناهيًا عن دعاء غيره: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

فدعوة غير الله تعتبر تأليهًا لذلك الغير والعياذ بالله.

وقال تعالى موبخًا للمشركين: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٢-١٤] الدين: أي الدعاء.

وقال تعالى حاكمًا بالضلال والخيبة على من يدعو غير الله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

ومن هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم والسنة المطهرة يتبين لمن فتح الله بصيرته وأنار قلبه وشرح صدره أهمية الدعاء ومكانته في العقيدة الإسلامية.

ولأجل هذه المكانة توعد الله من لا يخضع له بالدعاء بدخول النار صاغرًا

دليلًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وتوعد من يدعو غير الله بدخول النار كما في هذا الحديث. «من مات وهو يدعو لله ندًا دخل النار».

* **ما يستفاد من الحديث:**

١- مكانة الدعاء وأنه أعظم العبادات لله.

٢- أن دعاء غير الله شرك عظيم وظلم جسيم

٣- أن من يدعو غير الله ليس له جزاء إلا النار إن مات على ذلك.

* * *

الحديث السابع والثامن: الأمر كله لله وحده لا يشاركه فيه نبي ولا ملك ولا غيرهما

عن أنس ﷺ قال: «شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد وكُسرت رباعيته، فقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟ فنزلت الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]».

رواه البخاري[١] ومسلم[٢] والترمذي[٣] وابن ماجه[٤] وأحمد[٥].

وعن ابن عمر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللهم العن فلانًا وفلانًا بعدما يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ الآية».

وفي رواية: «يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾».

رواه البخاري[٦] والنسائي[٧] وأحمد[٨] والترمذي[٩].

* صحابيا الحديث:

١- أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي، صاحب رسول الله وخادمه، خدم النبي عشر سنين وله ألف ومائتا حديث وستة وثمانون حديثًا، اتفق الشيخان منها على مائة وثمانية وستين، مات بالبصرة وقد جاوز المائة

---

(١) كتاب المغازي: باب (٢١).

(٢) كتاب الجهاد والسير: حديث رقم (١٠١-١٠٤).

(٣) كتاب التفسير: حديث رقم (٣٠٠٢-٣٠٠٣)، (٥/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٤) كتاب الفتن: حديث رقم (٤٠٢٧)، (٢/ ١٣٣٦).

(٥) (٣/ ٩٩، ١٧٩).

(٦) كتاب المغازي: (٤٠٦٩، ٤٠٧٠).

(٧) كتاب التطبيق: (٢/ ١٦٠)

(٨) (٢/ ٩٣، ١٤٧).

(٩) كتاب التفسير: حديث رقم (٣٠٠٤).

٢- هو عبد الله بن عمر القرشي العدوي أسلم قديمًا بمكة مع أبيه وهاجر وهو ابن عشر، وقد شهد الخندق وما بعدها وكان من سادات الصحابة وفضلائهم، لازمٌ للسنة فارًا من البدعة ناصحًا للأمة، مات سنة ٧٤ هـ.

* **المفردات:**

الشج: في الأصل في الرأس خاصة، وهو أن تضربه بشيء فيجرحه ويشقه ثم استعمل في غيره من الأعضاء.

الرباعية: كل سن بعد ثنية وللإنسان أربع رباعيات.

الفلاح: الفوز بالمطلوب الأعظم.

اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء.

* **المَعنَى الإجمَالي:**

خاض رسول الله ﷺ المعركة يوم أحد ضد أعداء الله المشركين فهزم المشركين في أول المعركة، ثُمَّ بسبب مُخالفة بعض الجيش لأمر رسول الله ﷺ ولحكمة أرادها الله دارت الدائرة على المسلمين فاستشهد بعض الصحابة وأصيب رسول الله ﷺ بجروح فقال رسول الله ﷺ مستبعدًا فلاح هؤلاء المشركين ودخولهم في الإسلام حيث بلغ بهم السفه والعناد إلى هذا الحد: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم». ثم دعا على جماعة من صناديدهم فماذا كان؟

لقد أنزل الله العليم الخبير والمالك المتصرف -الذي له الخلق والأمر وله الحكم في الدنيا والآخرة- على أكرم رسله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. أي: لي الملك وحدي والهداية والإضلال بيدي، لا مانع لِما أعطيت ولا معطي لِما منعت.

ثُمَّ شاء الله الهداية لَهم فهداهم الله للإسلام فكانوا من خيرة جنوده وأخلصهم له وفتح الله بِهم الدنيا وهدى الله أممًا على أيديهم، فهل يكون من العقلاء من يعتقد في رسول الله أو غيره أنه يعلم الغيب أو يتصرف في الكون؟

وهل يكون عاقلًا من يلجأ إلى غير الله في الشدائد وينتظر منه النجدة وكشف الكروب؟

إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

* ما يستفاد من هذين الحديثين:

١- فيه وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء، ليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم. قاله القرطبي.

٢- فيه مشروعية القنوت في النوازل.

٣- وفيه جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة ولا يؤثر ذلك في الصلاة.

٤- وفيه أن الأمر والملك كله لله، فقد دعا النبي ﷺ على المشركين، وسادات الصحابة يؤمنون فلم يستجب لهم في المدعو عليهم ثم هداهم الله للإيمان.

* * *

الحديث التاسع: صدق الإيمان

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

أخرجه البخاري[1] ومسلم[2].

* **راوي الحديث:**

تقدمت ترجمته في الحديث السابع.

* **الشرح الإجمالي للحديث:**

لن يكون المرء مؤمنًا حق الإيمان حتَّى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه مِمَّن تربطه بهم روابط القرابة والنسب أو روابط الصداقة والمصلحة، فإذا كان حبه يفوق من أنجبه ورباه من والدة وأب وجد وجدة ويفوق حب أفلاذ كبده، ويفوق حب الزوجة والعشيرة وسائر من تربطه بهم علاقة اجتماعية أو سياسية أو تجارية أو أي رابطة أو مصلحة، إذا كان حاله كذلك فإنه حينئذٍ يكون مؤمنًا حقًّا

وعلامة ذلك: أن يُقدِّم طاعة الله ورسوله على كل طاعةٍ غيرها، وما يُحبه الله ورسوله على ما يُحبه جميع الناس، قريبهم وبعيدهم، ولو أسخط جميع الناس.

ولا يجد حلاوة الإيمان حتى تتوفر فيه ثلاث خصال كما في حديث أنس المتفق عليه: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مِمَّا سواهما، وأن يُحب المرء لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

فإذا وجدت هذه الثلاث فعلًا وجد بهن حلاوة الإيمان، وأصبح لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يبخل بنفس ولا مال في سبيل الله.

---

(١) كتاب الإيمان: حديث رقم (١٥).

(٢) كتاب الإيمان: حديث رقم (٤٤).

قال صاحب القول السديد (ص١١٢): واعلم أن أنواع المَحبة ثلاثة:

الأول: محبة اللَّه الَّتي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المَحبة في الله: وهي محبة أنبياء اللَّه ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه اللَّه من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرها وهذه تابعة لِمحبة اللَّه ومكملة لها.

الثالث: محبة مع اللَّه وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك وغيرها وهي أصل الشرك وأساسه.

* ما يستفاد من الحديث:

١- المؤمن حق الإيمان هو الذي يُقدِّم حب المصطفى ﷺ على حب الناس.

٢- خص الرسول ﷺ الولد والوالد في هذا الحديث لتعلق المرء بِهما أكثر من غيرهما من الناس في المحبة وغيرها.

٣- في هذا الحديث توجيه من الرسول ﷺ إلى الاقتداء به أولًا وقبل غيره من الناس، وهذا هو الواجب على كل المؤمنين.

* * *

الحديث العاشر: التمسك بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين

عن أبي نجيح العرباض بن سارية ﷺ قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومُحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

رواه أبو داود[1]، والترمذي[2] وقال: حديث حسن صحيح. ورواه أحمد[3]، وابن ماجه[4]، والدارمي[5].

* صحابي الحديث:

العرباض بن سارية السلمي، أبو نجيح، نزل حمص ومات بعد السبعين

* المفردات:

الموعظة: هي التذكير بالله والتخويف من عصيه وعذابه.

بليغة: أي: مؤثرة تصل إلى قلوب السامعين بأحسن الألفاظ وأفصحها وأعذبها.

وجلت القلوب: خافت.

ذرفت العيون: سالت منها الدموع.

---

(١) كتاب السنة: حديث رقم (٤٦٠٧)، (٥/ ١٣).

(٢) كتاب العلم: باب (١٦)، حديث رقم (٢٦٧٦)، (٥/ ٤٤).

(٣) (٤/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) المقدمة (٦) باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث رقم (٤٢، ٤٣)

(٥) مقدمة: حديث رقم (٩٦)، (١/ ٤٣).

فأوصنا: الوصية: الأمر المؤكد المقرر.

التقوى: أن تجعل بينك وبين ما تخافه شيئًا يمسك ويقيك.

السنة: الطريق والمنهج فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأقوال والأعمال

البدعة: إحداث أمر في الدين لم يكن على عهد رسول الله ولا على عهد أصحابه.

الراشدون: من الرشد وهو ضد الغي.

المهديون: الموفقون لإدراك الحق واتباعه.

الضلال: هو الذهاب والبعد عن الحق وهو ضد الهدى.

*** المعنى الإجمالي:**

هذا الحديث أصل عظيم وفيه توجيهات عظيمة جامعة، فقد أسدى فيه رسول الله ﷺ هذه النصيحة العظيمة والوصية البليغة إلى الأمة الإسلامية حيث أرشدهم إلى أمور عظيمة لا قوام لدينهم ودنياهم إلا بالتزامها واتباعها، ولا حل لمشاكلهم إلا بتنفيذها بدقة.

١- فلا دين إلا بتقوى الله، وهي طاعة الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه

٢- ولا قيام لدينهم ولا دنياهم إلا بإمام صالح عادل يقودهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وينفذ فيهم شريعة الله وينظم صفوفهم ويوحد كلمتهم ويرفع لهم راية الجهاد لإعلاء كلمة الله وعلى الأمة أن تسلم له زمام الطاعة فيما تحب وتكره ما دام مستقيمًا على أمر الله ومنفذًا لأحكامه.

ولمصلحة الإسلام والمسلمين وحفاظًا على وحدتهم وحقنًا لدمائهم يفرض الإسلام الطاعة بالمعروف على الأمة لولي الأمر وإن كان عاصيًا ما لم يخرج به العصيان إلى الكفر.

٣- وتناولت وصية رسول الله ﷺ موقف الأمة من الخلافات والمخالفين للحق، فأرشدنا إلى الاعتصام بالحق والرجوع إلى النهج السوي منهج رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين (وما سنتهم ومنهجهم إلا كتاب الله الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ

بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت ٤٢]. وسنة رسول الله ﷺ المطهرة، ففيهما النجاة والسعادة وفيهما الحلول الصحيحة الحاسمة للخلافات الواقعة بين الفرق الإسلامية وإنهاؤها على الوجه الذي يرضي الله ويجمع كلمة المسلمين على الحق، وكل الحلول التي تقدم على غير هذا الوجه مخاطئة وعاقبتها الفشل.

٤ - وتناولت نصيحة رسول الله ﷺ التحذير من البدع ومُحدثات الأمور فكم حذَّر رسول الله ﷺ أمته من أخطار البدع ومفاسدها مع البيان النير أنها ضلالة وأنها في النار، فما الذي يدعو كثيرًا من المسلمين إلى الوقوع فيها والتشبث بها؟! وقد أكرمهم الله بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، دين كامل غاية الكمال لا نقص فيه، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة ٣].

إنه من المؤسف حقًا أن ترى كثيرًا من الأمة الإسلامية لا تعتمد على القرآن ولا على السنة في عقائدها وقد طغت البدع على السنن في عباداتها وتقاليدها وصدق فيها قول الرسول ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

* ما يستفاد من الحديث:

١ - مشروعية النصيحة والوعظ للمسلمين ويكون ذلك تخولًا كما في حديث ابن مسعود.

٢- الأمر بتقوى الله في الموعظة.

٣- في الحديث عَلَم من أعلام النبوة حيث وقع الخلاف في الأمة كما أخبر.

٤- وفيه الزجر عن الاختلاف في أصول الدين وفروعه.

٥- وفيه الرجوع إلى منهج الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين.

٦- وفيه الزجر عن البدع والتحذير منها.

٧- وفيه أن كل بدعة ضلالة وليس فيها حسنة.

* * *

الحديث الحادي عشر: رضا اللَّه في ثلاث وسخطه في ثلاث

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال

«إن اللَّه يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل اللَّه جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه اللَّه أمركم، ويسخط لكم ثلاثًا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

رواه مسلم[1]، ومالك[2]، وأحمد[3].

* **راوي الحديث:**

أبو هريرة الدوسي الصحابي الجليل حافظ الصحابة، اختلف في اسمه فقيل: عبد الرحمن بن صخر، وقيل: ابن غنم، وقيل غير ذلك، وذهب الأكثرون إلى الأول، مات سنة تسع وخمسين من الهجرة.

* **معاني المفردات:**

الرضا والسخط: صفتان لله تليقان بجلاله لا تشبهان صفات المخلوقين.

العبادة: لغةً: الخضوع والذل مع المحبة وهي أمر جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فكل ما أمر اللَّه به أمر إيجاب أو استحباب فهو عبادة، وصرفه لغيره شرك.

الشرك: أن يتخذ لله ندًّا في شيء من العبادات بأن يصرف العبد نوعًا من أنواع العبادة لغير اللَّه، فكلُّ اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده: توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره: شرك.

الاعتصام بحبل الله: هو التمسك بما جاء به رسول اللَّه ﷺ كتابًا وسنة.

---

(١) ٣- كتاب الأقضية ٥- باب النهي عن كثرة المسائل، حديث (١٧١٥)، (٣/ ١٣٤٠).

(٢) الموطأ، ٥٦- كتاب الكلام، ٨- باب ما جاء في إضاعة المال، حديث (٢٠)، (٢/ ٩٩٠)

(٣) (٢/ ٣٦٧).

قيل وقال: الخوض في الباطل وفيما لا يعني.

كثرة السؤال: الإكثار من سؤال الناس وفرض ما لَم يقع من المسائل والمشاكل.

إضاعة المال: إهماله والتفريط فيه وتعريضه للضياع.

* **المَعنَى الإجمَالي:**

في هذا الحديث إشارات نبوية عظيمة:

فأولها: الحث على التوحيد الخالص والقيام بأعظم حقوق الله وأعظم واجبات الإسلام وهو إفراد الله وحده بالعبادة الَّتي هي الغاية من خلق الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والابتعاد عن الشرك في عبادته فلا يشرك العبد بالله أحدًا من خلقه فيجعله ندًا لله في دعاء ولا استغاثة ولا ذبح ولا نذر ولا رجاء ولا خوف ولا توكل لأن هذه الأمور حق خاص لله لا يرضى أن يشاركه فيها ملَك مقرب ولا نبي مرسل.

وثانيها: الاعتصام بحبل الله: وهو ما جاء به رسول الله ﷺ من كتاب وسنة وما حوته تعاليم الرسول من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات، فلا يسع مسلمًا، لا فردًا من أفراد المسلمين ولا طائفة من طوائف المسلمين ولا مجتمعًا من المجتمعات الإسلامية ولا حاكمًا ولا محكومًا الخروج عن شيء من أصول الإسلام أو فروعه، بل يَجب على الجميع الإيمان والالتزام الكامل بكل ما جاء به خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وتقديمه على كل قول وهدي.

والاحتكام إلى ما جاء به الرسول في كل شأن وتجريد الطاعة والمتابعة لرسول الله ﷺ في صغير أمور الدين وكبيرها، ومجانبة كل بدعة ورأي ومعصية وبذلك لا بغيره يَجتمع شَمل المسلمين، وتقوم وحدتُهم المنشودة، ويصدق عليهم جميعًا أنَّهم معتصمون بحبل الله، وهذا الواقع هو الذي يريده الله وكلف به الأمة الإسلامية لا الوحدات السياسية مع اختلاف العقائد والمشارب والاتجاهات فإن هذا اللون من التجميع لو تَمَّ -وهو بعيد- ينطبق عليه قول الله -تعالى-: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

وثالثها: مناصحة ولاة أمر المسلمين: وذلك يتم بالتعاون معهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف وإعلامهم بما غفلوا عنه ولَم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، والصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج عليهم بالسيف إذا ظهر منهم حيف أو سوء العشرة، والدعاء لهم بالصلاح وألَّا يغروا بالثناء الكاذب عليهم.

ورابعها: النهي عن قيل وقال: وهو الخوض في الباطل وإشاعة الفواحش ونشر الإشاعات والأخبار الكاذبة، وكفى بالمرءِ كذبًا أن يُحدث بكل ما سمع، وكذلك الإغراق في فرض مسائل لَم تقع والإجابات عنها قبل وقوعها فإن هذا يصرف المسلمين عن دراسة الكتاب والسنة ويشغلهم عن حفظ نصوصهما والتفقه فيهما.

وخامسها: النهي عن كثرة السؤال: وهو يشمل سؤال الناس ما في أيديهم من المال وغيره وإنزال حاجته بهم، وهذا لا يليق بالمسلم الذي يريد اللَّه له أن يكون عزيزًا شريفًا، فسؤال الناس مُحرم في الأصل ولا يجوز إلا في حال الضرورة.

وفي سؤال المخلوق بلا ضرورة ثلاث مفاسد:

١- مفسدة الافتقار إلى غير اللَّه وهي نوع من الشرك.

٢- ومفسدة إيذاء المخلوق المسئول وهي نوع من ظلم الخلق.

٣- ومفسدة الذل لغير اللَّه وهو ظلم للنفس

هذا إذا كان المسئول حيًا قادرًا على تحقيق المطلوب منه فكيف بسؤال الميت والغائب ما لا يقدر عليه إلا الله؟

إن ذلك هو عين الشرك باللَّه.

كما يشمل هذا النهي كثرة الأسئلة العلمية خصوصًا الَّتي يقصد منها التعنت وإثارة النِّزاع والجدال بالباطل وكذلك الإغراق في فرض المسائل الَّتي لَم تقع وطلب الإجابات عنها.

وسادسها: النهي عن إضاعة المال؛ فإن المال نعمة من اللَّه وفيه عون على طاعة اللَّه والجهاد في سبيله وعلى مساعدة المستحقين من المسلمين الفقراء

والأقارب وغيرهم، فيجب أن يشكر المسلم ربه على هذه النعمة ويُحافظ عليها من الضياع والإهمال ولا ينفق منه إلا في الطرق التي شرعها الله أو أباحها وليس له أن ينفق منه في سبيل الشيطان والمعاصي كما ليس له أن يهمل هذه النعمة ويعرضها للضياع.

* ما يستفاد من الحديث:

١- وجوب القيام بعبادة الله على الوجه المطلوب

٢- وجوب الابتعاد عن كل أصناف الشرك صغيره وكبيره

٣- وجوب الاعتصام بحبل الله وهو الإسلام الذي جاء به الرسول محمد ﷺ كتابًا وسنة في كل شأن.

٤- تحريم التفرق ووجوب وحدة المسلمين على الحق.

٥- وجوب مناصحة ولاة أمر المسلمين والتعاون معهم على الحق والبر

٦- تحريم القيل والقال.

٧- تحريم سؤال المخلوقين إلا فيما يقدرون عليه في حال الضرورة، والأفضل التوكل والصبر.

٨- تحريم إضاعة المال.

* * *

الحديث الثاني عشر: جهاد المنحرفين عن هدي الأنبياء

عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثُمَّ إنَّها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

أخرجه مسلم[1] وأحمد[2].

* **راوي الحديث:**

عبد الله بن مسعود تقدمت ترجمته في شرح الحديث رقم (٥).

* **المفردات:**

الحَواريون: هم خلصاء الأنبياء وأصفياؤهم، وقيل: الأنصار. وقيل: المُجاهدون.

تخلف: تحدث.

الخُلوف: جمع خَلْف -بسكان اللام- وهو الخلف بشرٌ.

* **المَعنَى الإجمَالي:**

هذا الحديث فيه إخبار عن أحوال الأنبياء وأحوال أممهم وأن أصحابهم وحوارييهم الذين استضاءوا بنور سوتهم وشاهدوا نزول الوحي عليهم يظلون أوفياء مخلصين لربِّهم ومتمسكين بهَدي أنبيائهم في الظاهر والباطن تطابق أقوالهم

(١) كتاب الإيمان: حديث رقم (٨٠)، (١/٦٩، ٧٠).
(٢) (١/٤٥٨، ٤٦١).

أفعالهم، ثم تخلفهم أجيال يحيد بهم الشيطان عن مناهج الأنبياء يدّعون بأقوالهم أنّهم على نَهج الأنبياء، ويَخترعون من البدع والمناهج الباطلة ويرتكبون من المنكرات والمعاصي ما يجعلهم أبعد الناس عن أديان أنبيائهم ويعيشون في تناقضات بين أقوالهم وأعمالهم.

ويبقى في كل أمة علماء مخلصون أوفياء لدينهم يُجاهدون وينافحون عن تعاليم أنبيائهم، كل على حسب طاقته ومنزلته من الإيمان؛ فمجاهد بلسانه ومجاهد بيده، ومجاهد بقلبه -وذلك أضعف الإيمان وليس وراءه شيء من الإيمان.

وأمة محمد ﷺ وقع فيها ما وقع في الأمم السابقة وخلفت بعد القرون المفضلة خلوف تفرقت بهم السبل وشتتهم الأهواء وصدق فيهم قول رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتّى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». «ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة».

وبقي في هذه الأمة الطائفة المنصورة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»[1]. هذه الطائفة لا زالت وستبقى -كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ- تدعو إلى الحق والخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدحض البدع والشبهات المضللة بالحجج والبراهين وتجاهد الباطل -حسب إستطاعتها- باليد واللسان والقلب، فعلى المؤمن الثبات على ما جاء به الرسول في عقيدته وعبادته وأخلاقه وعليه الأخذ بسنة نبيه والاقتداء بأمره ومجانبة الأهواء والمعاصي والبدع ثُمّ الدعوة إلى الحق وبذل ما يستطيعه في نصرة دينه

* ما يستفاد من الحديث:

١- فيه أن الأنبياء قد جاءوا بشرائع وسنن لهداية الناس.

٢- وفيه فضيلة ومزية أصحاب الأنبياء باتباعهم سنن أنبيائهم

---

(١) أخرجه مسلم، ٣٣ كتاب الإمارة حديث (١٧٠-١٧٦) من حديث ثوبان والمغيرة بن شعبة وجابر بن سمرة وجابر بن عبد الله ومعاوية وعقبة بن عامر وهو حديث متواتر رواه ستة عشر من أصحاب رسول الله ﷺ.

٣- وفيه ذم من خالف منهجهم بأنهم خلوف وهم الذين يخلفون أباءهم بِشرٍّ وما كانوا أشرارًا إلا بمخالفة الأنبياء.

٤- وفيه ذم من تُخالف أقوالُه أفعالَه، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

٥- وفيه ذم البدع وما هي إلا فعل ما لا يأمر به الله على ألسنة أنبيائه.

٦- وفيه مدح التابعين للأنبياء الثابتين على سنتهم والمتمسكين بالاقتداء بهم.

٧- وفيه مدح هؤلاء الأتباع بنصرهم وجهادهم لمن خالف منهج الأنبياء.

٨- وفيه بيان مراتب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه على حسب طاقة أصناف المجاهدين: فمن يستطيع الجهاد وإزالة المنكر بيده فعليه أن يقوم بهذا الواجب، ومن عجز عن هذه المرتبة واستطاع أن يقول كلمة الحق فعليه أن يقولها، ومن عجز عن ذلك فعليه أن يقوم بما يستطيعه وهو الجهاد بالقلب وإنكار الباطل بقلبه، فإن فاته هذا فليس بمؤمن وقد مات قلبه.

٩- وفيه أن الإيمان يتفاوت ويزيد وينقص «وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان».

* * *

الحديث الثالث عشر: الدين النصيحة

عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الدين النصيحة ثلاثًا. قلنا لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم».

رواه مسلم[1]، وأبو داود[2]، وأحمد[3]، والنسائي[4].

*** صحابي الحديث:**

تَميم بن أوس بن خارجة الداري، أبو رقية، صحابي مشهور مات سنة (٤٠هـ).

*** المفردات:**

الدين: الإسلام كله، إذ مدار الإسلام على هذا الحديث.

النصيحة: كلمة جامعة، معناها حيازة الحظ للمنصوح له، مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه، فشبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب.

أئمة المسلمين: زعماؤهم كالخلفاء والأمراء والعلماء.

عامتهم: سائر المسلمين مِمَّن عدا الأئمة.

*** المَعْنَى الإجمَالي:**

هذا الحديث عظيم الشأن ومن جوامع كلم الرسول الكريم ﷺ وعليه مدار الإسلام لو عمل أفراد المسلمين وجماعتهم بما تضمنه من معاني النصيحة لنالوا سعادة الدنيا والآخرة ولعاشوا إخوة متحابين تجمعهم عقيدة واحدة وراية واحدة ومنهج واحد لحياتهم.

---

(١) كتاب الإيمان، ٢٣- باب بيان أن الدين النصيحة، حديث (٥٥)، (١/ ٧٤).

(٢) ٣٥- أدب، حديث (٤٩٤٤)، (٥/ ٢٣٣)

(٣) (٤/ ١٠٢-١٠٣)

(٤) (٧/ ٤٠) باب النصيحة للإمام.

فالنصيحة لله: معناها: الإيمان به ﷻ وبكل ما ورد في الكتاب والسنة من أسمائه الحسنى وصفاته العلى إيمانًا حقًّا صادقًا من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل على أساس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وإفراده وحده سبحانه بالعبادة ونفي الشريك عنه والقيام بطاعته واجتناب معصيته والحب فيه والبغض فيه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه وجهاد من كفر به والاعتراف بنعمته وشكره عليها والإخلاص في جميع الأمور له.

وأما النصيحة لكتابه: فالإيمان بأنه كلام الله منزل منه غير مخلوق، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لو اجتمعت الجن والإنس لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ولا بعشر سور من مثله بل ولا بسورة من مثله.

ثُمَّ تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه عند التلاوة والذب عنه برد تأويل المُحرفين وتَحريف الغالين وانتحال المبطلين والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأحكامه وأمثاله وحدوده والاعتبار بمواعظه والتفكر في عجائبه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والبحث في ناسخه ومنسوخه ونشر علومه والدعاء إليه.

وأما النصيحة لرسول الله ﷺ: فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به وطاعته في أمره ونهيه ونصرته حيًا وميتًا ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه وإعظام حقه وتوقيره وإحياء طريقه وسنته وبث دعوته ونشرها ونفي التهمة عنها وخدمة علومها والتفقه في معانيها والدعاء إليها وإعظامها والتأدب عند قراءتها والإمساك عن الكلام فيها بغير علم والتخلق بأخلاق هذا الرسول الكريم والتأدب بآدابه ومحبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فقد ذكرناها في شرح الحديث السابق.

وأما النصيحة لعامة المسلمين -وهم من عدا ولاة الأمر-: فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكف الأذى عنهم، وتعليمهم ما يجهلونه من دينهم

ويعينهم عليه بالقول والفعل وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص وستر عوراتهم وسد خلاتهم ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لَهم والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم وتخولهم بالموعظة الحسنة وترك غشهم وحسدهم وأن يُحب لَهم ما يُحب لنفسه من الخير ويكره لَهم ما يكره لنفسه من الشر والذب عن أموالهم وأعراضهم وحثهم على التخلق بجميع ما ذكر من النصيحة وتنشيط هِمَمِهم إلى الطاعة. انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (٢/ ٣٨- ٣٩).

*** ما يستفاد من الحديث:**

١- أن النصيحة تسمى دينًا وإسلامًا.

٢- أن الدين يقع على العمل كما يقع على القول.

٣- وأنه لا دين لِمن لا ينصح لله وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم، ومن غشهم في شيء من ذلك فليس منهم.

٤- وجوب النصيحة في جميع ما ذكر من أنواعها وعلى جميع المسلمين، كلٌ على حسب طاقته وعلمه ومكانته في المجتمع.

* * *

الحديث الرابع عشر:
أحب الأعمال إلى الله ﷻ

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله ﷻ؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثُمَّ أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثُمَّ أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله».

رواه البخاري[1] ومسلم[2] وأحمد[3].

* **صحابي الحديث:**

تقدمت ترجمته في شرح الحديث رقم (٥).

* **المفردات:**

أحب إلى الله: أكثرها محبة إلى الله وأفضلها.

بر الوالدين: طاعتهما والقيام بحقوقهما والإحسان إليهما.

الجهاد في سبيل الله ﷻ: بذل النفس والمال في دعوة الكفار إلى الله وقتالهم لإعلاء كلمة الله.

* **المعنى الإجمالي:**

كان الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ من قراء الصحابة وفقهائهم وعلمائهم، وكانت أسئلته لرسول الله تنبئ عن فقهه وإدراكه، فكما سأل هنا عن أحب الأعمال إلى الله فإننا نجد في الأسئلة السؤال عن أعظم الذنوب وأشدها؟ فيجيبه رسول الله: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك. فيقول: ثُمَّ أي؟ فيقول له الرسول ﷺ أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. فيقول: ثُمَّ أي؟ فيقول له رسول الله ﷺ

(١) ٧٨- أدب، حديث (٥٩٧٠).
(٢) ١- الإيمان (١٣٧-١٣٩).
(٣) (٤١٨/١).

أن تزاني حليلة جارك. فهو كما يحرص أن يعرف أحب الأعمال إلى الله يحرص كذلك على أن يعلم أبغض الأعمال إلى الله.

*** ففي حديثنا هذا بيان لأمور ثلاثة هي أحب الأعمال إلى الله:**

أولها: **الصلاة على وقتها**، فالصلاة في حد ذاتها هي الركن الثاني من أركان الإسلام وأول العبادات تشريعًا ولم يُبلِّغها رسول الله كسائر العبادات بواسطة جبريل بل أسرى الله بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثُمَّ عرج به إلى السماء وهناك فوق السموات العلا ناجاه ربه وأكرمه وكلمه بفرضيتها مباشرة، فهذا دليل عظمتها، وإذا صلى العبد فإنَّما يناجي ربه، وأفضل وقت يتقرب به العباد إلى الله هو أوائل أوقاتها كما كان رسول الله ﷺ يؤديها في أوائل أوقاتها ورغب في ذلك بقوله ﷺ كما في هذا الحديث.

وثانيها: **بر الوالدين**؛ فحق الوالدين عظيم قرنه الله بتوحيده في غير ما آية قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣] وغير ذلك من الآيات.

وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة تدل على عظمة حق الوالدين.

منها: هذا الحديث.

ومنها: «**ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين...**»[1] الحديث.

ومنها: «**لعن الله من لعن والديه**»[2].

---

(١) البخاري، ٧٨- الأدب، ٦- باب عقوق الوالدين، حديث (٥٩٧٦)، ومسلم ١- الإيمان، ٣٨- باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث (١٤٣) من حديث أبي بكرة.

(٢) مسلم، ٣٥- الأضاحي حديث (٤٣-٤٥)، والنسائي (٧/ ٢٠٥)، وأحمد (١/ ١٠٨، ١١٨).

ومنها: «من أحق الناس ببري؟ قال: أمك. قال: ثُمَّ من؟ قال: أمك. قال: ثُمَّ من؟ قال: أمك. قال: ثُمَّ من؟ قال: أبوك».

فيجب على المسلم القيام بهذا الحق العظيم حتى لو كانا كافرين فإن حقهما لا يسقط عن الولد ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٥].

وثالثها: الجهاد في سبيل الله؛ فإنه ذروة سنام الإسلام وبه تكون كلمة الله هي العليا وبه يظهر الله الإسلام على سائر الأديان كما حصل ذلك بجهاد رسول الله ﷺ وجهاد صحابته الكرام من بعده فإنَّهم باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله وجاهدوا في الله حق جهاده فأعلى الله بهم الإسلام وأظهره على الأديان كلها على أيديهم وأعلاهم وأعزهم به وجعلهم سادة الدنيا وأساتذتها وعلماءها وقادتها، فإنَّهم صدقوا الله في البيعة الَّتي تمت بينهم وبينه وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

والآيات والأحاديث في مكانة الجهاد وفضله كثيرة فليرجع إليها.

وليدرك المسلمون أنه لا عزة لهم ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا في التمسك بالدين والجهاد في سبيل الله وما نالهم ما نالهم من ذل وهوان وتسلط أمم الكفر من المستعمرين عليهم إلا بتفريط في دينهم وتركهم الجهاد في سبيل الله، فيجب أن يستأنفوا حياة جديدة بالعودة إلى الله والجهاد في سبيله كما قال رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، ورضيتم بالزرع، واتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله؛ سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حتَّى ترجعوا إلى دينكم»[1]

---

(١) أخرجه أبو داود، ١٧- كتاب البيوع، ٥٦- باب في النهي عن العينة، حديث (٣٤٦٢)، وأحمد (٢/ ٨٤)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣١٦).

* ما يستفاد من الحديث:

١- إثبات صفة المَحبة لله على الوجه اللائق به.

٢- الصلاة في أول وقتها من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله

٣- أن حق الوالدين عظيم وبرهما والقيام بحقوقهما من أحب الأعمال إلى الله.

٤- فضيلة الجهاد في سبيل الله وتوقف عزة المسلمين على القيام به، وهذا يدل عليه آيات وأحاديث كثيرة.

* * *

الحديث الخامس عشر: أليس الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال؟

عن أبي هريرة ﷺ قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول:

إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتَّى استشهدت. قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل. ثُمَّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثُمَّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تُحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل ثُمَّ أمر به فسحب على وجهه ثُمَّ ألقي في النار».

أخرجه مسلم[1] وأحمد[2] والنسائي[3].

* راوي الحديث:

تقدمت ترجمته في شرح الحديث رقم (١١).

* المفردات:

يقضى عليه: يُحاكم ويُحاسب.

---

(١) ٣٣- الإمارة، حديث (١٥٢) (٣/ ١٥١٤).

(٢) (٢/ ٣٢٢).

(٣) (٦/ ٢١).

استشهد: نال الشهادة فيما يبدو للناس أنه قُتل في سبيل الله.

جريء: شجاع.

سحب: جر مطروحًا على بطنه ووجهه بعنف وشدة إهانة له.

ألقي: قذف ورمي في النار.

أصناف المال: أنواعه.

جواد: سخي كريم.

* **المَعنَى الإجمالي:**

إن في مصير هؤلاء الثلاثة الأشقياء لعبرة وذكرى لِمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ما بالهم وما الذي دهاهم؟ أليس الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال؟ أليس هو ذروة سنام الإسلام؟ أليس للمجاهد في سبيل الله مائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؟ أليس الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ويسرحون في الجنة حيث شاءوا؟

أليس العلماء ورثة الأنبياء؟ ألم يقل الله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]؟

وهذا المتصدق المحسن الذي لا يترك سبيلًا يُحبها الله إلا أنفق فيها، أليس الله يثيب على الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة خصوصًا إذا كان البذل في سبيل الله؟ ألم يحث ربنا على البذل والإنفاق في سبيله؟

فما الذي أصابهم وجعلهم أول من يقضى عليه ويقذف به في نار جهنم -أعاذنا الله من هذا المصير-؟

لقد بيَّن رسول الله ﷺ سبب مصيرهم هذا وهو أنهم لم يُخلصوا لله في هذه الأعمال التي تبدو للناس أنها عظيمة، ولم يريدوا بها وجه الله، بل كانت مقاصدهم سيئة وأغراضهم فاسدة هو حب الثناء من الناس والمدح والإطراء.

فلم يرد ذلك المجاهد وجه الله ولا إعلاء كلمة الله، إنما أراد بذلك نفسه وأحب أن يعلو صيته ويشتهر بين الناس بالبطولة والشجاعة والإقدام وقد حصل

ذلك فكان جزاؤه في الدنيا، أما في الآخرة فكان جزاؤه أن يفضح وتكشف سريرته ثُمَّ يقذف في النار.

وأما العالِم: فلم يطلب العلم لله ليتفقه في دينه ويعلم ما يجب لله ولكتابه ولرسوله وللناس فيؤديه، ولَم يُعَلِّم الناس لوجه الله يرجو ثواب نشر العلم والدعوة إلى الله، إنَّما ليقال: فلان عالِم وفلان علامة زمانه وحافظ الوقت وقارئ الأمة؛ فكان جزاؤه أن تفضح نواياه ويهتك ستره يوم القيامة جزاء سوء قصده ثم يلقى في النار.

وأما صاحب المال: فلم يشكر الله الذي أسبغ عليه تلك النعم ولَم يكن من الذين قال فيهم: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]

ولَم يدرك أن المال مال الله استخلفه فيه لينظر كيف يعمل، لذلك فهو لا يريد بما ينفقه وجه الله ولا يعرف طريقًا إلى الإخلاص لوجه الله إنَّما يريد أن يتغنَّى الناس بمجده ويلهج الشعراء بمدحه وأن يطير في الناس أخبار جوده وسخائه فكان له ذلك ونال ما قصده في الحياة الدنيا، وأما الآخرة الَّتِي لَم يردها فإن جزاءه فيها أن الحساب الدقيق والجزاء العادل والملائكة الغلاظ الشداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون تنتظره ليسحب على وجهه ثُمَّ يقذف في النار.

وإن في هذا لعبرة عظيمة وعظة بالغة للمجاهدين والعلماء والأثرياء المنفقين علّهم يتعظون فيخلصون أعمالهم لله فيظفرون بوعد الله وينجون من عقاب الله النازل بالمرائين والمنافقين.

* * *

الحديث السادس عشر: أثر العلم والهدى الذي جاء به الرسول محمد ﷺ في أصناف الناس

عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا.

وأصاب طائفة منها أخرى إنَّما هي قيعان لا تُمسك ماء ولا تنبت كلأً.

فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعَلَّم، ومثل من لَم يرفع بذلك رأسًا ولَم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به».

رواه البخاري[١] مسلم[٢] وأحمد[٣].

*** راوي الحديث:**

أبو موسى الأشعري: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار، صحابي مشهور هاجر إلى مكة ثُمَّ إلى الحبشة ثُمَّ إلى المدينة، واستعمله رسول الله ﷺ على ناحية من اليمن، كان شجاعًا عالِمًا عاملًا، ولاه عمر بن الخطاب على الكوفة والبصرة، فتح الأهواز وأصبهان وعدة أمصار، مات سنة خمسين ﷺ.

*** المفردات:**

المثل. المراد به هنا: الصفة العجيبة لا القول السائر.

---

(١) ٣ كتاب العلم، ٢٠ باب فضل من علم وَعلَّمَ، حديث (٧٩)

(٢) ٤٣-كتاب الفضائل، حديث رقم (١٥)، (٢٢٨٢).

(٣) (٤/٣٩٩)

الهدى: الدلالة الموصلة إلى المطلوب.

الغيث الكثير: المطر العام.

نقية: طيبة كما في الرواية الأخرى.

الكلأ: يطلق على النبت الرطب واليابس معًا.

العشب: النبت الرطب.

أجادب: جمع جدب -بفتح الدال المهملة- وهي الأرض الصلبة الَّتي لا ينضب منها الماء.

قيعان: جمع قاع وهو الأرض المستوية الملساء الَّتي لا تنبت.

*** توضيح هذا المثل:**

ضرب النَّبِي ﷺ لِمَا جاء به من الدين مثلًا بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه وكذا كان حال الناس قبل مبعثه ﷺ، فكما أن الغيث يُحيي به الله البلد الميت فكذا الوحي من الله يُحيي به القلوب الميتة.

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]

فالنور هنا: نور الوحي، والظلمات: ظلمات الجهل والكفر والضلال.

ثُمَّ شبه النَّبِي ﷺ السامعين لِمَا جاء به بالأرض المختلفة الَّتِي ينزل بها الغيث:

١- فمنهم: العالِم والعامل المعلِّم، فهو بِمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها، وأنبتت فنفعت غيرها.

٢- ومنهم: الجامع للعلم المُجتهد في تحصيله، لكنه لم يعمل بنوافله أو لَم يتفقه فيما جمع غير أنه أداه لغيره، فهو بِمنزلة الأرض الَّتِي يستقر فيها الماء، فينتفع الناس به وهو المشار إليه بقوله ﷺ: «نضر الله امرأ سَمع مقالتي فوعاها فأداها كما سَمعها».

٣- ومنهم: من يسمع العلم، فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بِمنزلة الأرض السبخة الملساء الَّتِي لا تقبل الماء، أو تفسده على غيرها

وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين؛ لاشتراكهم في الانتفاع بهما.

وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة؛ لعدم النفع بها.

فعليك أخي: بالعلم النبوي والعمل به يرفعك الله به.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وعليك: بالعمل به والدعوة إليه

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

واحرص: أن تكون من النوع الأول ممن تقبل هذا النور الذي جاء به النبي محمد ﷺ فيضيء الله به قلبك ويُحييه، فالحياة الصحيحة الطيبة لا تكون إلا به.

واحذر كل الحذر: أن تكون من النوع الثالث الذي لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسًا

* ما يستفاد من الحديث:

١- عظمة ما جاء به الرسول من الهدى والعلم، ألا وهو القرآن والسنة، وآثارهما في حياة الناس.

٢- تفاوت الناس من حيث الاستعداد لقبول ما جاء به الرسول وعدمه فالناس معادن.

٣- فضل العلم والتعليم ونشر الخير في الناس.

٤- خطورة الإعراض عما جاء به رسول الله ﷺ من كتاب وسنة من جهة، ودلالة هذا الإعراض على رداءة معادن هؤلاء المعرضين وحقارتهم عند الله

* * *

الحديث السابع عشر: الصدق والكذب ونتائجهما

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا.

وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا».

أخرجه البخاري[1]، ومسلم[2]، وأحمد[3]، وأبو داود[4]، ومالك[5] والترمذي[6]، وابن ماجه[7]، والدارمي[8]، واللفظ لمسلم.

*** راوي الحديث:**

عبد الله بن مسعود، وقد تقدمت ترجمته في شرح الحديث رقم (٥).

*** المفردات:**

عليكم: اسم فعل أمر بمعنى: الزموا الصدق.

الصدق: مطابقة الخبر للواقع.

يهدي: يدل ويرشد.

البر: التوسع في فعل الخير، وهو اسم جامع للخيرات كلها ويطلق على

---

(١) ٧٨- كتاب الأدب، حديث رقم (٦٠٩٤).

(٢) كتاب البر والصلة، ٢٩- باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، حديث (١٠٥).

(٣) (١/ ٨).

(٤) ٣٥- كتاب الأدب، ٨٨- باب التشديد في الكذب، حديث (٤٩٨٩)، (٥/ ٢٦٤).

(٥) ٥٦- كتاب الكلام، ٧- باب ما جاء في الصدق والكذب، حديث (١٦)، (٢/ ٩٨٩).

(٦) ٢٨- كتاب البر والصلة، ٤٦- باب ما جاء في الصدق والكذب، حديث (١٩٧١)، (٤/ ٣٤٧).

(٧) المقدمة، ٧- باب اجتناب البدع والجدل، حديث (٤٦)، (١/ ١٨).

(٨) ٢٠- الرقائق، ٧- باب في الكذب، حديث (٢٧١٨)، (٢/ ٢١٠).

العمل الخالص الدائم.

يتحرى: يعتمد ويقصد.

الفجور: الانبعاث في المعاصي، وهو اسم جامع للشر، وأصل الفجر: الشق الواسع.

إياكم: صيغة تحذير من الشر أو ما يضر.

والكذب: مخالفة الخبر للواقع.

* **المعنى الإجمالي:**

الصدق خلق نبيل، ومن أسس الفضائل، به تستقيم الحياة وتسير به سيرًا حميدًا، وإن الصدق ليعلي صاحبه ويرفع منزلته عند الله وعند الناس، فيكون محترم الكلمة محبوبًا لديهم مقبول الشهادة والحديث عندهم، فعليك بتحري الصدق في القول، وفي العقيدة، وفي العمل.

لقد أرشد الرسول الكريم ﷺ إلى مسألة تربوية عظيمة وهي طريق تربية الخلق وتكوينه وتقويته في النفس وذلك بأن يتحرى الإنسان القول الجميل والصنع الجميل ويقصد إلى عمله المرة بعد الأخرى والرابعة تلو الثالثة والسادسة بعد الخامسة حتى يؤثر هذا التكرار في نفسه وكلما أصر على متابعة ذلك العمل ازداد لصوقًا بنفسه ورسوخًا فيها.

فمن طمحت نفسه إلى منازل الصديقين وأن يكون الصدق خلقه وشيمته وطبعه فليتحر الصدق في أقواله وأعماله وليتابع ذلك، فإذا بالصدق خلقه، وإذ به يحتل -بعون الله- منازل الصديقين.

وكما أن الصدق من أسس الفضائل، فإن الكذب من أسس الرذائل، به يتصدع بنيان المجتمع ويختل سير الأمور ويسقط صاحبه من عيون الناس لا يصدقونه في قول ولا يثقون به في عمل، أحاديثه ساقطة لذلك حذر منه رسول الله ﷺ.

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات المقبحة للكذب المنفرة عنه المتوعدة عليه بالعذاب الشديد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وهل الشرك واتخاذ الأنداد الذي هو أكبر الجرائم والذنوب إلا كذب؟ وهل النفاق الذي هو شر من الكفر الصريح إلا كذب؟

وكذلك الغش في المعاملة ونية الإخلاف في المواعيد والرياء في الأعمال كلها من ضروب الكذب.

فابتعد أيها المسلم عن الكذب واربأ بنفسك عن تحريه؛ فإن فيه وفي تحريه وتقصُّده الهلاك والانحدار إلى هوة الفجور؛ لأنه يسوق صاحبه ويجره إلى منازل الفجار وإن الفجار لفي النار: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٤-١٥].

* ما يستفاد من الحديث:

١- وجوب التزام الصدق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

٢- في الحديث قاعدة تربوية: وهي أن من أراد أن يتخلق بالأخلاق العالية كالصدق والصبر والشجاعة فليتحرها وليتقصدها وليواظب عليها، فبتحري الصدق والتزامه يصبح صادقًا، وبالتصبر وتحمل الشدائد يصبح الصبر له خلقًا، وبالمداومة على الرذيلة وتحريها يصبح الرجل كذابًا ورديًا.

٣- وفي الحديث التحذير من الكذب ومن تحريه.

٤- وأنه يقود إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، أعاذنا الله من الكذب والفجور والنار.

* * *

الحديث الثامن عشر: علامات النفاق

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ:

«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتَّى يدعها. إذا اؤتُمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

رواه البخاري[١]، ومسلم[٢]، وأبو داود[٣]، والترمذي[٤]، والنسائي[٥]، وأحمَد[٦].

*** راوي الحديث:**

عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة الفقهاء، وكان من العلماء العباد، مات سنة ٦٨هـ.

*** المفردات:**

النفاق: مخالفة الباطن للظاهر، وأصله: من نافقاء اليربوع وهي إحدى جحره يكتمها ويظهر غيرها.

والغدر: ترك الوفاء بما عاهد عليه.

المخاصمة: المنازعة، أصلها من خصم الشيء، أي: جانبه وناحيته، فكل من المتخاصمين في جهة.

---

(١) ٢- كتاب الإيمان، ٢٤- باب علامة المنافق، حديث (٣٤)

(٢) ١- كتاب الإيمان، ٢٥- باب خصال المنافق، حديث (١٠٦)

(٣) ٣٤- كتاب السنة، ١٦- باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث (٤٦٨٨)

(٤) ٤١- كتاب الإيمان، ١٤- باب ما جاء في علامة المنافق، حديث (٢٦٣٢)

(٥) (٨/ ١٠٢)

(٦) في المسند (٢/ ١٨٩، ١٩٨).

الفجور: الميل عن الحق والاحتيال في رده، وأصله: من الفجر وهو شق الشيء شقًا واسعًا، والفجور فتن في الدين.

الخيانة: فسرت هنا بأنها التصرف في الأمانة بغير وجه شرعي كبيعها أو جحدها أو انتقاصها أو التهاون في حفظها.

● المَعنَى الإجمَالي:

النفاق داء كبير وخطر جسيم على الإسلام والمسلمين، وهو وصف ذميم لقوم أظهروا الإسلام كيدًا وخداعًا لينالوا به مصالح مادية ثم لينجوا بذلك من سيوف الإسلام.

وقد لعن اللّٰه المنافقين وذمهم وتوعدهم بأليم العذاب في الدرك الأسفل من النار.

وقد ذكر صفاتهم الذميمة في سور كثيرة من القرآن الكريم، في سورة البقرة والنساء وسورة التوبة وفي سورة المجادلة والحشر وسورة المنافقين، كل ذلك ليعرفهم المؤمنون ويحذروا شرهم وكيدهم وخبثهم.

وقد بيَّن الرسول الكريم في هذا الحديث أربعًا من صفاتهم وعلاماتهم البارزة:

الأولى: خيانة الأمانة، وبئست الخلق هي، وما أقبح أن يثق بك إنسان ويستأمنك على ماله أو عرضه أو حق من حقوقه، فتخونه

إن دائرة الأمانة واسعة تشمل كل ما يؤتمن عليه الإنسان، حتى لتشمل الدين كله.

فكل ما جاء به الأنبياء من العقائد والشرائع أمانة في أعناق العلماء إذا قصروا في تبليغها ونشرها كان ذلك منهم خيانة يستوجبون بها لعائن اللّٰه وغضبه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]

فعلى حملة العلم أن يبلغوا ما جاء به خاتم الأنبياء -عليه وعليهم الصلاة والسلام- فإن ذلك أعظم الأمانات، وكتمانه والتقاعس عنه أعظم الخيانات، قال

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

والثانية: الكذب في الحديث، فإنه أساس النفاق وهو من أقبح الأخلاق، فإن الأمم كلها تحترم الصدق وتمقت الكذب، وتحتقر صاحبه، فاحرص أن تكون مع الصادقين في أقوالهم وأفعالهم، وابتعد عن الكذب والكذابين؛ فإنه من صفات أحط البشر وهم المنافقون كما في هذا الحديث، وانظر إليهم وقد قامت دياناتهم على الكذب وكيف فضحهم الله، وكشف عوراتهم، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١-٢].

والثالثة: خلف الوعود أو نقض العهود والغدر، وذلك من أشنع الأخلاق وأرذلها، وكفى به شرًا أن يكون من عواقبه مرض النفاق، قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

فاحذر من الانحدار إلى هذا الخلق الحقير واحرص على الوفاء بالوعد، واحترام العهد حتى تكون من أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

والرابعة: الفجور في المخاصمة وعدم الوقوف عند الحق وهو وزر كبير وجرم خطير، يجر إلى مفاسد عظيمة من استباحة الأموال والأعراض، وجحد حقوق الآخرين وإلصاق التهم الظالمة بهم، ومحاربة الدعاة إلى الحق، وصد الناس عن الحق والهدى والسلوك بهم في مسالك الغواية والردى، فكم من أموال استبيحت، وأعراض انتهكت، ودماء أريقت بسبب فجور المنافقين في خصوماتهم، وكم من مريد للحق صدوه عن سلوك الصراط المستقيم واتباع الحق القويم.

ولولا الفجور في الخصومة لرأيت معظم المسلمين ملتزمين منهج الله، مقتفين سبيل المؤمنين من السلف الصالحين.

* * *

الحديث التاسع عشر: اجتناب الموبقات

عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبي ﷺ قال:

«اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس الَّتي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المُحصنات الغافلات المؤمنات».

رواه البخاري[١] ومسلم[٢] وأبو داود[٣] والنسائي[٤].

* **راوي الحديث:**

أبو هريرة، وقد تقدمت ترجمته في شرح الحديث الحادي عشر.

* **المفردات:**

الاجتناب: الابتعاد.

الموبقات: المهلكات.

الشرك: تقدم بيانه في شرح الحديث السادس.

السحر: عزائم ورقى وعقد، يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه إذا أراد الله ذلك

الربا: في اللغة: الزيادة مطلقًا، يقال: ربا يربو ربوًا إذا زاد، وفي الشرع: الزيادة على رأس المال من وجه خاص مُحَرَّم، والربا المعروف في الجاهلية أن يقول الدائن لمدينه: إذا حل الأجل إما أن تعطي وإما أن تربي.

اليتيم: من الإنسان: الذي فقد أباه، ومن الحيوان: ما فقد أمه.

---

(١) ٥٥- كتاب الوصايا، حديث (٢٧٦٦)، و٨٦- كتاب الحدود، حديث (٦٨٥٧).

(٢) ١- كتاب الإيمان، ٣٨- باب بيان الكبائر، حديث (١٤٥).

(٣) ١٢- كتاب الوصايا، ١٠- باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم، حديث (٢٨٧٤)

(٤) (٦/ ٢١٥)

والتولي يوم الزحف: الفرار والهرب حال قتال العدو.

قذف المُحصنات: رمي العفيفات بالزنا.

الغافلات: اللاتي لم تخطر الفاحشة على بالهن لطهارة قلوبهن، فهن ساهيات عن المنكر.

* المَعنَى الإجمالي:

يُحذِّر الرسول ﷺ أمته من الوقوع في الذنوب الموبقة، وهي المردية المهلكة وكل واحدة من هذه السبع توقع صاحبها في الهلكة.

أولها وأعظمها شرًّا وأكبرها خطرًا: هو الشرك بالله: الذي لا يُغفر أبدًا ولا يقبل معه من الصالحات شيء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

فمن ذبح أو حلق أو قصر أو نذر أو ركع أو سجد لغير الله أو حلف بمخلوق يعظمه أو سأل حاجاته من الميت كأن يطلب منه الولد أو دعاهُ أو ناداه أو استغاث أو استعان به في أمر لا يقدر عليه إلا الله. فقد أشرك وجعل لله ندًّا.

والشرك خفي وجلي:

فمن الخفي: أن تعمل رياء، أو تترك العمل لأجل الناس.

ومن الجلي: ما يقع عند قبور الأنبياء والصالحين من جهلة المسلمين وأشباه الجهلة من الطواف بالقبور ودعوة أصحابها في المهمات والشدائد والعكوف عليها، والتمسك بها لطلب البركات.

وثانيها: السحر: وفي السحر جمع بين الكفر والإضرار بالناس لما يتوهم العامة والجهلة من قدرة الساحر على ما يريد واستطاعته أن يتصرف في ملك الله بغير إذنه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

وقد اتفق العلماء على حرمة تعلم السحر وتعليمه وتعاطيه.

وقالوا: إن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كان كفرًا.

وقال مالك وأحمد وجماعة من الصحابة والتابعين: تعاطي السحر كفر

يوجب القتل.

وقال آخرون: يفسقه وأنه يحد بضرب عنقه، ولا يحكم عليه بالخروج عن الإسلام -كما هو مذهب الشافعي- إلا إذا قال أو فعل شيئًا من هذا السحر يكفر به، كمن يدعي القدرة على تغيير خلق الله أو مضاهاة خلقه أو يزعم أنه يضر وينفع بسحره كما هو شأن السحرة في كل زمان ومكان.

وأمر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ بقتل السحرة[1].

وقتلت أم المؤمنين حفصة ﷺ جاريةً لها ساحرة[2].

وقتل جندب بن عبد الله ساحرًا كان يلعب عند الوليد بن عقبة بقطع رأس الرجل ثم يدعوه فيأتي حيًّا[3].

وثالثها: قتل النفس وإزهاق الروح البريئة وإراقة الدماء الطاهرة: فتلك جريمة توقع الرعب في نفوس الناس وتزلزل أمنهم وتفتك بالأمة وتقطع روابط الإخاء وتنشر الأحقاد والعداوات بين الناس، فما أعظمها من جريمة وأخطرها، وقال الله تعالى في شأنها: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ورابعها: أكل الربا وهو استغلال للإنسانية وامتصاص لجهودها وأكل لأموالها بالباطل دون أن يبذل المرابون أي جهد في تلك الأموال المستباحة.

وفي التعامل بالربا مُحاربة لله ورسوله في الدنيا وهو من موجبات النار، وكيف لا يكون كذلك والمرابون أشد الناس قسوة وأبعد الناس عن الرحمة بالبشر

(١) أحمد في المسند (١/ ١٩٠)، وأبو داود، ١٤-كتاب الخراج، حديث (٣٠٤٣)، (٣/ ٤٣١)، وعبد الرزاق في المصنف (١٠/ ١٧٩)، والبيهقي في السنن (٨/ ١٣٦) وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ بلاغًا، كتاب العقول، حديث (١٤)، (٢/ ٨٧١)، ووصله عبد الله بن أحمد في مسائل أبيه (١٥٤٣)، والبيهقي في السنن (٨/ ١٣٦) عن عبد الله بن عمر وفي إسناده سعد بن نصر، لم أقف له على ترجمته.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٢)، والبيهقي في السنن (٨/ ١٣٦) من طرق بعضها صحيح وبعضها فيه انقطاع.

حيث ينتهزون فرصة إعسار المعسرين وشدة فقرهم وحاجتهم إلى المال فيعطي المائة بمائة وعشرة مثلًا إلى أجل، فإذا حل الأجل ولَم يقم المدين بأداء دينه ربَّما زاد في الربا وضاعفه عليه أضعافًا، فيلحق بالناس وباقتصادهم من الأضرار والدمار ما لا يعلمه إلا الله، يحيق بآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه لعائن الله وغضبه -أعاذنا الله من ذلك- .

وخامس الموبقات: أكل مال اليتيم: فمن حق اليتامى على الناس: أن يكفلوهم ويقوموا بتربيتهم والعناية بشأنِهم وينموا أموالَهم ويساعدوهم حتى يبلغوا أشدهم ويدركوا رشدهم.

وقد زجر الله في مُحكم كتابه عن أكل مال اليتيم وتوعد على ذلك أشد أنواع الوعيد فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وزجر عن قربانه إلا بالَّتِي هي أحسن، ومن الَّتِي هي أحسن: فعل الأصلح له وتنمية ماله بالبيع والشراء والتصرف بِما يعود عليهم بالربح والنماء المباح.

وسادسها: التولي يوم الزحف والفرار من لقاء العدو: فإن ذلك من الجبن وفيه إضعاف لشوكة المسلمين وخذلان لهم وضياع الدين وتَمكين الكافرين من دماء المسلمين ونسائهم وأموالِهم، ولا يَجوز لمسلم أن يفر من معركة هو الفائز فيها إما بالفتح والنصر والغنيمة، وإما بالشهادة في سبيل الله.

وسابعة الموبقات: قذف المُحصنات الغافلات المؤمنات ورميهن بالزنا ونسبتهن إلى الفواحش، إنَّها لجريمة عظيمة أن تعمد إلى امرأة كريمة متمتعة بالحصانة والعفة بعيدة عن الريبة ولا تخطر بقلبها الفاحشة فتقذفها بالزنا وترميها بالفاحشة.

إن من يفعل ذلك يجب أن يأتي بأربعة شهداء وإلا فهو عند الله من الكاذبين الفاسقين ولا تُقبل له شهادة أبدًا ويَجب أن يقام عليه الحد، ثَمانون جلدة، هذا جزاؤه في الدنيا، وجزاؤه في الآخرة ما رتبه الله على هذا الإفك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٣-٢٤].

فاجتنب أيها المسلم هذه الموبقات ولا تدنس نفسك بشيء منها فتوجب لَها مقت الله وغضبه إلى جانب مقت الناس وسخطهم عليك واحتقارهم لك.

واعلم أن الكبائر كثيرة، فهي كما قال ابن عباس ﷺ: «إلى السبعين أقرب».

وقد أُلِّفت فيها كتب مثل الكبائر للذهبي وهو مطبوع، ومثل كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي، فاعرف الكبائر ثُمَّ اجتنبها يغفر الله لك الصغائر واللمم، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

* ما يستفاد من الحديث:

١- رأفة الرسول ﷺ ورحمته بأمته حيث يدلهم على خير ما يعلمه لَهم، ويُحذرهم شر ما يعلمه لَهم.

٢- وجوب اجتناب هذه الموبقات الَّتِي حذر منها رسول الله ﷺ، واجتناب غيرها من الكبائر الَّتِي دل عليها الكتاب والسنة

٣- أعظم هذه الكبائر: الشرك بالله؛ فإنه الذنب الذي لا يُغفر.

* * *

الحديث العشرون: نجاة الأمة في طاعة الرسول ﷺ وهلاكها في مخالفته

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إنِّي رأيت الجيش بعيني، وإنِّي أنا النذير العريان، فالنجاء. فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق».

رواه البخاري[1] ومسلم[2].

* راوي الحديث:

تقدمت ترجمته في شرح الحديث رقم (١٦).

* المفردات:

مثلي: صفتي وحالي العجيبة.

النذير: المخبر بما فيه شر وسوء.

العريان: ضد المكسو، المتجرد من ثيابه.

والنذير العريان الممثل به: رجل من خثعم تزوج امرأة من زبيد فأراد بنو زبيد أن يغيروا على قبيلته فخافوا أن ينذر قومه فجعلوا عليه حرسًا بعد أن خلعوا ثيابه، فصادف منهم غرة ففر إلى أهله فأنذرهم وكان مما قاله.

أنا النذير العريان ينبذ ثوبه إذا الصدق لم ينبذ لك ثوب كاذب

فصار مثلًا لكل أمر تخاف مفاجأته ولكل رجل لا ريب في كلامه.

---

(١) ٩٦- كتاب الاعتصام، حديث (٧٢٨٣).

(٢) ٤٣- كتاب الفضائل، حديث (١٦)، (٤/ ١٧٨٨).

النجاء: الهرب وهو منصوب على الإغراء.

أدلجوا: ساروا من أول الليل أو ساروا الليل كله.

صبحهم: أغار عليهم في الصباح.

اجتاحهم: استأصلهم فلم يبق على أحد منهم.

* المَعْنَى الإجمَالي:

بعث الله رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق وجاء بالمعجزات العظمى الكونية والشرعية والبراهين الواضحة والحجج القوية الصادقة الدالة أكبر دلالة على صدقه وصدق ما جاء به وأنه رسول من الله حقًا، فآمن به واتبعه وأطاعه من أراد الله به السعادة والنعيم والنجاة من غضب الله وبطشه وعقابه.

وكذبه وعصاه أهل الكبر والعناد وأهل الجاه والمناصب والمصالح الذين حاق بهم غضب الله واستوجبوا الهلاك والعذاب الأليم والدمار الماحق جزاء كفرهم وكبرهم وتكذيبهم وعنادهم واتباع أهوائهم وعدم انقيادهم للحق.

فضرب رسول الله ﷺ مثلًا لحاله وحال ما جاء به من الحق الواضح والصدق البيِّن، وما يترتب على تصديقه وطاعته وعلى تكذيبه وعصيانه ومخالفته بحال ذلك الرجل الصادق المخلص الجاد في إنذار قومه والحريص على نجاتهم من الخطر الداهم الذي يكمن وراء ذلك الجيش المباغت، فمن صدقه وأطاعه وأخذ بأسباب النجاة في تجنب خطر ذلك الجيش نجا، ومن كذبه وعصاه واستخف بذلك الخطر نزل به خطر العدو فأهلكه واجتاحه.

وكذلك مصير هذه الأمم والشعوب التي بُعث إليهم الرسول ﷺ: فمن صدقه وأطاعه سعد في الدنيا والأخرى ونال من الله أعظم الجزاء وأكرمه، ونجا من عقوبات الدنيا وخزي الآخرة.

ومن كذبه وعصاه وخالف ما جاء به ولم يرفع رأسًا بالهدى الذي جاء به المتمثل في الكتاب والسنة تعرض لغضب الله وسخطه وأنزل به العقوبات والكوارث في الدنيا والعذاب الواصب في الآخرة.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

* ما يستفاد من الحديث:

١- بلاغة رسول الله ﷺ في ضربه الأمثال الصادقة الحية الَّتي تَجعل المعقول في قالب المحسوس، وتقريب المعاني البعيدة بهذا التصوير الرائع.

٢- حرصه على هداية الناس.

٣- صدق ما جاء به ووضوحه.

٤- حصول الفوز والسعادة بتصديقه وطاعته واتباع ما جاء به.

٥- وقوع البوار والدمار في الدنيا والآخرة بتكذيبه ومخالفته وعصيانه.

* * *

الحديث الحادي والعشرون:
أهمية حب الله وحب رسوله ﷺ

عن أنس ﷺ عن النَّبِي ﷺ قال:

«ثلاث من كن فيه وجد بِهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يُحب المرء لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار».

رواه البخاري[1] ومسلم[2] والترمذي[3] وابن ماجه[4].

* راوي الحديث:

أنس بن مالك وقد تقدمت ترجمته في شرح الحديث رقم (٧).

* المفردات:

حلاوة: لذة وبَهجة.

الإيمان: هو تصديق بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح.

يكره: يبغض.

الكفر: أصله: الستر، والمراد به: الجحود والكران والتكذيب

يُقذف: يُرمى.

* المَعنَى الإجمَالي:

هذه الأربعة الأمور من وُجدت فيه وجد بِهن حلاوة الإيمان ولذته وهي علامات حبه الصادق لله.

---

(١) ٢- كتاب الإيمان، ٩- باب حلاوة الإيمان، حديث (١٦).

(٢) كتاب الإيمان ١٥- باب خصال من اتصف بِهن وجد حلاوة الإيمان، حديث (٦٧)

(٣) ١٤- كتاب الإيمان، باب (١٠)، حديث (٢٦٢٤)

(٤) ٣٦- كتاب الفتن، ٢٣- باب الصبر على البلاء، حديث (٤٠٣٣).

الأمر الأول: مَحبة الله.

قال الإمام ابن القيم -رَحِمَه الله تعالَى-:

... فالله تعالى إنَّما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأمره، وأصل العبادة: محبة الله بل إفراده بالمحبة وأن يكون الحب كله لله فلا يُحب معه سواه وإنَّما يُحب لأجله وفيه، كما يُحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لَهم من تَمام مَحبته وليست مَحبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يُحبونَهم كحبه، وإذا كانت المَحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنَّما تتحقق باتباع أمره واجتناب نَهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمَحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَمًا عليها وشاهدًا لِمن ادَّعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فجعل اتباع رسوله مشروطًا بِمحبتهم لله وشرطًا لِمَحبة الله لَهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المَحبة عند انتفاء المتابعة فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لَهم، فيستحيل إذن ثبوت مَحبتهم لله وثبوت مَحبة الله لَهم بدون المتابعة[1] اهـ.

والثاني: مَحبة رسول الله ﷺ. وهي تابعة لِمحبة الله ولازمة لَها، فمن أحب الله: أحب رسوله وأحب جَميع ما يُحبه، بل لا يؤمن العبد حتَّى يكون رسول الله أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمَعين كما في الحديث التاسع.

ومن علامات مَحبة رسول الله: حب ما جاء به من الوحي كتابًا وسنة، والإيمان بكل ما ورد فيهما من أخبار، واتِّباع ما ورد فيهما من أوامر واجتناب ما فيهما من نواهٍ وزواجر والدعوة إلى الإيمان بكل ذلك، وتقديم طاعة الرسول على طاعة كل أحد من الخلق، فمن توفرت فيه هذه الأمور: فهو مُحب له حقًا وإلا تكون دعواه لِمحبة الله دعوى ليس لَها برهان ولا سند.

والثالث: أن يُحب المرء لا يُحبه إلا لله: لا لغرض ولا لمصلحة دنيوية ولا

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٩٩)، طبعة دار الكتاب العربي/ بيروت.

من أجل جاهه ومناصبه وإنّما يُحبه لله لأنه أخوه في الإسلام يؤمن بمبادئ الإسلام ويلتزمها ويحترمها، فإذا وجد هذا الحب الشريف النّزيه فذلك دليل صدق إيمانه وسوف يَجد بذلك حلاوة الإيمان.

والرابع: الكراهية الشديدة للكفر بالله: فهو يكرهه كأشد ما تكون الكراهية ويبغضه أشد ما يكون البغض حتى أنه ليكره أن يعود إليه كما يكره أن يقذف في النار، ولقد ضحى كثير من المؤمنين بالله بأنفسهم، وآثروا أن يلقوا في الهلاك على حياة تعود بهم إلى الكفر كما قص الله علينا قصة أصحاب الأخدود، فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج ٤-٨].

تلك قصة عظيمة من قصص الإيمان وتضحية رائعة في سبيل الإيمان، على المؤمنين بالله الصادقين في إيمانهم أن يأخذوا منها عظة وعبرة وأسوة.

* ما يستفاد من الحديث:

١- حلاوة الإيمان: اللذة النفسية الّتي يجدها من توفرت فيه هذه الخصال.

٢- أن المؤمنين من أبرز صفاتهم أنّهم يُحبون الله.

٣- وأن الله يُحبهم كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة ٥٤]. وفيه الرد على من ينكر هذا من المبتدعة.

٤- وأنه ينبغي في علاقة المرء بالناس أن تقوم على أساس صحيح من الحب في الله والولاء من أجله.

٥- وأن من فوائد هذا التجرد والنّزاهة أن يذوق حلاوة الإيمان.

* * *



منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله

فيه الحكمة والعقل

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

قدّم له

فضيلة الشيخ العلامة

صالح بن فوزان الفوزان



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه على كل نعمة أنعمها عليَّ وأشكره تعالى وأثني عليه ولا أحصي ثناءً عليه ولا يستطيع ذلك أحد.

وإنَّ من نعم الله عليَّ وإفضاله أن وفَّقني - على ضعفي - أن أصدع بقولة الحق في حدود طاقتي كتابةً أو مواجهةً، فأشكره وأحمده حمدًا يملأ السموات والأرض وما بينهما، وأسأله الثبات على ذلك إلى أن ألقاه وهو راضٍ عني، كما أسأله المزيد من التوفيق والحفظ والرعاية، ولا أنسى - ولله الحمد - أنه حينما صدر كتابي «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل» أنه قد استقبله الشباب المسلم الحق في كل مكان بفرح وحفاوة بالغة؛ لأنه وضح لهم دعوة الأنبياء حتى جعلها لهم كالشمس في رابعة النهار، وأزال عنها اللبس والتحريف والتلبيس من كتّابٍ قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، لا يهمّهم إلا حشد النّاس حولهم وحول شعاراتهم المزيّفة، لا يهمهم أن تكون هذه الحشود من الروافض والمنافقين أو الخوارج المارقين أو غلاة الصوفيّة الملحدة من العوام وأشباههم من عباد القبور، أو من الأصناف التعيسة المنكودة، لا يهمهم أن تحتشد حولهم وحول شعاراتهم هذه ولو ترتّب على ذلك ما ترتّب من النتائج الوخيمة في الدنيا والآخرة.

لأنّهم كما وصفهم رسول الله ﷺ: «**دعاة على أبواب جهنّم من أجابهم قذفوه فيها**»، ولأنّهم كما وصفهم الرسول الناصح الصادق الأمين ﷺ: «**شياطين في**

جثمان إنس»، وإلا فما الذي يحملهم ومن دار في فلكهم على النفور والشذوذ عن منهج الأنبياء الواضح المنير الذي وضحه القرآن وبيّن أنه شرعتهم ومنهجهم، ألا وهو الدين الخالص توحيد الله في أسمائه وصفاته وتوحيده في ربوبيته وتوحيده في ألوهيته والكفر بالطواغيت.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

ابحث أي دعوة من دعوات الفرق والأحزاب- غير السلفيّة- هل ترى فيها عينًا أو أثرًا لهذا المنهج في مدارسهم أو أفرادهم أو جماعاتهم ثمّ دلني عليه إن كنت صادقًا، أمّا أنا فلا أجد عند هذه الفرق والأحزاب إلا حربًا مستعرة على هذا المنهج وعلى أهله، ولا أرى إلا الاستخفاف والسخرية بهذا المنهج وبأهله، ولا أرى إلا العداوة والبغضاء لهذا المنهج ولأهله، ولا أرى إلّا الحفاوة والاحترام للدعوات المنحرفة الضالّة وأهلها، وهذا الأخير قد تراه وتسمعه كثيرًا ممن يلبس لباس السلفيّة وهم إلى خصومها أقرب رحمًا تربط بينهم وشائج لا يعلمها إلا الله.

لقد ظنّ بعض عشاق دولة الخرافات والبدع والضلال- وبئس ما ظنّوا وساء ما اقترفوا- أنني أفصل بين الدين والدولة وأنني أنازع في الحاكمية ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

لقد ساءهم هذا الكتاب وبيّن زيف دعواتهم وما انطوت عليه من تحريف للإسلام ونصوص التوحيد، لاسيما دعوات الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

ولم يجارهم في الترحيب بدولة الروافض، ولم يجارهم في إقامة دويلات تقوم على تشييد القبور واعتقاد أنّ الأولياء يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون، ولم يجارهم على إقامة دويلات تقوم على ما سبق، وتضيف ضلالات وشركيات علمانيّة جديدة تلبسها لباس الإسلام.

إن الكتاب- والحمد لله- قد وضح أن الدعوة الصادقة الأمينة هي التي ترسم

منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، والدولة التي تقوم على هذا المنهج الصحيح هي الدولة الإسلامية ومع أن الكتاب يعالج موضوعًا خاصًا ألا وهو بيان منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، فقد عني بذكر الدولة الإسلامية فكرره مرارًا وركّز عليها تكرارًا.

وعقد لها عنوانًا خاصًا هو «نظرة علماء الإسلام إلى الإمامة وأدلتهم على وجوبها»، ثم ساق أقوال العلماء في ذلك وذكر أدلتهم و لدي عاظ أهل الأهواء ودعاة الباطل أنني وضعت الإمامة والدولة في موضعها الذي وضعها الله فيه ودان به علماء الإسلام، ولم أجار أهل الأهواء في إلغاء منهج الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك والبدع وسائر أنواع الضلال والانحراف ومحاربة الأوثان وعبادة القبور.

ولم أجارهم في اعتبار الإمامة مسألة المسائل وأصل الأصول الأمر الذي جرّ إلى التنكر لمنهج الأنبياء ومحاربته، وجرّ إلى الارتماء في أحضان الروافض والتعاطف معهم وموالاتهم والذبّ عنهم وتزيين مذاهبهم المحاربة للإسلام قرآنًا وسنّةً، والمحاربة لأصحاب رسول الله وزوجاته الطاهرات وسائر المسلمين وأئمتهم، بل تجاوزت ذلك إلى تكفير هؤلاء العظماء وطعنهم بأخبث الطعون

لم أجارهم في هذا الضلال والغلو البغيض فاستاءوا من الكتاب ومن مؤلفه، فقالوا ما قالوا من الأباطيل ليحولوا بين الشباب المتعطش للحق وبين الحق الدامغ في هذا الكتاب الذي صدع بالحق ووضع كلًا من العقيدة والدولة في موضعها الذي وضعه الله فيه بلا إفراط ولا تفريط ولا تحريف ولا تلبيس

ومن اللازم بيانه أن أوضح للشباب الفرق بين الدولة وحاكميّة الله:

أما الدولة فهي مجموعة من أفراد البشر قد تكون كافرة، وقد تكون ضالة منحرفة، وقد تكون مؤمنة، في خلافة راشدة، أو ملوكية مقصّرة، كما هو واقع دول الإسلام بعد الخلافة الراشدة، فهؤلاء الأفراد من البشر الذين تكونت منهم الدولة المؤمنة لا يعدون أن يكونوا وسائل لتنفيذ شريعة الله من القيام بالجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والقصاص، وحماية الأمّة من مكائد

الأعداء واعتداؤهم على أراضي المسلمين، وأرواحهم، وأموالهم، وأعراضهم.

فلابدّ للمسلمين من إقامة دولة للقيام بهذه الواجبات العظيمة إما بمبايعة خليفة يجتمع عليه كل المسلمين، أو يتغلب أحد أفراد الأمة فيكون له شوكة وجيوش وسلطة فتقتضي مصلحة الأمّة التسليم له؛ ما دام يعلن الإسلام ويلتزم تنفيذ شرائعه وعقائده وحماية الأمّة من أعدائها إلى آخر التفصيلات المعروفة والمذكورة في مواطنها من دواوين الإسلام، أو بتغلب بعض الأفراد على بعض الأقطار كما حصل في الأقطار الإسلاميّة بعد ضعف الخلافة فتقتضي المصلحة التسليم بهذا الوضع.

أما الحاكمية والحكم فهي من صفات الله ومن خصائصه التي انفرد بها كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، فلا ينكر هذه الحاكميّة ولا يجحدها إلا كافر بالله شديد العداوة لله ولرسوله وكتبه، بل حتى من يجحد حاكميّة الله في جزئيّة من الجزئيات الفروعيّة فضلًا عن الأصول يكون كافرًا بالله خارجًا عن دائرة الإسلام إذا كان جحده لها عن علم، أمّا الجاهل فيعذر حتى تقام عليه الحجة.

هذا الذي أقوله يجري في حق الحكام والمحكومين والأفراد والجماعات.

وقد قرّر ذلك علماء الإسلام المعتبرون، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] وتلميذه ابن القيم[2].

فمن يلتزم بهذه الحاكميّة في أصول الدين وفروعه في العقائد والعبادات والمعاملات، وفي السياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع فهو المؤمن، ومن لا يلتزمها في الكل أو في البعض فهو الكافر فردًا كان أو جماعة حاكمًا أو محكومًا داعية أو مدعوًّا، ووالله إنني أخشى على كثير من الفرق والأحزاب والأفراد من الوقوع في الكفر حيث لا تلتزم بحاكميّة الله في أصول الدين بل وفي فروعه، أخشى على كثير منهم ممن قدمت عليه الحجّة وتبين له الحق ثمّ يصرّ على مناهضة

---

(١) «منهاج السنّة النبويّة» (٣/ ٣٢) فما بعدها، حيث بيّن أنّ من لم يلتزم بحاكميّة الله فهو كافر وبيّن عموم ذلك في الأمور العلميّة والعمليّة.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٦).

الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك والبدع، وإلى مناهضة أهله ومنابذتهم وتأليب الناس عليهم وتنفير الناس منهم ومن دعوتهم دعوة الأنبياء والرسل والمصلحين المخلصين الصادقين فيقع بعد قيام الحجّة عليه في هوّة الكفر.

وإنني لأدعو الأمّة جميعها حكامها ومحكوميها، أفرادها وفرقها وأحزابها أن يؤمنوا جميعًا حق الإيمان بحاكميّة الله العامّة الشاملة لأصول الدين وفروعه، وأن يلتزموا بها كل الالتزام في أصول الدين وفروعه، وأدعو رؤساء الدول مَن كان منهم ملتزمًا بحاكميّة الله وقصّر ولو في شيء من التطبيق أن يلتزم بالتطبيق الكامل في كلّ الميادين في العقائد والعبادات والمعاملات، في الاقتصاد والسياسة وفي باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأن يجدّوا في محاربة الشرك والبدع، وفي محاربة المعاصي والمنكرات وخصوصًا الربا وسائر الكبائر التي تضرّ الأمّة وأخلاقها، فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وليستشعروا أن الله سائلهم عن كلّ صغيرة وكبيرة تقع تحت مسؤليتهم «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيّته».

وأذكرهم بقوله ﷺ: **«ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاشٌ لهم إلا حرّم الله عليه الجنّة»**[1]. وقوله ﷺ: **«ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيّة، فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنّة»**[2].

ومن النصيحة للأمّة حملهم على الالتزام بحكم الله وشرائعه بالتعليم والتوجيه والترغيب والترهيب والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وإقامة الحدود والأخذ بكلّ التدابير التي تدعوهم إلى احترام شرع الله عقيدة وعبادة وسياسة وأخلاقًا.

وأدعو رؤساء الدول في البلاد الإسلاميّة الذين لم يحترموا شريعة الله أن يرجعوا إلى الله، وأن يحترموا دينه المتمثل في الكتاب والسنّة، وأن يلتزموا بعقائد هذا الدين وأحكامه، وأن يعتزوا بذلك فإنّ فيه العزة والكرامة

وإنّ الذلّ كلّ الذلّ والهوان في الخضوع لقوانين يضعها أحط البشر من أعداء

(١) «صحيح البخاري»: كتاب الأحكام (رقم: ٧١٥٠- ٧١٥١).

(٢) نفس التعليق السابق

هذه الأمَّة يهودًا كانوا أو نصارى أو مجوسًا أو ملحدين، وأن يحترموا مشاعر الأمَّة الإسلاميَّة التي جاهدت وناضلت وضحَّت بالملايين من أبنائها لتحقيق غاية نبيلة هي أن يحكمها الإسلام، والإسلام فقط دين اللَّه خالق هذا الكون وخالق الجنِّ والإنس لعبادته وحده، وللخضوع لشرائعه وحدها فيلتزموا شريعة اللَّه ويُلزموا بها الأمَّة عقيدة وأخلاقًا وتعليمًا ومناهج إسلاميَّة يقوم عليها التعليم والتربية.

وإني أهيب بعلماء الأمَّة ودعاتها وأحزابها وفرقها أن ينصحوا للأمَّة جميعها شيبها وشبابها ذكورها وإناثها فيجمعوهم على كتاب اللَّه وسنَّة رسوله وعلى منهج وفهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أئمة الهدى من فقهاء ومحدثين ومفسرين في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات والاقتصاد وسائر أمور الإسلام والإيمان، وأن يدركوا حق الإدراك أنَّ قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، يتناول الأفراد والجماعات والحكام والمحكومين، وإن قصرها على الحكام فقط دون أهل الأهواء والضلال الذين لم يحكّموا شريعة اللَّه في عقائدهم وعبادتهم وأخلاقهم، من الجهل والضلال والغباء؛ فقد أنزلها اللَّه في اليهود يوم أنزلها وليس لهم دولة من قرون، أنزلها فيهم وقد ضربت عليهم الذلَّة والمسكنة.

وقد بينت أنَّ حاكميَّة اللَّه بهذه السعة وهذا الشمول في كتابي الذي أقدم له، انظر فيه (ص: ١٣٣ - وما بعدها) و(ص ١٩٦) من هذه الطبعة.

ولا يفوتني أن أنبِّه على خطأ وقع فيه صاحب كتاب «ميزان الاعتدال لتقييم كتاب المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال» عصام بن محمد بن طاهر البرقاوي حيث نسب إليَّ شيئًا لم أقله في لحظة من اللحظات بلساني، ولم أعتقده لحظة من اللحظات بجناني، ولم يسطر منه حرفًا قلمي وبناني، وأعوذ باللَّه مما قال وأبرأ إلى اللَّه منه وأسأل اللَّه أن يعصمني منه ويعصم منه جميع المسلمين.

قال البرقاوي في حاشية (ص: ١٥) من كتابه المذكور: «وهذا يذكرني - أيضًا - بصنيع الشيخ ربيع بن هادي المدخلي - حفظه اللَّه تعالى - في كتابه «منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللَّه فيه الحكمة والعقل» عندما أخذ يناقش الأستاذ المودودي - رحمه اللَّه

تعالى - في أهميَّة قضيَّة الإمامة والخلافة والحكم بما أنزل الله؛ حيث استشهد بقول شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً في قضيَّة الإمامة عند الرافضة فسرد ست صفحات من (ص ١٠٨ -وما بعدها) من نقاش شيخ الإسلام مع بعض هؤلاء الرافضة، ومعلومة الفوارق الكثيرة والكبيرة بين عقيدة الرافضة في الإمامة وعصمة الأئمة والاثني عشر إمامًا وغير ذلك، وبين ما ينادي به المودودي وغيره من ضرورة وأهميَّة العمل وبذل الجهد لإعادة تحكيم شرع الله بالخلافة، ونصب إمام قوام على أهل الإسلام وإن كان في كلام شيخ الإسلام شيء مما يناسب ذلك المقام، ولكن أكثره بل ادق به المصنف لا يناسبه بل هو منصب على قضيَّة الإمامة عند الرافضة بتفاصيلها المعروفة. فما كان له أن يسرده كله . . . خشية التلبيس».

والجواب:

أنّ ميزان البرقاوي قد اضطرب ولم يحكم بالعدل فيما بيني وبين المودودي ولعله غاب عنه قول الله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾، وقوله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

يا أخ برقاوي أنا أناقش المودودي في أهميَّة قضيَّة الإمامة والخلافة والحكم بما أنزل الله!

إنّ هذه القضايا لا يناقش في أهميتها مؤمن شم رائحة الإيمان، لقد عجزت أيها الأخ عن تحرير موضع الخلاف بيني وبين المودودي.

أنا ناقشت المودودي في غلوّه في الإمامة إلى درجة لا يسع مسلمًا يحترم الإسلام أن يسكت على هذا الغلو وإلى درجة لم يحتملها الحركيون، فضلًا عن أهل الحديث والسلفيين، وقد تصدى للردّ عليه الكثير والكثير من علماء بلاده من السلفيين وغيرهم، ولقد سرى غلوّه هذا وامتد إلى كثير من البلاد العربيَّة والإسلاميَّة وخدع به كثرة ساحقة من الكُتَّاب والشباب، مما أدى إلى ضياع عقيدة التوحيد بل إلى الاستهانة بها وبأهلها، وأدى إلى الاستهانة بالشرك والبدع مما دفع المودودي وأمثاله إلى موالاة وتولي أهل القبور بل والروافض وحشدهم تحت

رايتهم ومؤاخاتهم ومحبتهم والذبّ عنهم وعن عقائدهم وهو أمر واقع واضح لكل ذي عقل ودين.

ولما وصل الأمر إلى هذا الحدّ المخيف رددت على المودودي بعض غلوّه تبصيرًا للناس عامّة ولأهل الجزيرة العربيّة التي ركّز عليها أتباع المودودي وأنصارهم فسحقوا عقيدة التوحيد وعقيدة الولاء والبراء.

أترى هذا كثيرًا في الردّ على المودودي حتى ذهبت تدافع بالباطل وتنسى ميزانك المعتدل؟؟!، فتحمّل كلامي ما لم أقله وما لا يحتمل.

استمع إلى المودودي يقول:

«إنّ مسألة القيادة والزعامة، إنّما هي مسألة المسائل في الحياة الإنسانيّة وأصل أصولها».

ودافع عنه بنصوص واضحة صريحة من كتاب الله وسنّة رسوله وكلام الصحابة وأئمة الإسلام.

فإن لم تجد فيجب أن تعيد ميزانك للقيام بمهمة العدل والإنصاف والاعتدال وترك الغلو الذي أدى بالمودودي وأتباعه إلى الاستهانة بدعوة الأنبياء والغاية من دعوتهم وقلب الأمور في ذلك رأسًا على عقب

واستمع إليه يقول:

«إنّ غاية الدين الحقيقيّة إقامة نظام الإمامة الصالحة الراشدة».

هذه غاية الدين الحقيقيّة، فالتوحيد والصلاة والزكاة والجهاد وغيرها من أمور الدين تصبح وسائل لتحقيق هذه الغاية عند المودودي، وهات الأدلّة الواضحة من كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ نيابة عن المودودي فإن عجزت فلا تحجم من أن تقول: صدق هذا المسكين الضعيف ربيع بن هادي ونصح للإسلام والمسلمين ووضع الأمور في نصابها.

واستمع إلى المودودي يقول:

«هذا هو الغرض الذي من أجله فرضت الصلاة والصوم والزكاة والحج في

الإسلام وليس معنى تسميتها بالعبادات أنّها هي العبادات، بل معناه أنّها تعدّ الإنسان للعبادة الأصليّة، وهذه دورة تدريبيّة لازمة لها».

ويقول أيضًا:

«إنكم تظنون أنّ الوقوف متوجّهًا إلى القبلة واضعًا اليد اليمنى على اليسرى والركوع معتمدًا على الركبة والسجود على الأرض، وقراءة الكلمات المعدودة، وهذه الأفعال والحركات هي العبادة في ذاتها، وتظنّون أنّ الصوم من أول رمضان إلى أوّل شوال والجوع والعطش من الصباح إلى المساء هو العبادة، وتظنون أنّ تلاوة عدّة آيات من القرآن هي العبادة، وتظنّون أنّ الطواف حول الكعبة عبادة، وبالجملة: فإنكم قد سميتم ظواهر بعض الأعمال عبادة عندما يقوم شخص بأداء هذه الأفعال بأشكالها وصورها تظنّون أنّه قد عبد الله . والحق أنّ العبادة التي خلقكم الله من أجلها والتي أمركم بأدائها هي شيء آخر»[1].

أيسرك هذا الأسلوب الساخر من أركان الإسلام العظام ومن المتعبدين بها؟!

هذه ليست عبادات خلق الناس من أجلها في نظر المودودي بل العبادة التي خلقوا من أجلها وأمروا بأدائها شيء آخر.

أتدين الله بهذا أيها البرقاوي؟ أنّ العبادات عبارة عن دورة تدريبيّة إلى آخره ... إلخ.

أهذا شيء نص عليه القرآن والسنّة وجاء به الأنبياء ودان به سادة الأئمة

إن كنت توافق المودودي فهات الأدلة نيابة عنه وإلا فعليك أن تعض على أناملك ندمًا وحسرة إذ خذلت الحق وتجنيت على أهله ونصرت الباطل

ذلك يا أخي ما ناقشت فيه المودودي ونقلت فيه كلام شيخ الإسلام فيما يتعلّق بغلوّ الروافض في الإمامة وما نقلته عنه كله مناسب لا نحصه كما ادّعى البرقاوي، فإن كنت أيها البرقاوي محقًّا، فلماذا لم تبين المناسب من كلام شيخ الإسلام من غير المناسب؟

فأما العصمة لأئمة الاثني عشر فلم أنسبها للمودودي ولم أناقشه فيها.

---

(١) عن كتاب «المودودي ما له ... وما عليه» لمحمد زكريا الكاندهلوي (ص ٤٥ - ٤٦) ط الثانية

ولم أنقل شيئًا في ذلك من كلام شيخ الإسلام فكلامك يتنافى تمامًا مع ميزانك المعتدل؟!!

وبنصحك الذي نصبت نفسك للقيام به بين سيد قطب والدويش، ولا أدري ماذا فعلت؟

فلقد أحققت غاية الإخفاق في الإنصاف بيني وبين المودودي، وماذا عليك وماذا يضرك لو كنت قلت كلمة الحق؟

وأما الخلافة فما أدري أقرأت ما كتبته فيها ونقلته عن علماء الإسلام، أو تناولت الموضوع بأطراف أناملك وأنت مغمض عينيك ظانًّا أن العدل والإنصاف يأتي بمثل هذه السهولة، فاقرأ هذا وذاك من جديد وقل كلمة الحق مدعمًا بالأدلة لا بالتهويل! ولا بالتهويش!

وأما الحكم بما أنزل الله فكيف تتصوّر أنني أناقش فيه المودودي -أو غيره- وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة لا ينازع فيه حتى الفرق الضالّة المنحرفة فأعوذ بالله مما نسبه إليّ صاحب «الميزان»، واقرأ مرّة أخرى ما كتبته في الحاكميّة وشمولها لكلّ أبواب الدين لترى مدى الخطأ الذي وقع فيه البرقاوي هداه الله

وأخيرًا فالمآخذات على المودودي وأمثاله كثيرة لا تتسع هذه المقدّمة لسردها لكثرتها.

وخلاصتها أنّه من أبعد الناس عن التزام حاكميّة الله في عقيدته وفقهه، وفي موقفه من سنّة رسول الله ﷺ، وفي موقفه من صحابة رسول الله ﷺ، ومن أعدائهم من الروافض حيث يتولّى هؤلاء الروافض هو وأتباعه وينصرهم ويمدح طاغوتهم الخميني وتلاميذه من الآيات الرافضية، فاعرف هذا أيها القارئ الكريم واعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال، وإيّاك والتردّي في هوّة الغلو في الأشخاص فيدفعك ذلك إلى ردّ الحق ومخاصمة أهله، وفق الله الأمّة لحبّ الحق واتباعه إنّ ربي لسميع الدعاء.

كتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

في ١٣/٦/١٤١٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم
بقلم الدكتور صالح بن فوزان الفوزان

الحمد لله رب العالمين، أمرنا باتباع رسوله، والدعوة إلى سبيله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الدعوة إلى الله هي سبيل الرسول ﷺ وأتباعه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، بل الدعوة إلى الله هي مهمة الرسل وأتباعهم جميعًا، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن النار إلى الجنة.

وهي مرتكزة على دعائم وتقوم على أسس لابدّ منها، متى اختلّ واحدٌ منها لم تكن دعوة صحيحة ولم تثمر الثمرة المطلوبة، مهما بُذل فيها من جهود وأضيع فيها من وقت، كما هو المشاهد والواقع في كثير من الدعوات المعاصرة التي لم تؤسَّس على تلك الدعائم ولم تقم على تلك الأسس

وهذه الدعائم التي تقوم عليها الدعوة الصحيحة هي كما دلّ عليه الكتاب والسنّة تتلخص فيما يلي:

١- العلم بما يدعو إليه، فالجاهل لا يصلح أن يكون داعية، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، والبصيرة هي العلم، ولأنّ الداعية لابدّ أن يواجه علماء ضلال يوجّهون إليه شبهات ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحقّ قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وقال النبي ﷺ لمعاذ: «إنّك تأتي قومًا من أهل الكتاب»؛ فإذا لم يكن الداعية مسلحًا

بالعلم الذي يواجه به كل شبهة ويجادل به كل خصم فإنّه سينهزم في أوّل لقاء وسيقف في أوّل الطريق.

٢- العمل بما يدعو إليه، حتى يكون قدوةً حسنة تصدق أفعاله أقواله ولا يكون للمبطلين عليه حجّة، قال الله تعالى عن نبيّه شعيب ﷺ أنّه قال لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

وقال تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٣- الإخلاص بأن تكون الدّعوة لوجه الله لا يقصد بها رياء ولا سمعة ولا ترفعًا ورئاسةً ولا طمعًا من مطامع الدنيا؛ لأنّها إذا دخلها شيء من تلك المقاصد لم تكن دعوة لله وإنّما هي دعوة للنّفس أو للطمع المقصود، كما أخبر الله عن أنبيائه أنّهم يقولون لأممهم: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾.

٤- البداءة بالأهمّ فالأهمّ؛ بأن يدعو أولًا إلى إصلاح العقيدة بالأمر بإخلاص العبادة لله والنّهي عن الشرك، ثمّ الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفعل الواجبات وترك المحرمات كما هي طريقة الرسل جميعًا كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، وغير ذلك من الآيات.

ولما بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له: «إنّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أوّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم واللّيلة ....» الحديث.

وفي طريقته وسيرته ﷺ في الدعوة خير قدوة وأكمل منهج حيث مكث ﷺ في مكّة ثلاث عشرة سنة يدعو النّاس إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك قبل أن يأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج، وقبل أن ينهاهم عن الربا والزنا والسرقة وقتل

النفوس بغير حق.

٥- الصبر على ما يلاقي في سبيل الدعوة إلى الله من المشاق، وما يواجه من أذى الناس؛ لأنَّ طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود، وإنما هو محفوف بالمكاره والمخاطر، وخير أسوة في ذلك هم الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- فيما واجهوا من أقوامهم من الأذى والسخرية، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

وكذلك ينال أتباع الرسل من الأذى والمشاق بقدر ما يقومون به من الدعوة إلى الله اقتداءً بهؤلاء الرسل الكرام -عليهم من الله أفضل الصلوات وأزكى السلام-

٦- على الداعية أن يكون متحليًا بالخلق الحسن، مستعملًا للحكمة في دعوته؛ لأنَّ هذا أدعى لقبول دعوته كما أمر الله نبيّيه الكريمين موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، أن يستعملا ذلك في مواجهة أكفر أهل الأرض وهو فرعون الذي ادّعى الربوبيّة، حيث قال سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

وقال تعالى لموسى- عليه الصلاة والسلام-: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾

وقال تعالى في حقّ نبينا محمد- عليه الصلاة والسلام-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

٧- على الداعية أن يكون قوي الأمل لا ييأس من تأثير دعوته وهداية قومه، ولا ييأس من نصر الله ومعونته ولو امتدّ الزمن وطال عليه الأمد، وله في رسل الله خير قدوة في ذلك.

فهذا نبي الله نوح- عليه الصلاة والسلام- لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله.

وهذا نبيّنا محمد ﷺ لمّا اشتدّ عليه أذى الكفّار وجاءه ملك الجبال يستأذنه أن يطبق عليهم الأخشبين، قال: «لا بل أستأني بهم، لعلّ الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».

ومتى فقد الداعية هذه الصفة، فإنّه سيقف في أوّل الطريق ويبوء بالخيبة في عمله.

وإنّ أيّة دعوة لا تقوم على هذه الأسس ويكون منهجها قائمًا على منهج الرسل فإنّها ستبوء بالخيبة وتضمحل وتكون تعبًا بلا فائدة، وخير دليل على ذلك تلك الجماعات المعاصرة التي اختطت لنفسها منهجًا للدعوة يختلف عن منهج الرسل، فقد أغفلت هذه الجماعات - إلّا من قلّ منها - جانب العقيدة، وصارت تدعوا إلى إصلاح أمور جانبيّة.

فجماعة تدعو إلى إصلاح الحكم والسياسة وتطالب بإقامة الحدود وتطبيق الشريعة في الحكم بين النّاس - وهذا جانب مهم لكنّه ليس الأهم -، إذ كيف يطالب بتطبيق حكم الله على السارق والزاني قبل أن يطالب بتطبيق حكم الله على المشرك، كيف يُطالب بتطبيق حكم الله بين المتخاصمين في الشاة والبعير، قبل أن يُطالب بتطبيق حكم الله على عبّاد الأوثان والقبور، وعلى الذين يلحدون في أسماء الله وصفاته فيعطّلونها عن مدلولاتها ويحرفون كلماتها.

أهؤلاء أشدّ جرمًا أم الذين يزنون ويشربون الخمر، ويسرقون؟!! إنّ هذه الجرائم إساءة في حق العباد، والشرك ونفي الأسماء والصفات إساءة في حق الخالق سبحانه - وحق الخالق مقدّم على حقوق المخلوقين-

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «الاستقامة» (١/ ٤٦٦):

«فهذه الذنوب مع صحّة التوحيد خير من فساد التوحيد مع هذه الذنوب»[1] انتهى

هذا وجماعة أخرى تنتمي إلى الدعوة؛ لكنّها تسير على منهج آخر يختلف

---

(١) ودليل هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقد تعجب حين تعلم أنا قد وجدنا لبعض قادة هذه الجماعة كتبًا يؤيدون فيها التبرك بالأضرحة والتوسل بالصالحين

أيضًا عن منهج الرسل، فلا تعير العقيدة أهميَّة، وإنَّما تهتم بجانب التعبّد وممارسة بعض الأذكار على نهج الصوفيَّة ويركّزون على الخروج والسياحة والذي يهمهم هو استقطاب النَّاس معهم دون نظر إلى عقائدهم، وهذه كلها طرق مبتدعة تبدأ من حيث انتهت دعوة الرسل، وهي بمثابة من يعالج جسدًا مقطوع الرأس؛ لأنَّ العقيدة من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، والمطلوب من هذه الجماعات أن تصحح مفاهيمها بمراجعة الكتاب والسنَّة لمعرفة منهج الرسل في الدعوة إلى الله؛ فإنَّ الله سبحانه أخبر أنَّ الحاكميَّة والسلطة التي هي محور دعوة هذه الجماعة التي أشرنا إليها لا تتحقق إلَّا بعد تصحيح العقيدة بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وهؤلاء يريدون قيام دولة إسلاميَّة قبل تطهير البلاد من العقائد الوثنيَّة المتمثلة بعبادة الموتى والتعلق بالأضرحة بما لا يختلف عن عبادة اللَّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، بل تزيد عليها أنَّهم يحاولون محالًا:

ومن طلب العلا من غير كدٍّ ... أضاع العمر في طلب المحال

إن تحكيم الشريعة وإقامة الحدود وقيام الدولة الإسلامية واجتناب المحرمات وفعل الواجبات كل هذه الأمور من حقوق التوحيد ومكملاته وهي تابعة له فكيف يعتنى بالتابع ويهمل الأصل؟

وإني أرى أن ما وقع لتلك الجماعات من مخالفة لمنهج الرسل في طريقة الدعوة إلى الله إنما نشأ من جهلهم بهذا المنهج، والجاهل لا يصلح أن يكون داعية، لأن من أهم شروط الدعوة العلم، كما قال تعالى عن نبيه: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فأهم مؤهلات الداعية العلم[1].

---

(١) وبعض هؤلاء الذين ينتسبون للدعوة إلى الإسلام لو سألت أحدهم: ما هو الإسلام؟ وما هي نواقضه؟ لم يستطع أن يجيب إجابة صحيحة فكيف جاز لمثل هذا أن يكون داعية؟!!!

ثم إنا نرى هذه الجماعات المنتسبة إلى الدعوة مختلفة فيما بينها، فكل جماعة تختط لنفسها خطة غير خطة الجماعة الأخرى، وتنتهج غير منهجها وهذه نتيجة حتمية لمخالفة منهج الرسول ﷺ، فإن منهج الرسول واحد لا انقسام فيه ولا اختلاف عليه كما قال تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ فأتباع الرسول ﷺ على هذه السبيل الواحدة لا يختلفون.

وإنما يختلف من خالف هذه السبيل، كما قال تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ولما كان أمر هذه الجماعات المخالفة والمختلفة يشكل خطرًا على الإسلام قد يُصدّ عنه من أراد الدخول فيه كان لا بد من بيانه وبيان أنه ليس من الإسلام في شيء كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، ولأن الإسلام يدعو إلى الاجتماع على الحق كما قال تعالى. ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، وقال تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، لما كان بيان ذلك واجبًا وكشفه لازمًا قام جماعة من العلماء من ذوي الغيرة والتحقيق للتنبيه على أخطاء تلك الجماعات وبيان مخالفتها في الدعوة لمنهج الأنبياء لعلها ترجع إلى صوابها؛ فإن الحق ضالة المؤمن، ولئلا يغتر بها من لا يعرف ما هي عليه من خطأ

ومن هؤلاء العلماء الذين تولوا هذه المهمة العظيمة عملًا بقول النبي ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة» قلنا: لمن يا رسول اللَّه؟ قال: «للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»

من هؤلاء الذين بينوا ونصحوا فضيلة الشيخ الدكتور ربيع بن هادي المدخلي في هذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو بعنوان «منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللَّه فيه الحكمة والعقل» فقد بين -وفقه اللَّه وجزاه خيرًا- منهج الرسل في الدعوة إلى اللَّه كما جاء في كتاب اللَّه وسنة رسوله، وعرض عليه منهج الجماعات المخالفة ليتضح الفرق بين منهج الرسل وتلك المناهج المختلفة والمخالفة لمنهج الرسل، وناقش تلك المناهج مناقشة علمية منصفة مع التعزيز بالأمثلة والشواهد، فجاء

كتابه - والحمد لله- وافيًا بالمقصود، كافيًا لمن يريد الحق، وحجة على من عاند وكابر، فسأل الله أن يثيبه على عمله، وينفع به وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه
صالح بن فوزان
الأستاذ بجامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

وبعد:

فإن الدافع لاختيار هذا الموضوع عدة أمور، من أهمها:

أولًا: أنَّ الأمة الإسلامية اختلفت في مناحٍ شتى عقدية وغيرها وتفرقت بها السبل، فنزل بها من الويلات -نتيجة لهذا التفرق ولعدم الاحتكام في قضايا الخلاف إلى كتاب ربهم وسنَّة نبيهم- ما لا يعلم مداه وفداحته إلا الله من تمزق صفوفهم وتأجج نيران الخلاف والخصومات فيما بينهم، ثم تغلب أعداء الإسلام على أوطانهم واستباحتهم لبيضتهم واستعبادهم واستذلالهم.

ثانيًا: حدوث تيارات فكريَّة برزت في الساحة الإسلاميَّة بطرق ومناهج، لإصلاح حال الأمَّة وإنقاذها.

منها: السياسي.

ومنها: الفكري.

ومنها: الروحي.

وكل واحد من هذه التيارات يدّعي ممثلوه أنّه المنهج الإسلامي الحق الذي يجب اتّباعه والذي لا ينقذ الأمّة سواه.

هذان السببان مع أسباب أخر دفعني إلى القيام بواجب من أعظم الواجبات وأهمها ألا وهو بيان منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنَّة،

وبيان مزاياه التي لا يشارك فيها، وبيان ضرورة اتباعه وحده لأنه الطريق الأوحد الذي يوصل إلى الله، ويكسب رضاه وهو السبيل الأوحد لإنقاذ الأمة والموصل إلى السيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

وبعد:

فإنَّ الله تعالى الخالق البارئ المصور العليم الحكيم قد خلق هذا الكون العظيم ودبّره ونظّمه بعلمه المحيط وحكمته البالغة وقدرته الشاملة، لحكم جليلة وغايات نبيلة بعيدة كل البعد عن العبث والباطل واللَّعب.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وقال تعالى: ﴿حم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ١-٣].

وخلق الجن والإنس وبيَّن الحكمة العظيمة والغاية الكريمة التي خلقهم من أجلها.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؛ أي: لا يؤمر ولا ينهى!

وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

فأخبر تعالى أنه ما خلقهم إلا للابتلاء ليتبيَّن أيهم أحسن عملًا بانقياده لمنهج الله واتباعه لرسل الله.

وقال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

فأمرهم أن يقوموا بالغاية التي خلقهم من أجلها.

وبيّن لهم أنّه قد وفّر وهيّأ لهم كل الأسباب التي تساعدهم على القيام بمهمّتهم العظيمة، وحذّرهم من الانحراف عن هذه الغاية، والتنكر لهذه النعم الجليلة، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وما أكرم الله الإنسان هذا الإكرام وأحلّه هذه المنزلة الرفيعة إلا لعظم الغاية التي خُلق من أجلها، ألا وهي عبادة الله وحده وتعظيمه وتنزيهه عن كل النقائص، وعن اتخاذ الشركاء والأنداد تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وكثيرًا ما نوّه الله بكرامة الإنسان ومنزلته في هذا الكون، وأنّ هذا الكون قد سُخر لراحته وسعادته، حتى يؤدي وظيفته ويقوم بغايته التي خُلق من أجلها على أتمّ الوجوه وأكملها.

قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣١-٣٤].

إكرام الإنسان بالعقل والفطرة

وإلى جانب هذه النعم العظيمة والإكرام الفائق لهذا الإنسان فقد منحه الله نعمة العقل الذي يرفعه إلى مستوى التكاليف الإلهيّة ويؤهله لإدراكها وفهمها، وزوّده بالفطرة التي توائم ما يأتي به رسل الله- عليهم الصلاة والسلام- من الوحي

تكريم ومن الدين الحق الذي يشرعه الله وينهجه لهذا الإنسان على ألسنة الرّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ[1] ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟»، ثمّ يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية[2].

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ خطب ذات يوم، فقال في خطبته: «إن ربي عز وجل أمرني أن أُعلمكم ما جهلتم، مما علمني في يومي هذا: كلّ مال نَحَلته[3] عبادي حلال، وإنّي خلقت عبادي حنفاء[4] كلهم، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم[5] عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن

---

(١) الفطر: الابتداء والاختراع، والفطرة: الحالة، كالجلسة والركبة.
والمعنى: أنّه يولد على نوع من الجبلة، والطبع المتهيئ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها، وإنّما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد. «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٤٥٧).
وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٣/ ٢٤٨): «اختلف الناس في المراد بالفطرة، وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام. قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الإسلام».

(٢) أخرجه البخاري، (٢٣) كتاب الجنائز، (٧٩) باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، حديث (١٣٥٨، ١٣٥٩)، و(٩٢) باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث (١٣٨٥)، و(٦٥) كتاب التفسير، حديث (٤٧٧٥)، ومسلم (٤٦) كتاب القدر، حديث (٢٢، ٢٣)، وأبو داود، (٣٤) كتاب السنّة، (١٨) باب في ذراري المشركين، حديث (٤٧١٤)، وأحمد في المسند (٢/ ٣١٥، ٣٤٦، ٣٩٣) و(٢/ ٢٣٣، ٢٧٥)، ومالك في الموطأ (١/ ٢٤١)، (١٦) كتاب الجنائز، حديث (٥٢)، والترمذي في الجامع (٤/ ٤٤٧)، (٣٣) كتاب القدر، (٥) باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة، حديث (٢١٣٨).
وفي لفظ البخاري ومسند أحمد والموطأ والترمذي: «كل مولود يولد على الفطرة».

(٣) نحلته: أعطيته، والمراد: كل مال أعطيته عبدًا من عبادي فهو له حلال، والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك، وإنّها لم تصر حرامًا بتحريمهم، وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلّق به حق.

(٤) أي: مسلمين.

(٥) أي: استخفوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل.

يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا . . . » الحديث[1].

إكرام البشر بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم

ثم لم يكلهم الله إلى ما آتاهم من فطرة وعقل، بل أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب لتبين لهم الحق من الباطل ولتكون مرجعًا لهم، فيما يختلفون فيه، حتى لا يبقى للناس أي عذر، ولتقوم عليهم الحجة، فلا يبقى لهم حجة على الله بعد الرسل.

وكلّف جميع الأمم بطاعة هؤلاء المصطفين الأخيار واتّباعهم والانقياد لهم وأنزل أشد العقاب بمن كذّبهم وعاندهم في الدنيا، وسوف ينزل بهم العذاب الأنكى والأشد، العذاب السرمدي الخالد في دار الجزاء العادل.

ما هي رسالة هذه الصفوة المختارة من البشر صلوات الله وسلامه عليهم؟ وما الذي قدّموه لأممهم؟

إنّ رسالاتهم تشمل كلّ خير وتبعد من كلّ شرّ، فقدموا للإنسانيّة كل ما يسعدها في الدنيا والآخرة، فما من خير إلا دلّوا الناس عليه، ولا شرّ إلا حذّروا الناس منه.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: كنّا في سفر، فنزلنا منزلًا فمنّا من يصلح خباءه، ومنّا من ينتضل[2]، ومنّا من هو في جشره[3]، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة[4]، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال:

«إنّه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جُعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور تنكرونها، وتجيء فتن فيرقق[5] بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن:

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٧)، (٥١) كتاب الجنّة، (٢٦) باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنّة وأهل النّار، حديث (٦٣).

(٢) من المناضلة: وهي المراماة بالنشاب.

(٣) الجشر: هي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها.

(٤) الصلاة جامعة هي بنصب (الصلاة) على الإغراء، ونصب (جامعة) على الحال.

(٥) أي: يصير بعضها رقيقًا، أي: خفيفًا لعظم ما بعده.

هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنّة، فلتأته منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يُؤتى إليه، ومن بايع إمامًا، فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»

هذه رسالة كل الأنبياء تدل على كل خير وتحذّر من كل شر لكن من أين تنطلق؟ وبماذا تبدأ؟ وعلى أي شيء تركّز؟ إنّ هناك دعائمَ وقواعدَ وأصولًا تركّز عليها دعواتهم، وتكون أوّل منطلقاتهم في دعوة الناس إلى الله.

تلك الأسس والقواعد هي:

١- التوحيد.

٢- النبوات.

٣- المعاد[1].

هذه الأسس الثلاثة هي ملتقى دعواتهم وأصولها وقد اهتمّ بها القرآن غاية الاهتمام وبيّنها غاية البيان، وهي أهمّ مقاصده التي يدور عليها ويكررها، ويورد الأدلّة العقليّة والحسيّة عليها في جميع سوره وفي غالب قصصه وأمثاله، يعرف ذلك من له كمال فهم وحسن تدبّر وجودة تصوّر.

وقد عُنيت بها كتب الله بأجمعها واتّفقت عليها الشرائع السماويّة بأسرها.

وأهمّ هذه الأسس الثلاثة وأجلّها وأصل أصولها هو توحيد الله -تبارك وتعالى- الذي تضمّنته غالب سور القرآن، بأنواعه الثلاثة المشهورة بل تضمّنته كلّ سورة من سور القرآن، فإنّ القرآن:

١- إمّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري

٢- وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو

---

(١) ألف في بيان هذه الأسس الثلاثة الإمام الشوكاني كتابًا سماه: إرشاد الفحول إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، طبع دار الكتب العلمية- بيروت [illegible]، وقد ساق أدلته من القرآن والتوراة والإنجيل.

التوحيد الإرادي العلمي.

٣- وإمّا أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته

٤- وإمّا خبر عن إكرامه لأهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء التوحيد.

٥- وإمّا خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحلّ بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كلّه في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[1].

توحيد الألوهيّة وأهميّته

وسوف أتناول توحيد الألوهيّة لسببين:

أولًا: أنّه الجانب الأهم من دعوات الرسل الذي عرضه علينا القرآن، ولأنّه موضوع الصراع الدائر بينهم وبين خصومهم من المستكبرين والمعاندين من كلّ الأمم.

ولا يزال موضوع الصراع إلى اليوم، ولعلّه يستمر إلى يوم القيامة ابتلاءً واختبارًا لورثة الرسل ورفعًا لمنزلتهم.

ثانيًا: أنّ أخطر وأشدّ وأصعب انحراف مُنِيَ به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها في هذا الجانب في أكثر جهّال المسلمين وفي كثير من مثقفيهم والمنتسبين إلى العلم منهم

فلنبدأ بعرض دعوات الأنبياء بصفة عامّة ثمّ نعرض دعوات بعضهم بصفة خاصّة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) شرح الطحاوية (ص ٨٨)، الطبعة الأولى (١٣٩٢هـ)، نشر المكتب الإسلامي
وأصله من كلام الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم -رحمهما الله-، وهو في مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٥٠).

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى -بعد أن ذكر قصص عدد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام-: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢].

قال الحافظ ابن كثير: قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يقول: «دينكم واحد»[١].

وفي معنى الآيتين من السنة، قوله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء أخوة لعلات[٢] أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[٣].

وقال تعالى -عن أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام-: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

تلك هي دعوة الأنبياء جميعاً وعلى رأسهم أولوا العزم منهم الأنبياء الذين يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين ألفاً ومائة ألف[٤] يسيرون في دعوتهم في منهج واحد،

---

(١) التفسير (٥/ ٣٦٥).

(٢) العلات: بفتح العين المهملة، والعلة: الضرة، مأخوذة من العلل وهو الشرب بعد الشرب، وأولاد العلات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى. فتح الباري (٦/ ٤٨٩)، وفي النهاية (٣/ ٢٩١): «الأنبياء أولاد علات» أولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.

(٣) أخرجه البخاري، (٦٠) كتاب الأنبياء، حديث (٣٤٤٣)، ومسلم (٤/ ١٨٣٧)، (٤٣) كتاب الفضائل، (٤٠) فضل عيسى ﷺ، حديث (١٤٥)، وأحمد في المسند (٢/ ٣١٩، ٤٠٦، ٤٨٢).

(٤) إشارة إلى حديث أبي ذر: أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٤٤٧)، وأحمد في المسند (٥/ ١٧٨، ١٧٩)، من طريق المسعودي عن أبي عمر الدمشقي عن عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر.
وابن حبان كما في الموارد رقم (٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦، ١٦٨) وأشار إلى طرق أخرى عن أبي ذر، وأحمد (٥/ ٢٦٥) وابن أبي مردويه في «التفسير» نقلاً عن ابن كثير (٢/ ٤٢٣) والطبراني =

وينطلقون من منطلق واحد وهو التوحيد، أعظم القضايا والمبادئ التي حملوها إلى الإنسانيَّة جميعًا في جميع أجيالهم ومختلف بيئاتهم وبلدانهم وأزمانهم.

مما يدل أنّ هذا هو الطريق الوحيد الذي يجب أن يسلك في دعوة الناس إلى الله، وسنَّة من سننه التي رسمها لأنبيائه وأتباعه الصادقين، لا يجوز تبديلها ولا العدول عنها.

نماذج لدعوات بعض الرسل

ثم إن الله تعالى قد أخبر عن بعض أفراد الأنبياء العظام كيف واجهوا أقوامهم، وإذا بهم يسيرون في الخط العام الذي رسمه الله لهم، وإذا بهم في المنهج الذي قرره الله لجميعهم لا تند عنه دعوة أحد منهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٥-٢٧]

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي

= (٨/ ٢٥٨) وهناك طريق أخرى عن أبي أمامة في عدد الرسل وهم مائة وثلاثة عشر أخرجه الطبراني (٨/ ١٣٩) وابن حبان كما في الموارد (رقم: ٢٠٨٥) قال ابن كثير: وهذا على شرط مسلم.

وقال الهيثمي: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي وهو ثقة».

مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢].

وهكذا دعوات كل الأنبياء، كلهم ساروا في هذا المنهج في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده أولًا وواجههم أقوامهم - إلَّا من هدى الله - بالسخرية والتكذيب والاستهزاء، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

وما أشد التكذيب والاستهزاء والسخرية على النفوس المؤمنة الأبية، إنها أشد عليهم من وقع السيوف ومن السجون والتعذيب ولقد عبر عن هذا المعنى الشاعر العربي بقوله:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند

ولقد سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ فقالت له: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

فقال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلَّا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة، قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين» فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[1].

(١) أخرجه البخاري، (٥٩) كتاب بدء الخلق، حديث (٣٢٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٢١)، (٢٩) باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث (١١١).
وفي الحديث بيان دعوة رسول الله ﷺ وصبره في سبيلها وحلمه على قومه، وانظر كيف استأنى بهم واستبقاهم من الهلاك الماحق الذي أشرفوا عليه أملًا في الله ورجاء أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا، وإنها من غاية نبيلة لا يعرفها إلَّا من ذاق حلاوة التوحيد وعرف مكانته

وقد ذكرت كتب السيرة بعض أجوبة هؤلاء الساخرة ومواقفهم المزرية، وأن رسول الله ﷺ عمد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة، عبد ياليل ومسعود وحبيب... فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله وكلمهم لما جاءهم له من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة، إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا أرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما كان ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ، وقد يئس من خير ثقيف[1].

والشاهد من الحديث والقصة: أن ما يلقاه الأنبياء من السخرية والاستهزاء ومن أذى المشركين السفهاء أشد على أنفسهم من كل بلاء حتى من المعارك الطاحنة التي تزهق فيها الأرواح وتراق فيها دماء أصحابهم الزكية.

فلقد قتل يوم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر من سبعين شهيدًا[2]، فيهم مصعب بن عمير[3]، وحمزة بن عبد المطلب[4]، عم رسول الله ﷺ، وشج

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٣٥)، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر (ص ٣٥) ط. دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ في (٦٤) كتاب المغازي، (٢٦)، باب من قتل من المسلمين يوم أحد، حديث (٤٠٧٨) حدثنا عمرو بن علي، حدثنا معاذ بن هشام، قال: حدثني أبي عن قتادة، قال: «ما نعلم حيًا من أحياء العرب أكثر شهيدًا أعز يوم القيامة من الأنصار. قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك: أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون».

(٣) عن خباب رضي الله عنه قال: «هاجرنا مع النبي ﷺ، ونحن نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى أو ذهب لم يأكل من أجره شيئًا كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه وإذا غطينا رجلاه خرج رأسه، فقال لنا النبي ﷺ: «غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه الإذخر...»، أخرجه البخاري (٦٤) كتاب المغازي، (٢٦)، باب من قتل يوم أحد، حديث (٤٠٨٢)، ومسلم كتاب الجنائز (٧/ ٦) مع شرح النووي، وأحمد في المسند (٥/ ١٠٩)، والنسائي (٤/ ٣٢).

(٤) قصة استشهاده في البخاري (٦٤) كتاب المغازي، (٢٣)، باب قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، حديث (٤٠٧٢)، ومسند أحمد (٣/ ٥٠٠- ٥٠١).

رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته[1].

ولقي ما لقي هو وأصحابه من أذى المنافقين، ولقي ما لقي قبل ذلك وهو بمكة وفي يوم بدر وغيرها من المشاهد، ومع كل ذلك يرى أن أشد ما لقيه هو يوم الطائف، لأنه لقي من السخرية والاحتقار ما لا تحتمله النفوس الأبية.

ومن هنا يقول رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل»[2].

فالأمثل ثم الأمثل هم الصالحون السائرون في مناهجهم في الدعوة إلى الله والداعون إلى ما دعوا إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده، ونبذ الشرك بما سواه، وينالهم من الأذى والبلاء مثل ما أصاب أسوتهم من الأنبياء.

ومن أجل هذا ترى كثيرًا من الدعاة يحيدون عن هذا المنهج الصعب، والطريق الوعر، لأن الداعي الذي يسلكه سيواجه أمه وأباه وأخاه وأحبابه وأصدقاءه، وسيواجه المجتمع وعداوته وسخرياته وأذاه، يحيدون إلى جوانب من

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: شج النبي ﷺ يوم أحد فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، أخرجه البخاري (٦٤) كتاب المغازي، (٢١) باب: ليس لك من الأمر شيء، بدون رقم، ومسلم (٣/ ١٤١٦)، (٣٢) كتاب الجهاد والسير (٣٧) باب: غزوة أحد، حديث (١٠٤).

وفيه حديث سهل بن سعد برقم (١٠١) بلفظ: «جرح وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه».

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٠٢)، (٥٦) باب: ما جاء في الصبر على البلاء، حديث (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤)، (٢٣) باب الصبر على البلاء، حديث (٤٠٢٣)، والدارمي (٢/ ٢٢٨)، حديث (٢٧٨٦)، وأحمد في المسند (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) كلهم من طريق عاصم بن أبي النجود وهو صدوق له أوهام عن مصعب بن سعد، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وفي تصحيح الترمذي له نظر، وكأنه لاحظ في الحكم شواهده فإن له شواهد:

١- عن أبي سعيد الخدري، أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٣٤)، (٣٢) باب: الصبر على البلاء، حديث (٤٠٢٤) قال في الزوائد إسناده صحيح نقلًا عن محمد فؤاد.

٢- من حديث فاطمة بنت اليمان أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٩).

٣- من حديث أبي هريرة أشار إليه الترمذي بقوله: «وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة» بعد إخراجه حديث سعد.

الإسلام لها مكانتها ولا يتنكر لها من يؤمن بالله ولكن هذه الجوانب ليس فيها تلك الصعوبة والشدة والسخرية والأذى خصوصًا في المجتمعات الإسلامية.

فإن سواد الأمة الإسلامية يلتفون حول هذا اللون من الدعاة ويحيطونهم بهالة من التبجيل والتكريم لا سخرية ولا أذى اللهم إلا إذا تعرضوا للحكام وهددوا كراسيهم فإنهم حينئذ يقمعونهم بكل شدة كأحزاب سياسية تناوئ الحكام وتهدد عروشهم، والحكام في هذا الباب لا يحابون قريبًا ولا حميمًا ولا مسلمًا ولا كافرًا.

على كل حال نقول لهؤلاء الدعاة مهما شنشنوا وطنطنوا ومهما رفعوا أصواتهم باسم الإسلام: اربعوا على أنفسكم فإنكم خرجتم عن منهج الله وصراطه المستقيم اللاحب الذي مرت به مواكب الأنبياء وأتباعهم في الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له، ومهما تفلسفتم ورفعتم عقيرتكم باسم الإسلام؛ فإنكم عن منهج الأنبياء الذي سنه الله لناكبون.

ومهما بذلتم من الجهود وحسنتم دعوتكم ومنهجكم؛ فإنكم تتشاغلون بالوسائل قبل الغاية وما أقل جدوى الوسيلة[1] إذا أضرت بالغاية وضخمت على حسابها، بل يا ويل هؤلاء الدعاة إن أصروا على المضي فيما ابتدعوه من مناهج وحاربوا منهج الأنبياء في الدعوة إلى توحيد الله تحت شعارات براقة تخلب ألباب البلهاء والجهلاء بمنهج الأنبياء.

إن الحديث عن دعوات الأنبياء إلى توحيد الله ومنهجهم وما لاقوا في سبيل ذلك من الأهوال والبلايا والمحن أمر لا يتسع له مجال كهذا، ولسوف أقتصر على عرض دعوات خمسة منهم -صلوات الله وسلامه عليهم- وذلك سيجعلك على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك:

١- **فأولهم**: نوح، أبو البشر الثاني، وأول رسول إلى أهل الأرض عاش هذا النبي العظيم عمرًا مديدًا ودهرًا طويلًا، ألف سنة إلا خمسين عامًا لبثها في دعوة قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، لا يكلّ ولا يملّ، ليلًا ونهارًا سرًّا وجهارًا.

---

(١) الحكم وسيلة إلى الدعوة إلى الله كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥)﴾ [نوح: ١-٢٥].

ماذا في دعوة هذا الرسول الكريم، وقد قص الله علينا خلاصة دعوته الكريمة التي استغرقت ألف سنة إلا خمسين عامًا؟!

إنها دعوة جادة إلى توحيد الله وعبادته وحده، في جهد دائب ما ترك وسيلة تمكنه إلا استخدمها لإقناعهم بدعوته، سرًّا وجهارًا وترغيبًا وترهيبًا ووعدًا ووعيدًا، واحتجاجًا واستدلالًا بالأدلة العقلية والحسية، من واقع أنفسهم وحياتهم ومما بين أيديهم من السماء والأرض، وما فيهما من آيات وعبر وكل ذلك لم يجد فيهم نفعًا ولا دفعهم إلى الاستجابة، بل أصروا على كفرهم وضلالهم، واستكبروا استكبارًا.

أصروا على التشبث بأصنامهم ومعبوداتهم الباطلة، فكانت النتيجة لهذا الإصرار والاستكبار: الهلاك والدمار في الدنيا، وفي الآخرة الخلود في عذاب النار.

وهنا نتساءل لماذا يستمر هذا النبي العظيم كل هذه الآماد الطويلة، ويبذل هذه الجهود الكبيرة، دون كلل أو ملل يدعو إلى مبدأ التوحيد؟!!

ولماذا يمدحه الله ويثني عليه الثناء العاطر، ويخلد ذكره ويجعله في عداد الرسل أولي العزم؟

هل دعوة التوحيد تستحق كل هذه العناية والإكبار؟

هل هذا المنهج وتحديد هذا المنطلق لهذا النبي الكريم مجانب للمنطق والحكمة والعقل؟

أو أنه عين الحكمة ومقتضى المنطق الصحيح، والعقل الواعي الرجيح؟

لماذا يقره الله على سلوك هذا المنهج في الدعوة طوال ألف سنة إلا خمسين عامًا ويشيد به ويخلد اسمه وقصصه، ويكلف أعظم الرسل وأعقل البشر أن يجعل منه أسوة في دعوته وصبره؟

الجواب المنصف القائم على العقل والحكمة، ومعرفة مكانة النبوة والثقة العظيمة فيها وتقديرها حق قدرها. أن دعوة التوحيد ومحاولة القضاء على الشرك وتطهير أرض الله منه تستحق كل هذا وأنه عين الحكمة ومقتضى الفطرة والعقل، وأن الواجب على كل الدعاة إلى الله أن يفهموا هذا المنهج، وهذه الدعوة الإلهية العظيمة، والمطلب الكبير، فيكرسوا كل جهودهم وطاقتهم لتحقيقه ونشره في أرض الله كلها، وأن يتعاونوا ويتكاتفوا ويتحدوا، ويصدق بعضهم بعضًا، كما كان الرسل دعاة التوحيد ويبشر سابقهم بلاحقهم ويصدق لاحقهم سابقه ويؤيد دعوته ويسير في مضماره.

يجب أن نعتقد أنه لو كان هناك منهج أفضل وأقوم من هذا المنهج لاختاره الله لرسله وآثرهم به.

فهل يليق بمؤمن أن يرغب عنه ويختار لنفسه منهجًا سواه ويتطاول على هذا المنهج الرباني وعلى دعاته؟!!!

٢- وثانيهم: أبو الأنبياء وإمام الموحدين الحنفاء- إبراهيم خليل الله، الذي أمر الله سيد المرسلين، وخاتم النبيين وأمته باتباعه والائتساء بدعوته والاهتداء بهديه ومنهجه[١].

---

(١) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل ١٢٣]. وإلى قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران ٩٥]

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[الأنعام: ٧٤-٧٩]

دعوة حارة قوية متدفقة إلى توحيد الله، وإخلاص الدين له ونبذ الشرك ورفضه، تبدأ بالأسرة وتمتد إلى الأمة تحارب الشرك والأصنام، وتزري الشرك بالكواكب.

ويسلك خليل الله أقوم الطرق في المناظرة والمحاجّة، لإقامة حجة الله ودحض الشرك وباطله وشبهه.

فالتعبير بالأصنام تحقير لآلهتهم المزعومة المصطنعة، وتسفيه لأحلامهم ورصده للكواكب المذكورة واحدًا واحدًا تلو الآخر وهي تغيب وتأفل عنهم ليأخذ من حالها البرهان الواضح على بطلان ما يزعمون من ألوهيتها.

فمن يرعاهم ويحفظهم ويدبر شئونهم وشئون هذا الكون حين غيابها وأفولها، وإذن فعليهم أن يرفضوا هذه الآلهة المزعومة الناقصة ويكفروا بها، وينفضوا أيديهم منها، ويتجهوا إلى إلههم الحق، الذي فطر السموات والأرض، والذي لا يغيب ولا يحول ويعلم جميع أحوالهم ومطلع على حركاتهم وسكناتهم ويرعاهم ويحفظهم ويدبر شئونهم.

حجج قوية يستمدها من الواقع الملموس والكون المنظور.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤)

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم ٤١- ٥٠].

دعوة حارَّة إلى التوحيد، قائمة على العلم والمنطق والعقل وعلى الخلق القويم، وتهدي الضال إلى الصراط المستقيم يقابلها تعصب أعمى يقوم على الهوى والجهل والعناد والمكابرة وإلا فكيف يعبد ويخضع لمن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئًا؟

إن علم التوحيد- أيها القارئ- هو العلم الذي يعتز به جميع الأنبياء وبه يصولون على الباطل والجهل والشرك.

فالجهل بهذا العلم -علم الأنبياء الهادي إلى الحق والمنقذ من الضلال والشرك- هو الجهل المميت والسم القاتل الذي يقتل العقل والفكر.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾.

وبعد هذه الجولات القوية الواعية يقوم بها إبراهيم ﷺ في ميدان الدعوة إلى الله؛ دعوة الأسرة والأمة التي أقام فيها على أبيه وقومه الحجج الدامغة واجه بهذه الدعوة العظيمة ذلك الحاكم الجبار الطاغية المتأله بكل قوة وشجاعة

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة ٢٥٨]

لقد دعا إبراهيمُ ﷺ هذا الطاغيةَ المتأله إلى توحيد الله والإيمان بربوبيته وألوهيته، فطغى واستكبر عن الإجابة إلى توحيد الله وأبى التنازل عن دعوى الربوبية

فحاجّه إبراهيم وناظره هذه المناظرة النيرة البراهين الواضحة المعالم قال

إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: المتفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة.

فقال الغبي المتجبر: أنا أحيي وأميت؛ أي: أقتل من أردت قتله وأستبقي من أردت إبقاءه.

وهذا الجواب فيه تمويه وتضليل للأغبياء وحيدة عن الجواب، لأن قصد إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أن ربه ينشئ الحياة في الإنسان والحيوان والنبات من العدم، ويردها إلى الأموات بقدرته وأنه هو الذي يميت الناس والحيوانات بآجالها بأسباب ربطها وبغير أسباب، فلما رآه إبراهيم يموه ويدجل تدجيلًا ربما انطلى على الأغبياء والهمج، قال -ملزمًا له بتصديق قوله، إن كان كما يزعم-: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾؛ أي: وقف متحيرًا مشدوهًا، منقطع الحجة قد ألقم حجرًا وأخرس لسانه وزهق باطله، ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾.

وفي هذا درس لمن ألقى السمع وهو شهيد، إنها دعوة إلى التوحيد، تمثل قمة الإخلاص والحكمة والعقل، وتأتي البيوت من أبوابها وتنطلق من حيث أراد الله، لا مصارعة على الملك، ولا منافسة على الحكم.

ولو كان هدف إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- الوصول إلى الحكم لسلك منهجًا غير هذا المنهج، ولوجد من يلتف حوله ويصفق له ولكن يأبى الله وأنبياؤه وصالحو الدعاة من أتباع الأنبياء حقًّا في كل زمان ومكان إلا سلوك طريق الهداية والرشاد وبيان الحق وإقامة الحجة على المكذبين والمعاندين.

وقد قام إبراهيم ﷺ بهذا الواجب العظيم على أكمل الوجوه وأتمها، أقام الحجة على أبيه وقومه حكومة وشعبًا، فلما رأى منهم الإصرار على الشرك والكفر والإقامة على الباطل والضلال لجأ إلى الإنكار والتغيير باليد والقوة.

فمن أين يبدأ بالتغيير وما هو الأسلوب الرشيد لتغيير هذا الواقع المظلم الجاثم على أمته؟ أيثور على الدولة لأنها منبع الشرور والفساد ومصدر الشرك والضلال؟!! كيف لا والحاكم يدعي الربوبية ويصر عليها؟ لماذا لا يدبر انقلابًا

يطيح فيه بهذه الحكومة الكافرة وعلى رأسها جبار متأله، وبذلك يقضي على كل ألوان الفساد والشرك، وتقوم على أنقاضه الدولة الإلهية بقيادة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ؟!! والجواب حاشى الأنبياء وحاشى نزاهتهم من سلوك هذه الطرق أو التفكير فيها فإنها طرق الطغمة والجهلة والسفهاء وطلاب الدنيا والملك.

إن الأنبياء دعاة توحيد ورواد هداية إلى الحق وإنقاذ من الباطل والشرك فإذا امتدت أيديهم إلى التغيير وهم أعلم الناس وأعقلهم فلا بد أن تبدأ بالقضاء على منابع الشرك والضلال الحقيقية وكذلك فعل إبراهيم الحليم الرشيد البطل الشجاع.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

آتى الله إبراهيم رشده على علم بأنه أهل لذلك.

هذا النبي الحكيم الرشيد واجه فساداً في العقيدة، وفساداً في الحكم، أمة انحط تفكيرها وضلت عقولها، فعبدت الأصنام من الأخشاب والأحجار والكواكب، وتحكمها حكومة فاسدة يقودها جبار متأله فأسلموا له القياد.

فمن أين يبدأ بالإصلاح يا ترى؟

أيبدأ بمصاولة الحاكم لأنه قطعًا يحكم بغير شريعة الله ويحكم بقوانين وتشريعات جاهلية، لا شك في ذلك، ويدعي الربوبية جهارًا وحق التشريع؛ أو يبدأ بإصلاح العقيدة عقيدة الأمة وعقيدة الحكومة الجاهلية؟ القرآن يحدثنا عن هذا النبي الرشيد إمام الأنبياء أنه بدأ بإصلاح العقيدة؛ أي: الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده ومحاربة الشرك والقضاء عليه وعلى أسبابه واقتلاعه من جذوره، فدعاهم فعلًا إلى توحيد الله ونبذ عبادة ما سواه، وجادلهم في هذا المجال وجادلوه، فدمغهم بالحجج القاهرة والبراهين الظاهرة وجردهم من كل سلاح من أسلحة الحجة حتى ألجأهم إلى الاعتراف بالظلم والضلال والتعصب الأعمى والجمود القاتل على تقليد الآباء: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾

فلما رأى إبراهيم أهواء جامحة وعقولًا متحجرة، دبر لهم مكيدة ورسم لهم خطة حكيمة شجاعة لتحطيم آلهتهم، وتم تنفيذ هذه الخطة بكل قوة وشجاعة وجرأة.

وأثار هذا العمل البطولي[1] الحكومة والشعب ضده، واستدعوه للمحاكمة العلنية، ووجهوا إليه الاتهام ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فأجابهم بأسلوب تهكمي ساخر: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾

فكان هذا الجواب التهكمي المفحم كالصاعقة العنيفة هوت على رؤوسهم المخبولة، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾

ثم لما أعوزهم سلاح الحجة لجأوا إلى القوة، سلاح كل عاجز عن الحجة في كل زمان ومكان: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

ونجى الله خليله إبراهيم ورد الله كيد الكافرين الخاسرين في نحورهم: ﴿قُلْنَا

(1) هذا العمل البطولي العظيم وما سبقه من دعوة حكيمة إلى التوحيد وسط الشرك في ميزان كثير من دعاة الإصلاح اليوم يعتبر من الاهتمامات بالقشور والسفاسف، فلا حول ولا قوة إلا بالله، إنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.
[لأنهم يرون أن البداءة بالدعوة يجب أن تكون بإصلاح الحكم والسياسة لا بإصلاح العقيدة، وعلى هذا يكون إبراهيم وسائر الأنبياء قد أخطأوا منهج الدعوة الصحيح- معاذ الله]

يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾.

وكان في نجاة إبراهيم من تلك النار العظيمة بعد أن حولها الله بردًا وسلامًا على إبراهيم آية عظيمة من أعظم آيات الله على نبوته وصدقه وصدق ما جاء به من التوحيد وبطلان ما هم عليه من الشرك والضلال.

وكافأ الله إبراهيم ﷺ على هذه الدعوة الحكيمة وعلى هذا الجهاد والتضحية الرائعة ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

٣- ثالثهم: يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم[1] الذي أنزل الله في شأنه سورة طويلة تقص لنا حياته الكريمة ومراحلها من طفولته إلى موته، وكيف تقلبت به الأحوال، وما واجه من صعاب، فتلقاها بقوة النبوة وصبرها وحكمتها وحلمها.

رأى يوسف ﷺ فساد قصور الفراعنة في مصر وظلمها وعرف عقائد الأمة التي عاش فيها، عرف ما فيها من فساد ووثنية تتخذ الأصنام والأبقار آلهة مع الله.

قصة هذا النبي الكريم ﷺ طويلة، نأخذ منها الإشارة إلى سجنه ودعوته، قال تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ

---

(١) إشارة إلى حديث ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم ﷺ».

أخرجه البخاري (٦٠) كتاب الأنبياء، باب (١٨)، حديث (٣٣٨٢، ٣٣٩٠)، وأحمد في المسند (٢/ ٩٦).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم لله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

أخرجه البخاري، (٦٠) كتاب الأنبياء، حديث (٣٣٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٩٣)، التفسير، باب (١٣)، حديث (٣١١٦)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢، ٤١٦) كلاهما من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، بلفظ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ».

مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٦-٤٠].

عاش هذا النبي الكريم ﷺ في القصور وعرف مفاسد الحكم والحكام عن كثب، وذاق من ويلاتهم كيدًا وظلمًا واضطهادًا وسجنًا وعاش بين ظهراني أمة وثنية تعبد الأصنام والأبقار والكواكب فمن أين ينطلق للإصلاح ومن أين تكون نقطة البداية؟!

هل يبدأ في الدعوة إلى الله وهو مسجون ظلمًا يشاركه في السجن مظلومون مثله من إثارتهم وتهييجهم على الحكام الظلمة المستبدين؟! وهذا منطلق سياسي لا شك فيه، والفرصة متاحة أمامه أو يبدأ بالدعوة من حيث انطلق آباؤه الكرام وعلى رأسهم إبراهيم خليل الله وإمام الدعاة إلى توحيد الله ومن حيث انطلق جميع رسل الله؟! لا شك أن طريق الإصلاح الوحيد في كل زمان ومكان هو طريق الدعوة إلى العقيدة والتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده.

إذن؛ فليبدأ يوسف من هذا المنطلق مقتديًا بآبائه الكرام ومعتزًا بعقيدتهم ومحقرًا ومنددًا بسخف المشركين واتخاذهم أربابًا من دون الله من الأصنام والأبقار والكواكب.

وبعد هذا البيان الواضح والدعوة الصريحة إلى التوحيد ونبذ الشرك يؤكد دعوته وحجته بقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1] ثم يفسر هذه الحاكمية بتوحيد الله

---

(١) هذه الآية قاعدة أساسيّة من قواعد التوحيد كما بين الله ذلك على لسان يوسف ﷺ ومن المؤسف جدًّا أن نرى كثيرًا من دعاة الإصلاح السياسيين قد ابتعدوا بتفسيرها جدًّا عن مدلولها الأساسي إخلاص العبادة لله وحده إلى مدلول سياسي هو إقامة الدولة التي يزعمون أنها ستطبق شريعة الله في الأرض بالنيابة عنه وبالغوا في هذا الاتجاه حتى أنسوا الناس المعنى الأصيل للآية ولا يفهمون منها إلا المعنى الجديد فلا حول ولا قوة إلا بالله وهكذا عاملوا كل أو معظم آيات التوحيد

وعبادته وحده ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

ويقول عن التوحيد: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ويصل يوسف -عليه الصلاة والسلام- إلى أعلى منصب في هذه الدولة[1] وهو يدعو إلى توحيد الله ويقيم على دعوته ونبوته البينات، قال تعالى في بيان هذه الأمور: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٥]

وقال شاكرًا لمولاه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]

وقال الله تعالى في بيان دعوته وذلك على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]

من فقه سيرة يوسف ﷺ التي عرضتها علينا هذه الآيات الكريمة أنَّ الدعوة إلى التوحيد أمر لا بد منه، وأن الشرك لا هوادة ولا مداهنة في محاربته فلا يجوز السكوت عنه مهما كانت ظروف الدعوة إلى الله؛ بل لا يجوز لمسلم إطلاقًا أن يحابي ويداهن في أمره وهذا يبين مكانة العقيدة وعظم شأنها عند الله وعند أنبيائه ورسله وأن الفرق والبون شاسع جدًّا بينها وبين فروع الإسلام.

فلا يجوز أن يكون المسلم خصوصًا الداعية [أن يتولى منصبًا يخل بالعقيدة أو يتنافى معها] بأن يكون كاهنًا من الكهنة للمشركين أو سادنًا لأصنامهم، فإن فعل ذلك كان من المشركين الضالين.

أمَّا الجانب التشريعي، فإن قامت دولة الإسلام فلابد من تطبيق شريعة الله، وإلَّا ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والكفر حينئذ على ما فصله

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الحسبة» (ص ٧): «وكذلك يوسف الصديق كان نائبًا لفرعون مصر - وهو وقومه مشركون - وفعل من العدل والخير ما قدر عليه، ودعاهم إلى الإيمان بحسب الإمكان».

علماء الإسلام من الصحابة وغيرهم قد يكون كفرًا أكبر إذا كان يحتقر شرع الله ويستحل الحكم بغيره وقد يكون كفرًا أصغر إذا كان يعظم شريعة الله ولا يستحل الحكم بغيرها لكن غلبه هواه فحكم بغير ما أنزل الله.

أمَّا إذا كانت دولة الإسلام غير قائمة، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها وللمسلم أن يتبوأ منصبًا في دولة غير مسلمة شريطة أن يقوم بالعدل، وألَّا يضيعهم في معصية الله ولا يحكم بغير ما أنزل الله كما فعل نبي الله يوسف، تبوَّأ منصب النيابة عن ملك كافر وما كان يحكم بشريعته ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ وكان يقوم بالعدل بين الرعية ويدعوهم إلى توحيد الله.

وفي هذا رد حاسم على من يهون من أمر عقيدة التوحيد ويجامل ويداجي في قضية الشرك الذي ملأ الدنيا، وينظر إلى دعاة التوحيد وأعداء الشرك بعين الاحتقار والازدراء، ويربأ بنفسه ويشمخ بأنفه أن يهبط إلى مستوى دعاة التوحيد- وهو من دعاة السياسة وما أثقل على سمعه وقلبه أن يسمع أو يقول كلمة توحيد أو شرك.

لقد أوقع هذا النوع من الدعاة أنفسهم في هوَّة سحيقة في حين يظنون أنهم في أعلى القمم الشامخة.

ولن يفلح قوم هذا موقفهم من دعوة الأنبياء إلَّا أن يتوبوا عمَّا هم فيه إلى الله توبة نصوحًا.

٤- رابعهم موسى كليم الله، القوي الأمين، نرى دعوته تتجه إلى التوحيد وتحمل في طيَّاتها أنوار الهداية والحكمة

لقد تربى موسى ودرج في قصور أعظم طاغية متأله وعرف من ألوان الفساد والكفر والطغيان والظلم والاستبداد في قصور الحكم عن مشاهدة واطلاع ما يصعب تصوره واحتماله، ورأى ما نزل بقومه بني إسرائيل من استعباد واستدلال واستحياء من النساء، وقتل الأبناء ما فاق كل ظلم عرفته البشرية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]

وكان قوم فرعون أهل شرك ووثنية دون شك

فكيف كان بدء دعوة موسى هل اتجهت إلى إصلاح عقيدة هذه الأمة الوثنية أو بدأت بالمطالبة بحقوق بني إسرائيل والمصارعة على الحكم والسعي الجاد في إقامة الدولة الإسلامية وانتزاع السلطة من أيدي الطغاة وعلى رأسهم فرعون المتأله؟

لقد كانت دعوة موسى كغيرها من دعوات آبائه وإخوانه من الأنبياء، لقد لقّنه ربه أصل التوحيد واصطفاه لحمل رسالته والقيام بعبادته.

قال تعالى ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٩- ١٥]

هكذا في مفتتح رسالته تملى عليه عقيدة التوحيد ويكلف شخصيًا أن يقوم بها في واقع نفسه ويتمثلها في حياته.

ثم يكلفه بالدعوة لهذا المبدأ العظيم فيرسله إلى فرعون ويبيّن له طريق الدعوة وأسلوبها الحكيم الذي يواجه به فرعون قال تعالى ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧- ١٩]

ويشد عضده بأخيه هارون مبالغة في إقامة الحجة ويعلمهما الرفق واللّين في الدعوة؛ فإن ذلك أقرب الطرق إلى هداية من يريد الله هدايته ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣- ٤٤]

فنفذا أمر ربهما ودعواه إلى الله قاصدين هدايته وتزكيته ليكون ممن يخشى الله ويتقي عواقب الشرك والظلم، فلم يستجب لهذه الدعوة الهادئة الحكيمة فبرهن موسى على نبوّته وصدق رسالته بآيات كبرى لكن الطاغية فرعون زاد طغيانًا وتكذيبًا ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢١- ٢٥]

ازدياد طغيان فرعون وعسفه وظلمه
ومواجهة موسى وقومه هذا الطغيان بالصبر الجميل والتحمّل

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ما ذنب موسى وقومه في نظر هؤلاء المجرمين؟!! لا ذنب لهم إلّا الدعوة إلى توحيد الله والثّبات عليها والكفر بفرعون ومعبوداته.

ثمّ ما موقف موسى من هذه الانتهاكات البشعة والتي تجاوزت حدود الوحشيّة والهمجيّة؟!

إنّه الثّبات على العقيدة والصبر الجميل، والاستعانة بالله في مواجهة هذه الشدائد ثمّ انتظار العاقبة الطيّبة والنّصر نتيجة وثمرة حميدة لهذا الثّبات والصّبر ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ولمّا لم يبق أيّ أمل في إيمان فرعون وقومه واشتدّ البلاء على بني إسرائيل، كان مطلب موسى بعد التوحيد من فرعون أن يترك لبني إسرائيل حريّة الخروج والهجرة إلى حيث يريد الله لهم إنقاذاً لهم من التعذيب والتنكيل ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

إنّها الدعوة السامية إلى توحيد الله وفيها النور والحكمة وفيها الحرص على هداية المدعوّين وتزكيتهم، وفيها أقوى أنواع الصبر في تحمّل الأذى وفي مواجهة الطغيان والكبرياء، وفيها معالجة المواقف الصعبة بالحكمة والصبر مع قوّة الأمل في الله في نصر المؤمنين وإهلاك الظالمين، وفيها دروس وعظات لمن يريد بدعوته وجه الله ويريد إصلاح البشر وربطهم بالله وهدايتهم إلى صراطه المستقيم.

٥- والخامس: سيد الأنبياء وخاتمهم محمد بن عبد الله صاحب أعظم رسالة وأكملها وأشملها، الذي أرسله الله رحمة للعالمين مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله

بإذنه وسراجًا منيرًا، ما ترك خيرًا إلا دلَّ أمَّته عليه، ولا شرًّا إلا حذَّرها منه.

بماذا بدأ هذا النبي العظيم من مبادئ الإسلام؟ ومن أين انطلقت دعوته؟

إنَّه -عليه الصلاة والسلام- بدأ بما بدأ به كلّ الأنبياء وانطلق من حيث انطلقوا بدعوتهم من عقيدة التوحيد والدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، من لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهل يُتصوَّر منه أو من أحد من الأنبياء أن يبدأ بغير هذا الأصل العظيم أصل أصول الرسالات كلّها.

لقد بدأ رسول الله ﷺ بهذا الأصل فأوّل شيء طرق مسامع قومه «قولوا لا إله إلا الله».

فقال المستكبرون منهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥-٦].

واستمرَّ داعيًا إلى هذا المبدأ الأسمى والمطلب الأعلى طيلة العهد المكي من رسالته ثلاثة عشر عامًا لا يكلُّ ولا يملُّ، صابرًا على كلّ ألوان الأذى في سبيل نشر هذا المبدأ فلم يُفرض عليه من التشريعات وأركان الإسلام إلَّا الصلاة في السنة العاشرة من البعثة، اللّهم إلَّا ما كان يأمر به قومه من معالي الأخلاق كصلة الرحم والصدق والعفاف، ولكنَّ محور الدعوة وموضوع الصراع والخصومة إنَّما هو ذلك الأصل العظيم.

لقد كلَّف الله هذا النبي الكريم ﷺ تكليفًا خاصًّا أن يقوم بهذا الأصل العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١١-١٤].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

كما أمره أن يقوم بدعوة الناس جميعًا إلى تحقيق هذا المبدأ والنهوض به.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

والآيات في هذا كثيرة وفيما قدمناه بيان هو مثال لمنهج رسول الله ﷺ في الدعوة إلى التوحيد.

أمّا السنّة ففيها الشيء الكثير الدالّ على افتتاح رسول الله ﷺ دعوته بالتوحيد واختتامها بذلك واستمراره فيما بين ذلك طوال حياته ﷺ.

١- فعن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه قال: كنت وأنا في الجاهلية، أظنّ أنّ النّاس على الضلالة، وأنّهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكّة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جرآء عليه قومه فتلطفت، حتى دخلت عليه بمكّة، فقلت له: ما أنت؟

قال: «أنا نبي». فقلت: وما نبي؟

قال: «أرسلني الله». فقلت: وبأيّ شيء أرسلك؟

قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوَحَّد الله لا يشرك به شيء». فقلت: ومن معك على هذا؟

قال: «حرٌّ وعبدٌ».

قال: ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلال ممن آمن به ... الحديث

---

(١) أخرجه مسلم (١/٥٦٩)، (٦) كتاب صلاة المسافرين، (٥٢) [illegible] حديث (٢٩٤)، وأحمد في المسند (٤/١١٢).

٢- ولمّا وفد عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة المخزومي كلّما النجاشي ملك الحبشة فقالا له يغريانه بالمسلمين المهاجرين إلى الحبشة: «أيها الملك إنّه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنت... فسألهم النجاشي، فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟!!! فكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيّها الملك، كنّا قومًا أهل جاهليّة نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منّا الضعيف.

فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنّا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا.

قال: فعدّد عليه أمور الإسلام، فصدّقناه وآمنّا به واتّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألّا نظلم عندك...» الحديث[1].

٣- وفي أسئلة هرقل لأبي سفيان في مدّة صلح الحديبية عن حال رسول الله ﷺ قال لأبي سفيان: ما يأمركم؟ قال أبو سفيان: قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمر بالصلاة، والصدق، والعفاف،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٠٢)، (٥/ ٢٩٠)، قال أحمد: ثنا يعقوب- يعني: ابن إبراهيم بن سعد الزهري، ثقة -، ثنا أبي عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية- يعني: أم المؤمنين ﵂-، وهو إسناد صحيح إلا محمد بن إسحاق وقد صرح بالتحديث فحديثه حسن.

والصلة»[1].

فهذه الأحاديث توضح لك دعوة رسول الله في العهد المكي والمدني.

تعذيب أصحابه من أجل لا إله إلا الله عقيدة التوحيد

لقد عذب أصحاب رسول الله ﷺ أشد ألوان العذاب من أجل تمسكهم بالعقيدة وإخلاص العبادة لله وحده ونبذ الشرك والكفر.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد.

فأما رسول الله ﷺ، فمنعه الله تعالى بعمه أبي طالب.

وأما أبو بكر، فمنعه الله بقومه.

وأما سائرهم، فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وَاتَاهم على ما أرادوا، إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد»[2].

وفي «السيرة» لابن هشام[3]: «وكان أمية بن خلف يخرجه -يعني: بلالاً- إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد».

وتعذب سمية حتى الموت من أجل عقيدة التوحيد، لا لأنها كانت زعيمة سياسية.

فعن مجاهد قال: «أول شهيدة في الإسلام سمية والدة عمار أما أبو جهل

(١) أخرجه البخاري (١) كتاب بدء الوحي، باب (٧). حديث (٦) وهو حديث طويل.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٨٤)، وصححه وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ٣٤٨)، وقال: وله إسناد صحيح.

وانظر في الاستيعاب (١/ ١٤٥-١٤٦)، والحلية لأبي نعيم (١/ ١٤٩).

(٣) (١/ ٣١٨).

فطعنها بحربة في قُبُلها»[1].

وقال ابن سعد: «أسلمت قديمًا بمكة، وكانت ممن يعذب في الله لترجع عن دينها، وصبرت، حتى مر بها أبو جهل يومًا، فطعنها بحربة في قُبُلها فماتت»[2].

الاهتمام بعقيدة التوحيد في العهد المدني

وبعد أن هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وقامت دولة الإسلام على كواهل المهاجرين والأنصار، وعلى أساس التوحيد ظل الاهتمام بالتوحيد على أشده والآيات القرآنية تنزل به، والتوجيهات النبوية تدور حوله.

١- ولم يكتف رسول الله ﷺ بكل هذا، فكان يبايع عليها عظماء الصحابة فضلًا عن غيرهم بين الفينة والفينة وكلما تسنح له فرصة للبيعة عليها

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وهذه الآية وإن كانت في بيعة النساء فإن رسول الله ﷺ كان يبايع على مضمونها الرجال.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ في مجلس، فقال **«تبايعوني على ألَّا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم والآية التي أخذت على النساء ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»**[3]

---

(١) الطبقات لابن سعد (٨/ ٢٦٤- ٢٦٥)، قال: أخبرني إسماعيل بن عمر أبو المنذر، حدثنا سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد قال: . . . فذكره، وهو إسناد صحيح إلى مجاهد.

(٢) الطبقات لابن سعد (٨/ ٢٦٤).

(٣) رواه البخاري (٢) كتاب الإيمان، باب (١١)، حديث (١٨)، (٦٣) كتاب مناقب الأنصار، (٤٣) باب وفود الأنصار، حديث (٣٨٩٢)، ومسلم (٢٩) كتاب الحدود، (١٠) باب: الحدود كفارات لأهلها، حديث (٤١- ٤٤)، والنسائي (٧/ ١٢٨).

وساق ابن كثير عددًا من الأحاديث التي فيها أن رسول الله كان يبايع النساء بمضمون الآية.

منها حديث عائشة[1]، وحديث أميمة بنت رقيقة[2]، وحديث أم عطية[3]، وحديث سلمى بنت قيس إحدى خالات الرسول[4]، وحديث رائطة بنت سفيان الخزاعية[5].

ثم قال: «وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة» ثم ساق حديث ابن عباس[6] وأحاديث أخر.

أقول: وكذلك كان يتعاهد الرجال، فمما يدل على ذلك حديث عبادة بن الصامت السابق.

ومن ذلك: حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**». وكنّا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟! قال: «**على أن تعبدوا الله**

---

(١) رواه البخاري (٦٥) كتاب التفسير: تفسير سورة الممتحنة، (٢) باب: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾، حديث (٤٨٩١)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٩)، (٢٤) كتاب الجهاد، (٤٣) باب بيعة النساء، حديث (٢٨٧٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (٦/ ٣٥٧)، والنسائي كتاب البيعة، باب بيعة النساء، (٧/ ١٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥) كتاب التفسير تفسير سورة الممتحنة، (٣) باب ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾، حديث (٤٨٩٢)، ومسلم كتاب الجنائز، (٦/ ٢٣٨) شرح النووي.

(٤) مسند أحمد (٦/ ٣٧٩- ٣٨٠، (٤٢٢) ٤٢٣) وفي إسناده سليط بن أيوب قال الحافظ: مقبول، وقال الذهبي في «الكاشف» (١/ ٣٨٨): وثق، فهو حسن لشواهده.

(٥) مسند أحمد (٦/ ٣٦٥).

(٦) في البخاري (٦٥) كتاب التفسير (٣) باب ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾، حديث (٤٨٩٥)، ومسلم (٨) كتاب صلاة العيدين (٨) باب صلاة العيدين، حديث (١)، والحديث طويل وفيه: فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ فتلا هذه الآية حتى فرغ منها، ثم قال: «أنتن على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها منهن: نعم يا نبي الله...

ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس وتطيعوا - وأسرّ كلمة خفية- ولا تسألوا الناس شيئًا».

فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه[1].

٢- وكان يرسل دعاته ومعلميه وقضاته وأمراءه إلى الملوك والجبابرة والأقطار المختلفة بدعوة التوحيد.

فعن أنس رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ: أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى[2] وقيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ[3].

يوضح ذلك نص كتابه إلى قيصر وأن هدفه الدعوة إلى التوحيد ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين[4] و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا

---

(١) أخرجه مسلم (١٢) كتاب الزكاة، (٣٥) باب: مسألة الناس، حديث (١٠٨)، وأبو داود (٣) كتاب الزكاة، (٧٢) باب: كراهية المسألة، حديث (١٦٤٢)، وأحمد (٦/ ٢٧)، والنسائي (١/ ١٨٦)، وابن ماجه (٢٤) كتاب الجهاد (٤١) باب: البيعة، حديث (٢٨٦٧).

(٢) وانظر كتابه إلى كسرى ملك الفرس في «البداية والنهاية» (٤/ ٣٦٩)، بقريب من كتاب قيصر.

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٩٧)، (٣٢) كتاب الجهاد، (٢٧) باب: كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله ﷻ، حديث (٧٥)، والترمذي (٤٣) كتاب الاستئذان (٢٣) باب: في مكاتبة المشركين، حديث (٢٧١٦)، من حديث أنس، وأحمد (٣/ ٣٣٦)، من حديث جابر بلفظ: «وكتب رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار».

(٤) الأريسيون: الفلاحون ويقال لهم: الأكارون، والمراد: أتباعه من الضعفاء وغيرهم لأنه صار سببًا في استمرارهم على الشرك، وهذا عدل الله وسنته في الزعماء أنهم يحملون أوزارهم وأوزار من يتبعونهم في الانحراف عن التوحيد والحق ومحاربته، قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾، وقال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئًا».

وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

وعندما وصل الكتاب النبوي إلى قيصر أرسل إلى أبي سفيان بن حرب في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي مادّ فيها رسول الله ﷺ أبا سفيان، وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء فوجه أسئلة إلى أبي سفيان من جملتها: قال قيصر: «ماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمر بالصلاة، والصدق والعفاف والصلة»[2].

٣- وكان رسول الله ﷺ يجهز جيوشه للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة التوحيد «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

ويرشد قواده وجنوده إلى البدء قبل القتال بدعوة الناس إلى التوحيد.

فعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش، أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين خيرًا، وقال: «إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتها أجابوك إليها، فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين... فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن هم أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله تعالى، وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم، فإنكم لا تدرون ما يحكم الله فيهم، ولكن أنزلوهم على حكمكم، ثم اقضوا فيهم بعدُ ما شئتم»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١) كتاب بدء الوحي، باب (٧)، حديث (٦)، وهو حديث طويل اختصرناه، وأحمد (١/ ٢٦٢).

(٢) هو نفس الحديث السابق.

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٥٦-١٣٥٧)، (٣٢) كتاب الجهاد، (٢) باب تأمير الإمام على البعوث، حديث (٣)، وأبو داود (٣/ ٨٣)، (٩) كتاب الجهاد، (٩) باب في دعاء المشركين، حديث (٢٦١٢)، والترمذي (٤/ ١٨٢)، (٢٢) كتاب السير، (٤٨) باب وصية النبي ﷺ في القتال، حديث (١٦١٧)، وابن ماجه، (٢٤) كتاب الجهاد، (٣٨) باب وصية الإمام، حديث (٢٨٥٨).

ومثل حديث بريدة حديث النعمان بن مقرن المزني ﷺ أخرجه كل من مسلم وأبي داود وابن ماجه، بقولهم: قال علقمة، فحدثت به مقاتل بن حيان، فقال حدثني مسلم بن هيصم، عن النعمان بن مقرن عن النبي ﷺ مثل ذلك.

٤- وبعث معاذًا إلى اليمن أميرًا وقاضيًا ومعلمًا، فقال له رسول الله ﷺ في وصيته: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله** - وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله- **وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[1].

ولا يشك أنه كان يوصي كل دعاته وأمرائه وقضاته بمثل هذه الوصية.

٥- وشرع الجهاد من أجل التوحيد وتطهير الأرض من فتنة الشرك قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

قال ابن جرير رحمه الله في «تفسيره»[2]: «يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا تكون فتنة، يعني: حتى لا يكون شرك بالله، وحتى لا يعبد دونه أحد، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان. قال قتادة: حتى لا يكون شرك» وساق أسانيده بهذا التفسير إلى قتادة ومجاهد والسدي وابن عباس.

وقال: «المراد بالدين الذي ذكره الله في هذا الموضع: العبادة والطاعة لله في

---

(١) أخرجه البخاري، (٦٤) كتاب المغازي، (٦٠) باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث (٤٣٤٧) و٩٧- كتاب التوحيد، (١) باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ إلى توحيد الله تبارك وتعالى، حديث (٧٣٧٢) ولفظ البخاري هو: «فليكن أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك...» الحديث.

ومسلم (١) كتاب الإيمان، (٧) باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث (٢٩- ٣٠) ولفظ الأخير: «فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة الله ﷻ فإذا عرفوا ذلك...» الحديث.

(٢) (٢/ ١٩٤- ١٩٥).

أمره ونهيه.

قال: ومن ذلك قول الأعشى:

هو دان الرباب إذ كرهوا الدين دراكًا بغزوة وصيال

ثم ساق إسناده إلى الربيع: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ يقول: حتى لا يعبد إلا الله، وذلك لا إله إلا الله عليه قاتل رسول الله ﷺ وإليه دعا.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله».

وقال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لأبي بكر الصديق خليفة رسول الله حين عزم على قتال المرتدين بما فيهم مانعي الزكاة فقال له الفاروق رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»[1].

فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»

---

(١) أخرجه مسلم (١) كتاب الإيمان، باب (٨)، حديث (٣٥)، والترمذي (٥/ ٤٣٩)، (٤٨) كتاب التفسير، تفسير سورة الغاشية، حديث (٣٣٤١)، وابن ماجه (٣٦) كتاب الفتن، باب (١)، حديث (٣٩٢٨).

(٢) البخاري (٥٦) الجهاد، (١٠٢) باب: دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، حديث (٢٩٤٦)، ومسلم (١) كتاب الإيمان، باب (٨)، حديث (٣٣)، وأبو داود (٩) الجهاد، (١٠٤) باب: على ما يقاتل المشركون حديث (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٦) كتاب الفتن، باب الكف عمن قال: لا إله إلا الله، حديث (٣٩٢٨).

ثم قرأ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[2].

ويلاحظ أن أحاديث عمر وأبي بكر وأبي هريرة وجابر قد اقتصرت على قضية التوحيد، ولم تتعرض لغيرها.

ولعلّ السبب في ذلك شدة اهتمام الرسول ﷺ بهذه القضية إنَّه يحدثهم بها المرة تلو المرة مقتصرًا عليها، تنبيهًا منه لهم على عظمتها وأهميتها وإدراكًا منه -صلوات الله وسلامه عليه- أنهم يفهمون أن كل أمور الإسلام من مقتضياتها ومستلزماتها وحقوقها خصوصًا أركان الإسلام والإيمان.

أقول: وسبب اقتصار الرسول ﷺ على ما يتعلق بالعقيدة كان استدلال عمر بهذا القدر وكان جواب أبي بكر -في تأييد موقفه- بقياس الزكاة على الصلاة «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة..» الحديث، ولو كان يحفظ ما رواه ابن عمر لاستدل به رأسًا.

ولو كان عمر يحفظ ما رواه ابنه لما اعترض على أبي بكر ولو كان الحاضرون وفيهم أبو هريرة يحفظون ما رواه ابن عمر لذكّروا الشيخين به.

ولعل السرّ هو ما أشرنا إليه شدة اهتمام الرسول بالعقيدة وإشادته بها وكثرة حديثه عنها.

ولما كان أبرز جانب وأهمه فيما جاء به الأنبياء من تعاليم ربانية هو توحيد الإلهية، وكان هو في الواقع أعظم قضايا الصراع مع كل أعداء الأنبياء.

وكان أبرز جانب من جوانب الباطل والضلال مما أعلن الأنبياء -عليهم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤) كتاب الزكاة، (١) باب وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٩)، ومسلم (١) كتاب الإيمان، باب (٨)، حديث (٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢) كتاب الإيمان، (١٧) باب: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، حديث (٢٥)، ومسلم (١) كتاب الإيمان، باب (٨)، حديث (٣٦).

الصلاة والسلام عليه الحرب من جهة واستماتت المشركون المكذبون من كل الأمم في الدفاع عنه من جهة أخرى هو عبادة الأصنام والأوثان، وقبور الصالحين والأنبياء وتقديسها وتقديم القرابين لها وتعلق قلوب البشر حكامًا ومحكومين بها حبًا ورجاءً وخوفًا وطمعًا وأملًا في شفاعتها لهم عند الله في قضاء مصالحهم.

وكان هذا اللون هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، ونكتفي -حسب ما قدمناه من الحديث عن منهج الأنبياء خصوصًا في الحديث عن إبراهيم إمام الحنفاء ومحطم أصنام السخفاء- من ذكر طرف من حرب رسول الله ﷺ الشعواء لهذا الشرك الأكبر ممثلة في سحق هذه الأوثان فعلًا، وفي سد كل ذريعة يستدرج بها الشيطان أولياءه من البشر إلى عبادتها واتخاذها أندادًا من دون الله باسم الآلهة أو الأولياء أو تحت أي شعار مضل.

فمن تلك الحرب التي شنها القرآن ورسول القرآن ﷺ قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

فهذا تحقير لمعبوداتهم وأي تحقير، وحرب عليها أي حرب، وقول الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه وقد تقدم حديثه، وفيه: قلت: آلله أرسلك؟ قال: «نعم». قلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: «بأن يوحد الله، ولا يشرك به شيء، وكسر الأوثان، وصلة الرحم»(1).

وفي حديث جعفر بن أبي طالب «... حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف

(١) تقدم تخريجه.

نسبه وصدقه وعفافه فدعا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان. . .» الحديث[1]

وفي حديث أبي سفيان مع هرقل ملك الروم: «يقول - يعني الرسول ﷺ - اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم. . .»[2].

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للعالمين وأمرني ربي عز وجل بمحق المعازف والمزامير، والأوثان والصليب، وأمر الجاهلية . . .» الحديث.

ولقد طاشت ألباب زعماء قريش وضاقت ذرعًا بهجوم الرسول ﷺ على أوثانها سواء فيما أنزل عليه من قرآن أو في دعوته السرية والعلنية لأن هذا أمر لا هوادة فيه، ودعوته الصادقة تقتضيه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه، فنهيته، فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت . . . فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟!!

قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة، يقولونها تدين لهم بها العرب ويؤدي إليهم بها العجم الجزية»

ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا: كلمة واحدة؟؟ نعم وأبيك عشرًا، فقالوا: ما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟

فقال: «لا إله إلا الله».

فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

عُجَابٌ﴾»(1).

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: اجتمعت قريش يومًا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت شملنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة، فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم، حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلًا وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش فلنزوجك عشرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟». قال: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾

فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟

قال: «لا».

---

(1) مسند الإمام أحمد (1/362)، والترمذي (48) كتاب التفسير، تفسير سورة ص، حديث (3232)، وفي إسناده يحيى بن عمارة ويقال ابن عباد، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (11/259): مقبول، وانظر التقريب (2/354)، وقال الذهبي في الكاشف (3/224): وثق. ورواه ابن جرير (23/165) بإسناده إلى الأعمش، ثنا عباد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، ورواه من طريق عن الأعمش عن يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، ولم أقف لعباد على ترجمة، وفي الإسناد ضعف وقد يحتمل التحسين.

(تنبيه) في مسند أحمد عباد بن جعفر ولم أقف له على ترجمة وقد نص ابن كثير أن أحمد رواه عن عباد غير منسوب، انظر تفسير ابن كثير (7/46)

فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ قال: لا والذي نصبها بنية، ما فهمت شيئًا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك أيكلمك الرجل بالعربية ما تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة»[1].

تلك الحرب كانت حربًا كلامية ونفسية بالنقد اللاذع والتحقير والسخرية ودمغ المشركين بالضلال والجهل مع إقامة الحجة عليهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة.

وكان من آثار تلك الحرب ومن آثار تلك الدعوة والبيان أن هدى الله كثيرًا من العرب من قريش وغيرهم ومن الأوس والخزرج وفتح الله بصائرهم وعرفوا حقيقة التوحيد ومكانته وعرفوا حقارة الشرك بالأوثان وغيرها وخطورته في الوقت نفسه على المشركين في الدنيا والآخرة.

وهذه ثمار طيبة عظيمة كانت نتيجة لجهاد رسول الله ﷺ وأصحابه وصبرهم في ميدان الدعوة الحقة إلى الله وحملتهم المكثفة على الطواغيت والأوثان والأنصاب.

ثم لما أصبح للمسلمين شوكة ودولة انتقل رسول التوحيد ﷺ إلى خطوة عملية جديدة هي سحق الأصنام وتحطيمها وإبادتها وتطهير الأرض منها إدراكًا منه

---

(1) المنتخب من مسند عبد بن حميد (ص ٣٠٨)، رقم (١١٤١)، ومسند أبي يعلى الموصلي (ل١٠١)، كلاهما عن أبي بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن محمد عن الأجلح عن الذيال بن حرملة الأسدي عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا.

قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٥١) بعد أن ساق الحديث بإسناده عن عبد بن حميد وأبي يعلى: وقد ساقه البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وهو ابن عبد الله الكندي وقد ضعف بعض الشيء عن الذيال..

لكن الحافظ قال عنه في التقريب (١/ ٤٦): صدوق شيعي من السابعة، وقال الذهبي في الكاشف (١/ ٩٩): وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وهو شيعي.

وشيخه الذيال قال الحافظ عنه في تعجيل المنفعة (ص ٨٤): «عن جابر وابن عمر والقاسم بن مخيمرة، وعنه مسعر بن حنيفة وحصين والأجلح وحجاج بن أرطاة: وثقه ابن حبان» وبقية رجال الإسناد ثقات

لخطورتها فهي المصدر الأساسي والخطر على الأجيال البشرية من فجر تاريخها وإلى أن ينتهي تاريخها كما قال إمام الحنفاء: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

فمن هنا قرر الرسول الأعظم محمد ﷺ القيام بتطهير الأرض من الأوثان وتسوية القبور لأنها قرينة الأصنام في إضلال البشرية.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاث مائة وستون نصبًا، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[1].

وجهز رسول الله ﷺ جيشًا لذي الخلصة من المدينة إلى خثعم فغزاها.

فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «كان بيت في الجاهلية يقال له: ذو الخلصة، والكعبة اليمانية، والكعبة الشامية. فقال لي النبي ﷺ: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟».

فنفرت في خمسين ومائة فارس من أحمس، فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فدعا لنا ولأحمس».

وفي لفظ للبخاري: «وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب تعبد يقال له: الكعبة»[2].

ولفظه في البخاري ومسلم وأحمد: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟».

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦) كتاب المظالم، حديث (٢٤٧٧)، و(٦٤) كتاب المغازي، (٤٨) باب أين ركز النبي ﷺ رايته يوم الفتح، حديث (٤٢٨٧)، (٦٥) كتاب التفسير، تفسير سورة الإسراء، (١٢) باب ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾، حديث (٤٧٢٠)، ومسلم (٣٢) كتاب الجهاد، (٣٢) باب إزالة الأصنام من حول الكعبة، حديث (٨٧)، والترمذي (٤٨) كتاب التفسير، (١٨) تفسير سورة الإسراء، حديث (٣١٣٨)، والإمام أحمد في المسند (١/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري ٦٤- كتاب المغازي، (٦٢) باب غزوة ذي الخلصة، أحاديث (٤٣٥٥، ٤٣٥٦، ٤٣٥٧)، ومسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٢٩) باب من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله عنه، حديث (١٣٦، ١٣٧)، وأبو داود (٣/ ٢١٥)، (٩) كتاب الجهاد، (١٧٢) باب بعثة البشراء، حديث (٢٧٧٢)، والإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٦٠- ٣٦٢).

انظر إلى هذا التعبير النبوي فكان وجود الأوثان يقض مضجعه ويقلقه- عليه الصلاة والسلام- فلا يقر له قرار ولا يجد راحة.

والعجب من واقع كثير من الدعاة اليوم يرون أمام أعينهم مظاهر الشرك فلا تحرك فيهم ساكنًا ولا يحسبون لهذا الواقع المر حسابًا، بل الأدهى والأمر أنهم يتذمرون ممن ينكر ويتألم لهذا الواقع الجاهلي السيئ.

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة، قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد ابن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئًا».

فرجع خالد فلما أبصرته السدنة- وهم حجبتها- أمعنوا في الجبل، وهم يقولون: يا عزى، يا عزى فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره فقال: «تلك العزى»[1].

وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب، فبعث رسول الله ﷺ أبا سفيان ليهدمها، وقيل: علي بن أبي طالب»[2].

وسألت ثقيف رسول الله ﷺ، أن يدع الطاغية وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهرًا واحدًا بعد قدومهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئًا مسمى.

وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذريتهم.. فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها»[3].

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٤/ ٢٣٥)، أخبرنا علي بن المنذر أخبرنا ابن فضيل حدثنا الوليد بن جميع عن أبي الطفيل لما فتح رسول الله ﷺ مكة ... الحديث، وهو إسناد حسن. وانظر تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٩- ٤٣٠).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٨٥- ٨٦)

(٣) السيرة لابن هشام (٢/ ٥٤٠- ٥٤١)، وابن جرير (٣/ ١٤٠)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٢) ط. مكتبة المعارف، وعيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ٢٢٨)، وزاد المعاد (٣/ ٤٩٩- ٥٠٠)

وعن عثمان بن أبي العاص: «أن رسول الله ﷺ أمر أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طاغيتهم»[1].

قال ابن جرير[2]: «وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا: «اللات» يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، وروى بأسانيده إلى قتادة وابن عباس ومجاهد وابن زيد، أن اللات بتشديد التاء رجل كان يلت السويق للحاج فمات فعكفوا على قبره فعبدوه».

وقال الإمام البخاري: «حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبو الأشهب حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «اللات والعزى» كان اللات رجلًا يلت سويق الحاج»[3].

ولما كانت فتنة القبور والأوثان من باب واحد، والرباط بينهما وثيق جدًا حيث إن الأوثان والأنصاب إنما نحتت وصورت وعبدت حبًا وغلوًا في الصالحين كما فعل قوم نوح بودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر لأنهم رجال صالحون.

كذلك إنما شيدت القبور وشدت إليها الرحال وقدمت لها القرابين حبًّا وغلوًا في رجال صالحين وفي أقوام الله أعلم بأحوالهم وبمآلهم.

وعلى كلّ حال فلما كان النوعان من باب واحد لم يدّخر رسول الله ﷺ وسعًا في الأمر بهدم القبور، والنهي أن يبنى عليها أو يزاد عليها، ونهى عن تجصيصها ونهى عن الصلاة عليها وإليها، وحذّر التحذير الشديد من شرّها ولعن من يتخذون المساجد عليها.

عن أبي الهيّاج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب: «ألا أبعثك على ما

(١) أخرجه ابن ماجه (٤) كتاب المساجد، حديث (٧٤٣)، وأبو داود (٢) الصلاة، حديث (٤٥٠)، ورجاله ثقات إلا محمد بن عبد الله بن عياض مقبول.

(٢) في التفسير (٢٧/٥٨-٥٩)، والسيرة لابن هشام (ص ٧٨-٨٩)، وقد أطال النفس في الحديث عن أصنام العرب ومعبوداتها وبيان عبادتها.

(٣) في الصحيح، (٦٥) كتاب التفسير، تفسير سورة النجم، (٢) باب ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾

بعثني عليه رسول الله ﷺ ألَّا تدع تمثالًا إلَّا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلَّا سويته»[١].

ألا ترى أنَّ رسول الله ﷺ كان يبعث عليًا لتسوية القبور كما يبعثه لطمس التماثيل ولا تستبعد أن رسول الله ﷺ كان يجنّد رجالًا هنا وهناك للقيام بهدم الأصنام والقبور كما مرّ بنا سابقًا.

وعن ثمامة بن شفي قال: «كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره، فسوي ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ، يأمر بتسويتها»[٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه»[٣].

وعن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٥]

---

(١) أخرجه مسلم (١١) كتاب الجنائز، (٣١) باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٣)، وأبو داود (١٥) كتاب الجنائز، (٧٢) باب في تسوية القبر، حديث (٣٢١٨)، والترمذي (٨) كتاب الجنائز، (٥٦) باب ما جاء في تسوية القبور، حديث (١٠٤٩)، والنسائي (٤/ ٧٣)، وأحمد في المسند (١/ ٩٦، ١٢٩)

(٢) أخرجه مسلم (١١) كتاب الجنائز، (٣١) باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٢)، وأبو داود (١٥) كتاب الجنائز، (٧٢) باب في تسوية القبور، حديث (٣٢١٩)، والنسائي (٤/ ٧٢-٧٣)

(٣) أخرجه مسلم (١١) كتاب الجنائز، (٣٢) باب النهي عن تجصيص القبور والبناء عليها، حديث (٩٤)، وأبو داود (١٥) كتاب الجنائز، (٧٦) باب في البناء على القبر، حديث (٣٢٢٥)، والنسائي (٤/ ٧٢)

(٤) أخرجه مسلم (١١) كتاب الجنائز، (٣٣) باب النهي عن الجلوس على القبر، حديث (٩٧، ٩٨)، وأبو داود (١٥) كتاب الجنائز، (٧٧) باب كراهية القعود على القبر، حديث (٣٢٢٩)

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (٩) كتاب قصر الصلاة في السفر، (٢٤) باب جامع الصلاة، حديث (٨٥) مرسلًا، وأحمد (٢/ ٢٤٦)، ثنا سفيان عن حمزة بن المغيرة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٤٠-٢٤١)، من طريق مالك به، و(٢/ ٢٤١-٢٤٢)، من طريق سفيان عن حمزة به

وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٧) من طريق سفيان عن حمزة به.

وتستمر هذه العناية النبوية الواعية، لأخطار الأوثان والقبور إلى آخر لحظة من لحظات حياة الرسول الناصح الأمين -صلوات الله وسلامه عليه- فعن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: **«إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»**[1].

وعند احتضاره وبعد اختياره للرفيق الأعلى كان شعوره الشاعر بخطر فتنة القبور على هذه الأمة التي جهل أكثرها، قدر هذه الاهتمامات النبوية وجهلت خطر هذه الفتنة الماحقة.

فعن عائشة أم المؤمنين وابن عباس رضي الله عنهم قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال: **«وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر مثل ما صنعوا**[2].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه **«أدخلوا علي أصحابي»**.

فدخلوا عليه وهو متقنع ببردة معافري[3] فكشف القناع، فقال: «لعن الله

---

(١) أخرجه مسلم (٥) كتاب المساجد، ٣- باب النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث (٢٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢٨) كما في تحفة الأشراف (٢/ ٤٤٣)، وأبو عوانة (١/ ٤٠١)، والطبراني (٢/ ١٠٨)، حديث (١٦٨٦)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٤٠) مختصرًا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣) كتاب الجنائز ٦١- باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، حديث (١٣٣٠) وباب (٩٦) حديث (١٣٨٩) ومسلم، (٥) كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور حديث (١٩) عن عائشة، وحديث (٢٢) عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم والنسائي (٢/ ٣٣)، والإمام أحمد المسند (١/ ٢١٨)، (٦/ ٣٤)، والدارمي (١/ ٢٦٧).

(٣) برود باليمن منسوبة إلى معافر وهي قبيلة باليمن، النهاية لابن الأثير.

اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١]

وعن أبي عبيدة رضي الله عنه قال: كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: **«أخرجوا يهود الحجاز من جزيرة العرب، واعلموا أنَّ شرار النَّاس الذين يتخذون القبور مساجد»**[٢].

سرِّح طرفك في مشارق بلاد المسلمين ومغاربها ترى العجب العجاب، ترى واقعًا يتحدى هذه النصوص النبويَّة.

وإذا قرأت عليهم هذه النصوص وبينت لهم مصادرها وتمسّك الصحابة وأعيان الأئمَّة بها واجهوك بتأويلات أسخف من تأويل من قالوا ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، واتهموك بعداء الأولياء.

والآن نتساءل إذا كانت دعوات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تحمل في طياتها كل خير، وتحذر من كل شرّ، فما بالنا نرى فيما قص الله علينا في كتابه وفي دراستنا لسنَّة وسيرة نبينا محمد ﷺ؛ أن دعواتهم إلى التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره وأسبابه ووسائله قد أخذت مساحة كبيرة جدًا من دعواتهم واستغرقت زمنًا طويلًا من حياتهم حتى لكأنما كان هذا الجانب هو شغلهم الشاغل

فأين موقفهم من الحكام الظلمة المستبدين؟

والجواب: أن ما انتحاه الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- هو عين الحكمة والصواب، ومقتضى العقل السليم.

فليس في مشاكل البشر سياسيها واقتصاديها واجتماعيها من الخطر ما يساوي

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢١٤)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٧)، حديث (٣٩٣)، والطيالسي في مسنده (ص ٨٨)، حديث (٦٣٤)، وفي إسناده قيس بن الربيع الأسدي، قال الحافظ: صدوق تغير لما كبر، وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه، وفيه كلثوم البحراني قال فيه الحافظ: مقبول، لكنه مع ذلك يصلح في الشواهد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٩٥) قال: ثنا أبو أحمد الزبيري، ثنا إبراهيم بن ميمون عن سعد بن سمرة عن سمرة بن جندب عن أبي عبيدة بن الجراح، أبو أحمد الزبيري ثقة ثبت ع، وإبراهيم بن ميمون مولى آل سمرة وثقه ابن معين وقال أبو حاتم: محله الصدق، تعجيل المنفعة (ص٢٠)، وسعد بن سمرة وثقه النسائي وابن حبان، تعجيل (ص١٠١)، فهذا إسناده صحيح إن شاء الله.

مشكلة الشرك ومضاره ولا يقاربها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

فالعقل والحكمة والفطرة تقتضي إذن أن يبدأ بمحاربة خطر الشرك، وأن تستمر دعوات الأنبياء وأتباعهم على محاربته ما بقيت له بقية أو بقي له شكل أو مظهر.

فإذا أحاطت بأمة مشاكل عقائدية شرك يدمر عقيدتها ومشاكل اقتصادية ومشاكل سياسية، فبأيها تبدأ المعالجة الحكيمة؟

أما الأنبياء فلم يبدأوا إلا بمعالجة مشكلة العقيدة بكل قوة، والبدء بمعالجة الأمر الأخطر أمر يتفق عليه كل عقلاء البشر، فمثلاً لو رأى عاقل ثعباناً ونملة يدبان على إنسان، لأملى عليه عقله أن يبادر إلى دفع الثعبان أو قتله لشدة خطره على هذا الإنسان، ولا يمكن أن يبقي بالاً للنملة ولا لألف نملة.

ولو رأى عقلاء أسداً هصوراً وجماعة من الفئران تهجم عليهم لحملوا حملة واحدة لصد هجوم الأسد وتناسوا الفئران ولو كان معها جماعة أخرى من الضفادع.

ولو أن مسافرين انتهى بهم السير إلى طريقين لا خيار لهم من سلوك أحدهما:

الأول: فيه براكين تقذف بحممها ونيرانها تلتهم أشجارها وأحجارها.

والثاني: فيه الأشواك والرمضاء وأشعة الشمس اللافحة لما اختار عقلاؤهم إلا سلوك الطريق الثاني.

لنأخذ الآن أشد المفاسد -أعني المفاسد السياسية والاجتماعية والاقتصادية- وأشدها فساد الحكم ونوازنها بفساد العقيدة، فهل هما في ميزان الله وميزان الأنبياء سواء، أو أن أحدهما أشد خطراً وأدهى وأمرّ عاقبة؟!!

ففي ميزان الله وميزان أنبيائه أن أشدها خطراً وأجدر بالتركيز عليه على مرّ

الدهور والعصور وفي كل الرسالات إنما هو الشرك ومظاهره الذي لا يضاهيه فساد مهما عظم شأن هذا الفساد.

وبناء على هذا نعود فنقول: إن بدء جميع الأنبياء بإصلاح الجانب العقدي ومحاربة الشرك ومظاهره هو مقتضى الحكمة والعقل وذلك للأمور الآتية:

أولًا: أن المفاسد المتعلقة بعقائد الناس من الشرك والخرافات وأنواع الضلال أخطر آلاف المرات من المفاسد المترتبة على فساد الحكم وغيره، فإن لم نقل هذا ونعتقده سفهنا من حيث لا نشعر جميع الأنبياء، ونعوذ بالله من الضلال.

إن هذه المفاسد تشمل الحاكم والمحكوم، فالحكام أنفسهم في كل زمان ومكان -إلا المؤمنين منهم- يخضعون للأصنام والأوثان والقبور ويقومون بتشييدها وحمايتها وعبادتها وتقديم القرابين لها، ويعتقدون أن لها سلطة غيبية قاهرة فوق سلطانهم المادي، فهي تنصرهم وتنفعهم بذلك السلطان الغيبي في زعمهم وبتلك القوة القاهرة الخفية أو على الأقل تشفع لهم عند الله في تحقيق مآربهم.

وأوضح مثال لخضوع الحكام للأوثان ذلك الطاغية المتأله فرعون؛ الذي قال متبجحًا: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، فقد حكى الله مقالة قومه له وهم يستثيرون فيه الحميَّة والغيرة لآلهته ومعبوداته فقال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ألا ترى أكبر طاغية عرفته الأرض مع دعواه الربوبيَّة يخضع للأوثان ويتخذها آلهة.

وهذا النمرود ملك الكلدانيين الذي ادَّعى الربوبيَّة يأمر بإحراق إبراهيم ﷺ عندما حطم الأصنام أخذًا بثأر هذه الأصنام؛ لأنها آلهته وهؤلاء ملوك الهند والفرس يعبدون الأوثان والنيران، وملوك الرومان في الماضي وحكام أوربا وأمريكا في الحاضر يعبدون الصور والصلبان، وكم من حكام المسلمين في الماضي والحاضر مَن فتن بالأموات وشاد عليهم القبور وتعلق بها قلبه حبًّا ورجاءً وخوفًا، وارتكبوا ما خشيه رسول الله على هذه الأمة وحذر منه.

ومن هنا يتضح لك جدية منهج الأنبياء وأحقيته، ويتضح لك أهمية مواقف

الرسول الحاسمة من الأوثان والقبور كما يتضح لك حكمة إبراهيم وعمق فكره وبعد نظره حينما أطلقها صيحة مدوية تجلجل في الآفاق والأجيال. ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦].

فترى إبراهيم -وهو على قمة من الحق والصواب- يجأر إلى الله من مخاطر الأصنام ولا يجأر إليه من مخاطر الحكام على جسامة فسادهم وخطرهم.

وبعد هذا العرض الواضح لدعوات الأنبياء خصوصًا من نصّ عليهم في هذا العرض وبالأخص إبراهيم ومحمد -عليهم الصلاة والسلام-

فلنا أن نتساءل لماذا نرى دعوات الأنبياء تركّز على الأصنام ومن جرى مجراها، فيما نرى الدعوات الآن تركّز على الحكام وتتبنى قضايا الحكم عريّة عن قضايا العقيدة الجذريّة الأساسيّة.

فأيّ الفريقين أقوم منهجًا وأهدى سبيلًا؟

والجواب: إنّ هذا سؤال صعب جدًا نستغفر الله مما ألجأنا إليه هؤلاء الدعاة الذين نشأوا في هذه العصور المظلمة التي اشتدت فيها غربة الإسلام وتجارت فيها الأهواء بأصحابها كما يتجارى الكَلَب بصاحبه كما قال رسول الله ﷺ.

وإلّا ففي الحقيقة لا تجوز المقارنة بين الفريقين ولا بين المنهجين.

ألم تر أنّ السيف ينقص قدره ... إذا قيل إنّ السيف أمضى من العصا

بل الأمر فوق ذلك بمراحل.

ثانيًا: إن الله ما أرسل الرسل إلا ليعلّموا الناس الخير وينذروهم بطش الله والشر.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال رسول الله ﷺ: «ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين»[1].

وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

وهذه مهمة الإنذار والتبشير والإبلاغ مهمة جليلة عظيمة نبيلة، يكفيها عظمة ونبلًا أنها مهمة الأنبياء وتتناسب مع مكانتهم الرفيعة فإنها أشق وأعظم ما يتحمله البشر وورثتهم من الدعاة الصادقين المخلصين السائرين في مناهجهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»[2].

وقد ذكرنا سلفًا مدى ما يواجه الداعية إلى التوحيد من المشقة، وكيف لا يستطيع غيرهم أن يجول في هذا الميدان.

ثالثًا: أن الله ﷻ لم يكلفهم ابتداء -كما في سيرهم وقصصهم- بإقامة دول وإسقاط أخرى وذلك في غاية الحكمة، لأن الدعوة إلى إقامة دولة تلوح فيها المطامع لطلاب الدنيا وطلاب الجاه والمناصب وأصحاب الأغراض والأحقاد وأصحاب التطلعات والطموحات[3] فما أسرع ما تستجيب هذه الأصناف للدعوة إلى قيام دولة يرون فيها تحقيق مآربهم وشهواتهم ومطامعهم

(١) أخرجه البخاري (٩٧) كتاب التوحيد، (٢٠) باب قول النبي ﷺ: «لا شخص أغير من الله»، حديث (٧٤١٦)، ومسلم (٢/ ١١٣٦)، (١٩) كتاب اللعان، حديث (١٧)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٤٨)، والدارمي (٢/ ٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢/ ٦٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤) حديث (٤٠٢٣).

(٣) كما حصل لكثير من الدعوات السياسية ومن آخرها دعوة الإخوان المسلمين حيث دخل فيها ما يسمى بالضباط الأحرار، وكثير من الطامعين.

لمثل هذه الاعتبارات - والله أعلم - وغيرها مما يعلمه الله الخلاق العليم الحكيم ابتعدت دعوات الأنبياء ومناهجهم عن استخدام هذا الشعار البراق الملوح أو المصرح بالأطماع والشهوات العاجلة وسلكت منهجًا حكيمًا نزيهًا شريفًا ينطوي على الابتلاء والامتحان، يتبعهم ويؤمن بهم كل صادق مخلص متجرد من كل المطامع والأغراض الشخصية، لا يريد بإيمانه وتوحيده وطاعة رسل الله -عليهم الصلاة والسلام- إلا محبته ومرضاة ربه، ولا يخاف إلا من غضبه وأليم عقابه، ولهذا لا يتبعهم في الغالب إلا الفقراء والمساكين والضعفاء.

قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وقال عن قوم صالح: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥- ٧٦].

وجاء في أسئلة هرقل لأبي سفيان: «فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟».

قال أبو سفيان: فقلت: بل ضعفاؤهم. ثم قال هرقل: «وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل».

فالدعوة إلى إقامة دولة أسهل بكثير وكثير، والاستجابة لها أسرع، لأن أكثر الناس طلاب دنيا وأصحاب شهوات.

ولما ذكرنا من الأسباب والعقبات والصعاب في طريق دعوات الرسل نجد أنه لا يتبعهم إلا القليل، فنوح لبث ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعو إلى الله ومع ذلك ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب

ولا عذاب»[١].

وهذا إبراهيم الخليل قامع المشركين بالحجج الدامغة والبراهين، قال الله في شأنه وشأن من آمن له: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وهذا لوط يقول الله في نجاة من معه من العذاب ولعلهن بناته فقط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

ولا يغض ذلك من منازل الأنبياء مثقال ذرة بل هم في أعلى المنازل وهم أنبل الناس وأجل الناس وأكرمهم وفوقهم في كل شأن في الرجولة والشجاعة والفصاحة والبلاغة والبيان والنصح والتضحية.

وقد قاموا بواجبهم على أكمل الوجوه من الدعوة إلى التوحيد والتبليغ والتبشير والإنذار، فإن قل أتباعهم أو لم يتبع بعضهم أحد، فالعيب كل العيب على الأمم التي رفضت الاستجابة لدعوتهم لأنها في نظرهم لا تحقق لهم أغراضهم الدنيئة.

وقد يهدي الله قوم نبي من الأنبياء فيستجيبون له أو كثير منهم فتكون لهم دولة، ثمرة طيبة لإيمانهم وتصديقهم وأعمالهم الصالحة، فيقومون بواجبهم من الجهاد لإعلاء كلمة الله وتطبيق التشريعات والحدود وغيرها من الأمور التي شرعها الله لهم، كما حصل لنبينا محمد ﷺ وأصحابه الكرام توج الله إيمانهم وعملهم الصالح ونصرهم [illegible] على بغي المشركين وتطاولهم بأن نصرهم، وأظهر دينهم، ومكن لهم في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

ومع ذلك فما كانوا طلاب ملك بل كانوا دعاة هداية وتوحيد ولا كانوا يُعدّون أتباعهم للثورات والانقلابات السياسيّة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦) كتاب الطب، (١٧) باب من اكتوى أو كوى غيره، حديث (٥٧٠٥)، ومسلم (١) كتاب الإيمان، (٩٤) باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٧٤)، وأحمد في المسند (١/ ٢٧١).

ولقد عُرض على رسول الله ﷺ الملك بمكة فرفض إلا المضي في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك والأوثان، أرسلت قريش لما أقلقها أمر رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة فأتى رسول الله ﷺ فقال: «يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها»

فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع»

قال: يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم

قال: «فاستمع مني». قال: أفعل.

قال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾»

ثم مضى فيها رسول الله ﷺ يقرؤها عليه

فلما سمع منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليها يسمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك...».

فذهب عتبة إلى قريش فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب

فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم»[(١)].

وروى ابن إسحاق بإسناده إلى ابن عباس أنه اجتمع نفر من قريش وعرضوا على رسول الله ﷺ عرضًا قريبًا من عرض عتبة ومقالته لرسول الله ﷺ فأجابهم ﷺ بقوله: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا وأنزل عليّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم؛ فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم...»[(٢)].

ومن هنا رفض رسول الله ﷺ طلب بعض القبائل أن يكون الأمر لهم بعد موته، إن صحّ هذا الخبر.

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري أنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم -يقال له: بيحرة بن فراس-: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟

قال: «الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء».

فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله، كان الأمر لغيرنا،

---

(١) أورده ابن إسحاق في السيرة قال: حدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة...، وساق القصة، السيرة لابن هشام (١/ ٢٩٣- ٢٩٤).
وله شاهد من حديث جابر، أخرجه عبد بن حميد وأبو يعلى تقدم تخريجه (ص ٦٦)، وبه تتقوى القصة وتتعضد.

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٩٥- ٢٩٦)، قال ابن إسحاق: حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعن عكرمة مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع نفر من قريش عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان...
وهذا يقوي ما قبله ويشد كل منهما الآخر.

لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه[1].

وخلاصة هذا: أنَّ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ما جاءوا لإسقاط دول وإقامة أخرى، ولا يطلبون ملكًا ولا يطمحون لذلك أصلًا، وإنّما جاءوا لهداية النّاس وإنقاذهم من الضلال والشرك وإخراجهم من الظلمات إلى النور وتذكيرهم بأيّام الله.

ولو عرض عليهم الملك لرفضوه، ومضوا في سبيل دعوتهم.

وعرضت قريشٌ الملك على رسول الله ﷺ فرفضه.

وقد عرض عليه أن يكون ملكًا نبيًّا أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل فقال جبريل: إنَّ هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة، فلما نزل، قال: يا محمد! أرسلني إليك ربّك قال: أملكًا نبيًّا يجعلك أو عبدًا رسولًا؟! قال جبريل: تواضع لربّك يا محمد، قال: «بل عبدًا رسولًا»[2].

ومن هنا ما كان يبايع الأنصار وغيرهم إلّا على الجنّة، وكانت بيعة الأنصار في أحلك الظروف وأشدها فما كان فيها وعد بالمناصب لا الملك ولا الإمارات ولا بالمال ولا بغير ذلك من حظوظ العاجلة.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إنّي من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ وقال: بايعنا على ألّا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق ولا ننتهب ولا نعصي، بالجنّة.

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ ومعه العباس عمّه

---

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٤٢٤ - ٤٢٥)، والسيرة النبوية للذهبي (ص ١٨٩ - ١٩٠).

(٢) مسند أحمد (٢/ ٢٣١) وابن حبان كما في الموارد (ص ٥٢٥) رقم (٢١٣٧)، كلاهما من طريق محمد ابن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الألباني في الصحيحة (٣/ ٤): وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه البغوي في شرح السنّة (١٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩)، وسنده ضعيف.

إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة، فقال: «ليتكلّم متكلّمكم ولا يطيل الخطبة؛ فإنّ عليكم من المشركين عينًا، وإن يعلموا بكم يفضحوكم».

فقال قائلهم - وهو أبو أمامة -: سل يا محمد لربّك ما شئت، ثمّ سل لنفسك ولأصحابك ما شئت، ثمّ أخبرنا ما لنا من الثواب على الله ﷻ وعليكم إذا فعلنا ذلك.

فقال: «أسألكم لربّي ﷻ أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأسألكم لي ولأصحابي أن تؤونا وتنصرونا، وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال: «لكم الجنّة».

قالوا: فلك ذلك[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكّة عشر سنين يتتبع النّاس في منازلهم بعكاظ ومجنّة، وفي المواسم في منى يقول: «من يؤويني، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنّة».

حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر (كذا) فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه، وصدّقناه فيخرج الرجل منّا، فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلّا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثمّ ائتمروا جميعًا، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة، ويخاف؟!! فرحل إليه منّا سبعون رجلًا، حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله! نبايعك؟

قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ١١٩ - ١٢٠)، قال: ثنا يحيى بن أبي زكريا بن أبي زائدة حدثني أبي عن عامر يعني الشعبي. ثم رواه بهذا الإسناد عن مجالد عن عامر الشعبي عن أبي مسعود الأنصاري، ثم رواه بهذا الإسناد عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي يقول: ما سمع الشيب ولا الشبان خطبة مثلها

في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنَّة».

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغرهم، فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنَّا لم نضرب أكباد الإبل إلَّا ونحن نعلم أنَّه رسول الله ﷺ وأنَّ إخراجه اليوم مفارقة العرب كافَّة، وقتل خياركم، وأنْ تعضكم السيوف، فإمَّا أنتم قوم تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإمَّا أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة، فبيِّنوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنَّا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نُسْلَبُها أبدًا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنَّة»(1).

ومن هنا- أيضًا- كان يربي أصحابه على القرآن والسنَّة وعلى الإيمان والصدق والإخلاص لله في كلِّ عمل بعيدًا عن الأسباب السياسيَّة والإغراء بالمناصب العالية.

فما كان يمنِّي أحدًا منهم قبل دخوله في الإسلام أو بعده بمنصب في الدولة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد عظماء الصحابة وأقواهم شخصيَّة ما كان يعده رسول الله ﷺ بالمناصب ولا تتطلع نفسه إليها حتى جاء يوم خيبر أي بعد عشرين سنة من البعثة فاجأهم رسول الله ﷺ بقوله: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحبّ الله ورسوله يفتح الله على يديه»

---

(1) أخرجه الإمام أحمد (3/ 322) ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن ابن خثيم عن أبي الزبير عن جابر، (3/ 339) ثنا إسحاق بن عيسى ثنا يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير أنه حدثه عن جابر أن رسول الله ﷺ ....، وذكر الحديث.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن (ص 408)، والحاكم (2/ 624) وصححه ووافقه الذهبي وقد تابع أبا الزبير الإمام الشعبي رحمه الله قال البزار رحمه الله: حدثنا محمد بن معمر ثنا قبيصة ثنا سفيان عن جابر وداود هو ابن أبي هند عن الشعبي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ للنقباء من الأنصار: تؤوني وتمنعوني؟ قالوا: نعم، فما لنا؟ قال: الجنة.

قال البزار: لا نعلمه يروى عن الشعبي إلا بهذا الإسناد. انظر كشف الأستار (2/ 307)

وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه الأحاديث وحكى تصحيح بعضها وحسن بعضها وقوى بعضها. انظر فتح الباري (7/ 222- 223).

فبات هو والصحابة يدوكون ليلتهم أيُّهم يعطاها، وقال عمر ﷺ: ما أحببت الإمارة إلّا يومئذ[1].

لأيِّ شيء تطلع هؤلاء الصحابة الكرام؟! ألِلإمارة نفسها أم لنيل هذه المنزلة العظيمة حب الله ورسوله؟ ولماذا كان عمر بن الخطاب لا يحب الإمارة لو كان رسول الله يحببها إليهم ويربيهم عليها ويمنيهم بها

بل كان ينفرهم منها ويحذرهم من الحرص عليها.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال: رسول الله ﷺ: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»[2]

وينهى عن طلبها والحرص عليها.

عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن! لا تسأل الإمارة، فإنَّك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»[3].

---

(١) أخرجه مسلم، (٤٤) كتاب الفضائل، (٤) باب فضائل علي ﷺ، حديث (٣٣)، عن أبي هريرة وحديث (٣٤)، عن سهل بن سعد وفيه «فباتوا يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها» وفيه «رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله».
وحديث (٣٢) عن سعد بن أبي وقاص وفيه «لأعطين الراية رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» قال: فتطاولنا لها.
والسبب هو ما ذكرناه حرصهم على هذه المنزلة الرفيعة عند الله لا على الإمارة نفسها
وأخرجه البخاري، (٥٦) كتاب الجهاد، (١٤٣) باب فضل من أسلم على يديه رجل، حديث (٣٠٠٩)، و(٦٢) كتاب فضائل الصحابة، (٩) باب مناقب علي ﷺ، حديث (٣٧٠١)
والترمذي، (٥٠) كتاب المناقب، باب (٢١)، حديث (٣٧٣٤) و(٥/ ٦٣٨)، وابن ماجه في المقدمة (١١)، حديث (١١٧)، إسناده ضعيف فيه محمد بن أبي ليلى وهو ضعيف

(٢) أخرجه البخاري، (٩٣) كتاب الأحكام، (٧) باب: ما يكره من الحرص على الإمارة، حديث (٧١٤٨)، والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٨)، والنسائي في كتاب آداب القاضي (٨/ ١٩٩).
قال ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ١٢٦): نعم المرضعة لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة، وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها، وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة.

(٣) أخرجه البخاري (٩٣) كتاب الأحكام، (٧) باب: من سأل الإمارة وكل إليها، حديث (٧١٤٧)، ومسلم (٣٣) كتاب الإمارة، (٣) باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، حديث (١٣)، والنسائي (٨/ ١٩٨)

بل فوق كل هذه الأساليب يُرسي قاعدة إسلامية تحرم المناصب على من يتعشقها ويحرص عليها، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمّي فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أمّرنا على بعض ما ولّاك الله عز وجل وقال الآخر مثل ذلك.

فقال: «إنّا لا نولي على هذا العمل أحدًا سأله ولا أحدًا حرص عليه».

وفي لفظ عند مسلم: «ما تقول يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس؟»

قال: فقلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت

فقال: «لن - أو لا - نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى». فبعثه إلى اليمن ثم أتبعه معاذ.

وفي النسائي: «إنّا لا نستعين في عملنا بمن سألنا»[1].

قال الحافظ: قال المهلب: «الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال النّاس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد في الأرض بذلك، ووجه الندم أنّه قد يقتل أو يعزل أو يموت فيندم على الدخول فيها لأنّه يطالب بالتبعات التي ارتكبها، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته.

قال: ويستثنى من ذلك مَن تعيَّن عليه كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره، وإذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع الأحوال»[2].

وعلى كلّ حال فالإمارة والقضاء من الأمور التي لا بدّ منها ولا تقوم حياة المسلمين إلّا بها، وبها تعصم الدماء والأموال والأعراض.

ولكن يجب أن نسلك في اختيار الأمراء والقضاة منهج رسول الله ﷺ فلا تعطى هذه المناصب لمن يسألها أو يحرص عليها أو يرشح نفسه لها عن طريق

---

(1) أخرجه البخاري (93) كتاب الأحكام، (6) باب ما يكره من الحرص على الإمارة، حديث (7149)، ومسلم (33) كتاب الإمارة، (3) باب النهي عن طلب الإمارة، حديث (14، 15) (3/1456)، والنسائي (8/198).

(2) فتح الباري (13/126).

الانتخابات مثلًا فإنَّ هذا من الحرص عليها.

وإنَّما يُختار لها الأكفاء علمًا وزهدًا فيها وتقوى.

ثمَّ ينبغي أن نستفيد من هذا المنهج النبوي في التربية، فلا ينبغي أن تنشئ الشباب على حب القيادة والرئاسة والسيادة والإمارة، فلو نشأناهم على حب هذه الأشياء خالفنا هدي رسول الله ﷺ وأوقعنا الشباب في المهالك وأي فلاح ننتظره في الدنيا والآخرة إن خالفنا منهج رسول الله ﷺ؟

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٧-٤٨].

عرفنا فيما مضى من منهج الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره وأسبابه، وأنَّه منهج قائم على العقل والحكمة والفطرة، وعرفنا أدلَّة ذلك جملة وتفصيلًا من نصوص الكتاب والسنَّة ومن الناحية العقليَّة.

والآن نسأل: هل يجوز للدعاة إلى الله في أيِّ عصرٍ من العصور العدول عن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله؟

الجواب: في ضوء ما سبق وما سيأتي، **لا يجوز شرعًا ولا عقلًا العدول عن هذا المنهج واختيار سواه.**

أولًا: أنَّ هذا هو الطريق الأقوم الذي رسمه الله لجميع الأنبياء من أوَّلهم إلى آخرهم.

والله واضع هذا المنهج هو خالق الإنسان، والعالم بطبائع البشر وما يصلح أرواحهم وقلوبهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وهو الحكيم العليم في خلقه وشرعه وقد شرع لأفضل خلقه هذا المنهج.

ثانيًا: أنَّ الأنبياء قد التزموه وطبقوه، مما يدل دلالة واضحة أنَّه ليس من ميادين الاجتهاد، فلم نجد:

١- نبيًّا افتتح دعوته بالتصوُّف.

٢- وآخر بالفلسفة والكلام.

٣- وآخرين بالسياسة.

بل وجدناهم يسلكون منهجًا واحدًا واهتمامهم وحد بتوحيد الله أولًا في الدرجة الأولى.

ثالثًا: أنَّ الله قد أوجب على رسولنا الكريم -الذي فرض الله علينا اتباعه- أن يقتدي بهم، ويسلك منهجهم، فقال- بعد أن ذكر ثمانية عشر منهم-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد اقتدى بهداهم في البدء بالتوحيد، والاهتمام الشديد به.

رابعًا: ولما كانت دعوتهم في أكمل صورها تتمثل في دعوة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، زاد الله الأمر تأكيدًا، فأمر نبيّنا محمدًا ﷺ باتباع منهجه، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

والأمر باتباعه يشمل الأخذ بملّته التي هي التوحيد، ومحاربة الشرك، ويشمل سلوك منهجه في البدء بالدعوة إلى التوحيد، وزاد الله تعالى الأمر تأكيدًا أيضًا فأمر أمّة محمد ﷺ باتباع ملة هذا النبي الحنيف، فقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

إذن: فالأمّة الإسلاميّة مأمورة باتباع ملّته، فكما لا يجوز مخالفة ملّته، لا يجوز العدول عن منهجه في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره ووسائله.

خامسًا: قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فإذا رجعنا إلى القرآن أخبرنا أنَّ كل الرسل كانت عقيدتهم عقيدة التوحيد، وأنَّ دعوتهم كانت تبدأ بالتوحيد، وأنَّ التوحيد أهم وأعظم ما جاءوا به.

ووجدنا أنَّ الله قد أمر نبينا باتباعهم وسلوك مناهجهم، وإذا رجعنا إلى الرسول نجد أنَّ دعوته من بدايتها إلى نهايتها كانت اهتمامًا بالتوحيد ومحاربة للشرك ومظاهره وأسبابه وقد مرَّ بنا عرض شيء من هذا.

سادسًا: أنَّ الله قد خلق الكون ونظَّمه تنظيمًا كونيًّا وشرعيًّا، فجعل للكون

سننًا يسير في نطاقها لو اختلت هذه السنن الكونيّة لفسد هذا الكون، فوضع للسموات والأرض والأفلاك والكواكب والشمس والقمر سننًا لو اختلت هذه السنن لانتهى وجود هذا الكون.

ومن سنن الله الكونيّة أنّ الحيوان من إنسان وغيره لا يعيش إلّا بروح وجسد، فلو فارقت الروح الجسد مات الجسد وفسد وأنتن ووجب أن يُوارى هذا الجسد حتى لا يؤذي الحيوانات بريحه ونتنه.

ومن سنن الله في عالم النبات أنّ الشجرة لا تقوم وتحيا إلّا على ساق فإذا استؤصل ساقها ماتت الفروع.

وفي عالم الشرائع لا تقوم الشريعة إلا على عقيدة، فلو خلت تلك الشريعة من العقيدة، فسدت وما بقيت شريعة صحيحة.

فمثلًا شريعة إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- بقيت في الأمّة العربيّة دهورًا فلما أدخل عمرو بن لحي الخزاعي فيها الشرك أصبحت شريعة وثنيّة، فسدت وتغيرت حقيقتها؛ لأنّها فقدت عقيدة التوحيد التي قامت عليها والتي كانت أصلها الأصيل.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرّ قُصبهُ[1] في النار، كان أوّل من سيب السوائب»[2].

وعنه ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجرّ قُصبه في النّار، فما رأيت رجلًا أشبه برجل منك به، ولا بك منه».

فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟

قال: «لا؛ إنّك مؤمن وهو كافر، إنّه أوّل من غير دين إسماعيل؛ فنصب

---

(١) قُصبه: أمعاءه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥) كتاب التفسير، باب: ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، حديث (٤٦٢٣)، ومسلم، (١٠) كتاب الكسوف، حديث (٩)، و(٥١) كتاب الجنة، باب (١٣) حديث (٥٠، ٥١)، وأحمد (٢/ ٢٥٧).

الأوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي»[1].

فبعد إفساد عمرو بن لحي لعقيدة الشريعة التي جاء بها إبراهيم وتبعه إسماعيل صارت ديانة وثنيَّة والعرب عباد أوثان ولو بقوا مصرِّين على الانتماء إلى إبراهيم ودينه وشريعته ولو بقوا يتمسكون ببقايا مما جاء به كتعظيم البيت والطواف به والقيام بالحج والعمرة والوقوف بعرفة والمزدلفة وهدي البدن وغيرها من أنواع التقرب إلى الله تعالى.

وكذلك كانت رسالة موسى وعيسى رسالة توحيد وشريعة سماويَّة، فلما فقدتا عقيدة التوحيد بقول اليهود «عزير ابن الله» وبقول النصارى «المسيح ابن الله» صارتا ديانتين كافرتين، لا يجوز نسبتهما إلى الله ولا إلى هذين النبيين الكريمين.

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٢٩ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٢٩- ٣٠].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، أذَّن مؤذن: تتبع كلّ أمَّة ما كانت تعبد[2]، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب

---

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٧٦) قال: قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن إبراهيم التيمي أنَّ أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ وذكر الحديث، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث وبقية الإسناد ثقات فهو إسناد حسن على أقل تقدير.

(٢) هذا هو الشرك الذي قال الله فيه ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا مصير أهله يوم القيامة من الوثنيين وأهل الكتاب «تتبع كل أمة ما كانت تعبد... إلخ»، وفيه ردٌّ على المهونين من هذا الشرك العظيم مع جهلهم بالتوحيد، حيث يقولون فيه الشرك البدائي والشرك الساذج تهوينًا لشأنه ولشأن دعوة الأنبياء وورثتهم، ويصفون صراعهم السياسي مع الحكام ومن يتبعه من عادات وتقاليد، بأنه الشرك الحضاري تضخيمًا له ولدعوتهم، يوهمون الناس أنهم يواجهون مشكلات أكبر من المشكلات التي واجهها الأنبياء وورثتهم من المصلحين الذين ساروا على نهجهم في محاربة الشرك الأكبر ومن يتبعه من الضلال، فلماذا لم يذكر رسول الله ﷺ مصير أهل الشرك الحضاري وأولئك ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، فهل الشرك الحضاري يحتاج إلى نبوة جديدة تنبؤنا عن مصير أهله وأولئهم من الموضات والتقاليد والعادات=

إلا يتساقطون في النَّار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد اللَّه من برّ وفاجر وغبرات[1] أهل الكتاب فيدعى اليهود، فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنَّا نعبد عزير ابن اللَّه، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ اللَّه من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ فيقولون عطشنا ربَّنا فاسقنا، فيشار: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النَّار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطون.

ثمَّ يدعى النصارى، فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟، قالوا: كنَّا نعبد المسيح ابن اللَّه، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ اللَّه من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فكذلك مثل الأول حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد اللَّه من برّ وفاجر أتاهم ربُّ العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيقال: ماذا تنتظرون؟

تتبع كل أمَّة ما كانت تعبد، قالوا: فارقنا النَّاس في الدنيا على أفقر ما كنَّا إليهم ولم نصاحبهم، ونحن ننتظر ربنا الذي نعبد، فيقول: أنا ربكم فيقولون: لا نشرك بربنا شيئًا مرتين»[2].

والشاهد من الآيتين والحديث: أنَّ اليهود والنصارى أفسدوا رسالتي موسى وعيسى رسالتي التوحيد والإيمان بعبادتهم لعزير وعيسى وقولهم فيهما ما قالوا، فصاروا بذلك مشركين كافرين وتحولت تلكم الرسالتان بتصرفهم الخبيث وتحريفهم الدنيء إلى ديانتين وثنيتين كافرتين، لا يجوز نسبتهما إلى اللَّه ولا إلى ذينك الرسولين الكريمين ولو بقي ما بقي من شرائع موسى وعيسى من دون تحريف.

= وأمثال ذلك، إنه لا نستهين بهذه الذنوب ولكنا نحارب الغلو الطاغي الذي دفع بكثير من الخوارج في السابق في نظرتهم إلى المعاصي.

(١) الغبرات: جمع غُبَّر. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٣٨).

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٤٩): غُبَّر أهل الكتاب، بضم الغين المعجمة وتشديد الموحدة وفي رواية مسلم: وغُبَّر أهل الكتاب، كلاهما جمع غابر والغبرات: جمع غُبَّر وغُبَّر جمع غابر ويجمع أيضًا على أغبار، وغبر الشيء بقيته.

(٢) أخرجه البخاري، (٦٥) كتاب التفسير، سورة النساء (٨) باب: إن الله لا يظلم مثقال ذرة، حديث (٤٥٨١)، ومسلم، (١) كتاب الإيمان، (٨١) باب: معرفة الرؤية، حديث (٣٠٢).

ولقد اتضح للقارئ أنَّ عقيدة التوحيد بالنسبة لجميع شرائع الأنبياء بما فيهم خاتم الأنبياء- عليه الصلاة والسلام- كالأساس للبناء؛ فلا قيام للبناء إلّا بالأساس، وكالأصل للشجرة فلا قيام ولا حياة للشجرة إلّا بأصلها، وكالروح للجسد، فلا قيام ولا حياة للجسد إلّا بالروح وبهذه المقاييس العقليَّة والشرعيَّة يجب أن يقيس العاقل الدعوات ليعرف منها ما هو على جادة الأنبياء وما هو بعيد عنها.

وأحب أن أزيد ثلاثة أمثلة نزداد بها فهمًا لسنن اللّٰه التشريعيَّة، وأن التنظيم والترتيب فيها أمر مقصود ويجب اتباعه ولا يجوز العدول عنه

الأوَّل: الصلاة: علَّمنا رسول اللّٰه ﷺ الصلاة تعليمًا عمليًّا، وقال «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1].

بدأ ﷺ بالقيام، ثمّ بالتكبير، ثمّ بالقراءة، ثمّ الركوع، ثمّ السجود، هذا نفعله في ركعة، ثم الثانية كذلك، ثم التشهد الأوّل، ثم التشهد الأخير، ثم السلام.

فلو قالت جماعة: الآن الأفضل في هذا العصر أو الواجب أن نبدأ بالسلام ونختم بالتكبير، أو نقدّم السجود على الركوع أو نجعل التشهد بدل الفاتحة، والفاتحة مكان التشهد، فلو تمّ لها هذا أو شيء منه فهل تكون هذه صلاة صحيحة وهل تكون إسلاميَّة؟!!

الثاني: الحج: حج رسول اللّٰه ﷺ وعلّم النَّاس مناسك الحج وقال «خذوا عنّي مناسككم».

وجعل الوقوف بعرفة في مكان وزمن معيّن هو اليوم التاسع، وجعل المبيت في مزدلفة في ليلة معيّنة، وجعل يوم النحر وأيام التشريق ولياليه في مكان وزمن معيّن، وجعل طواف الإفاضة في زمن معيّن، وجعل للسعي مكانًا معيّنًا بين الصفا

---

(١) أخرجه البخاري، (١٠) كتاب الأذان، (١٨) باب: الأذان للمسافر، حديث (٦٣١)، و(٧٨) كتاب الأدب، (٢٧) باب: رحمة الناس والبهائم، حديث (٦٠٠٨)، و(٩٥) كتاب أخبار الآحاد، (١) باب: ما جاء في إجازة خبر الواحد، حديث (٧٢٤٦)، ومسلم، (٥) كتاب المساجد، (٥٣) باب: من أحق بالإمامة، حديث (٢٩٢)، والنسائي (٢/٨)، والدارمي (١/٣٢٩)، حديث (١٢٥٦)، وأحمد (٣/٤٣٦)، كلهم من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

والمروة حدّد بدايته ونهايته.

فلو أنَّ جماعة أرادوا أن يغيّروا شيئًا من هذه المناسك عن زمانه أو مكانه، مثلًا قالوا: نريد أن يكون طواف الإفاضة في اليوم السابع وأن يكون بين الصفا والمروة، ونريد أن ننقل الوقوف بعرفة إلى اليوم الثامن، أو العاشر إلى مزدلفة أو منى ونريد النحر بعرفات، أو نريد أن نقدّم أو نؤخر في هذه المناسك حسب المصلحة وحسب ظروف الحجّاج، أيكون هذا حجًا إسلاميًّا أو يكون مسخًا وتشويهًا لهذا النسك؟!!

الثالث: وهو بيت القصيد: بدأ رسول الله ﷺ دعوته بالتوحيد وكذلك جميع الرسل وكان يوصي أمراءه ودعاته بالبدء بدعوة التوحيد، فمن ذلكم- من أمثلة كثيرة- قوله لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم»[1]

ألا تراها دعوة منظمة وتشريعًا منظمًا.

يبدأ بأصل الأصول ثمّ يتدرج من الأهم إلى المهم فلماذا لا نفهم هذا التنظيم الدقيق؟ ولماذا لا نلتزمه؟ ولماذا نفهم أنّه يجب علينا أن نلتزم سنّة الله التشريعية وتنظيمه الدقيق في العبادات وجزئياتها، ولا نفهم سنّة الله وتنظيمه وترتيبه الدقيق في ميدان الدعوة الذي تتابع فيه الأنبياء جميعًا على وتيرة واحدة.

ونستجيز مخالفة هذا المنهج العظيم الأصيل والعدول عنه؟!!

إنَّ هذا الأمر خطير، يجب أن يراجع فيه الدعاة عقولهم ويغيروا مواقفهم.

هل استفادة الأمّة الإسلاميّة- وخصوصًا دعاتها- من هذا المنهج العظيم منهج الأنبياء في الاهتمام بالتوحيد وجعله منطلقًا لدعواتهم؟!!

والجواب: أنَّ واقع الأمّة الإسلاميّة مؤلم ومرير، وإنّ امرأً لو مات كمدًا أو

---

(١) تقدم تخريجه

الأمة من هذا الواقع المؤلم المظلم لحق له ولها ذلك

كيف ذلك؟!!

إن كثيرًا من الأمة الإسلامية - بما فيها دعاتها ومفكروها - قد جهلوا هذا المنهج وبعضهم يتجاهله، وحالت الشياطين بينهم وبينه وحالتهم عنه، واتخذوا من المناهج المخالفة لمنهج الأنبياء ما أرداهم ودهاهم في دينهم ودنياهم، وصدق فيهم قول الرسول الصادق المصدوق ﷺ: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضبّ لسلكتموه».

قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»[1].

وقوله ﷺ: «افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى إلى اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»[2].

وفي لفظ: من هي يا رسول الله؟

---

(١) أخرجه البخاري، (٦٠) كتاب الأنبياء، (٥٠) باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث (٣٤٥٦)، (٩٦) كتاب الاعتصام، (١٤) باب: قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» حديث (٧٣٢٠)، ومسلم، (٤٧) كتاب العلم، (٣) باب: اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث (٦)، وأحمد في المسند (٣/ ٨٤، ٨٩، ٩٤)، من حديث أبي سعيد مرفوعًا.

وابن ماجه، (٣٦) كتاب الفتن، (١٧) باب: افتراق الأمم، حديث (٣٩٩٤)، وأحمد (٢/ ٣٢٧)، من حديث أبي هريرة.

قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

وأخرجه ابن أبي عاصم في السنّة (١/ ٣٦، ٣٧)، من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبي سعيد وصحح بعضها وحسن البعض الآخر.

(٢) أخرجه أبو داود، (٣٤) كتاب السنّة، حديث (٤٥٩٧)، وأخرجه أحمد (٤/ ١٠٢)، والدارمي (٢/ ١٨٥)، حديث (٢٥٢١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٨) من حديث معاوية ﷺ.

وأخرجه ابن ماجه، (٣٦) كتاب الفتن (١٧) باب: افتراق الأمم، حديث (٣٩٩٣) من حديث عوف بن مالك.

وأخرجه ابن أبي عاصم في السنّة (١/ ٣٢) وقال الألباني: إسناده جيد.

وأخرجه أبو داود (٣٤) كتاب السنّة: باب شرح السنّة، حديث (٤٥٩٦)، والترمذي (٤١) كتاب الإيمان، (١٨) باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث (٢٦٣٠)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، وابن ماجه، (١٧) باب افتراق الأمم، حديث (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة.

قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[1].

وأصبحوا غثاءً كغثاء السيل كما قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها».

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذٍ؟

قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن».

فقال قائل: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[2].

أجل، أصبحوا غثاءً كغثاء السيل وتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها وغزوهم في عقر دارهم، واستذلوهم، واستعبدوهم، وامتلكوا نواصيهم وأوطانهم واستنزفوا ثرواتهم، وأفسدوا أخلاقهم كل ذلك نتيجة لبعدهم عن منهج الله، منهج النبوة.

وفي غمرة هذا الواقع المؤلم، وبعد فوات الأوان، فتح كثير من الناس أعينهم واستيقظوا من نومهم، فأخذوا يصيحون في المسلمين عودوا إلى الله فهذه مسالك النّجاة.

وأخذوا يكتبون ويخطبون، ويوجهون النّاس ويخططون ويرسمون لهم طرق العزّة والكرامة والإنقاذ، وكلٌ قدّم جهده وما تراءى له أنّه الحق.

= وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٢) قال الألباني: وهو صحيح وله شواهد كثيرة بعضها في الصحيحين.

وأخرجه أحمد (٣/ ١٢٠، ١٤٥) من حديث أنس من طريقين.

وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٢) وقال الألباني: والحديث صحيح قطعًا لأنَّ له ست طرق وشواهد عن جمع من الصحابة.

(١) أخرجه الترمذي، (٤١) كتاب الإيمان، حديث (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه أبو داود، (٣١) كتاب الملاحم، (٥) باب: في تداعي الأمم على الإسلام، حديث (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٨٢).

وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه أحمد (٢/ ٣٥٩) فهو صحيح.

وصححه الألباني انظر الصحيحة (٢/ ٦٨٤) رقم (٩٥٨)

وأقول بحق إنهم قدّموا الشيء الكثير في مجال الأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وهم كثر ويشكلون اتجاهات متعدّدة، ولو وحّدت جهودهم وانطلقوا من حيث انطلقت الرسل، وساروا في منهجهم جادّين لخلّصوا أمّتهم مما وقعوا فيه ولوصلوا بهم إلى ما يريدون وأهمّ هذه الاتجاهات ثلاثة:

الأوّل: يمثله جماعة أخذت بمنهج الرسل في عقيدتها ودعوتها وتمسّكت بكتاب ربّها وسنّة نبيّها وترسمت خطى السلف الصالح في عقيدتها وعبادتها ودعوتها.

وهذا هو الاتجاه الذي يجب أن يلتف حوله المسلمون تنفيذاً لقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ ولتتظافر جهودهم، فيرضى عنهم ربّهم وتقوى شوكتهم ويصلون بذلك إلى ما يريدون من عزّة وسيادة وسعادة ويؤخذ على أصحاب هذا الاتجاه أنّهم لم يبذلوا من الجهود المادّيّة والمعنوية لنشر دعوة الحق ومن العرض القوي لحقهم في شكل دعوة ومؤلفات ما يتناسب مع مكانة دعوتهم وجلالها

والثاني: يمثله جماعة اهتمت ببعض الأعمال من الإسلام وتغلّبت عليها نزعات الصوفيّة هزّت عقيدة التوحيد في كثير من نفوس أتباعها، وعليهم مؤاخذات في عقيدتهم وعباداتهم.

وقد قام الشيخ تقي الدين الهلالي، والشيخ محمد أسلم أحد خريجي الجامعة الإسلاميّة- وغيرهما بنقد موجّه لهذه الجماعة، من واجبها أن تستفيد منه، وتعود إلى جادّة الحق والصواب.

والثالث: يمثله جماعة اهتمت بجوانب من الإسلام سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وقدمت الكثير، ويُعرف ما قدّموه بما هو في المكتبات والمنابر والجامعات، وهم يشكرون على هذا الجهد الذي قدّموه.

ومما يؤخذ على هذا الاتجاه أنّهم كتبوا في المجال السياسي الشيء الكثير باسم السياسة الإسلاميّة، والدعوة إلى حاكميّة الله وإقامة الدولة الإسلاميّة.

وألهبوا بالأمّة الإسلاميّة- خصوصاً شبابها- لتكريس طاقاتها وتجنيد إمكاناتها لتحقيق هذه الغاية، بأساليب في غاية من القوّة والجاذبية التي تأسر القلوب وتخلب الألباب وكتبوا في الاقتصاد الإسلامي وعن محاسن الإسلام وفيه

الشيء الكثير الطيب النافع الذي تحتاج إليه الأمّة خصوصًا في هذا الوقت والذي يحمدون عليه[١].

وفيه أيضًا ما يؤاخذون عليه أنّهم في الوقت نفسه الذي اهتموا فيه بهذه الجوانب قصّروا في حق العقيدة تقصيرًا واضحًا، فلو اتّجهوا بالقوّة نفسها والاهتمام نفسه إلى الإصلاح في العقيدة على منهج الأنبياء وكرّسوا جهودهم وأقلامهم على اقتلاع الشركيّات ومظاهرها والبدع والخرافات وأساطيرها؛ لحقّقوا الخير الكثير للإسلام والمسلمين ولأتوا البيوت من أبوابها، ولكانوا حقًّا على منهج الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام-، ولما كانت دعوتهم وإنتاجهم الفكري بالمكانة التي ذكرتها، وأنا واحد من القرّاء الكثر لهذا النّتاج؛ أحببت أن أبدي بعض الملاحظات على بعض قادة هذا الاتّجاه إحساسًا بثقل المسؤوليّة أمام الله القائل في محكم كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

وتأسيًا بعلماء هذه الأمّة ودعاتها المخلصين بدءًا من الصحابة وانتهاءً بالعلماء المخلصين في وقتنا الحاضر.

فأرجو ممن يتعاطف مع هذا الاتّجاه، أن يحسنوا الظنّ بأخيهم، وأن يشاركوه في الإحساس بواجب المسؤوليّة وثقلها أمام الله، وأن يفتحوا صدورهم للنقد الذي أرجو أن يكون بناءً وهادفًا إلى الخير ونفع الأمّة الإسلاميّة

وأرجو مرّة أخرى أن يدركوا أن رسول الله ﷺ كان يناقشه أصحابه في بعض قراراته، فيفتح صدره للمناقشة ويتنازل عن رأيه إذا رأى الصواب فيما يطرحونه أمامه من وجهات نظرهم وآرائهم وربّما نزل القرآن بتأييد آرائهم.

فمن كبار قادة هذا الاتجاه أبو الأعلى المودودي![٢]، وعليه مآخذ شديدة لا

(١) قلت هذا الكلام حين كان لا يزال كثير من الغبش يغبش تصوري وقد زال كثير من هذا الغبش فتبين لي أن أكثر ما تحتويه فيه أضرار وأخطار.

(٢) انظر رسالة: «الشقيقان المودودي والخميني» ترى بعض عقائده المنحرفة (ص ١٧) وتشابهه مع الرافضة، وخدمته لمذهبهم واعتراف زعماء الشيعة بذلك في (ص ٣١، ٣٣).

يجوز لمسلم يخشى الله ويجلّ الإسلام الذي يربأ بأتباعه عن تقديس الأشخاص وأفكارهم، أن يسكت عنها.

فمن تلكم المآخذ:

أولًا: أنّه لم ينطلق بدعوته من حيث انطلق الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله ومحاربة الشرك ومظاهره مع أنّ بلاده التي نشأ فيها أشدّ بلدان الله حاجة إلى دعوة الأنبياء والدعوة فيها أولى.

فهي بلاد عريقة في الوثنيّة تعبد فيها الأوثان، والأبقار، والأحجار، والقرود، والفروج، ففيها أحط أنواع الوثنيات وأقبحها وأشنعها.

والمسلمون في هذا البلد إلا القليل من أبعد الناس عن فهم الإسلام والتوحيد، وعقائدهم متأثرة إلى حدّ بعيد بعقائد جيرانهم الوثنيين، وكم يرى الرائي معبدًا للوثنيين فيرى مقابله مشهدًا للمسلمين فيه قبر مشيد مكلّل بالزهور ويتصاعد فيه البخور ويلبّس بالحرير والمسلمون عاكفون حوله في غاية من الخشوع والخضوع والإجلال مع اعتقادهم في الأولياء أنّهم يعلمون الغيب ويتصرّفون في الكون[1].

فهل ترى بلدًا في أرض الله في غابر التاريخ وحاضره ولاحقه أشدّ حاجة إلى دعوة التوحيد من هذا البلد؟!!

ثانيًا: اهتم بالجانب السياسي فأخذ من دعوته مساحة كبيرة وحجمًا أكبر من الحجم الذي أعطاه الإسلام لهذا الجانب وفهم علماء سلف هذه الأمّة من محدثين وفقهاء ومفسرين، وجعل لنفسه ولأتباعه غاية لم يرسمها الله لرسله ولا كلفهم وأتباعهم بها لأنّها فوق الطاقة البشريّة.

يقول المودودي معبرًا عن هذه الغاية:

أ- «لعله قد تبيّن لكم من كتاباتنا ورسائلنا أنّ غايتنا النهائيّة التي نقصدها من

---

(١) من يفعل ذلك لا يطلق عليه أنّه مسلم إلا إذا فعله عن جهل ولم تقم عليه الحجة. [الفوزان]

وراء ما نحن بصدده، لأن من الكفاح إنَّما هي إحداث الانقلاب في القيادة، وأعني بذلك أن ما نبتغي الوصول إليه والظفر به في هذه الدنيا أن نطهر الأرض من أدناس قيادة الفسقة الفجرة وسيادتهم، ونقيم فيها نظام الإمامة الصالحة الراشدة، فهذا السعي والكفاح المتواصل نراه أكبر وأنجح وسيلة موصلة إلى نيل رضى الرب تعالى وابتغاء وجهه الأعلى في الدنيا والآخرة»[1].

لعلَّ القارئ الكريم الفطن الذكي الذي يحفظ القرآن، ويتلوه آناء الليل وأطراف النَّهار، ويتدبَّر دعوات الرسل من أوَّلهم إلى آخرهم لا يعرف أنَّ هذه غاية الأنبياء التي كافحوا من أجلها، ولا يفهم أنَّ هذا السعي والكفاح أكبر وأنجح وسيلة موصلة إلى مرضاة اللَّه وابتغاء وجهه، بل أكبر وأنجح وسيلة إلى نيل رضى الربِّ هو اتباع منهج الأنبياء في دعوتهم وترسم خطاهم في تطهير الأرض من الفساد والشرك، وأكبر وسيلة الإيمان بأركانه المعروفة والإسلام بأركانه المعروفة أيضًا.

كان الأستاذ المودودي على علم تام بما عليه أهل الهند من جهل بالإسلام وما هم فيه من بدع وضلالات، وعلى معرفة تامَّة أنَّ فيهم بقايا من المعتقدات والأخلاق والتقاليد من دياناتهم السابقة، وقد تحدَّث عن هذا في كتابه «واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم»[2]، بعد أن تحدَّث عن تقصير الحكام وتقاعسهم عن تربية الداخلين في الإسلام تربية إسلاميَّة، وأن المعاهد التي كانت تقام للتعليم لا يستفيد فيها إلا الطبقات العليا أو الوسطى.

قال: «وما زال الدهماء في جهل تام بتعاليم الإسلام محرومين من آثاره الإصلاحيَّة إلى حد عظيم، وقد سبب كل ذلك أن كان النَّاس من غير المسلمين يدخلون في دين اللَّه شعوبًا وقبائل، إلا أن كثيرًا من الرسوم الباطلة والعادات الجاهلية مما كانوا عليه من قبل إسلامهم لا تزال متفشية فيهم إلى يومنا هذا؛ بل لم تتغير أفكارهم ومعتقداتهم تغيرًا تامًّا ولا يزال يوجد فيهم إلى الآن كثير من عقائد المشركين وأوهامهم التي ورثوها عن أديان آبائهم الكافرين.

---

(١) الأسس الأخلاقيَّة للحركة الإسلاميَّة (ص: ١٦).

(٢) (ص: ١٢٨-١٢٩).

وأقصى ما حدث فيهم من الفرق بعد إسلامهم أن أخرجوا من تاريخ الإسلام آلهة لهم جديدة وكأن الآلهة التي كانوا يعبدونها من قبل، واختاروا لأعمالهم الوثنية القديمة أسماء جديدة من المصطلحات الإسلاميَّة، وكان العمل على ما كان عليه من قبل، وإنما تغير قشره، ولونه الظاهري فإن أردتم الشاهد على ما أقول، فسرحوا النظر في ما عليه حالة الناس الدينية في بقعة من بقاع بلادكم، ثم ارجعوا إلى التاريخ وابحثوا عن الدين الذي كان الناس يدينون به في هذه البقعة، قبل أن يأتيهم الإسلام، فستعلمون أنه توجد هناك كثير من المعتقدات والأعمال التي تشبه عقائد الدين المنقرض وأعماله إلا أنها في شكل آخر ولون غير لونه

فالبقاع التي كانت فيها الديانة البوذيَّة قبل الإسلام مثلًا، كان الناس يعبدون فيها آثار بوذا، فهنا سنٌّ من أسنانه وهناك عظم من أعظمه، وثمة شيء آخر من أشيائه يعبده النَّاس ويتبركون به، وإنكم لتجدون اليوم أن الناس في هذه البقاع يعاملون مثل هذه المعاملة شعرًا من أشعار النبي ﷺ، أو أثرًا من آثار قدمه، أو يتبركون بآثار بعض صالحي المسلمين وعابديهم، وكذلك إذا ما تعرضتم كثيرًا من الرسوم والعادات المتفشية اليوم ببعض القبائل المتوعلة في إسلامها، ثم طرتم من يروج في البطون غير المسمة لهذه القبائل نفسها من الرسوم والتقاليد فقليلًا ما تجدون فارقًا بين هذه وتلك.

أفليس ذلك مما يشهد شهادة ناطقة بأن الذين كان بيدهم زمام أمر المسلمين وشؤونهم الاجتماعيَّة في القرون السالفة قصروا في أداء واجبهم أيما تقصير، إذ لم يمدوا يد التعاون والمساعدة إلى الدين بذلوا جهودهم في نشر الإسلام بجهودهم الفرديَّة» انتهى.

أقول: لقد عرف المودودي واقع بلاده معرفة كاملة، وعرف تاريخها، وعرف مدى ارتباط وتأثر عقائد المسلمين بعقائد أسلافهم بل ومعاصريهم من الوثنيين وألقى اللوم على حكام المسلمين في الماضي حيث قصروا في نشر الإسلام، وقصروا في مساندة الجهود الفرديَّة في نشر الإسلام، وفي تربية الداخلين في الإسلام، وكان في هذا الإدراك العميق ما يحفزه بقوة إلى سلوك منهج الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله والتركيز على عقائد المسلمين فعلًا حتى

يتم إنقاذهم من براثن الشرك الهندوكي والبوذي وما شابهه، بل كان عليه إن لم يتزعم دعاة التوحيد أن يساندهم بكل ما أوتي من قوة بالدعوة والتأليف وتجنيد أتباعه في هذا الميدان بدل أن يسخر كلّ طاقاته الهائلة في ميدان السياسة والاقتصاد، فلو ماتوا مؤمنين بكلّ كتبه في السياسة والاقتصاد أينقذهم من الوثنيّة التي هم فيها ثمّ هل ينقذهم من النّار.

ثم بمن سيقيم الإمامة الصالحة الراشدة وهو قد فتح الباب على مصراعيه للدخول في جماعته وتنظيمه والباب مفتوح للبريلوي القبوري الغالي وللرافضي وللديوبندي والسلفي[1] حيث يختلط المرضى بالأصحاء، فتكون النتيجة كما هو الواقع أن تتغلب الأمراض فتفتك جراثيمها بالأصحاء فعلى أقل تقدير أن تصاب ألسنتهم وأقلامهم بالشلل عن الدعوة والكتابة في مجال التوحيد والسنّة ومحاربة البدع والشرك وذلك من آثار هذا التجميع والمناهج التي وضعت له.

فهل أمثال هؤلاء سيطهرون الأرض من الفساد ويقيمون نظام الإمامة الراشدة الصالحة ويحققون ما لم يقم به أصحاب محمد ﷺ بعد الخلفاء الأربعة وأبناء المهاجرين والأنصار الذين يرى الأستاذ المودودي متابعة لألدّ أعداء الصحابة ومن والاهم أن الحكم بعد عثمان وعلي بدأ يقوم على قواعد الجاهليّة بدلًا من قواعد الإسلام.

وقد كان من ربّاهم رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون وصحابته الأكرمون قامت حكومتهم على قواعد الجاهليّة، فماذا ينتظر من جماعة أخلاط تضم أغرب

(١) وهذا الذي نقوله أمر مشهور ولمن لا يعرف ذلك أسوق الدليل الآتي:
نشرت مجلة (تكبير) الكراتشية مقابلة شخصيّة قام بها محمود الشام مع نائب أمير الجماعة الإسلاميّة في كراتشي البروفسور غفور أحمد في (٢٥/ إبريل/ ١٩٨٤)، فهذا نص ترجمتها:
[illegible] ترون في معارضة النّاس للجماعة الإسلاميّة على الأسس المذهبيّة؟
البروفسور غفور أحمد: نعم حقًّا إن الجماعات المذهبيّة تعارضت في أمور كثيرة بل يبدو أنّها لا تعد مسلمين، ويجب على الجماعات الدينيّة ألّا تجعل الدين وسيلة للخلافات والتفرقة، والوضع القائم اليوم أنّ الخلافات تنشب في المساجد -أيضًا- على أساس العقيدة ويصل الأمر إلى الجدل والخصام، أما موضوع عقيدة الجماعة الإسلاميّة فإن فيها أفرادًا من أهل الحديث والديوبنديين والشيعة والبريلويين وأنا أيضًا بريلوي، وكون المرء بريلويًّا لا يمنع الانضمام إلى الجماعة الإسلاميّة».

الاتجاهات وأبعدها عن هدي الأنبياء.

ب- ويقول: «ومن دواعي الأسف أنا نشاهد النّاس اليوم- جميعًا المسلمين منهم وغير المسلمين- غافلين عن هذا الذي جعلناه غايتنا ومطمح أبصارنا.

أمّا المسلمون؛ فلأنّهم يعدّونه غاية سياسيّة بحتة، ولا يكادون يفطنون لمكانته وأهميّته في الدين، وأمّا غير المسلمين فبما نشئوا عليه من التعصب على الإسلام، ولجهلهم وقلّة معرفتهم بتعالمه، لا يعلمون أصلًا أن قيادة الفجار والفساق إنّما هي منشأ جميع الكوارث، والنكبات التي مني بها الجنس البشري، وأنّ سعادة البشر وغبطته إنّما تتوقف على أن يكون زمام أمور الدنيا بأيدي الصالحين العادلين»[1].

أقول: ما رآه الأستاذ غايته وأتباعه ومطمح أبصارهم هو شيء مهم ولكنّه غير غاية الأنبياء، وأعظم منها وأجدى منها الاهتمام بهداية الناس ودعوتهم جميعًا قويّهم وضعيفهم إلى التوحيد وهي غاية الأنبياء والمصلحين.

وقوله: «إنّ قيادة الفجار هي منشأ جميع الكوارث والنكبات التي مني بها الجنس البشري».

أقول: قد تكون هي من الأسباب وإلى جانبها أسباب أخر هي كفر الشعوب بالله وإشراكها به وفسوقها عن هداية الأنبياء.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾.

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

فبظلم النّاس -حكامهم ومحكوميهم وأغنيائهم وفقرائهم- يصبّ الله عليهم الكوارث والمصائب والنكبات من الحروب المدمّرة والأمراض الفتاكة

---

(١) الأسس الأخلاقيّة (ص: ١٦- ١٧).

والمجاعات المهلكة والصواعق والفيضانات ونزع البركات من الأرض وغيرها.

ومع هذا فعبادة الأوثان الموجودة في الهند وغيره أبغض إلى الله وإلى أنبيائه والمصلحين من ظلم الحكام على فظاعته وبغضه إلى الله.

ولذا ترى إبراهيم يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وفي وقته أظلم الحكام وأعتاهم وأفسدهم، لكنه جعل غايته الدعوة إلى التوحيد ومحو الشرك، فإذا ما ظهرت كلمة التوحيد وأفل صوت الشرك صلح حال الناس حكامًا ومحكومين.

جـ- ويقول أيضًا: «من أراد أحد اليوم أن يطهر الأرض ويستبدل فيها الصلاح بالفساد، والأمن بالاضطراب، والأخلاق الزكيّة بالإباحيّة، والحسنات بالسيئات، لا يكفيه أبدًا أن يدعوهم إلى الخير ويعظهم بتقوى الله وخشيته ويرغبهم في الأخلاق الحسنة، بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الإنسانيّة الصالحة ما يتمكن من جمعه، ويجعل منها كتلة متضامنة وقوّة جماعيّةً تمكنه من انتزاع زمام الأمر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا، وإحداث الانقلاب المنشود في زعامة الأرض وإمامتها»[1].

أقول- رحم الله المودودي-: لم يدل نبي من الأنبياء بمثل هذه التصريحات القويّة التي تكلّفه وأتباعه بانتزاع زمام الأمر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا، لقد ألقى عبأً كبيرًا على أناس ضعفاء.

انظر يا أخي من رحمة الله بالأنبياء، كان الله يبعث كلّ نبي إلى قومه خاصّة ويقول له: إن عليك إلا البلاغ فإذا وضع الشاب نصب عينه القيام بهذه المسئوليّة الضخمة التي لم يكلف بها الأنبياء كيف تكون حياته؟ كيف يعيش في جحيم لا يطاق؟ وسبب ذلك زلّة عالم رسم لنفسه منهجًا جديدًا، لم يأت به الأنبياء ولا دلّ عليه كتاب ولا سنّة ولا عرفه المسلمون سابقهم ولا لاحقهم

---

(١) الأسس الأخلاقية (ص: ١٧- ١٨).

الأنبياء جاءوا لهداية البشر إلى الخير وإنقاذهم من براثن الشرك وأسبابه ولم يتركوا هذا ويشتغلوا بجمع عناصر الإنسانيَّة الصالحة بانتزاع السلطة وأزمّة الأمور من قادة موكب الحضارة في الدنيا، بل يربون النَّاس على العقيدة والخير، فإذا استجاب لهم النَّاس ووجدت لهم الأرض التي ينطلقون منها للجهاد في سبيل الله جاهدوا النَّاس ليقولوا لا إله إلا الله ويعلنوا كلمة التوحيد ويتبرءوا من الشرك وأوضاره وأقذاره، وإن لم يصل أتباعهم إلى هذا المستوى لم يطلقوا مثل هذه التصريحات والتهديدات لجبابرة الأرض ولم يعرضوا أتباعهم الضعفاء للويلات والنكبات ولو كانوا يحملون أعظم أمانة ويدعون إلى أسمى المبادئ وهو التوحيد.

فكيف بالمساكين الذين أعرضوا عن منهج الأنبياء وتركوا أعظم الأدواء وهو الشرك يفتك بالأمم ولم يدخل هذا في حسابهم، ثمّ يريدون أن يجمعوا من العناصر الصالحة كتلة متضامنة وقوّة جماعيَّة ليصلوا بهم إلى ما رسموه لأنفسهم وجعلوه مطمح أبصارهم؟!!

فقل لي بربِّك من أين نأتي بهذه العناصر الصالحة ونحن قد تخلينا عن عقيدة الأنبياء ومنهجهم في التربية والدعوة؟!! أتهبط علينا من السماء؟!!

د - ثمّ يقول الأستاذ المودودي: «إن مسألة القيادة والزعامة إنَّما هي مسألة المسائل في الحياة الإنسانيَّة وأصل أصولها؟

وأهمية هذه المسألة وخطورة شأنها ليست مستحدثة في هذا العصر وإنَّما هي مقرونة ومنوط بها منذ أقدم الأزمنة وذهبت من شواهد، بالقول السائر: «الناس على دين ملوكهم»[1].

ومن ثمّ تكرر في الحديث: «إن علماء الأمّة وكبراءها هم المسئولون عن إصلاح شأنها وفساد أمرها»[2].

هكذا في نظر هذا المفكر الكبير! وأشهد الله لو أنني سمعتها من إنسان صادق لطلبته وهشًا على هذا المفكر ولكن ماذا أقول؟ وماذا يقول غيري وهو في كتابه

---

(١) عجبًا لهذا الاستدلال على أخطر مسألة (مسألة المسائل) بقول سائر وكلام لا يدري قائله ظنه حديثًا.

(٢) الأسس الأخلاقية (ص: ٢١- ٢٢).

الأسس الأخلاقيَّة للحركة الإسلاميَّة الذي ألقاه محاضرة في جمع من أعضاء الجماعة الإسلاميَّة وأنصارها والمتأثرين به ألقاها في مؤتمر حاشد منذ أكثر من أربعين سنة ويتداوله النَّاس وخصوصًا أتباعه بكل حفاوة وتقدير منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا.

إنَّ مسألة المسائل هي ما جاء به جميع الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وهي مسألة التوحيد والإيمان، وقد لخصها الله في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

هذه هي مسألة المسائل ومن أجلها دار الصراع بين الأنبياء والأمم الضالَّة ومن أجلها أغرق من أغرق ودمَّر من دمَّر، وخسف بمن خسف به وعذِّب من عذِّب وقد سقنا أدلته الكثيرة فيما سبق فارجع واقرأ.

هـ- ثمَّ يقول: «غاية الدين الحقيقيَّة إقامة نظام الإمامة الصالحة الراشدة»[1].

أقول: إنَّ غاية الدين الحقيقية والغاية من خلق الجنّ والإنس والغاية من بعثة الرسل وإنزال الكتب هي عبادة الله وإخلاص الدين له.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

وحيث إنَّ هذا هو تصوّر الأستاذ المودودي للقيادة والزعامة والإمامة: هي غاية الدين الحقيقيَّة وهي مسألة المسائل في الحياة الإنسانيَّة وأصل أصولها، فمن المناسب أن أسوق هنا ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية على ابن المطهر الحلي أحد

---

(١) الأسس الأخلاقيَّة (ص: ٢٢).

للروافض الإمامية الذي بالغ في شأن الإمامة وعلا فيه.

قال شيخ الإسلام:

«فصل:

قال المصنف الرافضي: أمَّا بعد فهذه رسالة شريفة ومقالة لطيفة اشتملت على أهم المطالب في أحكام الدين وأشرف مسائل المسلمين وهي مسألة الإمامة، التي يحصل بسبب إدراكها نيل درجة الكرامة، وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في الجنان، والتخلص من غضب الرحمن»[1].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيقال: الكلام على هذا من وجوه أحدها أن يقال: إنَّ القائل: إنَّ مسألة الإمامة أهم المطالب في أحكام الدين وأشرف مسائل المسلمين، كاذب بإجماع المسلمين سنيهم وشيعيهم، بل هو كفر فإنَّ الإيمان بالله ورسوله أهم من مسألة الإمامة وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام.

فالكافر لا يصير مؤمنًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ الكفار أوَّلًا، كما استفاض في الصحاح وغيرها أنَّه قال: «أمرت أن أقاتل النَّاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[2].

وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وكذلك قال لعلي رضي الله عنه لما بعثه.

وكذلك كان النبي ﷺ يسير في الكفار فيحقن دماءهم بالتوبة من الكفر، لا يذكر لهم الإمامة بحال.

---

(١) المنهاج (١/ ٢٠).

(٢) تقدم تخريجه.

وقد قال تعالى بعد هذا: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

فجعلهم إخوانًا في الدين بالتوبة، فإنَّ الكفار في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا أسلموا أجرى عليهم أحكام الإسلام، ولم يذكر لهم الإمامة بحال.

ولا نقل هذا عن الرسول أحد من أهل العلم، لا نقلًا خاصًا ولا عامًّا، بل نحن نعلم بالاضطرار أنَّ النبي ﷺ لم يكن يذكر للناس إذا أرادوا الدخول في دينه الإمامة لا مطلقًا ولا معينًا، فكيف تكون أهم المطالب في أحكام الدين ثمَّ.

الثاني: أن يقال: الإيمان بالله ورسوله في كلِّ زمان ومكان أعظم من مسألة الإمامة، فلم تكن في وقت من الأوقات لا الأهم ولا الأشرف.

الثالث: أن يقال: فقد كان يجب بيانها من النبي ﷺ لأمته الباقين بعده كما بيَّن لهم أمور الصلاة والصيام والزكاة والحج وعيَّن أمر الإيمان بالله وتوحيده واليوم الآخر.

ومن المعلوم أنَّه ليس بيان مسألة الإمامة في الكتاب والسنَّة ببيان هذه الأصول».

ثمَّ قال: «وأيضًا فمن المعلوم أنَّ أشرف مسائل المسلمين، وأهم المطالب في الدين ينبغي أن يكون ذكرها في كتاب الله تعالى أعظم من غيرها، وبيان الرسول لها أولى من بيان غيرها، والقرآن مملوء بذكر توحيد الله تعالى، وذكر أسمائه، وصفاته، وآياته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقصص، والأمر والنهي، والحدود والفرائض، بخلاف الإمامة، فكيف يكون القرآن مملوءًا بغير الأهم الأشرف»[1].

«وأيضًا فإن الله تعالى قد علَّق السعادة بما لا ذكر فيه للإمامة، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

---

(١) المنهاج (١/ ٢١).

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء ١٣-١٤].

فقد بيّن الله في القرآن أنّ من أطاع الله ورسوله كان سعيدًا في الآخرة، ومن عصى الله ورسوله وتعدى حدوده، كان معذّبًا، وهذا هو الفرق بين السعداء والأشقياء، ولم يذكر الإمامة.

فإن قال قائل: إنّ الإمامة داخلة في طاعة الله ورسوله؟!

قيل: نهايتها أن تكون كبعض الواجبات كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما يدخل في طاعة الله ورسوله، فكيف تكون هي وحدها أشرف مسائل المسلمين وأهم مطالب الدين؟!»[1].

قال شيخ الإسلام: «الوجه الخامس قوله: «وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في الجنان».

فيقال: من جعل هذا من أركان الإيمان إلا أهل الجهل والبهتان؟!

وسنتكلّم إن شاء الله على ما ذكره من ذلك والله تعالى وصف المؤمنين وأحوالهم، والنبي ﷺ قد فسّر الإيمان وذكر شعبه، ولم يذكر الله ولا رسوله الإمامة في أركان الإيمان، ففي الحديث الصحيح حديث جبريل لما أتى النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، قال: والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه» ولم يذكر الإمامة.

وقال: «والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

وهذا الحديث متفق على صحته متلقى بالقبول أجمع أهل العلم بالنقل على صحته.

---

(١) المنهاج (١/ ٢٨- ٢٩)

وقد أخرجه أصحاب الصحيح من غير وجه، فهو من المتفق عليه من حديث أبي هريرة[1] وفي أفراد مسلم من حديث ابن عمر[2].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

فشهد لهؤلاء بالإيمان من غير ذكر الإمامة

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

فجعلهم صادقين في الإيمان من غير ذكر للإمامة.

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولم يذكر الإمامة.

وقال تعالى: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

فجعلهم مهتدين مفلحين ولم يذكر الإمامة.

---

(١) أخرجه البخاري، (٦٥) كتاب التفسير، تفسير سورة لقمان، حديث (٤٧٧٧)، ومسلم (١) كتاب الإيمان، حديث (٥-٧)، وابن ماجه، المقدمة، حديث (٦٤).

(٢) أخرجه مسلم، (١) كتاب الإيمان، حديث (١-٤)، وأبو داود، (٣٤) كتاب السنة، (١٧) باب في القدر، حديث (٤٦٩٥)، والترمذي (٥/٦)، (٤١) كتاب الإيمان، حديث (٢٦١٠)

وأيضًا فنحن نعلم بالاضطرار من دين محمد بن عبد الله ﷺ أنّ الناس كانوا إذا أسلموا لم يجعل إيمانهم موقوفًا على معرفة الإمامة ولم يذكر لهم شيئًا من ذلك، وما كان أحد أركان الإيمان لا بد أن يبينه الرسول لأهل الإيمان ليحصل لهم به الإيمان.

فإذا علم بالاضطرار أنّ هذا مما لم يكن الرسول يشترطه في الإيمان علم أنّ اشتراطه في الإيمان من أقوال أهل البهتان.

فإن قيل: قد دخلت في عموم النصّ، أو هي من باب ما لا يتم الواجب إلا به أو دلّ عليها نصّ آخر.

قيل: هذا كلّه لو صحّ لكان غايته أن تكون من بعض فروع الدين لا تكون من أركان الإيمان، فإن ركن الإيمان ما لا يحصل الإيمان إلّا به كالشهادتين فلا يكون الرجل مؤمنًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

فلو كانت الإمامة ركنًا في الإيمان لا يتم إيمان أحد إلا به لوجب أن يبينه الرسول ﷺ بيانًا عامًا قاطعًا للعذر كما بين الشهادتين، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، فكيف ونحن نعلم بالاضطرار من دينه، أن الذين دخلوا في دينه أفواجًا لم يشترط على أحد منهم في الإيمانِ الإيمانَ بالإمامة لا مطلقًا ولا معيّنًا»[1].

أقول:

١ - لقد أطلت النفس في نقل كلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لإمامته وجلالته وثقة الناس بقوة فهمه للإسلام وعمقه، واعتقادهم في إخلاصه.

٢- لتشابه دعوى المودودي ودعوى الرافضي بل مع الأسف الشديد يرى القارئ أن دعوى المودودي أعظم؛ إذ الشيعي يقول: «إنّها أهم المطالب في أحكام الدين» ولم يقل في أصول الدين، ويقول: «وهي أحد أركان الإيمان»، أما المودودي فقد جعلها: «مسألة المسائل في الحياة الإنسانيّة وأصل أصولها»،

---

(١) المنهاج (١/ ٣٢- ٣٣).

وجعلها «غاية الدين الحقيقية»، وجعله «غاية مهمة الأنبياء»، كما سيأتي.

٣- قصدي إسداء النصيحة لشباب المسلمين ليتمسكوا بهدي نبيّهم ومن نصيحتي لهم ألّا يقارنوا بين ربيع والمودودي، بل يجب أن يرفعوا منزلة القرآن كلام ربهم وأن يرفعوا منزلة سنّة نبيهم ﷺ فلا يقارنوا بينهما وبين كلام أحد من البشر مهما بلغ من المكانة والمنزلة فهذا هو مقتضى الإيمان وبرهان صدقه.

نظرة علماء الإسلام إلى الإمامة وأدلتهم على وجوبها

قال الإمام أبو الحسن الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوّة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها في الأمّة واجب بالإجماع.

وإن شذّ عنهم الأصم واختلف في وجوبها هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟

فقالت طائفة: وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم.

وقد قال الأفوه الأودي: لا يصلح النّاس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

وقالت طائفة: بل وجبت بالشرع دون العقل؛ لأنّ الإمام يقوم بأمور شرعيّة قد كان مجوزًا في العقل ألّا يرد التعبّد به، فلم يكن العقل موجبًا لها.

ثمّ احتج على وجوبها بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾.

قال فرض علينا طاعة أولي الأمر فينا وهم الأئمّة المتأمّرون علينا، ثمّ قال: روى هشام بن عروة عن أبي صالح عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «سيليكم بعدي ولاة، فيليكم البرّ ببرّه ويليكم الفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كلّ ما وافق الحق فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساؤا فلكم وعليهم».

قال: فإذا ثبت وجوب الإمامة ففرضها على الكفاية، كالجهاد وطلب العلم»[1]

(١) الأحكام السلطانية (ص: ٥- ٦).

وقال القاضي أبو يعلى رَحِمَهُ اللَّهُ: «نصبة الإمام واجبة.

وقد قال الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رواية محمد بن عوف بن سفيان الحمصي: الفتنة؛ إذا لم يكن إمام يقوم بأمر النَّاس

والوجه فيه: أنَّ الصحابة لما اختلفوا في السقيفة، فقالت الأنصار: منّا أمير ومنكم أمير ودفعهم أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقالوا: إنَّ العرب لا تدين إلّا لهذا الحيّ من قريش ورووا في ذلك أخبارًا، فلولا أنَّ الإمامة واجبة لما ساغت تلك المحاورة وتلك المناظرة عليها وقال قائل: ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم»[1].

وقال إمام الحرمين: «مسألة الإمامة من الفروع»[2].

فأنت ترى دعواهم في الإمامة أنّه من الفروع، وأنّها لا تتعدى أن تكون وسيلة فهي لحراسة الدين وسياسة الدنيا وفي دليل وجوبها نزاع أهو العقل أم الشرع؟

ونحن نقول بوجوبها ولكنَّ الدليلين اللّذين ساقهما الماوردي ليسا نصًا في الإمامة؛ فهما أعمّ من الدعوى في وجوب الطاعة لأمراء ثبتت إمارتهم فعلًا وكذلك الحديث، ولعلّ أبا يعلى عدل عنهما لما يرى من عدم وضوح الدلالة فيهما وعلى كلّ حال فالقضية التي هذا شأنها وقد اختلف في أدلّة وجوبها كيف يقال فيها: إنّها غاية الدين الحقيقيّة، وغاية مهمّة الأنبياء؟ ... إلى آخر المبالغات التي قيلت في شأنها، مما ضخمها وأعطاها أضعاف أضعاف حجمها وأضعف أمر العقيدة والدين نفسه، وقلّل من شأنه وشأنها

جـ- ويقول المودودي: «ولأجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة أنبياء اللَّه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في هذه الدنيا أن يقيموا فيها الحكومة الإسلاميّة، وينفذوا فيها ذلك النّظام الكامل للحياة الإنسانيّة الذي جاءوا به من عند اللَّه»[3].

---

(١) الأحكام السلطانية (ص: ١٩).

(٢) مغيث الخلق (ص: ٩).

(٣) تجديد الدين (ص: ٣٤).

أقول:

أولًا: إنَّ الحديث عن رسل الله وأنبيائه لا يجوز أن يكون عن طريق الاستنتاج والاستنباط السياسي، وقصص الأنبياء وتاريخهم من الأمور الغيبيَّة التي لا يجوز الخوض فيها إلّا في حدود الوحي الذي أوحاه الله إلى محمد ﷺ.

قال تعالى في أوّل قصّة يوسف عليه السلام: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال تعالى في آخر قصّة يوسف عليه السلام: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال تعالى عقب قصّة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ويشتد هذا المنع ويزداد حرمة إذا خالف هذا الاستنتاج ما أخبر الله به عنهم.

فقد بيَّن الله غايتهم إجمالًا، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وتحدَّث عن بعضهم تفصيلًا، كنوح وإبراهيم وهود وصالح، وقد تحدثنا عن منهجهم سابقًا، وسردنا الآيات التي تحدِّد منهجهم وغاياتهم وهي تطابق تمامًا ما ذكره الله عنهم إجمالًا من الدعوة إلى التوحيد، ومحاربة الشرك ومظاهره مع الدعوة إلى الخير وليس في القرآن ولا في السنَّة ما يؤيد ما زعمه المودودي في قوله: «لأجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله -صلوات الله عليهم وسلامه- في هذه الدنيا أن يقيموا فيها الحكومة الإسلاميَّة»، أو الإلهيَّة كما نقلها الندوي عن المودودي، فمن كانت عنده أدلَّة واضحة على هذه القضيَّة الخطيرة من الكتاب والسنَّة فليأت بها وعلينا الإيمان والاتّباع.

ثانيًا: عاش الأستاذ المودودي في عصر الصراع السياسي والحزبي، وبلغ التنافس والصراع على الحكم أوجه في الغرب والشرق، وبحكم قيادته وريادته

السياسيَّة والحزبيَّة خيل إليه أنَّه لابد أن يكون الأنبياء أشدَّ النَّاس عزمًا وجدًّا وجهادًا في الوصول إلى الحكم وإحراز مقاليد السلطة.

وكلامه الآتي يؤكد ما أقول: قال: «نوعيَّة عمل النبيِّ، ولتشييد هذه الحضارة والمدنيَّة في الأرض أرسل الله رسله تترى، وذلك بأن كل حضارة في هذا العالم -عدا الحضارة الرهبانيَّة جاهليَّة كانت أم إسلاميَّة-، إذا كان بيدها نظريَّة جامعة بشأن الحياة الإنسانيَّة، ومنهاج شامل لتدبير أمور هذه الدنيا، فإنَّها تقتضي بحكم طبيعتها أن تستولي على الحكم وتمتلك أزمَّة الأمور، وتشكل الحياة الإنسانيَّة على طرازها المخصوص.

وبدون إرادة الحكم، لا معنى للدعوة إلى نظريَّة ما ولا معنى للتحليل والتحريم والتشريع.

أمَّا الراهب في هذه الدنيا، فلا يريد أن يمارس شئونها، وإنَّما همه الشاغل أن يبلغ غاية نجاته الوهميَّة، بسلوك طريقة معيَّنة تمر به حائدة عن الدنيا وما فيها، ولذلك لا يحتاج إلى السلطة والحكم ولا يطلب من ذلك شيئًا.

ولكنَّ الذي يأتي داعيًا إلى طريق مخصوص لمعالجة شئون هذه الدنيا، ويعتقد أنَّ في اتباع الإنسان لهذا الطريق فلاحه ونجاحه فلابدَّ أن يسعى ويجتهد لإحراز مقاليد السلطة والحكم؛ فإنه ما لم يتمكن من القوة المطلوبة لتنفيذ طريقته المخصوصة، لا يمكن أن تقوم لها قائمة في عالم الواقع»[1]

لقد درس المودودي الحضارة والمدنيَّة المعاصرة بكلِّ شعبها وتفاصيلها أو غالبها واعتقد أنَّ للأنبياء حضارة ومدنيَّة تضم مثل كلِّ هذه الشعب والتفاصيل الموجودة في التنظيمات المدنيَّة الحاليَّة، إلَّا أنَّها بشعبها وتفاصيلها تختلف عن

---

(١) تجديد الدين (ص ٣٢-٣٣)، وكان قد تحدث عن حضارة الأنبياء ومدنيَّتهم، وتوسع فيها وفي بعض ما قاله حق وبعضه فيه نظر يحتاج إلى أدلة من الذي لا ينطق عن الهوى ومن تحكم الأمور قوله: «وتنظيم المناصب والوظائف في شعب الحكومة المدنية وأصول القوانين واستنباط القواعد الفرعية من تلك الأصول ونظام العدالة والشرطة والاحتساب، وجباية الضرائب وشعبة الاقتصاد والأعمال العامة، والصناعة والتجارة ونظام النشر والإعلان والتعليم والتربية وتدبير أقلام الحكومة وتدريب الجيوش وتنظيمها وشئون الصلح والحرب والعلاقات الدولية والسياسية الخارجية»

المدنيات والحضارات الجاهليّة، ثمّ بنى على هذا الاعتقاد أن كل حضارة بيدها نظرية جامعة بشأن الحياة، ومنهاج شامل لتدبير أمور الدنيا، فإنها تقتضي بحكم طبيعتها أن تستولي على الحكم وتمتلك أزمّة الأمور

والأنبياء جاءوا بحضارة ومدنيّة من هذا النوع فلابدّ أن تستولي حضارتهم ومدنيتهم على الحكم وتمتلك أزمّة الأمور ولابدّ أن يسعوا ويجتهدوا لإحراز مقاليد السلطة.

وإذن؛ «فما زالت الغاية المنشودة من رسالة الأنبياء في هذه الدنيا أن يقيموا فيها الحكومة الإسلاميّة وينفذوا فيها ذلك النّظام الكامل للحياة الإنسانيّة الذي جاءوا به من عند الله».

ولعلّه يتضح للقارئ أن هذه التقريرات قائمة على القياسات والاستنتاجات الفكريّة والسياسيّة، وليست قائمة على البراهين القرآنيّة والنبويّة، والمجال مجال الوحي الإلهي لا مجال الاكتشافات الفكريّة والسياسيّة.

وقد خيّل إليه أن النّاس قسمان فقط: إمّا راهب همّه الشاغل أن يبلغ غاية نجاته الوهميّة .. إلخ، وحاشى الأنبياء أن يكونوا من هذا النوع، وقد يشبههم في نظر السياسيين- العلماء والدعاة المعاصرون- الذين لا يركبون أمواج السياسة ولا يخوضون غمارها؛ وإنّما يسلكون منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله إلى توحيده وإخلاص العبادة له والتحذير من الشرك والفسق والبدع بالحكمة والموعظة الحسنة وليسوا بمعصومين من الخطأ.

وإمّا صاحب طموح سياسي وفكر حضاري يريد أن ينهض بأمّته إلى أرقى مستويات الحضارة ويريد أن يؤسس لأمّته أقوى دولة[1]

والأنبياء أسمى النّاس وأرقاهم فلابدّ أن يكونوا من هذه الطبقة الممتازة.

وفاته أنّ الأنبياء قسم مستقل لا يدخل في هؤلاء ولا في أولئك هم أناس متميّزون منزهون عن حماقات الرهبان وجهلهم، وعن أطماع السياسيين ومكرهم وأساليبهم

---

(١) ولو كانت خاوية من التوحيد تعج بأنواع البدع والخرافات

الشيطانيَّة التي يتوصَّلون بها إلى الحكم؛ فهم أنزه الناس نفوسًا عن المطامع وأرقى الناس عقولًا وأزكاهم أخلاقًا وأطهرهم عنصرًا وأسماهم اختارهم الله لهداية البشر وإنقاذهم من الضلال فخاضوا ميادين الدعوة إلى الله بكلّ إخلاص وتجرّد لا يريدون على ذلك أجرًا من مال أو جاه أو ملك إنَّما يريدون وجه الله والدار الآخرة فقط وصبروا على صنوف من الأذى التي لا يحتملها سواهم.

ويقول: «ولذلك سعى كلّ نبي وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي، فمنهم من اقتصرت مساعيه على تمهيد السبيل وإعداد العدد كـ إبراهيم ﷺ، ومنهم من أخذ فعلًا في الحركة الانقلابيَّة، ولكن انتهت رسالته قبل أن تقوم على يده الحكومة الإلهيَّة كـ عيسى ﷺ، ومنهم من بلغ بهذه الحركة منازل الفوز والنجاح كـ: موسى ﷺ، وسيدنا محمد ﷺ».

أقول:

أولًا: إن عدد الأنبياء والرسل يزيد على عشرين ومائة ألف ولم يقص الله علينا إلَّا قصَّة حوالي خمسة وعشرين نبيًا ورسولًا في القرآن، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

والواجب علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل وكتبهم إجمالًا وبما ذكره الله منهم ومن كتبهم تفصيلًا.

وما سكت عنه منهم ومن قصصهم ولم يخبر به رسوله محمدًا ﷺ فهو من أمور الغيب.

وأعتقد أنَّ مثل هذا التعبير «ولذلك سعى كلّ نبي وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي»[1] ليس من العلم الموروث عن خاتم الأنبياء ﷺ فهو من أعظم الأمور الغيبيَّة التي أخفاها الله عن رسوله محمد ﷺ فكيف يعلمها غيره؟ بل نقول

(١) تجديد الدين (ص: ٣٥).

كيف يستجيز المسلم الحديث عنها وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾؟.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثانيًا: أعتقد أنَّه لا يجوز شرعًا أن يطلق على دعوات الأنبياء الحكيمة وهدايتهم الرحيمة المشتملة على الحكمة والعلم والثبات والصبر والتأني؛ لا يجوز أن يطلق على هذه الدعوات أنَّها محاولات انقلابات سياسيَّة، لأنَّ الانقلابات السياسيَّة تقوم على المكايد والدسائس والمؤامرات التي لا يقوم بها إلَّا أناس لا يبالون بسفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل والإفساد في الأرض.

ثالثًا: أنَّ هذا التفسير لمهمَّة الأنبياء وغايتهم في غاية الخطورة لتأثيره الخطير على شباب الأمَّة المساكين لأنَّهم قد يقولون: إذا كان الأنبياء زعماء سياسيين، وقادة حركات انقلابيَّة، فلماذا لا يكون أتباعهم أيضًا سياسيين انقلابيين ويسلكون إلى غايتهم ما تتطلبه الانقلابات السياسيَّة من التخطيط والتدبير، وهل سيكونون معصومين في إحداث الانقلابات السياسيَّة.

رابعًا: لا أدري ما يريد الأستاذ المودودي بقوله: «فاقتصرت جهود بعضهم على تمهيد السبيل وإعداد العدة»، وحكى الندوي عنه: «على تهيئة الأرض كـ: سيدنا إبراهيم»، هل يريد أنَّه وضع خططًا سياسيَّة وانقلابيَّة لمن يأتي بعده من الأنبياء والقادة السياسيين أو يريد شيئًا آخر.

وعلى كل حال هذا يعطي صورة غريبة عجيبة رهيبة عن الأنبياء لم يصوِّرها القرآن ولا السنَّة ولا عرفها علماء الإسلام برَّأ الله الأنبياء منها ونزَّههم عنها.

إنَّ قصة إبراهيم- مثلًا- واضحة في الكتاب والسنَّة قد كررها الله في القرآن وكلها كانت جهادًا في سبيل التوحيد وفي تحطيم الأوثان بالحجة والبرهان وباليد عندما أُلجئ إلى ذلك وبعد أن بلَّغ البلاغ المبين وأقام الحجج القاهرة الدامغة على المشركين المعاندين حكومة وشعبًا، قام بتحطيم معبوداتهم وأوثانهم فأخذهم الغضب لأوثانهم فبطشوا به وأرادوا أن يعاقبوه أشدَّ العقاب فأججوا له نارًا ثمَّ

ألقوه فيها ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

فأنقذه الله من كيدهم ونجاه من مكرهم ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

ثمّ لمّا بلغ عنادهم مداه وانقطع أمله من استجابتهم لدعوة الله تركهم وغادرهم مهاجرًا إلى الله ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ولم يذكر الله عنه شيئًا من الانقلابات السياسيّة ولا إعداد العدد ولا تمهيد السبيل إليها.

ولنكمل قصّة إبراهيم ﷺ، كانت هجرته إلى الشام ثمّ بعد زمن ذهب بزوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى مكّة؛ وهي آنذاك خالية من السكان ومن كلّ أسباب الحياة حتى الماء، وترك زوجته وولده بإذن من الله وعاد إلى الشام، فانطلق حتى إذا كان عند الثنيّة حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثمّ دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

ثمّ بيّن الغاية من ذلك فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

وقد زار إبراهيم ﷺ ابنه إسماعيل ﷺ مرّتين فلم يجده إذ يصادف خروجه لابتغاء الرزق، فيعود إبراهيم أدراجه، ثمّ زاره في الثالثة فوجده فلما رآه قام إليه فصنعا ما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثمّ قال: يا إسماعيل! إنّ الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربّك، قال: وتعينني؟

قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتًا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

---

(١) مختصر من حديث طويل أخرجه البخاري، (٦٠) كتاب الأنبياء، (٩) باب يزفون النسلان في المشي، حديث (٣٣٦٤).

فهذه قصة إبراهيم في الكتاب والسنّة وهو يدعو قومه إلى الله، ويقيم عليهم الحجج ثم يحطّم أوثانهم ثمّ يهاجر، وهذه رحلته من الشام إلى ولده إسماعيل بمكة بواد غير ذي زرع وقد وضع ولده في هذا الوادي وبيّن الغاية من وضعه فيه ثمّ لما شبّ ولده قاما ببناء البيت وقال الله لهما: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

فهل يؤخذ من هذه الأعمال هجرته من بلاده بلاد الحضارة إلى بادية الشام ثم وضعه ولده في بلد غير ذي زرع خالٍ من السكان ومن أسباب الحياة، ومن غايته التي أعلنها ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

هل يؤخذ من هذه الأعمال أنّه كان يمهّد السبيل ويعد العدد لإحداث انقلاب سياسي؟!!

ومتى قام عيسى فعلًا بالحركة الانقلابية؟!! وكيف توقّف أو أحبط هذا الانقلاب؟!! وما هو البرهان على هذا القول الخطير؟!!

وكيف لم يبلغ إلا موسى ومحمد فقط إلى منازل الفوز والنجاح؟!! مع أنّه قد سعى كلّ نبي وكل رسول لإحداث الانقلاب السياسي- كما يزعم المودودي- فكيف لم يبلغوا إلى منازل الفوز والنجاح وهم يزيدون على عشرين ومائة ألف؟!!

ألا ترى معي إلى ثمار الغلو المرّة وإلى نتائجه الصعبة الخطيرة التي تزلزل الإيمان والعقيدة؟! فإذا كان اثنان فقط من أعداد الأنبياء الهائلة قد وصلا إلى منازل الفلاح والفوز أفلا يحكم القارئ الكافر والضعيف الإيمان والجاهل على الأنبياء الآخرين بالفشل والخسران؟ وحتى المؤمن القوي ألا يخاف عليه أن يهتز إيمانه ويضطرب إذ كيف ينجح الكفرة من الأكاسرة والقياصرة والفراعنة وغيرهم من الكفرة في الماضي والحاضر ويصلون إلى ما يصبون إليه من إقامة الدول العظيمة والحضارات الراقية ولم تصل جهود الأنبياء إلى منازل الفوز والنجاح؟!!

إذا كنّا نحن نرسم للأنبياء هذه الغايات ونحكّم في دعواتهم وأعمالهم

الحيالات، فإن النتائج ستأتي سيئة جدًا والمشاكل ستكون عويصة يصعب حلها، وإذا كنا نعتمد في تحديد غاياتهم وفي رسم أعمالهم على كتاب الله الخالد وسنة رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى فإننا نكون متبعين للمنهج القويم.

وقد حدد الله غاياتهم وبين دعواتهم فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

فهذه مهمتهم وهذه غايتهم دعوة إلى توحيد الله وتحذير من الشرك والمعاصي، وتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين المعاندين.

وقد أدوا واجبهم ووصلوا جميعًا إلى منازل الفلاح والنجاح، ونصرهم الله على أعدائهم في الدنيا وينصرهم غدًا يوم يقوم الأشهاد، والكافرون- بهذه المقاييس الصحيحة- هم الفاشلون الأخسرون المغلوبون في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣]

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]

وقد أخبر الله كيف انتصر لأنبيائه على أعدائهم الكافرين في قصص كثيرة من القرآن.

قال تعالى عن نوح ﷺ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٠- ١٥].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ

وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٤-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧-٣٩].

فهذه انتصارات ساحقة للمرسلين وفوز وفلاح مبين وهزائم وخسائر ودمار وتتبير للكافرين.

فبهذه الموازين والمقاييس الربانية الحقة، الأنبياء جميعًا وصلوا إلى منازل الفوز والفلاح؛ لأنهم جميعًا أدوا واجبهم وبلغوا رسالات ربهم التي كلّفوا بتبليغها وكانت نهاية أعدائهم ما قصّه الله عنهم، وبالمقاييس السياسية أو الخيالية أو قل ما شئت لم ينجح إلا محمد وموسى ﷺ.

هذا نقوله على منطق هؤلاء، وإلا فنحن نبرئ موسى ومحمدًا -عليهما الصلاة والسلام- من السعي لإحداث انقلاب سياسي وننزه نجاحهما وفلاحهما أن يكون قائم على هذا الأساس.

نأتي إلى قصة موسى ﷺ وقصة انتصاره وفلاحه، لقد نصره الله حقًا على فرعون وجنده النصر المبين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٤-١١٦].

كيف تمّ هذا النصر؟ هل كان عن طريق إحداث انقلاب سياسي توصّل به موسى إلى اعتلاء عرش مصر؟

الجواب الحق: هو ما أخبر الله به في القرآن العظيم.

أنّ الله اصطفى موسى برسالته وبكلامه، وكلّفه بدعوة فرعون إلى الله فامتثل أمر ربه، وأقام الآيات البينات على صدق رسالته، ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠-٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٣-٢٥].

وزاده قومه إغراء بموسى وقومه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

موقف موسى ﷺ إزاء هذا الطغيان وفيه عبرة للدعاة إلى الله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وبلغ السيل الزبى ورفع بنو إسرائيل عقيرتهم إلى موسى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

انظر إلى تربية الأنبياء وإلى صبرهم في مواجهة الأهوال والشدائد، ثمّ أخذ الله ينكل بفرعون وقومه لعلّهم يذكرون.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

ثمّ أراد الله أن يهلكهم ويدمرهم وينقذ موسى وبني إسرائيل من ويلاتهم فرسم لهم خطة حكيمة ليس فيها ثورة ولا انقلاب سياسي؛ لأنّ شرائع الأنبياء وأخلاقهم تأبى الغدر والمؤامرات السريّة وإراقة الدماء للوصول إلى الحكم مهما كانت الغاية نبيلة.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٧].

تلك هي الوسائل التي تذرع بها موسى ومن آمن به من قومه، صبر على الشدائد وعلى الذبح والتقتيل لا يهز ذلك إيمانهم ولا يزعزع عقيدتهم ولا يقل صبرهم، وكانت الطريقة إلى نصرهم وإهلاك عدوهم هي الطريقة التي رسمها لهم ربهم وقرآنها الآن، لا رائحة فيها للسياسة ولا لإحداث انقلاب سياسي.

وهنا شيء آخر لو كان موسى يسعى لإحداث انقلاب سياسي ويسعى جادًا لإحراز مقاليد السلطة ولإقامة الدولة الإلهية الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله لكرَّ فورًا راجعًا إلى مصر لأنَّ الفرصة الآن مواتية جدًا، فقد أهلك الله فرعون وجنوده ولم يبق إلا النساء والصبيان والخدم.

فلماذا إذن لم ينتهز موسى هذه الفرصة ويقيم الدولة الإلهية في بلد وصفه الله بقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٧]، ويقيم في صحراء سيناء بلا دولة ولا سلطان ولا حكومة إلهية؟!!

إذن؛ لابدَّ أن نقول: إنَّ موسى كان رسولًا كريمًا عظيمًا ومن أولي العزم والقوة، وقد أدى الرسالة على أكمل الوجوه وأتمها.

وأهلك الله على يده الطاغية فرعون وجنده وأنقذ الله على يديه بني إسرائيل وكفاه ذلك شرفًا ونبلًا، وكفاه ما أحرزه من نصر على فرعون وقومه

أمَّا محمد ﷺ فهو رجل عقيدة من الطراز الأول ورسول هداية، وقد صبر في سبيل هذه العقيدة على ما لا تحتمله الجبال وعرض عليه الملك من أول أمره فرفضه، وما آتاه الله من نصر وقيام دولة الإسلام إلَّا جزاء صبره وتقواه وتحمله، فهي رسالة ودعوة وثمارها لا انقلابا سياسيًا حاشاه ثم حاشاه وقد قدَّمنا شرح دعوته بشيء من التفصيل ولا داعي للإعادة[1].

ومما يؤخذ على هذا الاتجاه عمومًا أنَّهم قد وضعوا قاعدة وهي: أنَّ الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، وهي قاعدة عظيمة[2] لو طبقت على منهج السلف الصالح بدون غلو.

---

(١) انظر (ص: ٢٩٠).

(٢) لكن مع الأسف قد طغوا عليها قاعدة أخرى وهي «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلف فيه»، وهي عبارة واسعة وسعت كل الخلافات في الأصول والفروع من كل الفرق المنتسبة إلى الإسلام بل امتدت على أيدي بعضهم إلى الدعوة إلى وحدة الأديان وعقد مؤتمرات لذلك

لكنك ترى القوم يخالفونها مخالفة شديدة مع الأسف وذلك أنّ تعلقهم الشديد بإقامة الدولة الإسلامية - ويسمون ذلك: بالدعوة إلى الحاكميَّة- قد شغلهم عن الاهتمام بأصل الإسلام الذي هو التوحيد بأنواعه، ولم يدركوا إلى الآن بسبب ذلك الانشغال أنَّ موجبات الاهتمام بالدعوة إلى التوحيد قائمة على أشدها كما هي في عهود النبوات كلها بمن فيهم محمد ﷺ أو أشد.

فهل يستطيع أن ينكر ذلك عاقل منصف؟!

وهل يقول أو يعتقد مسلمٌ ورع أنَّ المسلمين اليوم مثل المسلمين في القرون المفضلة لا يستمدون عقائدهم وعباداتهم إلا من الكتاب والسنَّة.

إنَّ الدعوة إلى الحاكميَّة وتطبيقها أمر مهم ويهم كلَّ مسلم يفهم الإسلام - إذا روعيت شروطها - وكل ما جاء به الرسول ﷺ مهم وعظيم

لكنّنا نتساءل: هل الدعوة إلى الحاكميَّة تستلزم الإهمال أو التقصير في أصل أصول الإسلام؟

الجواب: لا.

إن حاكميَّة الله يجب أن تبدأ من أعظم شيء في الإسلام ألا وهو الاعتقاد في الله وفي أسماء جلاله وصفات كماله كما تعرّف الله إليك بها في كتابه العظيم وكما علّمنا نبينا الكريم ﷺ لتمتلئ قلوبنا بها نورًا وإيمانًا ويقينًا وإعظامًا وإجلالًا.

أيجوز في حاكميَّة الله ودينه أن تعطل أسماء جلاله وصفات كماله وهي أسمى وأجل وأعظم ما ضمّه كتاب الله وسنَّة نبيه؟!!

لماذا لا نطلب من علماء المسلمين بالحاح أن يحكموا كتاب الله وسنَّة نبيّه في هذا الأمر الخطير؟!!

أيجوز في حاكميَّة الله وشرعه ونظامه أن يخالف كثير وكثير من المسلمين منهج الأنبياء في توحيد العبادة وإخلاصها لله ويتخذوا مع الله أندادًا يدعونهم ويستغيثون بهم ويهتفون بهم في الشدائد ويمعنون في ذلك حتى يشركونهم في الربوبيَّة فيعتقدون فيهم أنّهم يعلمون الغيب ويتصرّفون في الكون؟!!

أليس هذا عدوانًا على أعظم حقوق الله؟!!

أليس هذا هو أظلم الظلم؟!!

فأين الدعوة إلى الحاكميَّة إذن وأين هي العدالة؟!!

أيجوز في حكم الله وشرعه أن نغض الطرف عن الصوفيَّة وهي تعبث بعقائد المسلمين وعقولهم فتفسدها وتدمّرها بعقيدة الحلول ووحدة الوجود ووحدة الأديان... وبغير ذلك من ضلالات التصوّف؟!!

أيجوز في حاكميَّة الله ودينه أن تشاد الألوف من القبور في معظم بلدان الإسلام ليطاف بها ويعتكف حولها وتشدّ إليها الرحال وينذر لها بالكثير من الأموال، وتقام لها الاحتفالات ويفعل المسلمون حولها وبها ما يندى له جبين الإسلام، وما يضحك من المسلمين والإسلام أعداءه من الوثنيين واليهود والنصارى والشيوعيين؟!!

أيجوز في حاكميَّة الله أن تموت السنن وتقوم على أنقاضها البدع والخرافات والأساطير؟!!

إنّ هذه الضلالات والشركيّات والبدع قد طمست معالم التوحيد ومعالم الإسلام عمومًا.

إنّني أرجو من عقلاء هذا الاتجاه أن يحاولوا - بعد مراقبة الله في أنفسهم وفي الأمّة - أن يقدروا منهج الأنبياء حقّ قدره وأن يعطوا كلّ جانب من الإسلام ما يستحقه من الجهد، وأن يضعوا نصب أعينهم قول رسول الله ﷺ: «لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النّعم».

لقد كان يقال لنا: إنّ هذه الأمور - البدع والشركيات - انتهت ودفنت، فكشفت الأيام أنّها حيّة باقية على أشدّها ولها مدارس وحكومات تؤيدها وتحميها ولها أحبارها ورهبانها وسدنتها، فلماذا لا تُفهم المسلمين أنّ الأعمال الجاهليّة تضاد حاكميَّة الله؟.

ولماذا لا تدعوا أهلها إلى التحاكم إلى الله والخضوع في كل هذه المجالات لحاكميَّة الله؟.

فإن كان أخوتنا المهتمون بالحاكميَّة يدركون ويوقنون أن هؤلاء الذين يعملون

هذه الأعمال ويعتقدونها مخالفون لحاكميّة الله وغير خاضعين لها في هذه التصرفات فليشمروا عن ساعد الجدّ، وليخوضوا هذا الميدان بكل قوّة وجدٍّ وليضعوا فيها المناهج، وليؤسسوا لها المدارس، وليؤلفوا الكتب، وليهزوا أعواد المنابر بالخطب البليغة والتوجيهات السديدة.

فإنه في اعتقادي لو جاء إبراهيم ونوح وموسى ومحمد وإخوانهم من النبيين والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وجاء الصحابة أجمعون ما سلكوا إلا منهجهم الذي حكاه عنهم القرآن ولمحوا من الوجود هذه المقابر المشيدة وكل مظاهر الشرك والضلال، ولقال محمد ﷺ لأصحاب الكلام والمعطلة والمتفلسفة وكل الفرق المنحرفة عن القرآن والسنّة: عودوا إلى القرآن والسنّة «والله لو جاء موسى ما وسعه إلّا اتباعي».

أتظنون أنّ هذه الأمور هيّنة وسهلة ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، كلا ليس الأمر كما تتوهمون أو كما يقال لكم، إنْ إفساد علماء السوء والأحبار والرهبان وقادة البدع أشد وأخطر من إفساد الحكام وغيرهم؛ لأن النّاس يخدعون بهم فيحبونهم ويثقون بأقوالهم ومناهجهم فيتبعونهم ويضلون عن منهج الله بسببهم.

تعالوا معي إلى القرآن الذي يهدي إلى التي هي أقوم والذي يعالج الأمراض والأخطار عن علم، لأنه تنزيل من عليم حكيم خبير.

لقد عاصر النبي ﷺ اليهود وليس لهم دولة وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة.

فكم آية نزلت فيهم وفي كم موطن من القرآن ذُمّوا وكشف عن عوارهم وبينت مخازيهم وخبث طواياهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ

ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٥٩-٦٤].

وقال في حقهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وعاصر الرسول ﷺ النصارى ولهم دول وملوك، دولة القياصرة في أوروبا والشام ومصر ودولة الأحباش في الحبشة وأفريقيا، فهل واجه القرآن حكامهم وملوكهم أو واجه النصارى أنفسهم وانحرافاتهم وعلى رأسهم رهبانهم وقسسهم؟!!

تعالوا إلى القرآن ليخبرنا من هو الأحق بالمواجهة ومن واجه فعلًا.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال في اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ودخل عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية فقال: والله يا رسول الله ما نعبدهم.

فقال له: «أليسوا يحلون الحرام فتحلونه ويحرمون الحلال فتحرمونه؟»، قال: بلى. قال: «فتلك عبادتهم».

وقال الله في حق اليهود والنصارى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وتوفي رسول الله ﷺ وهو يلعن اليهود والنصارى على انحرافهم العقائدي فكان يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1].

والآيات والأحاديث في ذمهم وفي انحرافهم العقدي والخلقي كثيرة، وكذلك الأحاديث الشريفة ولم يذكر آيةً في ذمّ ملوك النصارى وحكامهم المعاصرين للعهد النبوي الكريم على شرهم وخبثهم.

فلماذا تسير الدعوة الإسلامية في هذا الاتجاه؟

لأنَّ هذا هو منهج الدعوة الصحيح، ولأن الزعامات الدينية المنحرفة أخطر بكثير من الزعامات السياسيَّة المنحرفة، لأنَّ الزعامات الدينيَّة تكسب ثقة النَّاس ومحبتهم وولاءهم وينقاد النَّاس لها اختيارًا وحبًا، فإذا كانت هذه الزعامات الدينيَّة ضالَّة منحرفة انحرفت بالنَّاس عن منهج الله وقادتهم إلى غضب الله والنار، وحتى الحكام أنفسهم قد يخضعون لهذه القيادات والزعامات الدينيَّة فهذا يهودي خاضع لزعامة دينيَّة، وهذا نصراني كذلك وفيمن ينتمي إلى الإسلام ذاك شيعي وذاك معتزلي وذاك أشعري وذاك خارجي وذاك صوفي وذاك... وذاك.

فالزعامات والقيادات الدينيَّة المنحرفة هي التي أفسدت عقائد هذه الأمَّة وأخلاقها وعباداتها وثقافاتها ومزّقتها شرَّ ممزّق، فلماذا نجاملها ونهوّن من شأنها ومن خطرها وهي مصدر كلّ بلاء؟!!

فهناك التشيع والرفض وفرقها ومن اندس تحتها من زنادقة وملاحدة

---

(١) تقدم تخريجه.

وهناك أئمة التصوّف وطرقها الكثيرة وأفكارها الضالّة من وحدة وجود ووحدة أديان وحلول وشركيّات وبدع، وضلالات لا تنتهي عند حدّ، وهناك أئمة الخوارج والاعتزال والإرجاء والجبر، وكلّ هذه الزعامات قد لفّت الأمّة بطوفان من الفتن لا يعلم مداها إلا الله، وأكثر المسلمين إنّما هم دمى وأشباح تحركهم هذه الأفكار كغثاء تجرفه السيول.

فمن يريد إصلاح أحوال المسلمين مخلصًا جادًّا صادقًا فليسلك طريق الأنبياء ومنهجهم وعلى رأسهم خاتم النبيين وقد وضحناه مرارًا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

واعتقد أنّ من ينحرف بالشباب والدعاة عن هذا المنهج لم يعرف على أحسن أحواله منهج الأنبياء ودعوتهم سواء كانت دعوته سياسيّةً أو صوفيّةً أو غيرها، فقد تركنا رسول الله على بيضاء لا يزيغ عنها إلّا هالك.

ومن يصوّر للنّاس أنّ منابع الفساد هم الحكام فقط فهو مخالف لما قرّره القرآن الكريم والسنّة النبويّة والتّاريخ الإنساني والإسلامي، ومستدرك على منهج الأنبياء خصوصًا إذا وجّه الدعاة إلى حصر جهودهم وصبّها في المجال السياسي

فمنابع الفساد الأساسيّة والأصليّة والخطيرة هي التي قررها الله على ألسنة رسله جميعًا ورسم لهم منهجًا لردمها وما عداها فهو تابع لها فليفهم الداعي إلى الله ذلك وليعتصم بحبل الله وليلزم غرز الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-.

يقولون هناك مبشرون وهناك شيوعيون وهناك صهيونيّة وهناك استعمار فلنترك المسلمين على ما هم عليه ولنوجّه قوّتنا ضد هذه الأخطار المحدقة بالمسلمين وأقول حاربوا هذه الأشياء بكل ما أوتيتم من قوّة وبارك الله في جهودكم ونحن والله معكم ولكن على أساس ألّا تشغلنا عن إصلاح عقائد المسلمين وأخلاقهم فإن إذا رسخنا عقائد الأنبياء ومناهجهم في عقول المسلمين ونفوسهم فقد وضعنا أعظم سدّ في وجه هذه القوى الخبيثة من شيوعية ومبشرين وغيرهم؛ بل سيكون المسلمون هم المهاجمون لهذه القوى وإن تركناهم مرضى مهزوزين في عقائدهم

فمهما بذلنا من جهد في محاربة هذه القوى فإنها سوف تستطيع التسلل والنفوذ إلى عقول الكثير الكثير من هؤلاء المرضى والمهزورين لأننا لم نحصنهم بعقائد الأنبياء ومنهجهم.

ومن سلم منهم من غزو هذه القوى؛ فإنه يموت على غير منهج الأنبياء ومن سيكون مسئولاً عنهم أمام الله إذن.

هذه بعض النماذج من أفكار الأستاذ المودودي وأفكار هذا الاتجاه والتي آمن بها كثير من النّاس في الشرق والغرب، وأصبحت في نظرهم هي لبّ الإسلام وهي غايتهم النهائيّة التي من أجلها يكافحون وفي سبيلها يضحّون.

ولقد أسهم في تقوية هذا التيار الذي أحدثه فكر الأستاذ المودودي وأمثاله أقوال بعض الكتاب الإسلاميين مثل الأستاذ عبد القادر عوده الذي قال: «أحكام الإسلام شرعت للدنيا وللدين، والأحكام التي جاء بها الإسلام على نوعين:

١- أحكام يراد بها إقامة الدين، وهذه تشمل أحكام العقائد والعبادات.

٢- وأحكام يراد بها تنظيم الدولة والجماعة وتنظيم علاقات الأفراد والجماعات بعضهم ببعض، وهذه تشمل أحكام المعاملات والعقوبات والأحوال الشخصيّة والدستوريّة والدوليّة... إلخ.

فالإسلام يمزج بين الدين والدنيا وبين المسجد والدولة، فهو دين ودولة وعبادة وقيادة، وكما أنّ الدين جزء من الإسلام فالحكومة جزؤه الثاني بل جزؤه الأهمّ» !!![1]

كلام خطير وبعيد عن الدقة.

فأين أدلته وبراهينه الواضحة الصريحة على أن الحكومة أهم من التوحيد بأنواعه الثلاثة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وأهم من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

---

(١) «الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه» (ص ٨٠)، وقد طبعته إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ولم تنبه على ما في هذا الكلام من خطأ.

وأهم من أركان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام وسائر العبادات والأذكار والأدعية.

الحكومة حق من حقوق الإسلام وواجب من واجباته ثم إن كان المراد رجال الحكومة فليس جزءًا من الإسلام، وإن كان المراد بها النصوص الإسلاميّة التي تطبقها الحكومة فهي فعلًا جزء من الإسلام ولكنّه يمثل النصوص المتعلقة بالأمور الفرعيّة التي هي المعاملات والعقوبات والأحوال الشخصية... إلخ

فلا تمثل الأساسيات والأصول بل تمثل بعض الفروع فلا يجوز أبدًا أن يقول مسلم أو يعتقد أنها الجزء الأهم من الإسلام، وقد بيّن الرسول الكريم والقرآن العظيم أركان الدين وأركان الإسلام، وليس في هذا البيان ما يصرح أو يلمح إلى أن الحكومة هي الجزء الأهم من الإسلام.

وعلى كلّ حال مثل هذه العبارات تقود إلى الغلو في الناحية السياسية وإلى إهمال ما هو أهم منها من الدعوة إلى عبادة الله ومحاربة الشرك والبدع ومن نشر جوانب الإسلام الأخرى.

ولقد أدرك عقلاء المسلمين عمومًا وبعض قادة هذا الاتجاه ما آل إليه أمر شباب هذا الاتجاه من غلو بالاهتمام بالسياسة أضر بالعقيدة وبالدعوة إلى الله وبالشباب أنفسهم.

فقدموا إليهم النصيحة، ومن هؤلاء:

١- قال سيد قطب[1] رحمه الله: «وبعد مراجعة ودراسة طويلة لحركة الإخوان المسلمين، ومقارنتها بالحركة الإسلاميّة الأولى للإسلام أصبح واضحًا في تفكيري، أنّ الحركة اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات

---

(١) جريدة المسلمون الدوليّة «المسلمون»، السنة الأولى العدد الثالث، الصادر في يوم السبت الموافق ٤/ جمادى الآخرة/ ١٤٠٥هـ، (ص ٦)، حلقة من سلسلة مقالات تحت عنوان (لماذا أعدموني)، وقد طبعت في كتاب مستقل يحمل نفس الاسم «لماذا أعدموني»، وهي فيه (ص ٢٨)

البشريَّة يوم جاء الإسلام أوَّل مرة من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلاميَّة والبعد عن القيم والأخلاق الإسلاميَّة وليس فقط البعد عن النظام الإسلامي والشريعة الإسلاميَّة، وفي الوقت نفسه توجد معسكرات صهيونيَّة وصليبيَّة استعماريَّة قويَّة تحارب كلّ محاولة للدعوة الإسلاميَّة، وتعمل على تدميرها، عن طريق الأنظمة والأجهزة المحليَّة بتدبير الدسائس والتوجيهات المؤدية لهذا الغرض.

ذلك بينما الحركات الإسلاميَّة تشغل نفسها في أحيان كثير بالاستغراق في الحركات السياسيَّة المحدودة المحليَّة، كمحاربة معاهدة أو اتفاقيَّة وكمحاربة حزب أو تأليب خصم في الانتخابات عليه، كما أنَّها تشغل نفسها بمطالبة الحكومات بتطبيق النّظام الإسلامي والشريعة الإسلاميَّة بينما المجتمعات ذاتها بجملتها قد بعدت عن فَهم مدلول العقيدة الإسلاميَّة والغيرة عليها، وعن الأخلاق الإسلاميَّة.

ولابد إذن أن تبدأ الحركات الإسلاميَّة من القاعدة، وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلاميَّة في القلوب والعقول وتربية من يقبل هذه الدعوة، وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلاميَّة صحيحة، وعدم إضاعة الوقت في الأحداث السياسيَّة الجارية، وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النّظام الإسلامي؛ لأنَّها عرفته على حقيقته وتريد أن تحكم به...

إذ إنَّ الوصول إلى تطبيق النظام الإسلامي والحكم بشريعة الله ليس هدفًا عاجلًا؛ لأنَّه لا يمكن تحقيقه إلا بعد نقل المجتمعات ذاتها أو جملة صالحة منها ذات وزن وثقل في مجرى الحياة العامَّة إلى فهم صحيح للعقيدة الإسلاميَّة[1]، ثمّ للنظام الإسلامي وإلى تربية إسلاميَّة صحيحة على الخلق الإسلامي مهما اقتضى ذلك من الزمن الطويل والمراحل البطيئة».

«هذا الطرف كان يحتم عليَّ أن أبدأ مع كلّ شاب وأسير ببطءٍ وحذر من ضرورة فهم العقيدة الإسلاميَّة فهمًا صحيحًا قبل البحث عن تفصيلات النظام والتشريع

(١) لا يغتر بقول سيد: العقيدة - فهو يذكرها كثيرًا - وهي خليط من عقائد شتى وليست هي عقيدة أهل السنة والجماعة فتنبه لهذا

الإسلامي وضرورة عدم إنفاق الجهد في الحركات السياسيَّة المحليَّة الحاضرة في البلاد الإسلاميَّة، للتوفر على التربية الإسلاميَّة الصحيحة لأكبر عدد ممكن.

وبعد ذلك تجيء الخطوات التالية بطبيعتها بحكم اقتناع وتربية قاعدة في المجتمع ذاته؛ لأنَّ المجتمعات البشريَّة اليوم بما فيها المجتمعات في البلاد الإسلاميَّة قد صارت إلى حالة مشابهة كثيرًا أو مماثلة لحالة المجتمعات الجاهليَّة يوم جاءها الإسلام[1] فبدأ معها من العقيدة والخلق لا من الشريعة والنظام.

واليوم يجب أن تبدأ الحركة والدعوة من نفس النقطة التي بدأ منها الإسلام، وأن تسير في خطوات مشابهة مع مراعاة بعض الظروف المغايرة»[2].

وهذا الكلام من سيد وغيره- مما أصابوا فيه- كلام جيد، وهو تراجع عن الانهماك في السياسة، ولكن وللأسف لم يتراجع سيد وغيره عن الأخطاء العقديَّة والفكريَّة التي ما زالت تقرأ وتدرَّس. . . وكل ذلك استدعى منَّا أن ننبه على تلك الأخطاء الفكريَّة والعقديَّة من سيد في بحث خاص يسَّر الله طبعه[3].

٢- وقال الأستاذ عمر التلمساني ﷺ وقد هاله انهماك الشباب في الناحية السياسيَّة وعدم الاهتمام بالنواحي الإسلاميَّة الأخرى: «ولكن وللأسف وأنا أكتب هذا في مطلع الثمانينات كاد عمل الشباب الذي يعمل في الحقل الإسلامي يقتصر على الناحية السياسيَّة التي ذهبت بالجزء الأكبر من جهودهم مما كبَّدهم الكثير وأضاع عليهم الكثير، وكأنه لم يعد في دعوة الله إلا الناحية السياسيَّة!!!. . .».

---

(١) يظهر من هذا أن سيد قطب لا يزال مصرًّا على ما قرره في كتابه كالظلال ومعالم في الطريق والعدالة الاجتماعية بأنَّ المجتمعات الإسلامية مجتمعات جاهلية وأن الإسلام يرفض الاعتراف بشرعيتها وإسلامها، واستشهدنا بكلامه هذا بالنظر إلى ما توصل إليه من أن الانهماك في السياسة يضر شباب الإسلام ولا ينفعهم.

(٢) لماذا أعدموني (ص ٦- ٧) من الجريدة، و(ص ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٤) من الكتاب.

(٣) وقد يسر الله طبعه فعلًا في كتاب سميته «أضواء إسلاميَّة على عقيدة سيد قطب وفكره»، كما يسَّر الله تأليف كتب أخرى في بيان ضلالات سيد قطب ألا وهي: «مطاعن سيد في أصحاب رسول الله» و«الحد الفاصل بين الحق والباطل» و«العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم».

ثمّ قال مشيرًا إلى الأسباب التي تدفعهم إلى الانهماك في السياسة: «ولا شك أنَّ الأحداث السياسيَّة المتلاحقة والطرق التي عالجتها بها الحكومات المتوالية فرضت نفسها فرضًا على الصعيد المصري حتى أصبح من المتعين على الشباب المسلم أن يبدي رأيه فيما يحدث وأن يقترح العلاج، ومن يعارض في إبداء طلبة الجامعات رأيهم فيما يعرض لبلده داخليًا وخارجيًا إنَّما يحرمهم حقًّا طبيعيًا لهم...».

ثمّ قال: «ولكني في نفس الوقت آخذ على طلبة الجامعات أنَّهم يكادون يحصرون جهودهم في الناحية السياسيَّة وبأساليب لا أقرّهم عليها، أنَّهم أصبحوا لا يقيمون مؤتمرًا في الجامعة أو الأزهر أو أيّ مكان آخر إلّا لغرض سياسي، ثمّ يا ليتهم يكونون موضوعيين في هذه المؤتمرات وهذا ما يجب أن يفهموه ويلزموا به أنفسهم...»[1].

لقد أصاب الأستاذ التلمساني في استنكاره هذا الغلو في الجانب السياسي، ولكنّه قصّر في دراسة أسبابه.

وإنَّ ما ذكره لاشك أنَّه من الأسباب ولكن هناك أسباب أهم وأقوى تأثيرًا منه في عقول الشباب وعواطفهم، ألا وهي الأفكار السياسيَّة التي تربوا عليها من مثل أفكار المودودي التي ناقشناها فيما مضى من هذا البحث وهي غيض من فيض من كتاباته وكتابات غيره من قادة هذا الاتجاه.

وإن كان بعض قادة هذا الاتجاه قد أدرك ما وصل إليه الشباب من ولوع بالسياسة وغلو فيها إلى درجة «أنهم يكادون يحصرون جهودهم واهتمامهم في الناحية السياسيَّة وبأساليب لا أقرّهم عليها» كما يقول الأستاذ عمر التلمساني؛ فلماذا لا يعيدون النظر - رحمة بهذا الشباب - في مناهج تربيتهم وفي تلك الأفكار السياسيَّة الخطيرة التي يجب أن يدرسوها دراسة واعية في ضوء الكتاب والسنَّة فيقر ما وافق القرآن والسنَّة ويترك ما لم يوافقهما

---

(١) الموهوب أستاذ الجيل (ص: ٩٠).

إنَّه لابد من تربية الأمَّة على العقيدة الصحيحة ولابد من الانطلاق بها من هذه القاعدة، فالله نسأل للأمَّة الإسلاميَّة ولدعاتها التوفيق إلى الأخذ بمنهج الأنبياء الذي فيه سعادتهم وسيادتهم.

* * *

الخاتمة

وفي الختام أقول: إنني أؤمن بحاكميَّة الله وأن الحكم لله وحده وأؤمن بشمول هذه الحاكميَّة وأنَّه يجب أن يخضع لها الأفراد والجماعات والحكام والدعاة.

وأن من لم يحكم بما أنزل الله في دعوته وفي عقيدته وفي دولته فأولئك هم الظالمون وهم الكافرون وهم الفاسقون كما قال الله تعالى، وكما فهمه السلف الصالح، لا على ما فهمه المفرطون ولا المفرِّطون، وأنحي باللّائمة على من يحصرها في ناحية من النواحي أو يخالف منهج الأنبياء الواضح الحكيم ويبدأ بالفروع قبل الأصول وبالوسائل ويجعلها غايات ويؤخر أو يقصّر في شأن الغايات الحقيقيَّة التي تتابع عليها جميع الأنبياء.

وأمدّ يد الضراعة إلى الله أن يوفق المسلمين جميعًا شعوبًا وحكامًا ودعاة إلى تحكيم كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ في جميع شئونهم العقائديَّة والأخلاقية والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة، وأن يوحد كلمتهم ويوحد صفوفهم على الحق وأن يعافيهم من كلّ الأهواء والأمراض النفسيَّة التي مزقت صفوفهم وفرّقت كلمتهم، إنَّ ربي لسميع الدعاء وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

* * *

ثبت مراجع ومصادر البحث

١- إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، للشوكاني
٢- الأحكام السلطانية، للماوردي.
٣- الأحكام السلطانية، لأبي يعلى.
٤- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر.
٥- الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، للمودودي
٦- الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه، لعبد القادر عودة.
٧- البداية والنهاية، لابن كثير.
٨- تجديد الدين، للمودودي.
٩- التفسير «جامع البيان»، للطبري.
١٠- التفسير «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير.
١١- تقريب التهذيب، لابن حجر.
١٢- تهذيب التهذيب، لابن حجر.
١٣- حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني.
١٤- الحسبة في الإسلام، لابن تيمية.
١٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني
١٦- السنن، لأبي دواد.
١٧- السنن، للترمذي.
١٨- السنن، لابن ماجة.
١٩- السنن، للنسائي.
٢٠- السنن، للدارمي.
٢١- سير أعلام النبلاء، للذهبي.
٢٢- السنة، لابن أبي عاصم.
٢٣- السيرة النبوية، لابن هشام.

٢٤- الصحيح - فتح الباري -، البخاري شرح ابن حجر
٢٥- الصحيح، مسلم.
٢٦- الطبقات الكبرى، لابن سعد.
٢٧- عيون الأثر في سيرة سيد البشر، لابن سيد الناس
٢٨- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، للذهبي.
٢٩- كشف الأستار عن زوائد البزار، للهيثمي.
٣٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي
٣١- المسند لأحمد بن حنبل.
٣٢- المسند، لأبي يعلى الموصلي.
٣٣- المسند، لأبي عوانة.
٣٤- المسند، للطيالسي.
٣٥- المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري.
٣٦- المعجم الكبير، للطبراني.
٣٧- المنتخب من مسند عبد بن حميد، لعبد بن حميد.
٣٨- منهاج السنة النبوية، لابن تيمية.
٣٩- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، للهيثمي.
٤٠- الموطأ، لمالك بن أنس.
٤١- الموهوب أستاذ الجيل، عمر التلمساني.
٤٢- النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير.
٤٣- جريدة المسلمون/ السنة الأولى/ (عدد ٣)، السبت (٤/ ٤/ ١٤٠٥هـ).

* * *



النصيحة هي المسئولية المشتركة

في العمل الدعوي

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد...

فهذا بحث متواضع قمت بإعداده تحت عنوان:

«النصيحة هي المسئولية المشتركة في العمل الدعوي»

أسأل الله تبارك وتعالى - أن ينفع به وأن يوفق الدعاة إلى الله في كل مكان للنهوض بهذه المسئولية على أكمل الوجوه وأبرها وأرشدها ولا شك أن الدعوة إلى الله القائمة على البصيرة والعلم والمنطلقة من الإخلاص لله رب العالمين والنصيحة له ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، هي من أفضل ما وَرِثَهُ الدعاة إلى الله بحق عن أنبياء الله ورسله الكرام، الهداة الناصحين وقدوة الدعاة إلى الله الصادقين الذين لا غرض لهم من وراء دعوتهم إلا مرضاة ربهم وهداية عباده وإرشادهم إلى تحقيق الغاية الكبرى التي خلقهم الله تعالى من أجلها وسخر لهم ما في السموات والأرض عونًا لهم على القيام بهذه المهمة العظمى وحقوقها ومستلزماتها.

ولعل من متطلبات البحث التعريج إلى تعريف الدعوة إلى الله وأفضل تعريف لها في نظري ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وإن كان على غير طريقة المنطقيين ومن قلدهم.

الدعوة إلى الله: هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقام

الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت.

والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره والدعوة إلى أن يَعبُد العبد ربه كأنه يراه فإن هذه الدرجات الثلاث التي هي الإسلام، والإيمان، والإحسان داخلة في الدين، كما قال في الحديث الصحيح: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم». بعد أن أجابه عن هذه الثلاث، فبين أنها كلها دين.

فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه، وأصل ذلك عبادته وحده لا شريك له كما بعث الله بذلك رسله وأنزل به كتبه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ...﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥][1].

ولعل من أحسن ما قيل في مكانة الدعاة إلى الله ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله:

«قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم وهم خلفاء الرسل في أممهم والناس تبع لهم والله ﷻ قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ ولو آية ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثًا.

وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٠).

(٢) بدائع التفسير (٤/ ١٠٣).

المسئولية المشتركة في العمل الدعوي هي النصيحة للأمة المسلمة

إذ للنصيحة مكانة عظيمة في الإسلام، النصيحة للمسلمين في عقيدتهم وعباداتهم في الدرجة الأولى، وفي دنياهم ومصالحهم وأمور معاشهم وفي كل شأن من شئونهم، ذلك هو منهج الرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام- قال رسول الله ﷺ: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتن فيرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي. ثُمَّ تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»[1].

هذه هي دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- نهاية النصح والأمانة الدلالة الكاملة على كل خير وفي مقدمته التوحيد والتحذير من كل شر وفي مقدمة ذلك الشرك، لقد أخبر الله -جل وعلا- عن المسئولية المشتركة في عملهم الدعوي أنه الدعوة إلى التوحيد وضد الشرك فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سورة النحل ٣٦] فلما كذبهم من كذبهم، وضللهم وسفههم من أممهم قال أولهم نوح -عليه الصلاة والسلام-: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف ٦١-٦٢]، وقال هود: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [سورة الأعراف ٦٨]. وقال صالح بعد أن أهلك الله قومه المكذبين: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [سورة الأعراف ٧٩]. وأخبر الله عن

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث (١٨٤٤)

عدد من رسله في سورة الشعراء أن كل واحدٍ منهم قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [سورة الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨].

فتبليغ رسالة محمد ﷺ على وجهها بدءًا بالدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك يجب أن يكون سمة بارزة ودعامة مكينة وقاعدة صلبة للدعاة إلى الله وذلك هو مقتضى النصيحة والأمانة وبرهان الوراثة الصحيحة وصحة المنهج الذي يسيرون عليه.

ولقد ركز رسول الله ﷺ على قضية النصيحة وذلك من البراهين على أهميتها في الدعوة إلى الله تعالى.

فعن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الدين النصيحة -ثلاثًا- قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم ثلاث: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[2].

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»[3].

وعن زياد بن علاقة قال: «سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة، قام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن ثُمَّ قال: استعفوا لأميركم، فإنه كان يحب العفو ثُمَّ قال:

أما بعد: فإني أتيت النبي ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط عليّ «والنصح لكل مسلم». فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إني لناصح لكم ثُمَّ

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود.

(٢) رواه مسلم ومالك وأحمد.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان حديث (٥٧)، ومسلم في الإيمان حديث (٥٦)

استغفر ونزل»[1].

أورد البخاري هذين الحديثين في كتاب الإيمان باب: قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة، لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وأورد مسلم أولهما في كتاب الإيمان - أيضًا - باب: بيان أن الدين النصيحة وهذا يدل على مكانة النصيحة عند الله، وعند رسوله، وأئمة الإسلام -رحمهم الله تعالى-.

* **أبرز مجالات النصيحة والأمانة أمران هما:**

١- الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك ووسائله كافة.

٢- الدعوة إلى اجتماع الأمة على أسس عقيدة التوحيد، وعلى أساس الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح من هذه الأمة، والنهي عن الفرقة والتفرق، والتكاتف بين الدعاة للقضاء على أسبابه.

أولًا:

أما الدعوة إلى التوحيد بكل أنواعه، فهي قاعدة الرسالات كلها ويجب أن تكون قاعدة الدعاة إلى الله من هذه الأمة في كل عصر من عصورها، وكل جيل من أجيالها تأسيًا بالرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام- وسيرًا على منهجهم الحكيم الذي كلفهم به مرسلهم رب العالمين حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى محذرًا لهم ولأممهم من الشرك: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

ولنعط القوس باريها ليحدثنا عن أهمية التوحيد، ومكانته في الإسلام، والاحتفاء به في كتاب الله القرآن الحكيم.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان حديث (٥٧)، ومسلم في الإيمان حديث (٥٦).

الله، ونزلت به كتبه، فوراء ذلك كله.

وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: وهو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤]. وأول سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجملة سورة «الأنعام» وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد بل نقول قولًا كليًا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد وشاهدة به، داعية إليه فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من نكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[1].

ومع أهمية كل أنواع التوحيد، وضرورة العناية بها تربية ودراسة وتوجيهًا، فإن أهمها وأولاها بالعناية وتكريس الجهود من الدعاة إلى الله جميعًا أفرادًا

---

(١) مدارج السالكين: (٣/٤٤٩-٤٥٠).

وجماعات لذلك: التوحيد الذي يحاربه الشيطان أشد الحرب في كل الأحقاب والأجيال من عهد نوح ﷺ إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة، ذلكم التوحيد العظيم الذي يبذل الشيطان، وجنوده كل جهودهم ومكايدهم لصرف بني آدم عنه.

عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: **«إن ربي ﷻ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مِمَّا علمني في يومي هذا كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لَهُم، وأمرتهم أن يشركوا بِي ما لَم أنزل به سلطانًا»**[1].

إن الدعوة إلى هذا التوحيد وإلى هدم ضده وهو الشرك بالله الذي لا يغفره الله، لهما موضع الصراع بين الأنبياء وأممهم وبين خاتم الرسل ﷺ وأعداء الله المشركين، وبين المصلحين من أئمة الإسلام وأهل البدع من القبوريين من شتى الطوائف الرافضية والصوفية الذين امتلأ كثير من بقاع العالم الإسلامي بمظاهر شركهم، من قبور وأعياد واحتفالات بل كثير من مساجد الله تضج من هذه القبور وما يدور حولها من قطائع الشرك بالله من هتافات واستغاثات، وذل وخضوع، وذبائح ونذور على مرأى ومسمع ورضا وتقرير من كثير من جماعات سياسية وصوفية تنتحل الدعوة إلى الله وتدعي هداية البشر إلى صراط الله.

إنني أذكر القراء بالمنهج السديد الذي سار عليه الرسل كلهم والأنبياء جميعهم وسادات المصلحين وأصدقهم في الدعوة إلى الله ومواجهة الواقع بصرامة وشجاعة دون تحايل ودون تهرب ولا مواربة.

هذا واضح بين في مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦] ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة حديث (٦٣).

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦]. والآيات في دعوات الرسل على التفصيل كثير لا يتسع المقام لسردها.

أما دعوة خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ فمعلومة لدى من له أدنى إلمام بدعوته وسيرته ﷺ فقد ظل ثلاثة عشر عامًا في العهد المكي يدعو إلى هذا التوحيد، ولَم تفرض الصلاة أهم ركن بعد التوحيد إلا في السنة العاشرة وسائر التشريعات، ومنها: الأركان العظام إلا في العهد المدني بعد هجرته -عليه الصلاة والسلام- ولَم يشرع الجهاد في العهد المدني إلا لإعلاء راية هذا التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

قال ابن جرير: «حتَّى لا يكون شرك بالله وحتَّى لا يعبد دونه أحد وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان».

قال قتادة: «حتَّى لا يكون شرك». وساق أسانيده بهذا التفسير إلى قتادة ومجاهد والسدي وابن عباس والربيع.

ومن السنة ما رواه أبو هريرة وجابر عن رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتَّى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابُهم على الله»**[1].

وما رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابُهم على الله»**[2].

ولا أريد التطويل بسرد الأحاديث في هذا المعنى إلا أني أريد أن أؤكد شمول الرسالات لكل خير وتحذيرها من كل شر وأشملها وأوسعها وأعمقها

---

(١) حديث أبي هريرة رواه مسلم في الإيمان حديث (٣٥)، وحديث جابر رواه البخاري في الجهاد حديث (١٠٢)، ومسلم في الإيمان حديث (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان حديث (٢٥)، ومسلم في الإيمان حديث(٣٦)

رسالة محمد ﷺ.

ومع هذا الشمول والسعة فإن الترتيب والبدء بالأهم فالأهم واضح كل الوضوح في الرسالات جميعًا، وفي دعوة رسول الله ﷺ كما ألمحت إلى ذلك فيما سلف، ومما يؤكد قصد الترتيب توجيه رسول الله ﷺ للصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه بقوله: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله - وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله - وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

وحديث بريدة بن الحصيب والنعمان بن مقرن -رضي الله تعالى عنهما- قالا: «كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين خيرًا...»[2].

وفيه أمره بدعوتهم إلى ثلاث خصال:

ومنها: دعوتهم إلى الإسلام فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فالقتال، فالترتيب واضح وقاعدة مستمرة في سيرته ووصاياه للدعاة وأمراء الجيوش والسرايا.

ودعوات المجددين المصلحين سارت على هذا المنهج العظيم الحكيم كدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلاميذه، ودعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وتلاميذه، ودعوة الصنعاني والشوكاني، ودعوة علماء السنة والحديث في الهند وباكستان ومصر والشام وغيرها، ولم يخرج عن هذا المنهج إلا من جهله وغلب عليه اتجاه آخر إما سياسي وإما صوفي وإما هما معًا.

فالواجب على وراث الأنبياء حقًّا: التزام هذا المنهج، ولا يجوز لهم مخالفته

(١) أخرجه البخاري في المغازي حديث (٤٣٤٧)، ومسلم في الإيمان حديث (٢٩، ٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث (١٧٣١)، وأبو داود في الجهاد حديث (٢٦١٢)، والترمذي في السير حديث (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد حديث (٢٨٥٨).

شرعًا ولا عقلًا للأمور الآتية:

أولًا: أنه هو المنهج الذي ارتضاه الله لجميع الأنبياء فساروا عليه في دعوات أممهم من أولهم إلى خاتمهم محمد ﷺ، فالخروج عنه منابذة لأمر شرعه الله وبعث به رسله وفيه استدراك على الله وعلى رسله وكتبه وطعن في علم الله وحكمته من حيث لا يشعرون.

ثانيًا: أن الأنبياء التزموه وطبقوه مما يدل دلالة واضحة أنه ليس من ميادين الاجتهاد.

ثالثًا: أن الله قد أوجب على رسولنا الكريم -الذي فُرِضَ علينا اتباعه- أن يقتدي بهم، ويسلك منهجهم فقال بعد أن ذكر ثمانية عشر رسولًا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد اقتدى ﷺ بهم في البدء بالتوحيد وأكد ذلك حق التأكيد وباهتمام شديد.

رابعًا: ولما كانت دعوتهم في أكمل صورها تتجلى في دعوة خليل الله إبراهيم أبي الأنبياء، وقدوتهم زاد الله الأمر تأكيدًا فأمر نبينا محمدًا ﷺ باتباع منهجه فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]

والأمر باتباعه يشمل الأخذ بملته التي هي التوحيد ومحاربة الشرك، ويشمل سلوك منهجه في البدء بالدعوة إلى التوحيد

وزاد الله تعالى الأمر تأكيدًا أيضًا فأمر أمة محمد ﷺ باتباع ملة هذا النبي الحنيف، فقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

إذن فالأمة الإسلامية مأمورة باتباع ملته، فكما لا يجوز مخالفة ملته لا يجوز مخالفة منهجه في البدء بالدعوة إلى التوحيد وهدم الشرك ووسائله ومظاهره.

خامسًا: قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. فإذا رجعنا إلى القرآن وجدنا أن رسل الله جميعًا -صلوات الله وسلامه عليهم- أول ما يبدءون بالدعوة إليه هو التوحيد، وأول شيء ينهون عنه ويحذرون منه هو الشرك، ووجدنا

أن الله قد أمرنا باتباعهم وسلوك منهجهم، وإذا رجعنا إلى الرسول ﷺ وجدنا أن دعوته قد بدأت بالتوحيد ومحاربة الشرك ثُمَّ انتهت بذلك، بل قد حارب كل مظاهر الشرك ووسائله وأسبابه.

ثانيًا:

وأما الدعوة إلى اجتماع الأمة وائتلافها على الأساس الذي ذكرناه والنهي عن الاختلاف والتفرق والتحزب فنقول: إن الإسلام دين توحيد واجتماع دعا إلى ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأدرك ذلك بعمق صحابته الكرام عليهم الرحمة والرضوان ومن تابعهم بإحسان من أئمة الإصلاح والهدى والنصح للأمة، قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران ١٠٣] وقال تعالى. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

وأمر الله في آيات كثيرة بطاعته وطاعة رسوله، واتباع كتابه، واتخاذ رسول الله ﷺ أسوة؛ لتأتلف على ذلك القلوب والنفوس والمشاعر بعد رجاء الله واليوم الآخر، والظفر بما عند الله من النعيم المقيم.

وأمر باتباع سبيل المؤمنين وهو إجماعهم واجتماعهم على الحق وتوعد من يحيد عن ذلك. فقال -جل شأنه-: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء ١١٥]. وأخبر تعالى بواقع المؤمنين الذي يجب أن يكون ويجب أن يحققوه عمليًا: إنه الأخوة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات ١٠]. وأمر الله ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، وذوي القربى وغير ذلك من وجوه البر والإحسان التي توثق أواصر المودة والمحبة، وتحقق هذا الاجتماع المشروع والتماسك المطلوب على الوجه الذي يرضي الله وعلى الأساس الذي شرع الاجتماع لتحقيقه.

وأتت سنة رسول الله ﷺ مؤكدة هذا الأمر العظيم، فأمر رسول الله ﷺ بالاعتصام بالكتاب والسنة، ونهى عن التفرق

ومن ذلك قوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبدٌ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[1].

وقوله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال»[2]

وما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، ثُمَّ قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله وقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾»[3].

وقوله ﷺ: «دروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[4].

صحيح قال تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩]. واستمر وتمادى فيه أهله قرونًا واستمرءوه، وركنوا إليه، ولَم تبذل الجهود الجادة لإنهائه وتخليص الأمة منه ولَم يلتفت قادة الفتن والفرقة إلى قوله الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

لَم تبذل الجهود للقضاء عليه إلا من أئمة أهل السنة الطائفة الناجية المنصورة،

---

(١) أبو داود في السنة حديث (٤٦٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والترمذي في العلم حديث (٢٦٧٦)

(٢) مسلم الأقضية حديث (١٧١٥)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠)

(٣) أخرجه أحمد في المسند حديث (٤١٤٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٨)

(٤) البخاري في الاعتصام حديث (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج حديث (١٣٣٧).

وكل المحاولات من غير هذه الجهة لم تكن موفقة في تلك المحاولات، وما كانت تعرف ولا تهتدي إلى طرق العلاج الصحيح بل ما يأتي علاجها إلا من باب. وداوني بالتي هي الداء، بل وما تريد الطين إلا بلة، بل تجدها تهون من شأن الخلاف وخطورته وترى أنه أمر ضروري يجب التسليم به بل أضحت المحاولات لإنهائه أو تضييق نطاقه أمرًا مستنكرًا يفرق الأمة، لاسيما في هذا العصر الذي استهانت فيه الدعوات السياسية الحزبية بقضية الخلاف حتى في العمق العقائدي وشطت للتقريب بين أهل القبلة -كما يزعمون- ولا سيما بين أهل السنة والروافض، ذلك التقريب الذي يطغى فيه الباطل على الحق، ويهان فيه الحق وأهله.

ومع الأسف يعتبر هذا العمل من المناقب والمفاخر عند أناس، فقد قيل على سبيل الاعتزاز: كان فلان في الأربعينيات عضوًا نشطًا في جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية من سنة وشيعة، مؤمنًا بأن الأرضية الإسلامية المشتركة تتسع بل تحتاج لتضافر الجهود كلها، ويبقى كل على معتقده -أي: يبقى الروافض على عقائدهم الباطلة بما في ذلك الطعن في الصحابة وتكفيرهم، واعتقاد أن الصحابة حرفوا القرآن وزادوا فيه ونقصوا- وامتدادًا لهذا الفكر تؤلف اليوم المؤلفات لترسيخ هذه الاختلافات تحت شعار «جواز التعدد السياسي» وتحت شعار «التعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه» دون التفات إلى مقررات القرآن والسنة ومنهج علماء الأمة في خطورة الخلاف وشره وضرره.

وفي وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة والقضاء على الخلاف والفرقة أو تضييق نطاقه حسب المستطاع، لقد اشتد البلاء على العقلاء من أهل الحق الذين تسوءهم هذه الانحرافات، ويقض مضاجعهم تفرق هذه الأمة إلى شيع وأحزاب ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

ويرون أن من النصح لهؤلاء السعي الجد في تبصيرهم وإرشادهم إلى الخروج مما هم فيه من واقع مرير في هذه الدنيا، وأشد منه ما يخشى عليهم من العقاب والعذاب في الآخرة.

لهذا يجب على كل من أدرك قيمة رسالة محمد ﷺ التي جمعت القلوب

والنفوس على الحق الخالص ورسخت فيها معاني الخير، ووفرت أسباب الود والإخاء في الله ولله وقضت على أسباب الفرقة والاختلاف، وجعلت من أفراد الأمة لبنات صالحة ثُمَّ قلعة حصينة يشد بعضها بعضًا.

أما الدعوات إلى مجرد التجميع واللملمة على الدخل والدخن، والجمع بين المتناقضات من العقائد والمناهج، والمتنافرات من القلوب والمشاعر؛ فإن ذلك لا يحقق شيئًا يرضي الله ويرفع سخطه عمن خالفوا ما رضيه وشرعه من الدين عقائد وأحكام ولن يتحقق للدعوات السياسية المستعجلة ما تخيله من قيام دولة قوية تواجه الأعداء من اليهود والنصارى والغزاة والمستعمرين وتقف في وجه الهزات والأعاصير ثُمَّ في الوقت نفسه تكون هذه الجهود والمحاولات بعيدة كل البعد عن القيام بواجب النصيحة للأمة في دينها وعقائدها وعباداتها التي بلغت مبلغًا خطيرًا من الفساد والحيدة عن صراط الله الحق، فكيف يرضى ربنا عن تجمعات صورية جوفاء على البدع والضلالات والخرافات؟ وكيف يرضى عن دولة تقوم على المتنافر من العقائد والمسالك والمناهج، وعلى الغرائب والعجائب من المتناقضات؟.

إن العقل والفطرة ليرفضان ذلك أشد الرفض فضلًا عن الشرع الذي لا يرضى ولا يقبل من أعمال العباد إلا ما كان خالصًا لله، وإلا ما كان ملتزمًا لِمَا جاء به وحيه وأرسل به رسله وأنزل به كتبه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالخالص ما كان لله وأريد به وجهه، والتجمعات السياسية على البدع والباطل في الغالب ما تقوم إلا على الأهواء والطموحات الشخصية إلى الكراسي والمناصب.

* * *

الأدلة على تحريم الاختلاف بين الأمة الإسلامية
وذم ذلك في شرعة الإسلام وموقف العلماء الناصحين من ذلك

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ذكر ابن جرير وغيره من المفسرين أن في قوله تعالى: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ قراءتين:

إحداهما: «فَارَقُوا دِينَهم» أي: خرجوا فارتدوا عنه من المفارقة.

وثانيهما: «فَرَّقُوا دِينَهُم» قال ابن جرير: وهذه قراءة عبد الله بن مسعود وعليها قراء المدينة، والبصرة وعامة قراء الكوفيين قال: وكأن عبد الله تأول بقراءته أن دين الله واحد، وهو دين إبراهيم الحنيفية السمحة المسلمة ففرق ذلك اليهود والنصارى فتهود قوم وتنصر آخرون فجعلوه شيعًا متفرقة، ثُمَّ ذهب ابن جرير إلَى أن معنَى القراءتين واحد فهم لدين الله مفارقون وله مفرقون.

قال ابن جرير[1]: «ثُمَّ اختلف أهل التأويل في المعنيين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾.

فقال بعضهم: عُني بذلك اليهود والنصارى. وروى ذلك بأسانيده إلى قتادة

(١) في التفسير (٨/ ١٠٥-١٠٦)

والسدي وابن عباس ومجاهد.

ثُمَّ قال: وقال آخرون: عُني بذلك أهل البدع من هذه الأمة الذين اتبعوا متشابه القرآن دون محكمه. وساق أسانيده إلى أبي هريرة ﷺ.

ثُمَّ قال: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله أخبر نبيه ﷺ أنه بريء ممن فارق دينه الحق وفرقه، وكانوا فيه أحزابًا وشيعًا، وأنه ليس منهم ولا هم منه؛ لأن دينه الذي بعثه الله به هو الإسلام دين إبراهيم الحنيفية كما قال له ربه وأمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ١٦١] فكان من فارق دينه الذي بعث به ﷺ من مشرك، ووثني، ويهودي، ونصراني، ومتحنف مبتدع قد ابتدع في الدين ما ضل به عن الصراط المستقيم، والدين القيم ملة إبراهيم المسلم فهو بريء من محمد ﷺ، ومحمد بريء منه وهو داخل في عموم قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]».

ووافق ابن جرير في رواية هذين القولين البغوي[١]، وابن الجوزي[٢]، وابن كثير[٣]، والقرطبي[٤].

وساق البغوي أحاديث لبيان أن الآية تتناول أهل البدع، منها حديث العرباض بن سارية ﷺ وفيه: «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[٥].

وساق حديث افتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وحديثًا في إسناده نظر عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة. إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا هم أهل البدع والشبهات من هذه الأمة».

---

(١) في تفسيره (٢/ ١٤٥).
(٢) زاد المسير (٣/ ١٥٨).
(٣) في تفسيره (٢/ ١٩٦).
(٤) في تفسيره (٧/ ١٠٤-١٠٧) ساق كلمات آثارًا تبين أن أهل البدع داخلون في معنى الآية.
(٥) أبو داود في السنة حديث (٤٦٠٧)، وأحمد حديث (٤/ ١٢٦)

وساق كذلك ابن كثير آثارًا تفيد أن أهل البدع والضلال داخلون في عموم الآية الكريمة، ثُمَّ قال: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه: ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقًا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مِمَّا هم فيه، وهذه الآية كقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ الآية

دعوة أئمة السنة البارزين إلى وحدة المسلمين واجتماعهم على الحق وإلى نبذ التفرق والتحزب والاختلاف

لأئمة السلف كتب لا تحصى تتضمن الدعوة إلى اجتماع الأمة واعتصامها بكتاب ربِّها، وسنة نبيها، والسير على هدي السلف الصالح، من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان -رضي الله عنهم أجمعين- وإلى نبذ البدع والتفرق والاختلاف.

وسوف أقتصر على النقل عن بعض الأئمة المعتبرين الذين سارت كتبهم مسير الشمس بين خيار الأمة، فلا تحظى منهم إلا بالقبول والتسليم، وهي مصادر أساسية لمن جاء بعدهم من دعاة الحق وأئمة الهدى، فمن أولئك:

١- الإمام أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العُكبَري المتوفى سنة (٣٨٧ هـ) قال في كتابه الشهير بـ «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة»:

باب ذكر ما نطق به الكتاب نصًا في محكم التنزيل بلزوم الجماعة والنهي عن الفرقة

أما بعد: فاعلموا يا إخواني -وفقنا الله وإياكم للسداد والائتلاف، وعصمنا وإياكم من الشتات والاختلاف- أن الله ﷻ قد أعلمنا اختلاف الأمم الماضين قبلنا، وأنَّهم تفرقوا واختلفوا، فتفرقت بهم الطرق حتَّى صار بهم الاختلاف إلى الافتراء على الله ﷻ، والكذب عليه، والتحريف لكتابه، والتعطيل لأحكامه،

والتعدي لحدوده.

وأعلمنا تعالى أن السبب الذي أخرجهم إلى الفرقة بعد الألفة، والاختلاف بعد الائتلاف، هو شدة حسد من بعضهم لبعض، وبغي بعضهم على بعض، فأخرجهم ذلك إلى الجحود بالحق بعد معرفته، وردهم البيان الواضح بعد صحته.

وكل ذلك وجميعه قد قصه الله ﷻ علينا، وأوعز فيه إلينا، وحذرنا من مواقعته، وخوفنا من ملابسته، ولقد رأينا ذلك في كثير من أهل عصرنا، وطوائف ممن يدعي أنه من أهل ملتنا، وسأتلو عليكم من نبأ ما قد أعلمناه مولانا الكريم، وما قد علمه إخواننا من أهل القرآن، وأهل العلم، وكتبة الحديث والسنن، وما يكون فيه -إن شاء الله- بصيرة لمن علمه ونسيه، ولمن غفله أو جهله ويَمتحن الله به من خالفه وجحده، بألا يجحده إلا الملحدون، ولا ينكره إلا الزائغون.

قال الله ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤-٥].

قال الشيخ: إخواني؛ فهذا نبأ قوم فضلهم الله، وعلمهم، وبصرهم، ورفعهم ومنع ذلك آخرين إصرارهم على البغي عليهم والحسد لهم إلى مخالفتهم وعداوتهم ومحاربتهم، فاستنكفوا أن يكونوا لأهل الحق تابعين، وبأهل العلم مقتدين، فصاروا أئمة مضلين، ورؤساء في الإلحاد متبوعين، رجوعًا عن الحق، وطلب الرياسة، وحبًا للأتباع والاعتقاد.

والناس في زماننا هذا أسراب كالطير يتبع بعضهم بعضًا، لو ظهر لهم من يدعي النبوة مع علمهم بأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، أو من يدعي الربوبية لوجد على ذلك أتباعًا وأشياعًا، فقد ذكرت ما حضرني من الآيات التي عاب الله فيها المختلفين وذم بها الباغين، وأنا الآن أذكر لك الآيات من القرآن التي حذرنا فيها ربنا تعالى من الفرقة والاختلاف، وأمرنا بلزوم الجماعة والائتلاف، نصيحة لإخواننا وشفقة على أهل مذهبنا.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثُمَّ حذرنا من مواقعة ما أتاه من قبلنا من أهل الكتاب، فيصيبنا ما أصابهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. فأخبرنا أنهم عن الحق رجعوا، ومن بعد البيان اختلفوا.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا

بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

فهل بقي -رحمكم الله- أوضح من هذا البرهان، أو أشفى من هذا البيان، وقد أعلمنا الله تعالى أنه قد خلق خلقًا للاختلاف والفرقة، وحذرنا أن نكون في ديننا كهم، واستثنى أهل رحمته لنواظب على المسألة أن يجعلنا منهم فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

ثُمَّ حذر نبيه ﷺ أن يتبع أهل الأهواء المختلفين وآراء المتقدمين فقال ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٥-١٩].

وقال ﷻ فيما ذم به المخالفين: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

حدثنا أبو القاسم حفص بن عمر الحافظ قال: حدثنا أبو حاتم الرازي قال: حدثنا أبو صالح كاتب الليث قال: حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٧].

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله: ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ [الأنعام: ١٥٩]

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الأنبياء: ٩٣].

ونحو هذا في القرآن كثير.

قال ابن عباس: «أمر الله تعالى المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله».

حدثنا أبو القاسم بن عمر قال: حدثنا أبو حاتم قال: حدثنا الربيع ابن نافع قال: حدثنا محمد بن المهاجر الأنصاري قال: سئل عيسى بن مريم عن الفرقة والاختلاف ما يوقعهما بين الناس؟ قال: البغي والحسد وما يلائمهما من المعصية، وما يريده الله تعالى بالعامة من النقمة.

* * *

٢- ومنهم: الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي المتوفى سنة (٤١٨) -رحمة الله عليه-، قال في كتابه «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم»[1]:

«أما بعد: فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته، وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها، والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول وأوضح حجة ومعقول كتاب الله الحق المبين، ثُمَّ قول رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار المتقين، ثُمَّ ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثُمَّ التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين،

---

(١) (٩/١ -٢٠).

ثُمَّ الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مِمَّا أحدثه المضلون.

فهذه الوصايا الموروثة المتبوعة، والآثار المَحفوظة المنقولة، وطرائق الحق المسلوكة، والدلائل اللائحة المشهورة، والحجج الباهرة المنصورة الَّتِي عملت عليها الصحابة والتابعون ومن بعدهم من خاصة الناس وعامتهم من المسلمين، واعتقدوها حجة فيما بينهم وبين الله رب العالمين، ثُمَّ من اقتدى بِهِم من أئمة المهتدين، واقتفى آثارهم من المتبعين، واجتهد في سلوك سبيل المتقين، وكان من الذين اتقوا وهم محسنون.

فمن أخذ في مثل هذه المَحجة، وداوم بِهذه الحجج على منهاج الشريعة أمن في دينه التبعة في العاجلة والآجلة، وتَمسك بالعروة الوثقى الَّتِي لا انفصام لها، واتقى بالجنة الَّتِي يتقى بِمثلها ليحصن بحمايتها، ويستعجل بركتها، ويحمد عاقبتها في المعاد والمآل -إن شاء الله-.

ومن أعرض عنها، وابتغى في غيرها مِمَّا يهواه، أو يروم سواها مِمَّا تعداه، أخطأ في اختيار بغيته، وأغواه وسلك سبيل الضلالة، وأرداه في مهاوي الهلكة فيما يعترض على كتاب الله وسنة رسوله بضرب الأمثال ودفعهما بأنواع المحال، والحيدة عنهما بالقيل والقال مِمَّا لَم ينزل الله به من سلطان، ولا عرفه أهل التأويل واللسان، ولا خطر على قلب عاقل بِما يقتضيه من برهان، ولا انشرح له صدر موحد عن فكر أو عيان، فقد استحوذ عليه الشيطان، وأحاط به الخذلان، وأغواه بعصيان الرحمن حتَّى كابر نفسه بالزور والبهتان...

ثم تحدث عن أهل البدع المعتزلة وغيرهم، وبين فساد مناهجهم وما وقعوا فيه من الضلال والانحراف، وافتراءهم على أهل السنة، وكيف كان موقفهم من أهل السنة وموقف أهل السنة منهم.

ثُمَّ قال: فهلم الآن إلى تدين المتبعين، وسيرة المتمسكين، وسبيل المتقدمين بكتاب الله وسنته، والمنادين بشرائعه وحكمته الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران ٥٣]. وتنكبوا سبيل المكذبين بصفات الله وتوحيد رب العالمين، فاتخذوا كتاب الله إمامًا، وآياته فرقانًا،

ونصبوا الحق بين أعينهم عيانًا، وسنن رسول الله ﷺ جنة وسلاحًا، واتخذوا طرقها منهاجًا، وجعلوها برهانًا، فلقوا الحكمة، ووقوا من شر الهوى والبدعة، لامتثالهم أمر الله في اتباع الرسول، وتركهم الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق.

يقول الله ﷻ فيما يحث على اتباع دينه، والاعتصام بحبله، والاقتداء برسوله ﷺ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثم ساق آيات كريمة في الاعتصام بالكتاب والسنة، ووجوب طاعة الرسول ﷺ، وأحاديث في هذا المعنى منها حديث العرباض بن سارية «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب . . . الحديث».

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه: «خط رسول الله ﷺ لنا خطًا . . . الحديث».

وساق أبوابًا تدور في فلك الدعوة إلى السنة والتمسك بها.

ثُمَّ قال: باب ما روي عن النَّبِي ﷺ في الحث على التمسك بالكتاب والسنة، وعن الصحابة والتابعين ومن بعدهم والخالفين لهم علماء الأمة رضي الله عنهم.

وساق قبله سياق ما فسر من كتاب الله ﷻ من الآيات في الحث على الاتباع، وأن سبيل الحق هو السنة والجماعة.

ثُمَّ قال: سياق ما روي عن النَّبِي ﷺ في الحث على اتباع الجماعة والسواد الأعظم، وذم تكلف الرأي والرغبة عن السنة والوعيد في مفارقة الجماعة.

ثُمَّ قال: سياق ما روي عن النَّبِي ﷺ في النهي عن مناظرة أهل البدع وجدالهم، والمكالمة معهم، والاستماع إلى أقوالهم المُحدثة وآرائهم الخبيثة.

وساق اللالكائي تحت هذه الأبواب آيات وأحاديث وآثار كثيرة استغرقت صحائف كثيرة من (ص ٦٩-١٥٠) من الجزء الأول، ولا يتسع المقام لاستقصاء ما ساقه هذا الإمام من أبواب، ومِمَّا حوته من نصوص وآثار عن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم في هذا المهيع.

* * *

٣- وقال الإمام الحافظ محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة (٥١٦) في كتابه الشهير «شرح السنة»:

باب الاعتصام بالسنة وأورد في الباب آيات: منها: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وساق أحاديث كثيرة: منها: حديث عبد الله ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، ثُمَّ قال: هذا سبيل الله، ثُمَّ خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله، وقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه.... الحديث»[1].

ثم عقد بابًا قال فيه: باب رد البدع والأهواء صدَّره بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وساق آيات

ثُمَّ أحاديث في الباب، منها حديث: «إن بني إسرائيل تفرقت إلى اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا واحدة».

وساق آثارًا.

ثُمَّ قال: باب مجانبة أهل الأهواء[2]، وساق فيه آيات، منه قول الله تعالى ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣]

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٧].

وذكر فيه أحاديث، منها: حديث عائشة ﵂ قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»[3].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند حديث (٤١٤٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٨).

(٢) (١/ ٢١٩).

(٣) حديث متفق عليه: في البخاري التفسير الحديث (٤٥٤٧)، ومسلم في العلم الحديث (٢٦٦٥).

وحديث أبي هريرة ﷺ عن النَّبِي ﷺ قال: «سيكون في آخر امتي ناس يحدثونكم بما لَم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم»[١].

ثُمَّ قال ﷺ: وقد أخبر النَّبِي ﷺ عن افتراق هذه الأمة، وظهور الأهواء والبدع فيهم، وحكم النجاة لمن اتبع سنته وسنة أصحابه ﷺ، فعلى المرء المسلم إذا رأى رجلًا يتعاطى شيئًا من الأهواء والبدع معتقدًا أو يتهاون بشيء من السنن أن يهجره ويتبرأ منه، ويتركه حيًا وميتًا، فلا يسلم عليه إذا لقيه، ولا يجيبه إذا ابتدأ إلى أن يترك بدعته ويراجع الحق[٢].

ثُمَّ ساق حديث كعب بن مالك في تخلفه ومن معه عن غزوة تبوك، وفيه أمر النَّبِي ﷺ بهجرانهم.

ثُمَّ قال الإمام البغوي عقبه: وفيه دليل على أن هجران أهل البدع على التأبيد، وكان رسول اللَّه ﷺ خاف على كعب وأصحابه النفاق حين تخلفوا عن الخروج معه فأمر بهجرانهم إلى أن أنزل اللَّه توبتهم، وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم وعلماء السنة مجمعين متفقين على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم[٣].

ثُمَّ ساق كلام ومواقف بعض أئمة السلف من أهل البدع من الهجران والذم وتكفير الغلاة منهم وغير ذلك ﷺ.

* * *

٤- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «وأصل الدين أن يكون الحب لله، والبغض لله، والموالاة له، والمعاداة له، والعبادة له، والاستعانة باللَّه، والخوف من اللَّه، والرجاء له، والإعطاء له، والمنع له، وهذا إنَّما يكون بمتابعة رسول اللَّه الذي أمره أمر اللَّه، ونهيه نَهي اللَّه، ومعاداته معاداة اللَّه، وطاعته طاعة اللَّه، ومعصيته معصية اللَّه.

وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا

(١) مسلم في المقدمة حديث (٦)، وشرح السنة (١/ ٢٣٢).
(٢) (١/ ٢٢٤)
(٣) (١/ ٢٢٦-٢٣٠)

يطلبه، بل ولا يرضى لرضى الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين: أن الذي يرضا له ويغضب له أنه السنة، وهو الحق، وهو الدين، فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء، ليعظم هو ويثنى عليه، أو فعل ذلك شجاعة وطبعًا، أو لغرض من الدنيا، لم يكن لله ولم يكن مجاهدًا في سبيل الله، فكيف إذا كان الذي يدعي الحق والسنة هو كنظيره، معه الحق وباطل، وسنة وبدعة، ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة؟.

وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وكفر بعضهم بعضًا، وفسق بعضهم بعضًا، ولهذا قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤-٥].

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]. يعني: فاختلفوا، كما في سورة يونس، وكذلك في قراءة بعض الصحابة، وهذا على قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين: أنهم كانوا على دين الإسلام.

وفي تفسير ابن عطية عن ابن عباس: «أنهم كانوا على الكفر». وهذا ليس بشيء، و تفسير ابن عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس، بل قد ثبت عنه أنه قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام».

وقد قال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]. فذمهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد، فعلم أنه كان حقًا.

والاختلاف في كتاب الله على وجهين:

أحدهما: أن يكون كله مذمومًا، كقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

والثاني: أن يكون بعضهم على الحق، وبعضهم على الباطل، كقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

لكن إذا أطلق الاختلاف فالجميع مذموم، كقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود ١١٨ ١١٩]

وقول النبي ﷺ: «إنَّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم». ولهذا فسروا الاختلاف في هذا الموضع بأنه كله مذموم.

قال الفراء: في اختلافهم وجهان:

أحدهما: كفر بعضهم بكتاب بعض،

والثاني: تبديل ما بدلوا.

وهو كما قال، فإن المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل، فيكفر بالحق الذي مع الآخر، ويصدق بالباطل الذي معه، وهو تبديل ما بدل»[1].

واختلاف أهل البدع هو هذا النمط إشارة منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

فالخارجي يقول: ليس الشيعي على شيء،

والشيعي يقول: ليس الخارجي على شيء

والقدري النافي يقول: ليس المثبت على شيء

والقدري الجبري المثبت يقول: ليس النافي على شيء

والوعيدية تقول: ليست المرجئة على شيء

والمرجئة تقول: ليست الوعيدية على شيء.

بل ويوجد شيء من هذا بين أهل المذاهب الأصولية والفروعية المنتسبين إلى السنة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٢٥-٢٥٥٨).

فالكلابي يقول: ليس الكرامي على شيء.

والكرامي يقول: ليس الكلابي على شيء.

والأشعري يقول: ليس السالمي على شيء.

والسالمي يقول: ليس الأشعري على شيء.

ويصنف السالمي كأبي علي الأهوازي كتابًا في مثالب الأشعري، ويصنف الأشعري كابن عساكر كتابًا يناقض ذلك من كل وجه، وذكر فيه مثالب السالمية.

وكذلك أهل المذاهب الأربعة وغيرها، ولاسيما وكثير منهم قد تلبس ببعض المقالات الأصولية، وخلط هذا بهذا فالحنبلي والشافعي والمالكي يخلط بمذهب مالك والشافعي وأحمد شيئًا من أصول الأشعرية والسالمية وغير ذلك، ويضيفه إلى مذهب مالك والشافعي وأحمد، وكذلك الحنفي يخلط بمذهب أبي حنيفة شيئًا من أصول المعتزلة والكرامية والكلابية، ويضيفه إلى مذهب أبي حنيفة.

وهذا من جنس الرفض والتشيع، ولكنه تشيع في تفضيل بعض الطوائف والعلماء، لا تشيع في تفضيل بعض الصحابة.

والواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ: أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخص انتصارًا مطلقًا عامًّا، إلا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفة انتصارًا مطلقًا عامًّا إلا للصحابة -رضي الله عنهم أجمعين-، فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء، فإنهم قد يجمعون على خطأ، بل كل قول قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأ، فإن الدين الذي بعث الله به رسوله ليس مسلمًا إلى عالم واحد وأصحابه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيرًا لرسول الله ﷺ وهو شبيه بقول الرافضة في الإمام المعصوم.

ولابد أن يكون الصحابة والتابعون يعرفون ذلك الحق الذي بعث الله به الرسول ﷺ، قبل وجود المتبوعين الذين تنسب إليهم المذاهب في الأصول

والفروع، ويُمتنع أن يكون أحدهم علم من جهة الرسول ﷺ ما يخالف الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فإن أولئك لم يجتمعوا على ضلالة، فلابد أن يكون قوله إن كان حقًّا مأخوذًا عمَّا جاء به الرسول ﷺ، موجودًا فيمن قبله، وكل قول قيل في دين الإسلام مخالف لِمَا مضى عليه الصحابة والتابعون، لم يقله أحد منهم بل قالوا خلافه، فإنه قول باطل.

والمقصود هنا: أن الله تعالى ذكر أن المختلفين جاءتهم البينة، وجاءهم العلم، وإنَّما اختلفوا بغيًا، ولهذا ذمهم الله وعاقبهم، فإنَّهم لَم يكونوا مجتهدين مخطئين، بل كانوا قاصدين البغي، عالمين بالحق، معرضين عن القول والعمل به[1].

ويُمكن أن يكون كلام شيخ الإسلام الآتي نواة لمشروع يتخلص به الدعاة من الخلافات السياسية والعقائدية والفقهية، ويخلصون من قدروا على تخليصه ممَّن يقبل الحق ويستجيب لداعيه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وعامة الأمراء إنَّما أحدثوا أنواعًا من السياسات الجائرة من أخذ أموال لا يجوز أخذها، وعقوبات على الجرائم لا تجوز، لأنَّهم فرطوا في المشروع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فلو قبضوا ما يسوغ قبضه، ووضعوه حيث يسوغ وضعه، طالبين بذلك إقامة دين الله لا رئاسة أنفسهم، وأقاموا الحدود المشروعة على الشريف، والوضيع، والقريب، والبعيد، ومتحرين في ترغيبهم وترهيبهم للعدل الذي شرعه الله لَمَا احتاجوا إلى المكوس الموضوعة، ولا إلى العقوبات الجائرة، ولا إلى من يحفظهم من العبيد والمستعبدين، كما كان الخلفاء الراشدون وعمر بن عبد العزيز وغيرهم من أمراء بعض الأقاليم.

وكذلك العلماء إذا أقاموا كتاب الله، وفقهوا ما فيه من البينات الَّتي هي حجج الله، وما فيه من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، وأقاموا حكمة الله الَّتي بعث الله بِها رسوله ﷺ وهي سنته؛ لوجدوا فيها من أنواع العلوم النافعة ما

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٠-٢٦٣).

يحيط بعلم عامة الناس، ولَمَيزوا حينئذ بين المُحق والمُبطل من جميع الخلق بوصف الشهادة التي جعلها الله لهذه الأمة حيث يقول ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ولا استغنوا بذلك عما ابتدعه المبتدعون من الحجج الفاسدة التي يزعم الكلاميون أنهم ينصرون بها أصل الدين، ومن الرأي الفاسد الذي يزعم القياسيون أنهم يتمون به فروع الدين.

وما كان من الحجج صحيحًا ومن الرأي سديدًا، فذلك له أصل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهمه من فهمه، وحرمه من حرمه

وكذلك العباد إذا تعبدوا بما شرعه الله من الأقوال والأعمال ظاهرًا وباطنًا، وذاقوا الكلم الطيب والعمل الصالح الذي بعث الله به رسوله ﷺ؛ لوجدوا في ذلك من الأحوال الزكية، والمقامات العلية، والنتائج العظيمة ما يغنيهم عما حدث من نوعية كالتغبير ونحوه من السماعات المبتدعة الصارفة عن سماع القرآن، وأنواع من الأذكار والأوراد لفقهاء بعض الناس

أو في قدره كزيادات من التعبدات أحدثها من أحدثها؛ لنقص تمسكه بالمشروع منها، وإن كان كثير من العباد والعلماء، بل والأمراء قد يكون معذورًا فيما أحدثه لنوع اجتهاد، فالغرض أن يعرف الدليل الصحيح، وإن كان التارك له قد يكون معذورًا لاجتهاده[1].

هذه هي أخطر مشاكل المسلمين وأعوصها، وأعظم مسئولية الدعاة إلى الله علاجها في ضوء كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وهدي السلف الصالح وأئمتهم -رضوان الله عليهم أجمعين-.

ويبدو أن هذا هو الطريق الوحيد للعلاج، والطريق الوحيد لسيادتهم وعزتهم وكرامتهم في الدنيا، ولنجاتهم وسعادتهم في الأخرى. ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: (ص ٢٨١-٢٨٢)

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[النساء: ٦٥]

وختامًا:

أسأل الله أن يجمع الأمة على كتاب ربها، وسنة نبيها، وأن يبارك في دعاتها، ويغرس في نفوسهم حب الحق والجد والدأب؛ لتحقيق هذه الغاية الكبيرة التي شرعها ربنا ورضيها.

إن ربي لسميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

* * *



التعصب الذميم وآثاره

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا





تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

أما بعد:

فإن خير الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتُها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

هذا الحديث واحد من الأحاديث الكثيرة الَّتي تعد من جوامع الكلم الَّتي أمتاز بها رسول الله ﷺ على الأنبياء وسائر ولد آدم.

فخير الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ في كل أبواب العقائد والشرائع والسياسة والأخلاق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعامل مع أعداء الله من كل أصناف أهل الكفر والنفاق، والتعامل مع أهل المعاصي والبدع، وفي أبواب الولاء والبراء، الولاء لأهل الحق والبراء من أهل الباطل، كفارًا كانوا أو أهل أهواء، على شيء من التفصيل في أهل الأهواء على قدر بدعهم وخطرهم على الإسلام والمسلمين

وقد فهم سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- ومن تبعهم بإحسان كل هذه المضامين أحسن الفهم، والتزموها أقوم التزام، وطبقوها أحسن تطبيق، وخالفهم فيها أهل الأهواء في الفهم والالتزام والتطبيق في كل هذه المضامين في الجملة، على شيء من التفاوت بينهم، خالفوهم منذ طل رأس الفتنة في عهد الصحابة.

وعلى مر الزمان تتسع الدائرة، وتتكاثر البدع، وتتكاثر الفرق بتكاثر البدع إلى يومنا هذا، وسبب ذلك هو جنوح الأهواء المردية الذي يجر إلى سوء الإدراك

وسوء الفهم، وانحلال عقد الالتزام والانضباط، وسوء المقاصد، هذه الأمور المردية الَّتي نجى اللَّه منها السلف الصالح ومن سار على نهجهم إلى يومنا هذا.

هذه الأمور جمعت كثيرًا من أهل الأهواء والفرق في وضع مزرٍ، يشابهون فيه إلى حد كبير أعداء الرسل في الإصرار على الباطل والتعصب له، ولو أدركوا أنهم على ضلال وباطل، كما قال تعالى في أعداء الرسول: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1]. وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[2]. هذا ما عليه العتاة وأهل العناد من أهل الباطل.

وأما الغثاء والرعاع أتباع كل ناعق فهم يشابهون أعداء الرسل في قولهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[3] ولهم حظٌّ من قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[4].

ولأسباب منها جهود أهل السنة في مقاومة الباطل خفت حدة التعصب للعقائد، وحدة التعصب للمذاهب في هذا العصر

لكن الداهية الدهياء، والضلالة العمياء، والطامة الكبرى أنه قد خلفها ما هو شر منها، وهو التحزب السياسي الوريث الجديد لتلك الأدواء

* **والمصابون به أصناف:**

١- منهم من ظهر إلحاده وكفره وإدارة ظهره للإسلام، فهؤلاء ليس لهم إلا الدعوة إلى الإسلام أو سيف أبي بكر إن وجد إذا لم يستجيبوا لهذه الدعوة.

٢- ومنهم من يرفع شعارات إسلامية، لكنها خالية من العقيدة الإسلامية الصحيحة، ومن أصول إسلامية مهمة، ومثخنة بالأمراض الفتاكة السابقة

---

(١) النمل آية ١٤.

(٢) الأنعام آية ٣٣.

(٣) الزخرف الآية ٢٣

(٤) البقرة آية ١٧١.

* نشأ عنها :

١- تولي الروافض، والانسجام معهم، والتهوين من رفضهم، بل إنكاره، وإنكار كفرياتهم وزندقتهم والدعوة إلى التلاحم معهم تحت شعار التقريب.

٢- تولي الصوفية بمختلف طرقها، بل كثير منهم من أحلاس التصوف.

٣- كانوا يتظاهرون بالتركيز على مجابهة الكفار الشيوعيين واليهود والنصارى والعلمانيين لإسكات أهل السنة والتوحيد وإقامة الحواجز المنيعة من وصول دعوة الحق إلى كثير من أصحاب البدع بأصنافهم ممن عنده أن يستجيب لدعوة الحق.

وقد سلكوا أبشع الطرق، وبعدوا أفجر الخطط في هذا المضمار لصد الناس عن سبيل الله بل لإفساد كثير من أبناء التوحيد.

ثُمَّ إنَّ الله تعالى الشديد المحال هتك أستارهم، وكشف عوارهم بعد قيام دولتهم والوصول إلى غايتهم، فأصبحوا يعقدون المؤتمرات للدعوة إلى وحدة الأديان، والتآخي بين الإسلام وشتى الملل والنحل، ويتلاحمون مع أصناف الشيوعيين والبعثيين والعلمانيين في أنحاء الدنيا.

وفريق ثالث: متفرع عن هذا الصنف الثاني ومشتق منه، لكنه يدعي أنه على منهج السلف الصالح تلبيسًا وخداعًا ومكرًا، فكان ضرره أشر من أصله، ومكره أشر من مكره.

هذا الفريق يتمسح بأعلام المنهج السلفي، لا سيما ابن تيمية؛ ليتمكن بهذا التمسح وتحريف كلامه وكلام غيره من حماية أهل البدع ومناهجهم الباطلة، وإبقائهم على ما هم عليه من عقائد ومناهج ونحو ذلك سياسية وفكرية.

ولتحقيق هذه الأهداف الخطيرة ألفوا الكتب، ووضعوا الأصول والمناهج ومنها منهج الموازنات وتعدد الجزئيات.

وفي الوقت نفسه يشنون الحملات الشعواء على أهل السنة والتوحيد ويقذفونهم بالعظائم، ففاقوا سابقيهم في نصرة أهل الباطل، وحماية باطلهم والذب عن شخصياتهم، ومحاربة أهل الحق وظلمهم بما لا يخطر ببال أشد أهل

البدع، وأغرقهم في الضلال.

ولكن الله شديد المحال القائل: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[2]. قد استدرجهم حتَّى فضحهم، وهتك أستارهم كما فعل بأشباعهم

وإن شئت فاقرأ ما ألفوه مع ما انتقدهم فيه أهل الحق، وسوف يلاحقونّهم -إن شاء الله- في جحورهم وقمع باطلهم، حتَّى يظهر أمر الله وهم كارهون.

وإن شئت مرة أخرى فاسألهم عن أهل البدع ومنهم الدعاة إلى وحدة الأديان وأعداء السنة والتوحيد، واستمع إلى إجابتهم، وقارن بينهم وبين إجابات ومواقف السلف لترى بعد الشقة بينهما.

فإلى المغرورين المخدوعين بهذه الأصناف نوجه صرختنا هذه ضد الباطل بأصنافه، وضد التعصب المهلك الذي يجر إلى عبادة الأحبار والرهبان، والتضحية بحب الحق وأتباعه وعدم المبالاة بسخط الرحمن ومحاربة الحق وأهله والارتماء في أحضان أهل الباطل.

نهيب بهؤلاء المخدوعين إلى كسر الأغلال الَّتي لفها على أعناقهم أولئك الماكرون المخادعون، وإلى كسر الحواجز والحجب الَّتي وضعوها بينهم وبين رؤية الحق بأنواره الساطعة؛ ليعيشوا في ظلمات العمودية للأهواء والباطل ومروجيه.

اللهم أنقذ هؤلاء الأسرى الذين يكافح أهل الحق لإنقاذهم واستخلاصهم من قبضة الظالمين الذين حبسوهم في ظلمات الباطل، وكهوف الهوى وسراديب المكر والدهاء إنك سميع الدعاء.

وكتبه

ربيع بن هادي عمير المدخلي

---

(١) النمل: آية ٥٠.

(٢) إبراهيم: الآية ٤٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[3].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[4].

أما بعد .. فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة

وبعد . . .

فإن حديثنا عن موضوع خطير جدًا، ألا وهو التعصب الذميم، وما يؤدي إليه من آثار، وإنه لداء عضال فتك بعقول الأمم، وحطم المبادئ، وفتك بالأرواح، وإنه لأول داء ابتلي به الخلق، فإبليس اللعين أول عاص كان سبب معصيته هو التعصب ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[5] تعصب واعتزاز بعنصره، وقوم نوح وغيرهم من الأمم الضالة التي كذبت الرسل . . . الأحزاب . . . الفرق . . . أهل الأديان من اليهود والنصارى والمجوس والهنادك، وسائر الكفرة والوثنيين، ما

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة أيام أزمة الخليج عام (١٤١١هـ) حيث بدأت الحرب العمياء بشكل رهيب، قدمت علاجًا لمن أراد الله به خيرًا ممن أصيب بهذا الداء التعصب (د. ربيع)

(٢) آل عمران: آية ١٠٢.

(٣) النساء: ١.

(٤) الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١.

(٥) الأعراف: آية ١٢.

فتكت بهم إلا هذا الداء العضال - والعياذ بالله -.

الفرق الضالة المنتمية للإسلام قديمًا وحديثًا، سواء أصابها هذا الداء في عقائدها أو في عباداتها.

الأمراض القلبية كلها من هذا المنطلق.

إذن هو داء فتاك بالأفراد والجماعات، ويؤدي إلى تكذيب الرسل، وإلى الكذب والمغالطات في نشر المبادئ الهدامة والأفكار الضالة، فيجب أن يتحسس كل فرد وكل جماعة مواطن هذا الداء، فيخلص كل واحد وكل جماعة فكره وعقله وجنانه من هذا الداء الخطير، ويتجه كل مسلم منا إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ففيهما الشفاء والدواء الناجع للتخلص من هذه العاهة الكريهة البغيضة.

نسأل الله أن يعافي الأمة الإسلامية من هذا المرض الفتاك، وأن يوحد صفوفها ويجمع كلمتها.

إن الإسلام دين الحق، نزل من الله الملك الحق المبين، الذي خلق السموات والأرض بالحق، والله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان، وحارب الظلم والعدوان والبغي في مختلف صوره، ومن مختلف مصادره، والتي يبعث عليها في الغالب إنما هو هذا الداء ... داء التعصب، وإن التعصب الذميم للأديان والقبائل والأشخاص والأفكار والمذاهب والأحزاب قد حاربه الإسلام أشد الحرب، ذلك أن التعصب المقيت هو المستنقع الوحل المتعفن، والمصدر البغيض لكل هذه الأدواء الفتاكة، فهو الدافع للأحزاب الكافرة الظالمة لأن تقف في وجه الرسل والرسالات بالتكذيب والافتراء والاتهامات والجدال والخصام بالباطل، قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1].

(١) غافر: آية ٤-٥.

حجة أهل التعصب

ما هي حجتهم في خصم هذا الجدال والصراع ضد الرسل وعلى امتداد التاريخ الإنساني؟

الجواب: تكاد تكون حجة لكل الأمم وهي عمدة كل متعصب عاجز ظالم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

هذه حجتهم ... لم يأتهم مثل ما جاء به نوح -عليه الصلاة والسلام- من طريق آبائهم، ولو جاءهم من طريق آبائهم لقبلوه، ولكنه جاء من طريق آخر، وذلكم هو التعصب.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[2]. تعصب للآباء ومخالفاتهم مهما كان فيها من شر، ومهما انطوت على الضلال والكفر، قال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[3]

---

(١) المؤمنون: آية ٢٣ - ٢٤.

(٢) الزخرف: الآيات ١٩ - ٢٣

(٣) الزخرف: الآيات ٢٤ - ٢٥.

عواقب التعصب

فما هي عواقب هذا التعصب والتقليد والعناد والتكذيب؟

لقد ذكر الله -جل وعلا- عواقب ذلك في سور وقصص كثيرة في القرآن الكريم؛ لتأخذ هذه الأمة من مصائرهم ومصارعهم عبرًا، ولتحذر أشد الحذر من الوقوع في مثل ما وقعت فيه تلك الأمم، فتكون العاقبة مثل عاقبة تلك الأمم، والمصائر مثل مصائرهم، سنة الله في عباده لا تتبدل، ولا تتغير عدلًا من الله وحكمة، وهو العليم الحكيم الحكم العدل.

قال تعالى في سورة العنكبوت بعد أن ذكر قصة نوح وقومه، وإبراهيم وقومه، ولوط وقومه، وما تضمنته قصصهم من إهلاك هذه الأمم المكذبة المتعصبة المعاندة، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

هذه نتائج التعصب في الدنيا، هلاك ودمار -والعياذ بالله- حاق بكل هذه الأمم التي ذكرت في هذه الآيات من سورة العنكبوت، سلكهم الله -تبارك وتعالى- في مسلك واحد وبيّن نهايتهم الوخيمة -والعياذ بالله-.

أما نتائج هذا التعصب والعناد في الآخرة فهي

أولًا: خصومة مع زعمائهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ

---

(١) العنكبوت: الآيات ٣٦ - ٤٠.

تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

هؤلاء ضحايا التعصب الأعمى وضحايا التقليد واتباع الهوى.

وقال تعالى ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[4].

هذه هي نهاية الكفار الضالين الذين حملهم التعصب على تكذيب الرسل، وعلى العناد، وعلى القتال، وعلى سائر المشاكل التي واجهوا بها رسلهم، فالنهاية يوم القيامة هي أن يلعن بعضهم بعضًا، ويتمنى كل فريق منهم من التابعين والمتبوعين أن يضاعف العذاب على صديقه وحبيبه وحميمه، وقد كانوا في الحياة الدنيا يشد بعضهم

---

(١) سبأ: الآيات ٣١ - ٣٣.

(٢) غافر: الآيات ٤٧ - ٤٨.

(٣) البقرة: الآيات ١٦٥ - ١٦٧.

(٤) الأحزاب: الآيات ٦٤ - ٦٨.

أزر بعض في مواجهة الحق، فهذه نهايتهم الأليمة مع الأسف الشديد.

وللمتعصبين سواء انتسبوا إلى الإسلام أو إلى غيره حظ من هذا العذاب ومن هذا العتاب الذي سيتبادل بينهم يوم القيامة، وسيتمنى كل فريق وكل فرد أن لو اتخذ مع الرسول سبيلًا.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2].

ولو قليل ولو لحظة حتى ولو أدنى شيء من التخفيف ... هل يغني عنهم شيئًا هؤلاء؟ هل يغني فرعون عن أتباعه؟ هل يغني أبو جهل عن أتباعه؟ هل يغني نمرود عن أتباعه؟ هل يغني أي ضال داع إلى الضلال شيئًا ولو قليلًا حقيرًا عن التابع؟!

كلا. . !!

هذه التي سلفت خصومة الأتباع والمتبوعين

ثانيًا: وهذه خصومة أخرى بين العابدين والمعبودين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

هذه هي نهاية العلاقة بين الشيطان وبين الإنسان التي أصلها من أولها إلى آخرها، إلا من نجى الله تعالى من حبائله من عباده المخلصين.

---

(١) الفرقان: الآيات ٢٧-٢٩.

(٢) إبراهيم: الآية ٢١.

(٣) إبراهيم: الآية ٢٢.

يقال . إنه يقف خصيمًا فيهم بهذا الكلام ، ويتبرأ منهم ، ويتبرءون منه ، فيستغيثون به ، فلا ينجدهم وهو لا يجد صريخًا منهم .

وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ۝ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1] .

فالملائكة عُبدت من دون الله ، ولكنهم معصومون ، إلا أن الشياطين هي الَّتي أضلت الناس ، وزينت لهم عبادة الملائكة ، وقالت لهم : إن الملائكة بنات الله ، وأنَّها تستحق العبادة ، فصنعوا لهم الأصنام و لرموز ثم عبدوها ، فهل تلك العبادة هي عبادة للملائكة ؟ كلا . .

فلعنة الله على الكافرين الظالمين :

وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾[2] . . يعني : يتمنون أن لو كانوا على هدى وهذه هي النهاية الأليمة ، والفاجعة العظيمة ، والطامة الكبرى للتعصب الذميم والتقليد الأعمى ؛ لتحذر الأمة الإسلامية من ذلك الشر المستطير ، والبلاء الماحق .

فالله -تبارك وتعالى- يقص علينا هذه القصص حتَّى نعتبر ، قصص الأنبياء مع أممهم ، وبيان مصارعهم ، كل ذلك لنعتبر ونتعظ ونحذر أن نقع في هذا المُنزلق الخطير الذي وقعت فيه الأمم فهلكت ، كما قال تعالى : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] .

---

(١) سبأ : الآيات ٤٠ - ٤٢.

(٢) القصص : الآيات ٦٢ - ٦٤.

(٣) هود : الآية ١٢٠.

هل استفادت الأمة من المثلات الَّتي نزلت بالأمم الظالِمَة:

ولكن مع الأسف الشديد أن كثيرًا من هذه الأمة وقع في هوة التعصب الأعمى، والتقليد البليد في عقائدهم، وعباداتِهم، وسياساتِهم، وأخلاقهم، وعاداتِهم، وكأن القرآن لا يعنيهم من قريب ولا من بعيد، وكأنه لا يخاطبهم، ولا يبصرهم، ولا يحذرهم إذا ذكر عيوب الأمم السابقة، وعقائدهم، وأخلاقهم، وإذا تبين كيف كانت تلك الأمور سببًا في إهلاكهم، وتدميرهم في الدنيا، وسبب شقائهم الأبدي وعذابِهم الشديد السرمدي في الآخرة، فتراهم يرتكبون كل الشنائع دون مبالاة ولا خوف ولا خجل، وكم جاءتْهم النذر، ونزلت بِهم المصائب والكوارث، فلم يأخذوا من الدروس والعبر والعظات ما يدفعهم إلى العودة إلى الله، فيتمسكوا بكتاب ربِّهم وسنة نبيهم ﷺ، ويبتعدوا عن تلك الأعمال والعقائد المدمرة، ويبتعدوا عن التعصب الذميم الذي مزقهم شر ممزق، وسلط عليهم الأمم الكافرة أيَّما تسليط، ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ بِمَا سترتدي فيه معظم هذه الأمة، وأنَّها ستتبع سنن من قبلها حذو القُذَّة بالقُذَّة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

اتباع هذه الأمة سنن من قبلها

عن أبي هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتَّى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع**»[1].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتَّى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**»[2].

وعن أبي واقد الليثي ﷺ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بِها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط. فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما

---

(١) البخاري (٧٣١٩).

(٢) البخاري (٧٣٢٠)، مسلم (٢٦٦٩).

لهم ذات أنواط. فقال: «الله أكبر؛ إنَّها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم»[1].

وعن أنس وغيره ﷺ، أن النَّبِي ﷺ قال: «افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى إلى اثنين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قالوا: من هي؟ قال: الجماعة»[2].

وحذر ﷺ من التعصب والعصبية العمياء...

فعن أبي هريرة ﷺ، أن النَّبِي ﷺ قال: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات ميتةً جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمية يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه»[3]. والشاهد في قوله: «يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة». عصبية مذهبية أو قبلية أو غيرها من العصبيات التي تنافي المبدأ الإسلامي الذي يدعو للأخوة في الله، ونبذ هذه العصبيات على مختلف أشكالها وألوانها، فهذا تحذير من العصبية المقيتة، وتنفير منها.

وقال ﷺ لما قال أحد المهاجرين: يا للمهاجرين، وقال أحد الأنصار: يا للأنصار. فقال -عليه الصلاة والسلام-: «أدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنَّها منتنة»[4].

لفظ الأنصار لفظ ممدوح، ولفظ المهاجرين كذلك، وأثنى الله على المهاجرين والأنصار لجميل صنعهم، وكمال أفعالهم، وقوة إيمانهم، ولكنها لما استغلت عصبية سماها رسول الله ﷺ دعوى الجاهلية، وقال: «إنَّها منتنة». فاللفظ

---

(١) رواه أحمد، والترمذي وصححه، وغيرهما، انظر صحيح سنن الترمذي (٢٢٨٥).

(٢) رواه أبو داود في السنن (٤/ ١٩٧)، والترمذي (٥/ ٢٥)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢) واللفظ له، انظر السلسلة الصحيحة للعلامة الألباني (٢٠٣).

(٣) رواه مسلم (١٨٤٨).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٤).

الشريف النبيل إذا استغل لغرض دنيء يكون ذمًّا لقائله، ويدخل هذا اللفظ الإسلامي في إطار آخر هو إطار الجاهلية «... أدعوى الجاهلية ...». ماذا قالوا: «يا للمهاجرين.. يا للأنصار» ولكن ما هو الحافز؟! الدافع إليها التعصب والعنصرية، فالرسول ﷺ سماها جاهلية ووصفها بأنَّها منتنة، ودعا إلى الأخوة والمَحبة والألفة، والتناصر على الحق.

دعوة الإسلام إلى الأخوة بين المؤمنين

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[2]

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[3]

إلى آخر الأحاديث الَّتي جاءت تدفع المسلمين إلى التآخي، وإلى التحاب، وإلى التناصر على الحق، وضد العدوان وضد الظلم والطغيان، كما في الحديث: «انصر أخاك ظالِمًا أو مظلومًا. قال: هذا أنصره مظلومًا فكيف أنصره ظالِمًا؟ قال: تحجزه عن الظلم فذلك نصرك إياه»[4].

فالناس يتصورون الظلم في السطو على الأموال فقط، أو الأعراض، ولكن الظلم قد يكون للعقيدة.. قد يكون للقرآن... قد يكون للسنة.. قد يكون للمسلمين... إنسان يدعو إلى الحق، ويدعو إلى الإصلاح ويدعو إلى الخير فيُظلم، فيجب نصره بالحق، وسيأتي كلام العلماء في طريقة التناصر، وعلى أي أساس تكون هذه المناصرة.

ولكن للأسف هذه التوجيهات العظيمة البناءة تغلب عليها التعصب الهدام، والتقليد الأعمى، والأهواء البغيضة، ولم يستفد من تلكم التوجيهات إلا القليل

---

(١) الحجرات، آية ١٠.

(٢) البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٣) البخاري (٢٤٤٢).

(٤) البخاري (٢٤٤٤).

من الناس، المتمثل ذلك القليل في الطائفة الناجية الَّتِي امتدحها النَّبِي -عليه الصلاة والسلام- وذكر أنَّها ستبقى -إن شاء الله- إلى قيام الساعة، أبقاها الله وأيدها ونصرها، ووفق جميع المسلمين إلى العودة إليها والالتفاف حولها .

لقد ظهرت العصبيات والمذهبيات في العقائد وفي العبادات وفي السياسة وفي غيرها، فكيف كانت مواقف أئمة الإسلام من هذه العصبيات الجاهلية الظالِمَة الَّتِي مزقت المسلمين، وضيعت الإسلام في الوقت نفسه؟

والجواب: أن الصحابة ﷺ كعبد الله بن عمر تبرءوا من أهل العصبيات والأهواء كما روى ذلك الإمام مسلم حينما جاءه خبر الذين اخترعوا فكرة نفي القدر فقال: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء منِّي، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل منه حتَّى يؤمن بالقدر»[1] .

وحث النَّبِي -عليه الصلاة والسلام- على قتل الخوارج، وسماهم: «**شر الناس**». ووصفهم بأنَّهم: «**أبغض الناس إلى الله**». وبأنَّهم: «**شر من تحت أديم السماء**». وقال: «**اقتلوهم حيثما وجدتُموهم**». مع تشددهم في العبادة الَّتِي لا يلحقون فيها . حتى إن أصحاب محمد ﷺ لا يلحقون هؤلاء في صلاة، ولا في صيام، ولا في قراءة القرآن، كما قال -عليه الصلاة والسلام-. «**تحقرون صلاتكم مع صلاتِهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يَمرقون من الدين كما يَمرق السهم من الرمية**»[2].

وقال أيضًا: «**فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة**»[3]. لأنَّهم كانوا مع عبادتِهم يتمتعون بِهوى جامح، وتعصب مقيت، أدى بِهم إلى الطعن في صحابة الرسول ﷺ، وإلى رفض كثير من النصوص الَّتِي تعالج أمراضهم بعصبيتهم، ولكنهم ما كانوا يرجعون، يحملهم شدة التعصب لما هم عليه على أن لا يعودوا إلى الحق، ولا يحترموا أهل الحق، بل يستبيحون دماءهم

---

(١) صحيح: مسلم حديث (١).

(٢) البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).

وأموالهم قبل أن يستبيحوا دماء الكفار والمجوس وغيرهم .

وقد تكلم فيهم رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة رواها علي وأبو سعيد وجماعة من الصحابة تبلغ أربعة عشر حديثًا، بل الأحاديث فيهم متواترة في ذمهم ورميهم بأنهم أصحاب أهواء، وإن تعبدوا وأمعنوا في العبادة، وفاقوا صحابة رسول الله ﷺ فيها، فإن هذه لا وزن لها إذا لم تقم على أساس سليم ومنهج سديد.

أما أهل الكلام المتعصبون لفلسفة اليونان، الذين أولوا وحرفوا نصوص القرآن من أجل تلك العقائد الفاسدة، وتعصبوا لها رغم تحذير أئمة الإسلام الأعلام، وبيانهم لمفاسد هذه الأفكار وهذه العقائد الَّتي جروها إلى الأمة الإسلامية، أدخلوا الأمة الإسلامية في دوامة من الجدال والصراع المؤدي أحيانا إلى القتال، وإلى سفك الدماء، فلقد ذمهم الأئمة أشد الذم كالإمام مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وسفيان بن عيينة والأوزاعي والثوري وابن المبارك والبخاري ومسلم وألفوا في ذلك مؤلفات كثيرة تبين فساد علم الكلام وأضراره الخطيرة وماذا يستحق أهله من الجزاء حتَّى لقد قال فيهم الإمام الشافعي: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال. هذا جزاء من ترك كتاب الله وسنة رسول الله، وأقبل على علم الكلام» اهـ.

وكلام أحمد وغيره من أئمة الإسلام كثير كثير، ولهم دواوين -ولله الحمد- انتشرت في هذا العصر، وأخرجتها المطابع وتزخر بها المكتبات فارجعوا إليها لتروا مواقف الأئمة الحازمة في رد هذا الشر وقمعه، وبيان ضلال أهله، وتحذير الأمة من شرهم ومن ضلالهم، ومع الأسف الشديد مع كل هذا تكاد الأمة تجمع على بطلان هذا المنهج وفساد علم الكلام، وعلى مر الأيام وتتابع الأزمان أصبح أصل الإسلام هذه الفلسفة اليونانية الضالة الجاهلة، أصبحت أصل الإسلام، وأصبحت هي التوحيد مع الأسف الشديد.

وما الذي حمل هؤلاء أن يلقبوا بهذا العلم الجاهلي إلى أن يسمى أصل الدين؟! إنَّما هو التعصب الأعمى والهوى الجامح الذي تحكم بعقول هؤلاء الذين ابتعدوا عن كتاب الله وعن سنة رسول الله ﷺ في أهم القضايا الإسلامية الَّتي دار

عليها نصوص كثيرة من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ وبينتها ووضحتها غاية البيان، مع كل ذلك يجترءون تعصبًا وبغيًا على أهل السنة والجماعة، وعلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فيمتعون في تدريسه وتقريره في جامعات ومساجد ومدارس ويسمى -مراغمة للحق وأهله-: التوحيد . . وأصل الإيمان . . . وأصل الإسلام . . مع الأسف الشديد

نسأل الله -تبارك وتعالى- أن يبصر هؤلاء، ويقودهم بنواصيهم إلى الحق والخير، وإلى العودة الجادة إلى كتاب الله وسنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-.

ويأتي بعد بدعة الخوارج والروافض والكلام أخطر من هذه الأدواء، ذلك الداء الذي استشرى في الأمة الإسلامية، وسيطر على عقولها ردحًا من الزمن شعوبًا وحكامًا . . ذلك الداء العضال المسمى بـ «التصوف» الذي اكتسح عقول الفقهاء وكثير من المحدثين، وجر الأمة الإسلامية إلى متاهات -والعياذ بالله- جرها إلى الضلال في العقائد في ذات الله، في أسمائه، في صفاته، في عبادته وانتشرت القبور وعبادتُها، وشد الرحال إليها، والطواف بها، وإلى آخره من البلايا والدواهي التي نزلت بالمسلمين وعقولهم وعقائدهم.

وللأئمة فحول العلماء كابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن حجر والسخاوي والبقاعي وغيرهم مؤلفات وكلام يدمغ هذه الطائفة بن علاتها، يدمغهم بالضلال والانحراف.

وما الذي حملهم على هذا؟ إنما هو ذلكم الداء العضال الذي فتك بالأئمة الإسلامية من فجر تاريخها ألا وهو داء الهوى وداء التعصب، ويسري هذا الداء إلى ميدان العبادة، وإلى الفقه الإسلامي، فتجد الأمة قد تفرقت فرقًا، وتمزقت تمزقًا، وتعصب كل فريق لمذهب معين ولاتجاه معين مع الأسف الشديد، مع أن نصوص الكتاب والسنة تدعو إلى وحدة الأمة وإلى التفافها حول كتاب ربها وسنة نبيها، فكم آية حثت على اتباع الصراط المستقيم، وعلى الاعتصام بحبل الله، وعلى طاعة الرسول، وحذرت من مخالفة أوامر الرسول ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ

عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. آيات كثيرة تأتي تحث رسول الله ﷺ نفسه على اتباع ما أوحي إليه، وتحث الأمة على اتباع هذا الكتاب، وألا يتخذوا من دون الله أولياء، ولقد لاحظ ابن عباس شيئًا من التعصب لأعظم الخلفاء أبي بكر وعمر فقال لهم: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر».

قال الإمام أحمد مفسرًا قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك[2] -والعياذ بالله-.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: إني لأعجب لقوم يعرفون الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان. وكلام الأئمة فيه كثير.

تحذير الأئمة من التعصب

وحذر من التمذهب والتعصب الأئمة الأربعة أنفسهم -رضوان الله عليهم- وكلامهم مدون في سجلات الإسلام ودواوينه -ولله الحمد- ما عفا عليه الغبار، ومن نسج عليه العنكبوت، إنما هو باق حجة دامغة لمن يتعصبون للأئمة، وقد حذروا أشد التحذير من التعصب، هذا التعصب الذي أدى بكثير منهم إلى رد النصوص الصريحة الواضحة من كتاب الله، وسنة رسوله -عليه الصلاة والسلام-.

مفاسد التعصب

نصوص كثيرة ردت وهي في غاية الوضوح . . . من أجل ماذا؟ وما الذي حملهم على ردها أو تأويلها أو تحريفها؟ إنما هو ذلكم الداء المقيت داء التعصب والعصبية العمياء -والعياذ بالله- وقد ذكر بعض العلماء ومنهم ابن القيم المفاسد التي تردى فيها المتعصبون للمذاهب فقال:

---

(١) النور: آية ٦٣.

(٢) أخرجه الإمام عبد الله بن بطة العكبري في «الإبانة الكبرى» (ج١/ صفحة ٢٦ برقم ٩٧).

منها:

أولًا - مخالفة النصوص الثابتة من الكتاب والسنة تعصبًا للمذاهب، وتقديم الرأي المحض أحيانا عليها.

ثانيًا: كثرة الأحاديث الضعيفة والموضوعة والاحتجاج بها، واستنباط الأحكام منها، حملهم التعصب وبعضهم يكذب ويفتري نصرة لمذهبه، وكتب مصطلح الحديث فيها أمثلة من هذه النماذج لهؤلاء المتعصبين.

ثالثًا: تقديم أقوال العلماء المتأخرين على أقوال الأئمة المتقدمين، وقد أنحى أبو شامة في كتابه «المؤمل» باللائمة على أهل مذهبه الشافعية، قال: إن الشافعية الأولين كانوا يتعصبون لأقوال أئمتهم لكن يأخذون من قول المزني وقول غيره، وقد يردون أقوال بعض الصحابة وبعض التابعين، ثم جاء المتأخرون فردوا كلام المزني وغيره وتعلقوا بكلام الغزالي وأمثاله، وأنحى عليهم باللائمة في الكتاب وبين ما تردت إليه أوضاعهم وأحوالهم التي جرهم إليها التعصب الأعمى -والعياذ بالله-.

رابعًا: الانحباس في مذهب واحد، وعدم الاستفادة من علم المذاهب الأخرى وجهود رجالها وكتبها تعصبًا لمذهب معين.

خامسًا: خلو كثير من الكتب المذهبية من الأدلة الشرعية، ورغبة كثير عن دراسة الكتاب والسنة إلى هذه الكتب.

سادسًا: شيوع التقليد والجمود وإقفال باب الاجتهاد.

وقد اختلفت دعوى إقفال باب الاجتهاد متى كان هذا الإقفال؟

فمنهم من يقول: على رأس المائتين أغلق باب الاجتهاد.

ومنهم من يقول: على رأس الأربعمائة.

ومنهم من يقول: أغلق باب الاجتهاد على أحمد بن حنبل.

إلى آخر الأقوال القائمة على الجهل والهوى، والتي دفع إليها التعصب الأعمى، وإلا فكتاب الله هذا الكتاب الخالد كيف يقصر فهمه على أناس معينين،

وتقصر فائدته إلى أمد قصير؟ ثم تعطل العقول، ويضرب الله عليها الأقفال حتى لا يفهم الناس شيئًا من دين الله -تبارك وتعالى-.

هذه دعوى إغلاق باب الاجتهاد مآلها أن حُطِّم العقل الإسلامي، ووقف سير المد الإسلامي في الفتوحات وفي العلوم الإسلامية نفسها وجنى على الأمة الإسلامية جناية خطيرة مما جعلها في مؤخرة الأمم.

إن أعداء الإسلام قد سخروا هذه الطاقات العقلية في مصالحهم، فاخترعوا من المخترعات ما تعرفونه، وما هو موجود الآن بين أيدينا، فمنها السيارات، ومنها الصواريخ، ومنها آلات الزراعة، وآلات الصناعة وآلات الحرب، وأشياء لا حد لها، كيف يمنح الله أعداء الإسلام من يهود ونصارى وشيوعيين هذه العقول الجبارة، فتخترع هذه الاختراعات المذهلة، ثم يغلق الله على قلوبنا، ويجعل عليها أقفالًا، فلا نفهم كتاب الله، ولا نفهم سنة رسول الله ولا نفهم شيئًا من أمور الحياة؟.

إنها لجناية كبيرة على الأمة الإسلامية سببت من الآثار الخطيرة المدمرة في حياة المسلمين ما يعيشونه الآن من تخلف فكري وعقلي في ميادين الدين والدنيا

نسأل الله -تبارك وتعالى- أن ينجد المسلمين، وأن يغيثهم من هذه الكبوة وهذه الهوة التي وقعوا فيها، وأن يهيئ لهم دعاة مخلصين لينقذوهم من هذا البلاء المدمر الذي ما هو إلا ثمرة من ثِمَار التعصب الأعمى والجمود أدى بهم إلى أشياء مضحكة كأن يتمسك الإنسان بجملة من النص، ويحتج بها، ويكون في الحديث جملة أخرى تدل على شيء يخالف مذهبه، فيأخذ بما يوافق مذهبه من هذا النص المعين، ويرد من هذا النص ما يخالف مذهبه

سابعًا: التشدد في بعض المسائل مما فيه عنت كبير على الناس، ومما يجر عليهم وسوسة وما شابه. تجدون ذلك في النية مثلًا.

حتى إنك لتقف في كثير من المساجد فلا تَهنأ بالصلاة، ولا تستحضر عظمة الله، ولا تستطيع الخشوع فيها؛ لأن بجانبك من يوسوس «الله أكبر... الله أكبر -يزيد التكبير عشرات المرات- نويت نويت نويت .....» فهذه المذهبية والتعصب العقائدي والتعصب المذهبي، ولهم ردود ومؤلفات كثيرة.

ومن تكلم عن هذا البلاء الخطير وعما انحدر عليه المتعصبون للمذاهب الفخر الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

قال عند تفسير هذه الآية عن أحد شيوخه المحققين: «قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات.. فلم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إلي كالمتعجب، يعني: كيف يمكن العمل بظاهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت بخلافها»[2].

هذه من أئمة الشافعية يشهد على أناس من أهل المذهب أنهم يردون آيات قرآنية، وإذا احتج الإنسان بالآيات يبهتون، ويقفون مشدوهين، كيف يمكن العمل بهذه الآيات وهي تخالف مذهبنا؟ فهذا الرازي منتمٍ لمذهب الشافعي، لكن لا ينحدر به التعصب الأعمى إلى المنحدر الذي يهوي إليه كثير من المتعصبين، كذلك أبو شامة والنووي وابن حجر يعالجون بعض هذه القضايا.

أما ابن القيم رحمه الله وغيره فقد كتبوا في ذلك المؤلفات، وما كتاب «إعلام الموقعين» للإمام ابن القيم -في أربعة مجلدات- إلا علاج لهذا البلاء الخطير، بلاء التعصب الأعمى والتقليد الأعمى.

قال الفخر الرازي: «ولو تأملت حق التأمل لوجدت هذا الداء ساريًا في عروق الأكثر من أهل الدنيا، داء التعصب للمذاهب وللرأي وللفكر وللسياسة وللحزب سارٍ في أكثر الناس».

وكيف لو رأى وعايش وعاصر هذا الوقت، ورأى فيه العجائب مما هو أدهى وأمر مما كان حاصلًا في عهده؟!

وقال بعد ذلك: «ليس المراد من الآيات أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، ثم ذكر أوجهًا ثلاثة أخرى وقال:

---

(١) التوبة: آية ٣١.

(٢) التفسير الكبير: (١٦/٣٩).

وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع في هذه الأمة»[1] اهـ.

وقد سبقه النبي ﷺ حيث قال لعدي بن حاتم حينما دخل عليه وهو يتلو ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾ الآية فقال: «يا رسول الله، لسنا نعبدهم. قال: أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معنى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. «وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

الأول: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهو كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإن لم يكونوا يصلون لهم، ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين، مع علمه أنه خلاف للدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام، وتحليل الحلال ثابتًا لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»[3].

ثُمَّ ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسل، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه.

ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ﷺ، ثُمَّ اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول ﷺ؛ فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لاسيما

---

(١) التفسير الكبير: (١٦/ ٣٩).

(٢) رواه الترمذي كتاب التفسير (٣٠٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني في غاية المرام (ص ٢٠)

(٣) البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

إن اتبع في ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه أنه مخالف للرسول ﷺ فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال وإن كان عاجزًا عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره.

وأما من قلد شخصًا دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيبًا لم يكن عمله صالحًا، وإن كان متبوعه مخطئًا كان آثمًا» اهـ.

يعني حتى لو كان متبوعه على الحق وهو تابعه بغير حجة ولا برهان فقط لأنه فلان، هذا آثم وإن كان متبوعه على الحق، فيجب أن يتجرد الإنسان لله، ويبحث عن الحق، ويتبع أهله، وينصر هذا الحق، وينصر أهله، هذا هو المطلوب من المؤمن.

وقد شاع التفرق والتحزب في هذا العصر المليء بالفتن والمكتظ بالكوارث، وهو أمر خطير على الأمة في دينها ودنياها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:

«وليس للمعلمين أن يحزِّبوا الناس، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1]. وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كل ما يريده وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكيز خان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقًا وليًا، ومن خالفهم عدوًا بغيضًا، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله ورسوله، ويرعوا حقوق المعلمين كما أمر الله ورسوله، فإن كان أستاذ أحد مظلومًا نصره،

---

(١) المائدة، آية ٢.

وإن كان ظالِمًا لم يعاونه على الظلم بل يمنعه منه، كما ثبت في الصحيح عن النَّبِي ﷺ قال: «انصر أخاك ظالِمًا أو مظلومًا»[1].

وهذا يكاد يعدم الآن في الجماعات الإسلامية، ينصر أخاه ظالِمًا أو مظلومًا على المنهج والطريق الجاهلي مع الأسف الشديد! وهذا أمر معروف لاشك، ولكن علينا أن نتوب إلى الله -تبارك وتعالى- ونرجع إلى هذا الحق الذي ربانا عليه رسول الله، والذي يريده الله -تبارك وتعالى- لنا أن نكون محبين للحق مناصرين له....

ثُمَّ قال بعد ذلك: فإن وقع بين معلم ومعلم، وتلميذ وتلميذ، ومعلم وتلميذ خصومة ومشاجرة لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتَّى يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوى، بل ينظر في الأمر، فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره، وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده، وطاعة رسوله، واتباع الحق قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2]. يقال: لوى يلوي لسانه فيخبر بالكذب، والإعراض أن يكتم الحق فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس، ومن مال مع صاحبه سواء كان الحق له أو عليه فقد حكم بحكم الجاهلية، وخرج عن حكم الله ورسوله.

والواجب على جميعهم أن يكونوا يدًا واحدة مع المحق على المبطل، فيكون المعظم عندهم من عظمه الله ورسوله، ويكون المقدم عندهم من قدمه الله ورسوله، والمحبوب عندهم من أحبه الله ورسوله، والمهان عندهم من أهانه الله ورسوله، بحسب ما يرضي الله ورسوله، لا بحسب الأهواء، فإنه من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه.

---

(١) البخاري (٢٤٤٤).

(٢) النساء: آية ١٣٥.

فهذا هو الأصل الذي عليه الاعتماد، وحينئذ فلا حاجة إلى تفرقهم وتشيعهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(٢). اهـ. كلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٣).

فيجب على كل مسلم أن يفتش نفسه، فقد يميل الإنسان إلى صاحب الحق لهوى، فقبل أن يتبين له الحق يتمنى أن يكون فلان هو المنتصر بالحجة أو غيرها، فتميل نفسه لأنه فلان، ولو كان على الحق لا يجوز أن يوجد هذا الميل، فيقول: إذا وجد هذا الميل ولو مع صاحب الحق يكون من حكم الجاهلية، وهذا أمر لا يخطر بالبال عند كثير من الناس.

فيجب على المسلم أن يراقب الله في القضايا المختلف فيها، وأن يكون قصده فقط معرفة الحق سواء مع هذا أو مع ذاك.

ومن هنا يقول الشافعي: «إذا دخلت في مناظرة لا أبالي إذا كان الحق مع صاحبي أو معي».

فلا يبالي ولا يتمنى أن يكون الحق معه، بل يتمنى أن يكون مع صاحبه، وأن تكون النصرة به، هذا هو الخلق العالي، وهذا هو الدين المستقيم

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من هذه النوعيات المنصفة الباحثة عن الحق البعيدة عن الهوى وعن أساليب الجاهلية.

فالذي يلزمنا معشر الإخوة أن نفتش أنفسنا، فمن وجد في نفسه شيئا من هذا المرض، فعليه أن يتدارك نفسه، ويقبل على العلاج لنجح، ويبحث دائما على الحق؛ لينجو بنفسه من وهدة التعصب الأعمى الذي قد يؤدي إلى الشرك بالله -تبارك وتعالى- أو يؤدي إلى الضلال الخطير.

هذه لمحات موجزة عن التعصب، وما أدى ويؤدي إليه من نتائج وخيمة كفى

---

(١) الأنعام آية ١٥٩

(٢) آل عمران آية ١٠٥

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٥ - ١٧).

الله الأمة الإسلامية شرها، ووفقها للعودة إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ ومنهج سلفها الصالح، وأخذ بناصيتها إلى كل خير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين

* * *

الثبات على السنة

(يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه
كالقابض على الجمر)

تأليف
فضيلة الشيخ العلامة
ربيع بن هادي عمير المدخلي
رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقاً



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة

إنَّ الثبات على السنَّة معناه الثبات على الإسلام بكليته أصوله وفروعه، عقائده ومناهجه، نثبت عليه ونتمسَّك به حتى نلقى الله تبارك وتعالى.

والآيات الحاثَّة على الاتباع والالتزام والاعتصام والاستقامة كثيرة، والأحاديث كذلك ترمي كلُّها إلى غاية واحدة وهي ثبات المسلمين على الإسلام.

وإذا قلنا: الثبات على السنَّة ليس المراد فقط ما يفهمه كثير من الناس من لفظ السنَّة؛ فإنَّ السنَّة هنا تعني العقيدة والمنهج، تعني الإسلام، تعني الثبات على الإسلام.

هذا الثبات بتوفيق من الله ﷻ، التوفيق بيده ﷻ، والهداية بيده والإضلال بيده ﷻ.

يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويُثبِّت من يشاء ويُزيغ قلب من يشاء

ولهذا علّمنا الله -تبارك وتعالى- أن ندعوه بألَّا يُزيغ قلوبنا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

قال الصحابة -رضوان الله عليهم-: «والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا».

يعني: إنّهم معترفون بأنّ الهداية من الله تعالى، منٌّ وفضلٌ منه ﷻ ورحمة منه لمن شاء من عباده: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤].

يمتن على من يشاء ويتفضل على من يشاء بالهداية، ويُسدِّدهم ويُوفِّقهم ﷻ، وتحفُّهم عنايته -تبارك وتعالى- من الزيغ والضلال والانحراف.

ويُضل من يشاء: إمّا بالضلال الكامل كالكفر والخروج من الإسلام -عياذًا بالله تعالى-، وإمّا الضلال الجزئي ضلال من يدخل في الإسلام فيضِلُّ في عقيدته وفي منهجه -عياذًا بالله تعالى-.

فهذا الضلال حصل بمشيئة الله تعالى، والهداية التي نالها وإن كانت فضيلة من الله ﷻ؛ فالأمر كلُّه له، والحكم له ﷻ، ونواصي العباد بيده، وقلوب الناس بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ﷻ.

ولهذا علّمنا رسول الله ﷺ أن ندعو: «يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك».

الإنسان لا يُوكل إلى نفسه، «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» لو وُكِل الناس إلى أنفسهم لهلكوا في دينهم ودنياهم، ولكنّ الله ﷻ هو الذي بيده كلُّ شيء، والأمور كلُّها بيده ونواصي العباد بيده، وقلوب الناس جميعًا بين إصبعين من أصابعه، تعالى وتقدّس ﷻ.

فإذا ثبّت الله الإنسان على دينه الحقّ وعلى منهج الله الحقّ وعلى العقائد الصحيحة فهذه نعمة من الله؛ فلا يغترُّ بنفسه ويتباهى ويتطاول، وإنّما يتواضع لله ربّ العالمين، ويشكره على ذلك ويضرع إليه أن يحفظ له دينه، وأن يُجنِّبه المزالق والزيغ ﷻ.

ولا يغتر ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف ٩٩]، فنسأله في كلّ لحظةٍ من لحظاتنا أن يُثبّت قلوبنا

هذا رسول الله ﷺ وكان يُكثر من قوله: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك. فقالت عائشة. فقلت يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء فقال: إنّ قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله ﷻ فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه».

والثبات مطلوبٌ من المؤمن، ويجب أن يسأل ربّه أن يُثبّته في كلّ موقف: في الجهاد، عند الموت يدعو الله -تبارك وتعالى- ويضرع إليه أن يُثبّته. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال ٤٥].

إذا لم يُوجد ثباتٌ ما وُجد جهادٌ، ولا قيمة للجهاد إلّا بالثبات حتى ينزل النّصر من الله ﷻ.

فإذا ثبت المؤمنون على العقائد الصحيحة والمناهج الصحيحة وثبتوا في القتال أمام أعداء الله ﷻ وقاتلوا لإعلاء كلمة الله لا بُدّ أن ينصرهم الله تبارك وتعالى- بهذا الثبات على الدّين، وبهذا الجهاد لإعلائه «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

والمطلوب منه إذا كان في ساحة الجهاد أن يثبت ولا يفرّ؛ والفرار من الزّحف إحدى الكبائر المُهلكة - والعياذ بالله- كما سنذكر ذلك في حديث الكبائر إذا اتّسع له الوقت؛ فنسأل الله أن يُثبّتنا وإيّاكم على دينه.

وكما قلنا: إنّ الله يأمر بالاعتصام بحبله بعد هذه الآية التي تلوناها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

الاعتصام معناه الثبات، أثبتوا واستمسكوا، يُساعدكم على هذا الثبات على الإسلام الذي أوصانا الله أن نحتفظ به ونُحافظ عليه إلى الممات

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ

بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

هذا ثناء من الله -تبارك وتعالى- على الذين استقاموا على دينه، والاستقامة هي الثبات على ما جاء به محمد ﷺ، بل على ما جاء جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من عقيدة ومنهج، فلهم منزلة عند الله -تبارك وتعالى- بثباتهم على هذا الدِّين الحقِّ.

قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ آمنوا بالله ﷻ حقَّ الإيمان بأسمائه وصفاته وربوبيته، وأنَّه هو المعبود الحقُّ فلا يعبدون سواه.

يُثبتون له الربوبية، وأنَّه هو خالق هذا الكون ومدبِّره ومنظِّمه، وهو الخالق الرَّازق المحيي المميت إلى آخر صفات الربوبية

وأسماؤه الحسنى اللائقة بجلاله وعظمته وربوبيته ﷻ التي وردت في القرآن وفي السنَّة، نُؤمن بها كما جاءت، وهي داخلة في هذه الاستقامة

والإيمان بأنَّه لا إله إلا هو، لا معبود بحقٍّ إلَّا هو ﷻ، فلا نعبد إلَّا إيَّاه نُخلص له الدِّين ﷻ، نحبُّه غاية الحبِّ، ونخافه ونخشاه غاية الخوف والخشية، ونرجوه ونطمع فيما عنده في الدنيا والآخرة ﷻ، ونصلي له ونسجد ونَحْفِد ونزكي ونصوم ونذكر ونقرأ القرآن... كلُّ ذلك تقرُّبًا إليه ﷻ.

وهذه كلُّها من أسباب الاستقامة ومن دلائل الاستقامة إذا نحن حافظنا على هذه الشعائر وهذه الشرائع.

وهذه من الدلائل أنَّ الله قد وفَّقك -إن شاء الله- وأنَّك من المستقيمين الذين يستحقُّون من الله ﷻ هذا الثناء، ويستحقون من الله هذا الوعد وهذه العناية الربَّانية.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ متى يكون هذا التنزُّل؟ عندما يحتضر العبد، عندما يُوشك على مفارقة هذه الدنيا وتوديعها والرحلة إلى الدار الآخرة يُنزِّلُ الله الملائكة يُبشِّرونهم ويُثبِّتونهم ويُسدِّدونهم، ويُذهبون عنهم المخاوف.

﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾. لا تخافوا من المستقبل، مما أمامكم؛ مما أمامكم إلا الجنَّة ورضوان الله ﷻ، ولا تحزنوا على ما خلَّفتم من المال والولد وغير ذلك.

هذه بشائر تأتي الثابتين على دين الله الحقّ في هذا الظرف العصيب، فهذه مرحلة خطيرة جدًّا، فبعضهم قد تسوء خاتمته -والعياذ بالله- نسأل الله أن يُثبِّتنا وإيَّاكم.

كما جاء في الحديث «إنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار» متفق عليه.

هذا الحديث الذي نخاف منه الخوف الشديد من نهاية المطاف وخاتمة الحياة، فلابُدَّ للعبد أن يضرع إلى الله ﷻ دائمًا أن يُثبِّته على دينه، وأن يتوفَّاه وهو راضٍ عنَّا.

وفي الحديث الآخر: «من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كَرِه لقاء الله كَرِه الله لقاءه».

حدَّث بهذا الحديث أبو هريرة وحدَّثت به عائشة ﵄ قالوا: «يا رسول الله كلنا يكره الموت! فقال رسول الله ﷺ قال: ليس ذاك -أي: ليس ذلكم ما تفهمون-، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه» متفق عليه.

فنسأل الله -تبارك وتعالى- أن يجعلنا ممن يشتاق إلى لقائه ويُحبُّ لقاء الله -تبارك وتعالى-، وأن يُكرمنا في هذه الظروف العصيبة بحسن الخاتمة، وأن يُتحفنا بالبشائر الطيِّبة، وهذا ثمرة للثبات على دين الله والاستقامة التي يرجع

الفضل فيها إلى الله ﷻ، لا إلى قلبك ولا عضلاتك ولا إلى شيء من هذا، وإنما يرجع إلى رحمة الله وفضله ولطفه؛ فنسأله أن يلطف بنا وأن يثبت قلوبنا على الحق.

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. الجنة وعدها الله الذين آمنوا واستقاموا في آيات كثيرة في السور المكية والمدنية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٥].

وقال ﷻ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

فالوعد بالجنة مذكور في كثير وكثير من السور والآيات، الجنة التي كنت توعد بها في القرآن وعلى لسان محمد ﷺ بسبب الثبات على الإسلام بسبب الاستقامة عليه أبشر بها.

فنسأل الله أن يثبت وإياكم على الهدى وأن يرزقنا وإياكم الاستقامة.

والله ﷻ قال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، أمر بالاستقامة.

وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] هذا أمر من الله ﷻ لرسوله ﷺ وأتباعه المؤمنين الذين تابوا إلى الله وأنابوا إليه والتزموا صراطه المستقيم وثبتوا على دينه: أمرهم بالاستقامة عليه.

والاستقامة هي الثبات كما أمرك الله، تلتزم بالعقيدة التي أمرك الله بالتزامها، تلتزم بالأوامر كلها التي أمرك الله بها وتجتنب النواهي التي نهاك الله عنها وحرمها عليك.

والقرآن فيه جوامع الكلم، الكلمة الواحدة تحتها معانٍ، وهذه الآية منها وتلك الآيات منها.

فهذا توجيه لرسول الله ﷺ وللمؤمنين إلى يوم القيامة أن يستقيموا على دين الله الذي أمرهم به؛ فلا يحيدون عنه يمنة ولا يسرة، ولا يزيغون عن هذا الأمر الشامل لكل التشريعات والعقائد والأحكام.

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾: الطغيان هو مجاوزة الحدِّ، ولا تطغَوا: لا بغلوٍّ في الدِّين ولا في غيره، ولا بظلمٍ، ففيه محاربة كلِّ صنوف الطغيان من الظلم والتَّعدِّي

والتَّعدِّي لحدود الله من أفظع أنواع الظلم، فشرائع الله محدَّدة والعقائد محدَّدة والأوامر محدَّدة مضبوطة، وكلُّ شيءٍ مضبوطٌ، ويأتي أحدهم يزيد من عنده؟!! فهذا طغيان.

لا تزد إلَّا في حدود ما شرع الله لك من النوافل، وحتى النوافل نفسها لا تزيد فيها، الصلاة خمس لا تزيد سادسة، الظهر أربعًا لا تزد خامسة لا تزد سادسة ولا تزد سجدة ولا أي شيء، لا تزد في العبادات فقد حدَّدها الرسول ﷺ

كان ﷺ يقوم وينام، ويصوم ويُفطر، فلمَّا اشتدَّت رغبة بعض الصحابة ﷺ في الزيادة في العبادة سألوا أزواج النبيِّ ﷺ عن عمله فقالوا: إنَّه يقوم وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوج النساء، فقال أحدهم: أما أنا فأقوم ولا أنام، وقال الثاني: وأنا أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا لا أتزوج النساء. فأغضب ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا! لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس منِّي» متفق عليه.

فالذي يقوم الليل ويصوم النهار يضيع حقوقًا كثيرة، ثمَّ في النهار يفشل ويستحسر ويضعف وقد ينتكس نتيجة لغلوِّه.

الصحابة الذين كانت لديهم هذه الرغبة تراجعوا، ما أسرعهم للاستجابة!

ولكن كثيرًا من الناس إذا وقع في خطأ، وقع في غلو، وقع في شيء فلا يرجع -عياذًا بالله- وهذا بلاء مهلك نسأل الله العافية

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ لا تطغى على الناس لا تعتدِ عليهم في أعراضهم ولا في أموالهم ولا في أرواحهم ولا في شيء ممَّا حرم الله -تبارك وتعالى-، ولا تُخِلَّ بحقوق الأقربين ولا الأبعدين، هذا تحذير من الله ﷻ.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ رقابة دقيقة من الله ﷻ، يحصي مثاقيل الذر من الأعمال الصالحة والطالحة.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

فالمؤمن يكون دائمًا حذرًا مراقبًا لله -تبارك وتعالى- يؤدي الأعمال الصالحة وهو مراقب لله، يخاف أن يكون فيها رياء فيه حب السمعة فيها أشياء فيهلك والعياذ بالله، و يخاف من المعاصي ويخاف من البدع لأنَّ الله يراقبه. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

تبارك وتعالى على كلِّ شيء شهيد، على كلِّ شيء رقيب، بما نعمل بصير ﷻ. فالمؤمن يجب أن يستحضر هذا الأمر -مراقبة الله- وأنَّ الله بكلِّ شيء بصير وسميع، وأنَّ الله محيط بكلِّ شيء ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصُّدور فلا تخفى عليه خافية.

ومن وفقه الله ورزقه مثل هذه الحال الطيبة فإنَّ هذا من علامات ثباته -إن شاء الله-، وعلامة استقامته، هذا من العلامات والبشائر أنَّ المؤمن على ثبات واستقامة -إن شاء الله-، ولكن لا يكلُّ ولا يملُّ من اللجوء والضراعة إلى الله ﷻ، كيف ورسول الله ﷺ يسأل هذا السؤال ويكثر منه: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» كيف نأمن أن ينحرف الإنسان ويزيغ قلبه؟!

والله ما يأمنه إلَّا منافق، ولا يخافه إلَّا مؤمن، فينبغي أن نخاف الله ﷻ ولكن لا يطغى هذا الخوف؛ فيكون خوف ورجاء متوازيان متوازنان حتى يحضر الموت فحينئذٍ يُغلِّب المؤمن الرجاء وحسن الظنِّ بالله ﷻ.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

الميل إلى أهل الظلم الذين يظلمون النَّاس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، أو يظلمونهم في دينهم بالبدع والضلالات وبثٌ لدعايات الخطيرة ضد الإسلام وما شاكل ذلك.

لا تركن إلى أحدٍ من هؤلاء، لا تنصره، لا تساعده على باطله، الآية تشمل كل هذه الأنواع، كلُّ مبطل ظالم، كل مبتدع ظالم، كلُّ منتهك لحرمات المسلمين ظالم، فلا تركن إلى أحدٍ من هؤلاء فتمسَّكَ النَّار؛ لأنَّك لمَّا تركن إلى الفاسق، إلى المبتدع الضال، إلى الظالم المجرم المنتهك لحرمات النَّاس وحرمات الشريعة تكون كأنَّك راضٍ كأنَّك مساعدٌ ومُؤيِّد؛ فليحذر المؤمن من الوقوع في هذا الركون المهلك.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥]

يقول الله -تبارك وتعالى- لرسوله ﷺ. ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾!!

فليحذر المؤمن من هذا الركون، وقد يكون من أسباب الزيغ والضلال -عياذًا بالله تعالى-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]

وعن حذيفة قال: «كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال. تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلت: أنا. قال. أنت لله أبوك. قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول. تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا؛ فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه» رواه مسلم في صحيحه وغيره

«على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض»: تثبيت من الله ﷻ، يُثبِّته الله ﷻ بسبب رفضه للباطل، رفضه للشهوات، رفضه للشبهات.

فإنَّ الفتنة قد تكون دنيوية فتنة الشهوات فتُهلك، وقد تكون فتنة شبهات وبدع وضلالات وما شاكل ذلك فتؤدِّي بصاحبها إلى ما ذُكر في الحديث: «والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا».

هذا بداية الركون إلى أهل الباطل ومساعدتهم، تبدأ نكتة سوداء وتتسع، كلما مال إلى الباطل وكلما جارى المبطلين والمضلِّين إلى أن ينتكس قلبه -عياذًا بالله تعالى- فيصير كالكوز مجخيًا: إذا قُلبَ على رأسه تُفرغ عليه مياه الدنيا كلها فلا تدخل فيه قطرة!!

يصير قلبه هكذا تقرأ عليه القرآن والحديث والمواعظ فلا يقبل شيئًا، تمر الآيات والأدلة والبراهين فلا يستجيب!! لماذا؟ لأنَّ قلبه انتكس ثمرةً لانتكاسه الأساسي إلى أن وصل به إلى هذه المرحلة السوداء المظلمة والمهلكة -والعياذ بالله تعالى-.

فيُصبح: «لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه»، هذا ثمرة للزيغ والانتكاس الذي يجب أن يحذر منه المسلم، وأن يسأل الله -تبارك وتعالى- في كلِّ لحظة من لحظاته أن يُثبِّت قلبه على دينه الحقّ.

وهناك أمثلة للثبات على الحقّ وأروع الأمثلة:

ثبات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأصحابهم الذين اهتدَوْا بهداهم وخيرهم أصحاب محمد ﷺ؛ فكل من صحب الأنبياء فله فضلٌ على من بعدهم من أمّة ذلك النبي ﷺ، وأصحاب محمد ﷺ أفضل هذه الأمّة؛ أفضل من كلِّ من جاء بعدهم؛ فلو أنفق أحدنا مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه، وفاقوا في الفضل من سبقهم.

قال -تبارك وتعالى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

فهم أفضل النَّاس بعد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ولاسيما السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ﷺ؛ فهؤلاء ضربوا أروع الأمثلة للثبات.

في مكة كانوا يُعذَّبون ويُشرَّدون ويُؤذون ويُقتل بعضهم كما حصل لأبي عمّار

(ياسر) وأمّه سمية قُتلا صبرًا على التعذيب وثبتا وثبت حتى قُتِلا ﭬ.

وثبت بلال ﭬ كان يُذهب به إلى بطحاء مكة في شدّة الحرّ وتُلقى الصخرات الملتهبة على صدره وهم يضربونه ويؤذونه ويُسلّطون عليه الصبيان يسخرون به وهو ثابت يقول: أحدٌ أحدٌ، الله وحده لا شريك له، لا اللّات ولا العُزّى.

وكم لاقَوْا من الأذى، فرسول الله ﷺ لاقى من الأذى الشديد في مكة آذته قريش حتّى أمر طُغاتهم بإلقاء سلى الجزور على رقبته وهو ساجد ﷺ.

وأبو بكر الصِّدّيق آذوه حتى خرج مُهاجرًا ﭬ فرجع في ذِمّة ابن الدغنّة، وكان ﭬ يقرأ القرآن فيتقصّف عليه النساء والصبيان، فخافت قريش على نسائهم وأبنائهم أن يدخلوا في دين الله الحقّ!! فيمنعونه من الصلاة ويطلبون من هذا الرّجل الذي أدخله في ذمّته أن يُسكته أو يُخرجه من ذمّته!!

فيقول لأبي بكر: إمّا أن تُرجع إليَّ ذمّتي وعهدي وشأنك وإمّا أن تقف وتترك هذا الذي أنت عليه. فقال أبو بكر ﭬ: أنا أردُّ ذمّتك وأبقى في ذمّة الله ﷻ.

وصبروا دهرًا على الأذى الشديد، فما غيّروا ولا بدّلوا، وما كان أحدٌ منهم يرتدّ سُخطةً لدينه كما ذكر ذلك أبو سفيان ﭬ في حديثه المعروف مع هرقل لمّا سأله: من هم أتباع محمد هل هم ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الأنبياء! وهل يرتدّ أحدٌ منهم سُخطةً لدينه؟ قال: لا... الحديث.

فالصّحابة ﭫ رضوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

فهاجروا إلى الحبشة وهاجروا إلى المدينة صابرين محتسبين؛ فصبروا وصابروا ورابطوا وجاهدوا إلى أن مات رسول الله ﷺ فارتدّ أكثر العرب فثبتوا وصبروا وواجهوا الردّة حتى قَضَوْا عليها، وكان على رأس الثابتين: أبو بكر الصّديق ﭬ فقال: والله لو منعوني عناقًا -أو عقالًا- كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

وقد كان عارضه بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- في قتال المرتدين، فقال أبو بكر الصديق ﭬ: والله لو منعوني عناقًا -أو عقالًا- كانوا يؤدونه

لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، واقتنع الصحابة ﷺ برأيه السديد فقاتلوا وثبتوا وقاتلوا وقتلوا حتى أعاد الله هؤلاء الذين ارتدوا إلى حظيرة الإسلام.

ثمّ اندفعوا حميمًا إلى الفتوحات وهم ثابتون يتسابقون إلى مرضاة الله والشهادة في سبيل الله، يبذلون مهجهم وأموالهم لنصرة دين الله وإعلاء كلمة الله؛ فهم أمثلة رائعة للثبات على الإسلام إلى الممات ﷺ.

وصبر غيرهم من الأئمة الذين واجهوا شيئًا من الأذى؛ فهذا أحمد بن حنبل رحمه الله واجه صنوف الأذى في دولة المأمون والمعتصم والواثق إذ تغلّب الجهمية والمعتزلة على الدولة وأمسكوا بزمام الأمور وقادوا الخلفاء إلى أهوائهم وضلالاتهم وكفرياتهم؛ فإنّ القول بأنّ القرآن مخلوق كفر بالله لأنّه طعن في الله وفي كتابه وفي رسوله ﷺ فكفرهم السلف، أرادوا أهل السنة على أن يقولوا بأنّ القرآن مخلوق، فأبوا فعذّبوهم وشردوهم وقتلوا منهم ما قتلوا، وضعف القليل منهم والبقية صمدوا وعلى رأسهم الإمام أحمد رحمه الله.

فقد ضرب ضربًا يهدّ الجبال ولكنه ما تزعزع ولا انتكس ولا تأثر، بل ظلّ صامدًا كالجبل الأشم تداوله ثلاثة خلفاء حتى أتى الله بالفرج وأعلى كلمة الحقّ ونكّس أعلام أهل الباطل؛ فذهبوا هباء منثورًا وأعلى الله السنة وأعزّ أهلها وأكرمهم في زمن الخليفة المتوكل رحمه الله وجزاه الله عن الإسلام ونصرة السنة خير الجزاء.

وابن تيمية رحمه الله كذلك واجه صنوفًا من الأذى، وسجن مرات ومات في السجن، وكان يجاهد لإعلاء كلمة الله وجه الفرق كلها: فرق الفتن والضلال من اليهود والنصارى والملاحدة والزنادقة والصوفية الخرافيين والروافض، وخاض كل ميدان لإعلاء كلمة الله ونصرة سنة رسول الله ﷺ فنصره الله على ضلالاتهم وأصولهم الباطلة كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقد آذوه رغم جهاده العلمي وجهاده بالسيف يكيدون له شتّى المكائد، فإذا قابلوه خضعوا وذلوا الحكام والمحكومين، وإذا خرج تآمروا عليه وسجن سنين

فصبر وثبت حتى لقي الله تبارك وتعالى - وهو في السّجن.

والأمثلة كثيرة في الإسلام للثابتين الصادقين، حتى قَبْلَنَا -قبل هذه الأمة- كان هناك من تحفر له الأرض ويشقُّ نصفين لا يصده ذلك عن دينه

هذه الأمور أمثلة للمؤمنين الصادقين تحفزهم على الاستقامة والثبات فلا تضرُّهم كثرة الهالكين ولا قلة المستقيمين الثابتين على الحق، والجماعة مع من كان على الحق كائنًا من كان ولو كان وحده، لو أنَّ الناس كلهم اجتمعوا على الباطل وأنت على الحق فأنت على الحق وأنت الجماعة؛ فلا يغرنَّكم كثرة الزبد فإنما هم غثاء كغثاء السيل كما قال رسول الله ﷺ، أهل البدع والله غثاء غثاء، أهل الباطل والله غثاء، والناس هم أهل الحق ولو كانوا قلَّة ولو كانوا في غاية الغربة.

اثبتوا يا عباد الله، وقد يأتي الدجال بفتنته، عنده فتن وشبه عنده أشياء تخلب الألباب -والعياذ بالله- يقول للأرض: انبتي فتنبت . يفعل الأفاعيل، ومكتوب على وجهه كاف فاء راء (أي: كافر)؛ فمن أراد الله له الضلال يتبعه من الغثاء، ومن أراد الله له الثبات يثبت، ويكون أشدُّ الناس عليه كما قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس على الدجال بنو تميم»...

وما حصل للشباب من الشبهات في هذا الوقت نسأل الله أن يبددها، الشبهات الكثيرة الكثيرة التي قذفها أهل الأهواء والبدع في أبناء هذه البلاد، فكم قذفوا من الشبهات والشهوات والفتن وخدعوا كثيرًا من الشباب وخدعوهم وأخذوهم من صغرهم:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

نسأل الله أن يطهر قلوبهم من هذه الشبهات ومن هذه الفتن والشهوات، وأن يعيدهم إلى حظيرة السنة ليكونوا جيشًا إسلاميًا محاربًا للدجاجلة، وعلى رأسهم الدجال الأكبر؛ فإنَّ هناك دجالين غير الدجال، يقول رسول ﷺ: «غير الدَّجال أخوفني عليكم...» الحديث.

فتن في هذا الوقت تكالبت على كثير من الشباب على أيدي أناس قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، هذا نوع من الدجاجلة الذين خافهم رسول الله ﷺ أكثر

من خوفه من الدجال الأكبر فقد خاف ﷺ على أمته من هؤلاء أكثر من خوفه عليهم الدجال يَضِلُّون ويُضِلون، لكن نسأل الله -تبارك وتعالى- أن يَمُنَّ على الشباب بالهداية وأن يرزقهم البصيرة في دينهم وأن يرزقهم العقول الواعية والقلوب الناصحة -بارك الله فيكم-.

يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩].

هذا أمر بالثبات على الإسلام كلِّه جميعًا: عقائده وعباداته وحلاله وحرامه وسائر شعبه، لا تترك شيئًا، شعب الإسلام والإيمان كثيرة جدًّا، حاول قدر ما تستطيع ألا تترك منها شيئًا إلَّا وقمت وعملته؛ العقائد تستوفيها، والعبادات تحاول أن تعمل منها ما استطعت، وقد نعجز ويعذرنا الله ﷻ، لكن أنت عزمك على ألا تترك منها شيئًا، لا تترك شيئًا جاء به محمد ﷺ إلَّا وتعض عليه بالنواجذ، تؤمن به تحبه تثبت عليه، الواجبات والمستحبات والعقائد حاول قدر الإمكان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ أي: لا تتركوا منه شيئًا، الإسلام كله لا تترك منه شيئًا، كما جاء في التفسير أنَّ على الناس جميعًا أن يكونوا على الإسلام كله كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ مسالكه وطرقه الفاجرة ومكائده لا تتبعها وكن منها على حذر؛ فإنَّه لكم عدو، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: ما يريد إلَّا إهلاك بني آدم.

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

إنسانٌ يخلقه الله ويرزقه ويسخر له ما في السموات وما في الأرض، ويسهل له كلَّ أمور حياته كيف يترك دينه ويتبع الشيطان؟! أو يترك بعض دينه؟! لأنَّه أمر باتباع كلِّ ما جاء به رسول الله ﷺ.

هذا الانحراف من آلاف البشر الكفار والزنادقة واليهود والنصارى وأهل البدع والضلال كل هؤلاء كاد لهم هذا الشيطان الخبيث فاتبعوه وصدق عليهم إبليس ظنَّه -والعياذ بالله-؛ فلا نتبع خطوات الشيطان ولنحذر من متابعته في أيِّ شيء؛ فإنَّه يجرك إلى الهلاك، يجرُّ إلى البدع والضلال؛ إما أن يجر إلى الشبهات والشهوات أو إلى ارتكاب الكبائر والمهالك.

وقد حذرنا الله ﷻ ورسوله ﷺ من اتباع الشيطان في أيِّ أمر من الأمور أبدًا، لا في أبواب العقائد ولا في أبواب العبادات والمعاملات، وما شاكل ذلك حرم الله علينا البدع أشدَّ التحذير وحرم علينا الكبائر وتوعد عليها بأشدِّ صنوف الوعيد، كلها مسالك شيطانية تتبع فيها عدو الله وعدوك وهو الشيطان، اتخذ الله ﷻ وليًّا واتخذه ناصرًا وهاديًا، واتخذ الشيطان عدوًّا.

ومن علامة أنك عدوٌّ صادق للشيطان -أنَّك ثابت على الحق وأنك دخلت في السلم كافة، فإذا أخللت بهذا باتباع شيء من الشهوات أو باتباع شيء من الشبهات الكفرية أو البدعية فقد اصطادك الشيطان وأصبحت لعبة في يده، كيف تنسى الله وتنسى نعمه التي أسبغها عليك ظاهرًا وباطنًا وسخر لك ما في السموات والأرض ثمَّ ترمي بنفسك في أحضان هذا العدو يفعل بك ويقودك إلى المهالك -والعياذ بالله-؟!

الله أعطاك السمع والبصر والعقل لماذا؟ لتعرف حقَّ الله -تبارك وتعالى- وحقوق العباد وتقوم بها.

قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

هذه نعم عظيمة أنعمها الله عليك لتستعين بها على طاعة الله ﷻ، لتستقيم في هذه الحياة لتثبت على شرع الله، لتدخل في دين الله كافة ما تترك منه شيء، ولكن حذرك الشيطان وبين أنَّه عدو لك في غير ما آية.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

أخذ عليهم كلَّ المواثيق ألا يعبدوا الشيطان، وعبادته قد تكون الإسلام وقد تكون طاعته في الشرك، وقد تكون طاعته في المعاصي؛ فقد تكون من أهل الشهوات -والعياذ بالله- المُعرَّضين للجحيم، أو من أهل الشبهات من أهل البدع والضلالات.

نمتثل أمر الله ﷻ هذه الآيات فهو يأمرنا بالثبات، بالاستقامة، بالاتباع، بالاعتصام، بالدخول في السلم كافة، يحذرنا من الشيطان، يحذرنا من التفرق، يحذرنا من البدع.

قال -تبارك وتعالى-: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

كلام خطير إن اتبعت أصحاب البدع والضلالات واتخذت بعضهم مشرعين ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

بعض الناس يفسرها تفسيرًا سياسيًّا فقط، وهي تشمل النواحي السياسية والعقائدية وغيرها، وشياطين الإنس والجن يشرعون لك، وقد يشرعون لك شيئًا يُخرِجُك من الإسلام بالكلية، وشيئًا لا يخرج من الإسلام إلَّا إذا استحللته، مثلًا -نسأل الله العافية- الحكم بغير ما أنزل الله إذا استحللْه كفر؛ لأنَّه اتخذ مع الله شركاء: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

الشاهد: أنَّ هذه الآية تشمل كل جوانب الدين.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾: يدخل فيها أهل البدع ورؤساء الضلال؛ فهم كذلك مشرعون، لا نأخذ عنهم، لا نعظمهم، نُحذِّرُ الناس منهم نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم

هناك دعوات سياسية لا همَّ لها إلَّا الصراع السياسي، لا هدي الأنبياء وإصلاحهم العقدي والمنهجي؛ فهذا شيء معروف وملموس وواقع هذا دليل على عدم الصدق في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-.

الصادق في دعوته إلى الله يتبع طريق الأنبياء بماذا يبدأ وبماذا ينتهي؛ الدعوة لها بدايات لها منطلقات ليس كل واحد على طريقته؛ فهذا شيء رسمه الله -تبارك

وتعالى- لجميع الأنبياء.

قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل ٣٦].

كلُّ رسول هذه دعوته محاربة الشرك ووسائله ومظاهره هذه دعوة الرسول ﷺ كيف تتركها؟!!

عبادة القبور، تعطيل صفات، الحلول، وحدة الوجود، ضلالات كلها من اتباع خطوات الشيطان كيف تترك الناس يتبعون خطوات الشيطان ؟ يتبعون هذا العدو و لا تبين لهم كيف تنصب نفسك داعية إلى الإسلام وهذا حالك؟! أين الأمانة؟! أين النصح ؟!

لابدَّ -أيها الإخوة- من النصيحة للمسلمين وتمييز الحقّ من الباطل والهدى من الضلال، لا تأخذك في الله لومة لائم لو كان من أقرب الأقربين ومن أحب الأحباء إليك وقع في خطأ أو وقع في ضلال تُبيّن له فتنصحه بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لأنّ سكوتك على الباطل يؤدي بالمساكين إلى الوقوع في حبائل أهل الباطل وفي اتباع خطوات الشيطان فيخرجون عن الالتزام الحق وعن الثبات على الإسلام والسنة.

كيف يثبت على الإسلام والسنة والشبه تكتنفه من كل أرجاء الدنيا ومن حواليه وأنت لا تبدد هذه الشبهات ولا تبين أنها من خطوات الشيطان؟ كل هذه من خطوات الشيطان، هذه الشبهات البدعية والكفرية والشهوانية كلها من خطوات إبليس اللعين؛ فعلينا أن نحذرها ونحذر الناس منها ونحارب هذا العدو وجيوشه وجنوده من أهل الباطل والضلال؛ فإنَّ للشيطان جنوداً من الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام ١١٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ

وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

هؤلاء شياطين وهذه الوساوس والشبهات يقذفها جنود إبليس على المسلمين والمساكين والضعفاء، ضعفاء العقول وضعفاء النفوس؛ فيتخطفونهم بهذه الشبهات الشيطانية، فلابدَّ من بيان الإسلام كافة ما نترك شيئًا.

قال -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

والعلماء ورثة الأنبياء، عليهم أن يقوموا بتبليغ كل ما جاء به النبي ﷺ والتحذير من كل ما حذر منه محمد ﷺ.

ولا ندخل في السلم كافة ولا نخالف خطوات الشيطان إلَّا بهذا.

على هذا ثبت أئمة الإسلام الناصحون يبيعون أنفسهم لله ولا يخشون في الله لومة لائم، يبينون للناس الحق في صغيره وكبيره وجليله ودقيقه؛ لأنَّ الله أخذ عليهم الميثاق أن يقوموا بالبيان، وأُخِذَت عليهم العهود والمواثيق أن يُبيِّنوه للناس ولا يكتموا منه شيئًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]

وأخطر أهل الأهواء -يا إخوتاه-: الذين يلبسون لباس السنة والسلفية وهم ينطوون على أشياء غيرها، فهؤلاء أخطر الناس على دين الله وأكثرهم تلبيسًا وتشبيهًا على الناس؛ فيجب الحذر والتحذير منهم، ووالله ما اجتاحوا شبابًا في هذه البلاد إلَّا بهذا اللباس المزيف؛ لأنَّ أهل الباطل جربوا وناطحوا صخرة السلفية فتكسرت قرونهم فلجئوا إلى هذا الأسلوب الماكر وهو التزيي بزيِّ السلفية وادعاء السلفية.

والفطناء يدركون أنَّ هذا لباس مزيف، ليس لباسًا صحيحًا أبدًا، والدليل الواضح أنَّ هذا لباس مزيف لاصطياد البلهاء؛ فالذي عنده فطنة ويعرف المنهج السلفي يدرك حقيقة أمر هؤلاء وأنَّ لباسهم هذا كاذب مزيف للتضليل، واجتاحوا شبابًا كثيرًا بهذا المكر والدهاء.

فنسأل الله أن يبصر شبابنا فيدرك الناصحين الصادقين الذين يريدون لهم الخير في الدنيا والآخرة ومن لا يبالي بهلاكه يكسبه إلى صفه ويسخر لأغراضه وشهواته ولا يبالي به في أيِّ واد هلك، بينما هذا الناصح المسكين تقذف إليه الشبه ويرمى بالمهلكات من أولئك الماكرين فتنطلي هذه الأمور على المساكين المخدوعين.

يا إخوتاه، كتاب الله تعالى بين أيدينا، وسنة رسول الله ﷺ بين أيدينا، وبيان الصحابة وعملهم وواقعهم وتاريخهم وعقائدهم كلها تشهد لهذا المنهج السلفي بأنَّه دين الله الحق وأفضل ميزان للثبات على الحق والالتزام بالحق أن تكون على ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ﵃.

لما تحدث رسول الله ﷺ عن الفرق «افترقت اليهود إلى واحد وسبعين فرقة، وافترقت النصارى إلى اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلَّا واحدة. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

هذا ميزان لكلِّ إنسان هل هو على الحقِّ أو الباطل الحق؟

لذا يجب أن يعرف الإنسان الحقَّ، وأن يكون من أهل الحق، أن يكون معتصمًا بحبل الله، أن يكون مُتَّبِعًا لرسول الله ﷺ، متبعًا لكتاب الله، مهتديًا بهديه، هذا الميزان: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الرسول ﷺ وأصحابه لم يكونوا إلَّا على القرآن والسنة ما عندهم شيء آخر غير هذا.

خذ هذا الميزان وزن به نفسك وزن به الطوائف والأشخاص تدرك الحق -إن شاء الله-، إن أخلصت لله ﷻ، أما وأنت تفقد هذا الميزان فستظلُّ ملعبة لأهل الأهواء: أهل الشبهات وأهل الشهوات، إذا ضيَّعت هذا الميزان ضعت وصرت لعبة بأيدي العابثين.

* * *

الأسئلة والأجوبة

السؤال (١): ما حكم القراءة والدراسة في علم المنطق غير المخلوط بالعقائد الفاسدة ككتاب: «سلم الأخضري»، وكتاب: «آداب البحث والمناظرة» وغيرها لطالب علم مُبتدئ؟

الجواب:

علم المنطق لا يحتاج إليه الذكي ولا يستفيد منه الغبي!! وهل للمبتدئ دخل في المنطق؟!

ابن الصلاح والنووي حرما وقال قومٌ ينبغي أن يعلما

السلف حرموا علم الكلام، وعلم المنطق أسوأ منه، لماذا تتعلمه؟ ليكون ميزانًا تميز به بين الحق والباطل؟! سبحان الله القرآن ليس ميزانًا بين الحق والباطل؟!

لهذا حذَّر السلف من علم الكلام والفلسفة و المنطق منها بارك الله فيكم- والله المستعان.

قال الإمام الشافعي: «حكمي على أهل الكلام: أن يُضربوا بالجريد والنعال ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من أعرض عن كتاب الله وأقبل على الكلام».

وقالوا: من تعلَّم الكلام تزندق.

والمنطق أسوأ من الكلام، ولهذا يُقال -والله أعلم-: إنَّ المعتزلة أهل الكلام كانوا يُحرِّمون المنطق!! وأنَّ الأصوليين المتأخرين أدخلوا المنطق في العلوم الإسلامية وأدخلوا بعض الأشياء في الأصول وهي ليست منه للأسف الشديد!!

فنحن في غُنية عن الكلام والمنطق والفلسفة، وكما قلنا: هذا علم سيئٌ فلا يحتاج إليه الذكيّ ولا يستفيد منه الغبيّ!! والأصول والقواعد التي تضمَّنها القرآن وكذلك السنة النبوية أفضل بآلاف المرَّات منها.

هذه الأمور التي يتبجَّحون بها موجودٌ في القرآن والسنَّة ما هو أفضل منها. نعم.

السؤال(٢): أحسن الله إليكم، سائلٌ يقول: أحد طلبة العلم في الحديث يقول

«الحديث الصحيح يكفي عن الحديث الحسن والضَّعيف، ولا يجوز للمرء أن يستدل بالأحاديث التي دون الصحيح»، فما رأيكم في هذا الكلام؟

الجواب:

أقول: إنَّ هذا الكلام غير صحيح؛ فالحديث إن كان صحيحًا لذاته فهو حجَّة، وإن كان حسنًا لذاته فهو حجَّة، وهو صِنْوُ الصحيح في الاحتجاج ووجوب العمل به، وإن كان من شديد الضَّعف فلا حاجة لنا فيه، وإن كان من الضعيف الذي يقبل التقوية فهذا ممَّا يعتضد إمَّا بشاهد أو متابع وإمَّا بشواهد أو متابعات؛ لأنَّ الكلام إما أن يكون صِدقًا فيُقبل، وإمَّا أن يكون كذبًا فيُرد، وإن وُجدت قرينة تُلحقه بأحد القسمين أُلحِق به وإلَّا نتوقَّف فيه.

فإذا كان الراوي من أهل الصِّدق لكنَّه ضعيف الحفظ وعنده رواية هل نردُّها أو نقبلها؟

الجواب: نتوقَّف فيها حتى نجد ما يشدُّها ويعضدها؛ فإن جاء من طريق أُخرى ولو كان صاحبها سيئ الحفظ أو من طريق مرسل دلَّ على أنَّ هذا الإنسان الصَّادق -وإن كان ضعيف الحفظ- قد ضبط هذا الحديث؛ فقد جاء دليل من هنا ودليل من هنا على إثبات حكم.

فابتداءً هو ضعيف فتوقَّفنا في روايته، ثمَّ وجدنا ما يعضده فكان هذا العاضد دليلًا على أنَّ هذا الراوي الصَّادق -الذي في حفظه شيء- قد ضبط هذا الحديث فهذا يكون حجَّة وينتقل من الضعف إلى القوَّة، من حيِّز الضعيف إلى حيِّز الحسن لغيره.

وإذا كان حديث ما حسنًا لذاته فهو مقبول، ونبحث عمَّا يُقَوِّيه، فإذا وجدنا حديثًا آخر صحيحًا أو حسنًا في مستواه زاده تقوية له وبعدُه في سنَّة رسول الله ﷺ وهذا عليه السَّلف، عليه أحمد وغيره من الأئمة -رحمهم الله-

ألَا تعلم أنَّ مالكًا -رحمه الله- يحتجُّ بالمراسيل، وكثير من العلماء يحتجُّون بالمراسيل؟ فهذا الذي عندنا أقوى من المراسيل

ثمَّ جاء أحمد والشافعي وغيرهم من أئمة الإسلام فيحتجُّون بالمرسل -وهو من قسم الضعيف- إذا جاء ما يعضده، ويحتجُّون بسيئ الحفظ إذا جاء ما يسنده،

ويحتجُّون برواية المدلِّس -التي فيها ريبة لأنَّه يُدلِّس- إذا جاء ما يُسنده من رفع احتمال التدليس من طريق أُخرى إمَّا عنه وإمَّا عن غيره فانتفت بذلك الشبهة والريبة.

فرواية المدلس إذا جاءت بالعنعنة خارج الصحيحين فإننا نتوقَّف في قبوله، فإذا جاءت من طريق أُخرى صرَّح فيها بالتحديث أو السَّماع انتفت الشبهة تمامًا ووجب علينا قبول خبره.

وكذلك إذا جاء غيره ووجدنا له متابعًا أو شاهدًا انتفت هذه الشبهة وقبلنا روايته.

ومعنى كلام هذا الطالب -هداه الله- أنَّنا نردُّ كثيرًا من السُّنَّة النبوية!!! فأحمد والترمذي والبخاري والشافعي وأئمة الإسلام الكبار يحتجُّون بالشواهد والمتابعات والعواضد في الأحاديث التي فيها شيءٌ من الضَّعف، فشبهة الضَّعف تنتفي بمجيء الحديث من طريق أو طرق أُخرى فلا يحقُّ لنا أبدًا أن نتوقَّف والحالة هذه.

فهذا الكلام الذي سمعناه في السؤال غير صحيح -بارك الله فيكم- ومُخالف لمنهج السَّلف أئمة الحديث مهما توسَّعوا في الدَّعاوى فلستم والله أنصح لدين الله من أئمة الإسلام.

يا إخوة: هؤلاء كثيرٌ منهم يُشوِّشون على القرآن ويُشوِّشون على السُّنَّة!! فيقولون: السنة أخبار آحاد والأحاديث الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول أخبار آحاد ما نحتج بها في العقائد، إذا جاءت أحاديث باطلة تثبت خرافاتهم احتجوا بها أحاديث باطلة أحاديث ضعيفة مهلهلة لا يحتج بها أهل السنة يحتجون بها في العقائد إذا جئت إلى باب العقائد وناقشتهم في عقائدهم الفاسدة في تعطيل صفات الله وغيرها قالوا: لا هذه أخبار آحاد! وهم من جهة أخرى يحتجون بالأباطيل على ضلالاتهم وخُرافاتهم.

وهذه شبهة جديدة التي نجمت الآن في هذا العصر وما أكثر الشبهات في هذا العصر.

وكلُّ خيرٍ في اتباع من سلف وكلُّ شرٍّ في ابتداع من خلف

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]

وإذا جاء أحمد وأبو حاتم وأبو زرعة والجوزجاني والشافعي والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارقطني وغيرهم من أئمة الإسلام ويحتجون بهذه الأحاديث التي يردها هؤلاء أنتبع الأئمة أم نتبع هؤلاء؟!

كونوا يا إخوة على بصيرة، اثبتوا يا عبد الله، اثبتوا؛ فإن الشبهات كثيرة تأتي من هنا ومن هنا ومن هنا، وعلى مر الأيام وعلى مر السنين تتكاثف الشبهات؛ فاثبتوا على كتاب الله وعلى سنة رسول الله ﷺ وعلى ما كان عليه سلفنا الصالح -بارك الله فيكم-.

السؤال (٣): ما الفرق بين العقيدة والمنهج؟

الجواب:

قضية التفريق بين العقيدة والمنهج جاءت في هذا العصر، الناس لم يكونوا يفرقون بين العقيدة والمنهج ولكن جاءت الفتن فاضطر بعض أهل السنة إلى التفريق بين العقيدة والمنهج، لكن الشيخ ابن باز لا يفرق بين العقيدة والمنهج فيقول كلها واحد.

وأنا اضطررت إلى أن أقول: العقيدة أوسع من المنهج؛ لأن العقيدة تدخل في المنهج منهج أهل السنة في الاعتقاد في الأسماء والصفات كما جاء في الكتاب والسنة، منهج أهل السنة كذا، ومنهج أهل السنة في الاستدلال كذا، منهج أهل السنة في الأخبار كذا، هذا هو منهجهم كيف يستدلون هذا من المنهج، كيف يتلقون الأخبار هذا من المنهج.

السؤال (٤): ما هو تعريف أهل السنة والجماعة للإيمان، وهل العمل داخل في الإيمان؟

الجواب:

أستغرب والله من هذا السؤال!! والله أستغربه جدًا!! هل تظنون أننا نعتقد أنَّ العمل ليس من الإيمان؟!!

قبحَ الله الكذّابين الأفّاكين، والله يكذبون علينا ويفترون، والله ما هم من السنة في شيء يكذبون علينا وأنَّهم من أهل الضلال والأهواء والله إنَّهم يحاربون منهج السلف.

نحن ندين الله بأنَّ الإيمان: قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، دلَّ على ذلك كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وهذا الضابط وهذا التعريف لأهل السنة شوكة في نحور المرجئة والخوارج والمعتزلة تؤمه نصوص لا تحصى من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ، وهذا ما دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ومضى عليه الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام إلى يومنا هذا، ونحن نشأنا عليه وندعو إليه ونذبُّ عنه ونحارب من خالفه ولو ادَّعى ما ادَّعى

الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويكفيكم المؤلفات الكثيرة التي أُلِّفَتْ للردِّ على الخوارج والمعتزلة والمرجئة بأصنافها.

ومن تلكم الكتابات: ما دوَّنه الإمام البخاري -رحمه الله- في أوَّل كتابه الصحيح: «كتاب الإيمان» وجاء بالأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على أنَّ العمل من الإيمان، وكله ردٌّ على المرجئة ونحن تربينا على هذا ونحارب الإرجاء كما نحارب سائر الضلالات، ويأتي قوم جهلاء ضلال أعداء للسنة يقولون إنَّا مرجئة!!!

قاتلهم الله، هم عندي في باب الكذب أخس من الخوارج والروافض شاءوا أم أبوا؛ لأنهم أكذب من الروافض على أهل السنة وأكثر حقدًا على أهل السنة وأكثر افتراء وكذبًا على أهل السنة، ومع ذلك هم يلبسون لباس السنة كذبًا و زُورًا وليسوا من أهل السنة، ولو كان عندهم من السنة شيء ما حاربوا أهل السنة بالبوائق والكذب والافتراءات.

وقد بينا -والله- أكاذيبهم؛ فهم ينطلقون من الكذب ويدورون في دوامة الكذب ولا يخرجون منها -والله-، وقد حصدناهم حصدًا بالأدلة والبراهين وبيَّنا أكاذيبهم، ورأسهم الحداد الكذاب وبينتُ أنه كذب في جزء من كتاب له مئة

وعشرين كذبة وتشبث الحدادية الضالة به.

وجاء باشميل الكذاب الأفاك وبيّنتُ كذبه وضلاله في: «إزهاق أباطيل باشميل»؛ فعليكم بهذا الكتاب فإنَّ هذا الأفَّاك عدو لدود للسنة.

وجاء فالح الحربي فاحتضنوه واحتضنهم وكال لأهل السنَّة الأكاذيب والافتراءات يقول: إنَّا مرجئة المرجئة.... هم أخس من المرجئة -والله-، المرجئة أحسن وأنبل منهم، على ضلالهم أحسن من هؤلاء الكذَّابين.

الكذب أخبث من البدع يا إخوان، والكذَّاب أخبث عند أهل السنة من المبتدع، المبتدع يروى عنه، رَوَوْا عن القدرية رَوَوْا عن المرجئة ورَوَوْا عن غيرهم من أصناف أهل البدع ما لم تكن بدعة كفرية ما لم يكن كذابًا، لو كان ينتمي إلى أهل السنة كذَّاب فهو عندهم أحق من أهل البدع.

ومن هنا عقد ابن عدي -رحمه الله- في كتابه «الكامل» حوالي تسعة وعشرين بابًا للكذَّابين[1] وبابًا واحدًا لأهل البدع.

وقَبِل أهل السنة رواية أهل البدع الصادقين غير الدعاة.

وهؤلاء الحدادية يعتبرون من الدعاة إلى البدع؛ جاءوا بأصول يرفضها الإسلام وتحارب السنة وتحارب منهج السلف وطعنوا في أئمة الإسلام، الحداد بدأ بابن تيمية وثنَّى بابن أبي العزّ وبابن القيم واستمرَّ هكذا لا يتولى أحد من أهل السنة أحدًا إلَّا وطعنوا فيه وطعنوا في علماء السنة المعاصرين؛ فطعنوا في الشيخ أحمد النجمي والشيخ زيد في الجنوب فمن يقوم بالسنة؟!!

وطعنوا في علماء أهل مكة والمدينة فمن يقوم بالسنة؟!!!!

حرب على السنة طعنوا في كلِّ سلفي لا يوافق الحدادية كلهم طعنوا فيهم وشوهوهم وشوَّهوا أصولهم، وجاءوا بأصول فاسدة مناهضة لمنهج السلف فهم امتداد للإخوان المسلمين بل هم أسوأ من الإخوان المسلمين، ويخدمون أهل البدع جميعًا، وحرب أهل السنة هدف لهم.

---

(١) قال ابن عدي رَحِمَهُ اللَّهُ في الباب الثالث والعشرين: «الكذب يكذب من مهابة صمه عليه، والظريف لا يكذبه» انظر مقدمة الكامل (ص٣٥).

كيف -يا أخي- ما تترك سلفي ؟!!! خمسة ستة في مكة وعشرة في المدينة في الدنيا كلها ما تركوا السلفيين لا في مكة ولا في المدينة ولا في الطائف وفي جدة، كلُّ واحد يقدم خيرًا ويبثُّ عن السنة طعنوه، هل هؤلاء أهل سنة ؟!!!!

يقولون: كَذَّب، كَذَّب. . ، يحكمون عليهم بالكذب يفترون عليهم، ومنه رمينا نحن بأننا مرجئة عند هؤلاء الأفاكين.

ووالله لا يحاربون الإرجاء ولا يصدقون في شيء أبدًا؛ إنَّما استلوا الإرجاء سلاحًا على أهل السنة لأنَّهم بينوا ضلالهم وضلال ساداتهم وأسلافهم وسلوا سيف الإرجاء وسيف الكذب وسيف الفجور على أهل السنة !!!

فاحذروهم ومن انخدع بهم فليتق اللَّه في نفسه؛ فواللَّه لقد وضُحَ أمرهم فلا عذر لكم ولا شبهة لكم.

إنَّهم كذابون كذابون كذابون، وكل يوم يفضحهم اللَّه بالكذب، واللَّه بعض الكفار يخجلون من الكذب وهم لا يخجلون !! وكلما بُيِّنَ كذب زعمائهم وخياناتهم ازدادوا تشبثًا به وبأصولهم وبأباطيلهم

أين العقول ؟!!

أين الدِّين ؟!!

أين الخُلُق ؟!!

فافهموا هؤلاء واحذروهم وحَذِّرُوا الناس من ضلالهم وشرِّهم -وفقكم الله-.

فنحن ندين اللَّه بما في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ في كلِّ العقائد والأحكام، والحلال والحرام، والصغيرة والكبيرة، وشعب الإسلام والإيمان، كل ذلك ندعو إليه ونموت دونه.

كيف نحن مرجئة؟! ونحن نحارب الإرجاء ونحارب غيره والذي يُقَصِّرُ في العمل نبيِّن له وندعوه إلى الحقِّ فكيف نكون مرجئة؟! - قاتلهم الله-

السؤال (٤): هل البدع الإضافية والبدع الأصلية من البدع المكفرة ؟

الجواب:

من البدع الأصلية ما يكون كفرًا؛ فتعطيل صفة من صفات اللَّه كفر، وبعض

غلاة المرجئة قد يدخلون في الكفر؛ لأنهم يحصرون الإيمان في المعرفة فقط؛ ولأنهم لا يحترمون نصوص الوعيد ويهدرونها ويُجَرِّءون العصاة على الاستهانة بدين الله الحق، ومن بدع الخوارج والمعتزلة ما يُكَفِّرُ كقولهم بخلق القرآن، السلف كفَّروهم وبعضهم ما كفَّرهم.

أما المتأخرون من عهد ابن تيمية ومن بعده فيقولون: إنَّ الشُّبَه قد تكاثرت ونور الإسلام ما بقي كما كان في عهد الصحابة والسلف ﷺ مضيئًا للناس؛ فيقولون: هذا كفر ولا يكفر إلَّا بعد إقامة الحجة، لا نكفرهم إلا بعد إقامة الحجة.

إنسان يقول: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويصلي ويصوم ويحج ويزكي ويؤمن بالجنة وبالنار و... و... و... وعنده ضلالات كفرية لكن يرى نفسه أنَّه مؤمن، وعنده شبهات ضلَّ بسببها فمثل هذا أنت لا تحكم عليه بالكفر بارك الله فيكم، أقم عليه الحجة إن أقمتَ عليه الحجة وعاند وأصرَّ على ضلالته الكفرية حينئذ يكفر ويحكم بكفره ورِدَّته.

السؤال (٥): هل هناك أفضل من الصحابة يأتي من بعدهم؟

الجواب:

لا، لا يأتي من بعد الصحابة ﷺ أفضل منهم أبدًا، ولو أنفق مثل عشرين أحد من الذهب؛ لأنَّ فضيلة الصحبة ميزة لا يلحقهم فيها.

لكن قد يفضل في بعض الأحيان في بعض الجوانب، لا يلزم من الحديث **«يأتي على الناس زمان العاضُّ فيه على دينه كالقابض على الجمر، أجر الواحد منهم كأجر الخمسين. قالوا: منا أو منهم؟ قال رسول الله ﷺ: منكم»**.

هذا الحديث منهم من يصححه ومنهم من يضعفه، وأنا في إحدى دراساتي تبين لي ضعفه وسأعيد دراسته، لكن لو قلنا بهذا وثبت فلا يلزم من كونه يعدل أجر خمسين أن يكون أفضل من الصحابة؛ لأنَّ هذه الميزة التي امتاز بها الصحابة على غيرهم لا يلحقهم فيها أحد ميزة الصحبة - بارك الله فيكم -، والله أعلم.

وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلَّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

* * *



الحث على المودة والائتلاف

والتحذير من الفرقة والاختلاف

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فمرحبًا بكم أيها الإخوة في الله، وأيها الطلاب الكرام، طلبة العلم الشريف الذين شدوا الرحال من أماكن نائية، ليفهموا العلم الشرعي المنبثق من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ في مهبط الوحي، مدينة رسول الله ﷺ، التي هي المهبط الثاني للوحي بعد مكة المكرمة، والتي انطلقت منها رايات الجهاد والفتوح، لإعلاء كلمة الله -تبارك وتعالى-، ولنشر هذا الدين الحق، وليظهر هذا الدين على الدين كله، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

ولقد أظهر الله هذا الدين على أيدي هؤلاء الصحابة الكرام المخلصين: صحابة محمد ﷺ، الذين فتحوا القلوب بالعلم والهدى والإيمان، وفتحوا القلاع والبلدان بسيوف الحق، فنصروا دين الله -تبارك وتعالى- بكل ما يمتلكون من طاقة، وبكل ما يستطيعون من بذل الأموال والنفوس، وحققوا الغاية التي أرادها الله لهذا الدين، أن

يسود وأن يظهر على الأديان كلها؛ إذ إن هذا الدين قائم على الهدى وعلى العلم، لا على الأهواء، والجهالات، والسفاهات، والفوضى -الَّتي تسود الآن في بلدان كثيرة!- مِمَّن لا تقوم دعواتُهم على كتاب الله، ولا على سنة رسول الله، وإنَّما تقوم على الأهواء، إلا من سلَّم الله -تبارك وتعالَى-.

وهذه الجامعة الإسلامية -بمسئوليها ومؤسسيها- أدركت واقع المسلمين وما يعيشونه من جهل وبُعد عن منهج الله الحَقِّ -إلا القليل- في العالَمِ الإسلامي.

فقد أنشئت هذه الجامعة على منهج إسلامية صحيحة، منبثقة من كتاب الله، ومن سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وخُصِّص قدر أربعة أخماس المقبولين فيها ليكونوا من أبناء العالَم الإسلامي، وعشرون في المائة لأبناء بلاد الحرمين الشريفين، لكي يعود أولئك -الذين نفروا- إلَى مهبط الوحي؛ ليهلوا من مناهل العلم الصافية، ويعودوا إلَى بلدانهم ينشرون هذا الحق، وهذا الخير، وهذا الهُدى الذي تعلَّموه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فهذه فرصة عظيمة لكم؛ فاهتبلوها، وأقبلوا على العلم النافع الصافي الخالص المستمدِّ من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ؛ لأن مصادره متوفِّرة -ولله الحمد- عندكم في هذه المدينة، وفي هذه الجامعة.

ومن أراد الحَقَّ والخير -لنفسه ولعشيرته وقومه وبلده-؛ فعليه أن يشمر عن ساعد الجِدِّ، ويتلقَّى العلم من العلماء الموجودين، الذين وهبوا أنفسهم لتعليم هذا الحَقِّ، ونشره -بارك الله فيكم-.

وتعلَّموا من المصادر الَّتي تَحتوي على العقائد الصحيحة، والمناهج الصحيحة: اقرءوا كتب التفسير السلفية، الَّتي قامت على تفسير كتاب الله بكتاب الله، وبسنة رسول الله، وبفقه الصحابة الكرام، الذين عايشوا نزول الوحي، وعاصروا رسول الله ﷺ وعايشوه، وعرفوا مقاصد الكتاب والسنة، هؤلاء الذين يُتمسَّك بفقههم، وحفظهم لكتاب الله، وسنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-؛ ولهذا قال الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- لَمَّا تَحدَّث عن تفرُّق الفِرَق،

وتحدث عن الفرقة الناجية- «من كان على ما أنا عليه وأصحابي»[1]

ففقهُ الصحابة الكرام لدين الله الحقّ -الذي تلقَّوه من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ، ومن أقواله وأفعاله وتربيته وتوجيهه -عليه الصلاة والسلام- يَجبُ أن يكون مرجعًا لنا، وهم المؤمنون المقصودون بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. فهذا وعيد شديد لِمن شاقَّ الله ورسوله، واتبع غير سبيل المؤمنين.

فانتبهوا لِهذا الأمر، واحرصوا على أن تفقهوا سبيل المؤمنين، الذي استمدوه من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ، ومن تزكيته وتربيته لَهم على الكتاب والحكمة -بارك الله فيكم-.

فهذه فرصة عظيمة لكم؛ افهموا منها دين الله الحقّ، واسعوا بكل جد في إظهاره على الأديان كلِّها، بالحجة والبرهان.

فعليكم بطلب العلم من منابعه الأصيلة؛ من كتب التفسير السلفي، ومن كتب العقائد السلفية، الَّتي تنشق من كتاب الله، ومن سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وتُبيِّن لكم الفرق بين سبيل المؤمنين الصادقين، وسبيل المبتدعين المفارقين لِمنهج الله الحقّ؛ فَهُم -أي: المؤمنون الصادقون- والله- أمناء هذه الأمة على دين الله ﷺ، وعلى سلامة عقيدتِها ومنهجها وعلى تثبيتها على ما جاء به مُحمَّد ﷺ.

ومن البدهيات عندكم: أن الواجب علينا أن نتبع كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وأن نعتصم بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وأن نعضَّ على ذلك بالنواجذ، كما قال رسول الله -لَمَّا وعظ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب فطلبوا منه أن يوجِّه لَهم نصيحة، قالوا: يا رسول الله، كأنَّها موعظة مودِّع، فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله ...».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٤٣).

انتبهوا لهذه الوصية! «. . . والسمع والطاعة، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخُلفاء الراشدين المَهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمور، فإن كل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[1].

فهذه الموعظة تشمل الوصية بتقوى الله، الَّتي لابد منها، ولا تتمثل إلا في نفوس العلماء الصادقين الصالحين؛ كما في قوله تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

فاتقوا الله ﷻ لتصلوا إلَى هذه المرتبة، وتعلَّموا لتصلوا إلَى هذه المَنزلة؛ لأن الذي يعلمُ العقائد الصحيحة، والمناهج الصحيحة، والأحكام، والآداب والأخلاق النابعة من كتاب الله وسنة الرسول ﷺ هذا هو الذي يَخشى الله ﷻ؛ فإن التقوى تتحقق بهذه الأمور كلها.

ومن هذا الإدراك لهذه الأمور -الَّتي ذكرناها- يندفع العبدُ إلَى تقوى الله ﷻ، وإلى خشيته ومراقبته في كل زمان ومكان، وفي كل حال من الأحوال، وهذا مقام عظيم -وهو مقام الإحسان-: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لَم تكن تراه فإنه يراك»[2].

هذا مقام الإحسان أن يكون عند الإنسان يقينٌ بأن الله يراه، وأن الله يسمع كل ما يقول، ويسمع نبضات قلبه، وخلجات فؤاده، وما تُحدث به نفسه، يعلمه ﷻ ويسمعه، ويرى حركاته وسكناته.

فالمُؤمنُ الحَقُّ يُعظم الله حق تعظيمه، ويدرك أنه سبحانه يسمع كل ما يقول، ويعلم كل ما يتحدث به، ويُحدِّث به نفسه، وأن لله ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١١-١٢].

فإذا وُجد هذا الشعور النبيل في نفس المؤمن حصل عنده ملكة التقوى الَّتي يَجتنب بها المعاصي والشرك والبدع والخُرافات، ويَحصل له مقام الإحسان؛ لأنه يراقب الله، ويستشعر بأن الله يراه، ولا يَخفى من أمره على الله قليل ولا كثير،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولا مثقال ذرة.

هذا الإحساس الرفيع، وهذا الشعور النبيل يدفعه -إن شاء الله- إلَى تقوى الله، ولا يصل إلَى هذا إلّا من يعلم العقائد الصحيحة، والأحكام الصحيحة، من الحَلال والحَرام، ويعرف الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، من كتاب الله، ومن سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، فهؤلاء الذين استحقوا الثناء من الله -تبارك وتعالَى-، فقال فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فاحرصوا أن تكونوا من هذا الطراز، أي: أن تَجمعوا بين العلم والعمل، وذلك هو ثَمرة العلم الصحيح، وتقوى الله -تبارك وتعالَى- ومراقبته.

فعليكم أيها الإخوة: بتحصيل الإيمان الصادق الخَالص، والعلم النافع، والعمل الصالح، وقد قال ربنا -جل شأنه-: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

فالإيمان الصادق إنَّما يقوم على العلم، وعمل الصالِحات لا ينشق إلا من العلم، والدعوة إلَى الله لا ينطلق بِها إلا أهل العلم، والصبر على الأذى -بارك الله فيكم- مطلوبٌ لِمن عَلِمَ وعلَّم ودعا إلَى الله -تبارك وتعالَى-.

فكونوا من هؤلاء الذين يعلَمون، ويؤمنون بِهذا العلم، ويدعون إلَى هذا العلم والإيمان، ويصبرون على الأذى في سبيل إيصال هذا الحَقّ والخير إلَى الناس؛ فإنه لابد أن يواجه المسلمُ المؤمن الداعي إلَى الله من الأذى ما لا يَخطر بباله، وما لا يرتقبه!

ولا يستعجب المؤمن من ذلك، فإنه قد أُوذي في سبيل الله، وفي سبيل الدعوة إلَى الله خيرُ خلق الله وهم الأنبياء والرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام-، وقد أوذوا أكثر منا، وابتُلوا بعداوة أشدّ الأعداء أكثر منا، وهذا معنَى قول النبي ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثُمَّ الصالِحون، ثُمَّ الأمثل فالأمثل»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨٤) واللفظ له، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢، ٩٩٤).

وقوله ﷺ: «ما أوذي أحدٌ ما أوذيتُ في الله»[1].

فمن تمسَّك بكتاب الله، وسنة رسول الله، ودعا إلى ذلك: لا بد أن يؤذى -إلا أن يشاء الله-؛ فوطِّن نفسك على الصبر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يتأسى بأولي العزم، وأن يصبر في ميدان الدعوة والجهاد كما صبر أولو العزم، فقال له سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ولنا في رسول الله ﷺ، وفي أنبياء الله جميعًا أسوة حسنة، فالرسول أُمِرَ أن يقتدي بمن قبله من الأنبياء، وأن يهتدي بهداهم، ونحن مأمورون بأن نهتدي برسول الله ﷺ، وأن نتأسى به -عليه الصلاة والسلام-: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

أسوة حسنة شاملة في كل شأن من الشئون الَّتِي جاء بها مُحمَّد ﷺ؛ أسوة في عقيدته، فنعتقد ما كان يعتقده، وأسوة في عبادته، فنعبد اللَّه مُخلصين له الدين، متبعين ما جاء به هذا الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- وأسوة في الأخلاق العظيمة الَّتِي قد يفقدها كثيرٌ من الدعاة إِلَى اللَّه -تبارك وتعالَى-، ويفقدها كثيرٌ من الشباب، وينسى كثيرًا منها، أو كلها بعض الشباب، فإن اللَّه مدح رسوله -عليه الصلاة والسلام- المدح البالغ والثناء العاطر؛ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فالداعي إِلَى اللَّه، وطالبُ العلم، والموجهُ، والمرشدُ كلهم يَحتاجون إِلَى أن يتأسَّوا برسول اللَّه ﷺ في عقيدته ومنهجه وأخلاقه؛ فإذا تكاملت هذه الأمور في الداعية إِلَى اللَّه، أو قارب فيها الكمال: نَجحت هذه الدعوة -إن شاء الله- وقدَّمها الداعي في أجمَل صورها وأفضلها -بارك اللَّه فيكم-.

وإذا خلا الداعي في أمور دعوته، من الأخلاق الكريمَة؛ الَّتِي منها الصبر،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٢٥).

ومنها الحِكمة، ومنها الرفق، ومنها اللين، ومنها أشياء أخرى وهي أمور ضرورية تتطلَّبها دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فذلك نقصٌ ما في دعوته.

وعليه؛ فلابد أن يستكملها.

وقد يغفل عنها كثير من الناس! وهذا يضرُّ الدعوة السلفية، ويضرُّ أهلها؛ إذ الغفلة عن هذه الأخلاق، وتقديم تلك الدعوة إلَى الناس بطريقة يكرهونها، وبِما يستبشعونه ويستفظعونه من الشدة والغلظة والطيش -وما شاكل ذلك-: يعوِّق الدعوةَ وقبولها؛ فإن هذه أمور مبغوضة في أمور الدنيا، فضلًا عن أمور الدين.

فلابد لطالب العلم أن ينتهج نَهج الأخلاق الصالِحة في الدعوة.

وعليه؛ فينبغي عليك -أيها الأخ- أن تقتدي بالآثار الواردة في طريقة الدعوة إلَى الله؛ وذلك بأن تدرس سيرة الرسول، وتدرس أخلاقه، وتدرس عقيدته وتدرس منهجه.

فبعض الناس لا يأبه بعقيدة الرسول، ولا بِمنهجه، ويسلك مناهج وعقائد أخرى، اخترعها الشيطان لِمن خذله الله من أهل البدع والضلال!

وأناس قد يوفَّقون للأخذ بالعقيدة، ولكن يضيِّعون المنهج!

وأناس يوفَّقون للعقيدة والمنهج، ولكن في سلوكهم يُضيِّعون العقيدة، ويضيعون المنهج، يكون معهم الحقُّ -عقيدة صحيحةً، ومنهجًا صحيحًا- ولكنَّ سلوكهم وأسلوبَهم في الدعوة يقضي على الدعوة ويضرُّها!

فاحذروا من مُخالفة الرسول ﷺ في عقيدته وفي منهجه وفي دعوته، وعليكم أن تتعلموا كيف كان يدعو الناس -عليه الصلاة والسلام-، واستلهموا هذه التوجيهات النبوية إلَى الحكمة، والصبر، والحلم، والصفح، والعفو، واللين، والرفق، وإلَى أمور أخرى -إلَى جانب هذه-.

استوعبوها يا إخوان، واعلموا أنه لابد منها في دعوتنا للناس؛ لا تأخذ جانبًا من الإسلام وتُهمل الجوانب الأخرى، أو جانبًا من جوانب طريق الدعوة إلَى الله -تبارك وتعالَى- وتُهمل جوانب أخرى؛ فإن ذلك يضر بدين الله ﷻ، ويضرُّ بالدعوة وأهلها.

فوالله؛ ما انتشرت الدعوة السلفية في هذا العصر القريب -وفي غيره- إلا على أيدي أناس علماء حكماء حُلماء يتمثلون منهج الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ويطبِّقونه قدر الاستطاعة؛ فنفع الله بهم، وانتشرت الدعوة السلفية في أقطار الدنيا، بأخلاقهم وعلمهم وحكمتهم.

وفي هذه الأيام: نرى أن الدعوة السلفية تتراجع وتتقلص، وما ذلك إلا لأنها فقدت حكمة هؤلاء، بل حكمة الرسول ﷺ قبل كل شيء، وحلمه ورحمته وأخلاقه ورفقه ولينه -عليه الصلاة والسلام-.

ولقد شتمت عائشة يهوديًا، فقال لها رسول الله: «يا عائشة، إن الله يُحبُّ الرِّفق في الأمر كله»[1]. هذا الحديث إذا ذكره اليوم عالِمٌ يوجِّه الشباب إلى المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله، فإنهم يقولون: هذا تَمييع!

فهذه الأخلاق الكريمة إذا ذُكرت، وذُكِّر بها: كالحكمة، والرفق، واللين، والحلم، والصفح، الَّتي هي من ضروريات الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، ومن العوامل الَّتي تجذب الناس إلى الدعوة الصحيحة. فإن الناتج أن يدخل الناس في دين الله أفواجًا.

وإن هؤلاء المُضلِّلين يستخدمون التنفير -رغم أن رسول الله ﷺ يقول: «إن منكم منفرين»[2].

ويقول ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[3].

فيا أيها الإخوة: هؤلاء لا يدركون! وإلا فوالله يلزمهم أن يصموا الرسول بأنه مُميع! والصحابة وعلماء الأمة بأنهم مُميعون!

يلزمهم -على هذا التشدد العنيف المهلك- الذي أهلك الدعوة السلفية - يلزمهم أن يكون الرسول نفسه، الذي يدعو إلى الرفق والحكمة واللين، أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٩٠)، ومسلم (٤٦٦) من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ومسلم (١٧٣٢) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

مُمِيعًا كذلك؛ نستغفر الله.

والله؛ لا يريدون هذا ولا يقصدونه! ولكن لا يدركون، فعليهم -من الآن- أن يدركوا ماذا يترتب على هذه الأحكام.

وإننا نَحنُ والله نُجاهد ونناظر ونكتب وننصح، وندعو برفق إِلَى الله تعالَى فيعتبروننا من المميعين، لا يريدون أن نقول: حكمة ولين ورفق!

وقد رأينا أن الشدة أهلكت الدعوة السلفية، ومزَّقت أهلها، فماذا نصنع؟!

فقلت: يا إخوة، لَمَّا نرى النيران تشتعل؛ أنتركها تزيد اشتعالاً؟! أم نأتي بِهذه الأمور الَّتِي ستطفئ تلكم الحرائق؟!

فأنا اضطررت -وهذا واجبي- وأنا أقولُها من قبل اليوم، لكن ركزت عليها لَمَّا رأيتُ هذا الدمار، ورأيتُ هذا البلاء؛ أقولُ: عليكم بالرفق، عليكم باللين، عليكم بالتآخي، عليكم بالتراحم؛ فإن هذه الشدة توجَّهت إِلَى أهل السنة أنفسهم، إذ قد تركوا أهل البدع واتَّجهوا إِلَى أهل السنة بِهذه الشدة المهلكة، وتَحلُّلها ظلم وأحكام باطلة ظالِمة!

فإيَّاكم ثُمَّ إيَّاكم أن تسلكوا هذا المسلك الذي يُهلككم، ويُهلك الدعوة السلفية، ويُهلك أهلها.

ادعُ إِلَى الله تعالَى بكل ما تستطيع؛ بالحُجة والبرهان فِي كل مكان، بـ: «قال الله»، و«قال رسول الله»، وتستعين على ذلك -بعد الله- بكلام أئمة الهدى الذين يُسلَّم بإمامتهم ومنزلتهم فِي الإسلام أهل السنة وأهل البدع جَميعًا.

أنا أوصي الإخوان الذين يذهبون إِلَى أمريكا، أو إِلَى تركيا، أو إِلَى الهند، -أو غيرها- بقول: قال الله، قال رسول الله، قال فلان -من الأئمة الذين يَحترمونَهم-.

فإذا ذهبت إِلَى أفريقيا مثلًا: قلتَ: قال ابن عبد البر، قال مالك، قال فلان، -مع أن عددًا ليس قليلًا من الناس هناك هم أهل عقائد فاسدة!- فإذا أتيتهم بكتاب الله تعالَى، وسنة الرسول ﷺ، ثُمَّ تأتي بكلام العلماء: يسمعون كلامك، وينقادون لك.

هذه حكمة، لكن؛ إذا أتيتهم بكلام من عندك -فحَسب- لن يقبل منك أحد.

فلابد أن تستأنس بعد كلام الله، وكلام رسوله ﷺ بكلام العلماء، الذين لهم منزلةٌ في نفوس الناس، ولهم مكانة، ولا يستطيعون الطعن فيهم، ولا في كلامهم، فإذا قلت: قال البخاري، فإنَّهم يَحترمونه.

فمثلًا: الصوفية في كل مكان يَحترمون البخاري، ويَحترمون مسلمًا، ويَحترمون هذين الكتابين، والإمامين، ويَحترمون أحمد بن حنبل، ويَحترمون الأوزاعي، وسفيان الثوري وغيرهم من أهل العلم الأكابر المتقدمين.

لذا؛ فإن هنالك روابط بيننا وبينهم بالحقِّ أماكن التقاء، فلننفذ إليهم من هذه المنافذ.

وهذا من الحِكمة يا إخوان؛ فلا ينبغي -بناءً على ذلك- أن تقول لَهم ابتداءً: قال ابن تيمية، مع أنه إمام؛ لأن الجهلة لا يعرفونه، وإن عرفوه فقد بُغِّض إليهم ممَّا سَمعوه من كبرائهم؛ فهم لا يعرفونه ولا يريدونه -بارك الله فيكم-

قل: قال ابن تيمية في أوساط السلفيين الذين يَحترمونه، لكن ما تقول -في أوساط أخرى!- قال ابن تيمية، قال ابن عبد الوهاب مثلًا؛ لأن الجاهل الذي تربى في أوساط المبتدعة ينفر من ذلك؛ فأشياخُهم منفرون لَهم، قل لَهم أسماء الأئمة الذين يقدرونَهم ويَحترمونَهم؛ لأن سادتَهم وشيوخهم شوهوا ابن تيمية وشوهوا ابن عبد الوهاب، وشوَّهوا علماء الدعوة وأئمة الدعوة -كما قلنا آنفًا.

فلا تأتيهم من هذا الباب، فإنه ليس من الحِكمة.

لكن، تأتيهم من باب: قال مالك، قال سفيان الثوري، قال الأوزاعي، قال ابن عيينة، قال البخاري، قال مسلم في الجزء الفلاني الصفحة الفلانية، فمثل هذا سيقبل منك، ثُمَّ إذا قبلوا منك: احترموا بعد ذلك ابن تيمية، وعرفوا أنه على الحَقِّ، واحترموا ابن عبد الوهاب، وعرفوا أنه على الحق -بارك الله فيك- وهكذا...

أقول: هذا نوعٌ من التنبيه إلى سلوك طريق الحكمة في دعوة الناس إلى الله -تبارك وتعالَى-.

ومنها: ألا تسب خصامهم: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا

عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

أنا أقول: لَمّا ذهبت إِلَى السودان، نزلت فِي بور سودان[1]، فاستقبلني شبابُ أنصار السنة، وقالوا: يا شيخ؛ نلفت نظرك إِلَى شيء.

قلت: تفضلوا.

قالوا: تكلم بِما شئت، قل: قال الله، قال رسول الله، واطعن بِما شئت فِي البدع والضلالات؛ من دعاء غير الله، والذبح، والنذر، والاستغاثة وهكذا، لكن لا تقل: الطائفة الفلانية، ولا: الشيخ الفلاني! لا تنص على التيجانية من الفرق! ولا الباطنية! ولا رءوسهم، لكن؛ اسرد العقائد؛ وستجد نفسك قد قُبل منك الحقُّ.

قلت له: طيِّب، فسلكت هذا المسلك، فوجدت إقبالًا عظيمًا من الناس.

ولا تظنَّ -يا طالب العلم- أن من تَمام المنهج الحقِّ: أنه لابد أن تسبَّ شيوخهم، وتطعن فيهم! فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. تسب الشيخ! أو تقول: ضالٌّ! أو كذا! أو الطريقة الفلانية! فإنهم عندها ينفرون منك، فتأثم، وتكون قد نَفَّرت الناس، وإنكم إذن منفِّرون . . .

والرسول ﷺ لَما أرسل معاذًا وأبا موسى -إِلَى اليمن- قال: «يَسرا ولا تُعسرا، وبَشرا ولا تُنفرا»[2].

فهذه من الطرق الَّتِي فيها التيسير، وفيها التبشير، وما فيها تنفير؛ ووالله ما دخلت مسجدًا إلا وأرى التهلل فِي وجوههم، ولا أستطيع الخُروج من كثرة المُقبلين عليَّ يصافحونني، ويدعونني.

ثُمَّ رأت رءوس الصوفية -الشياطين- خطورة هذا السلوك وهذا المنهج فِي الدعوة، فاجتمعوا وتآمروا ونسقوا لأنفسهم كلامًا يردُّون به عليَّ، وأعلنوا لي عن

(١) هذه إشارة إِلَى مُحاضرة قام بها الشيخ ربيع فِي مدينة بور فِي السودان عام ١٣٩٢، وهذا من جملة الأدلة الكثيرة على أن الشيخ ربيعًا يسير على منهج الاعتدال والحكمة فِي الدعوة إِلَى الله من أول حياته إِلَى اليوم؛ بخلاف ما يزعمه بعض الناس أن الشيخ ربيعًا يسير على منهج الشدة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

مُحاضرة في ميدان كبير.

فاجتمعنا في هذا الميدان، وتكلَّمت، فقام كبيرهم، وعلَّق على كلامي، وبدأ يُجيز الاستغاثة، ويُجيز التوسل، ويقول بتعطيل الصفات، ويقول ويقول... ويؤيد كل الأباطيل بتأويلات فاسدة!

فلما فرغ -وما عنده من أدلة، وقد أتى بأحاديث ضعيفة موضوعة، وجاء بأقوال الأسقراطيِّين-.

قلت: يا جَماعة، سَمعتم كلامي، وأنا أقول: قال الله، قال الرسول، قال علماء الأمة المعتبرون، وهذا الرجلُ جاء بأحاديث موضوعة، وما أسعفه القرآن بشيء! هل سمعتم: قال الله كذا في جواز الاستغاثة بغير الله؟؟! وفي إجازة التوسل؟؟! هل سَمعتم كلام الأئمة الكبار مثل مالك وأمثاله؟؟!

ما سَمعتم، إنَّما سَمعتم أحاديث موضوعة، وأحاديث ضعيفة، وكلامٌ لأناسٍ معروفين عندكم أنَّهم خرافيُّون!

فقام الخُرافيُّ يسبّ ويشتم! وأنا أضحك، لا سبيتُه، ولا شتمته، وكنت لا أزيد على قولي: بارك الله فيك، جزاك الله خيرًا، جزاك الله خيرًا، بارك الله فيك.

وافترقنا، فوالله الذي لا إله إلا هو أصبحوا في اليوم الثاني يتحدثون في المساجد والأسواق أن الصوفية هُزِمت!

فتعلَّموا يا إخوان هذه الأساليب الشرعية الصحيحة؛ فالقصد هدايةُ الناس، والقصد إيصالُ الحَقِّ إلَى قلوب الناس.

أيها الأخ: عليك أن تستخدم في سبيل الدعوة إلَى الله كلَّ ما تستطيع من وسيلة شرعية، وليس عندنا أن الغاية تسوغُ الوسيلة! فإنَّها من صفات أهل البدع؛ الَّتِي وقعوا -بسببها- في الكذب واللف والدوران والمناورات! كما قال الإمام عليُّ بن حرب الموصلي: كل صاحب هوى يكذبُ، ولا يُبالي.

وهذا كله ليس عندنا؛ فنحن أهل صدق وأهل حقٍّ، ولكن نعرض في أي مدى الصور الَّتِي يقبل فيها الناس، وتؤثر في نفوسهم، بارك الله فيكم.

ثُمَّ ذهبت إِلَى (كَسَلا) فِي السودان أيضًا فما شاء اللَّه كانت الدعوة مُمهدة والحمد لله وطيبة، تكلمت والحمد لله ونفع اللَّه بِما تكلمت.

ثُمَّ ذهبنا إِلَى (الغظارف) وهي مدينة صغيرة هناك، ودُرنا على المساجد الَّتِي فيها جَميعًا، قالوا: لَم يبق فِي هذه المدينة إلا مسجد واحد للتيجانية لا تستطيع أن نصل إليه!

قلت: كيف؟ قالوا: هم متعصبون تعصبًا شديدًا.

قلت: نذهب إليهم، ونستأذنُهم؛ إن أذنوا لنا بالكلام بلَّغنا، وإن منعونا فعذرنا عند اللَّه، ولا ينبغي أن نواجههم بالإرغام والقوة -بارك اللَّه فيكم-.

فجئنا، وصلى بنا الإمام، وبعدما فرغ جئت، سلمت عليه، وقلت له: أتسمح لِي أن ألقي كلمة فِي الإخوان هؤلاء؟ قال: تفضل.

فتكلمت؛ أدعو إلَى اللَّه، وإلَى التوحيد، وإلَى السنة، وإلَى أشياء أخرى من أمور العلم، وأنتقد بعض الأخطاء الموجودة، وبعض الضلالات، حَتَّى وصلت إلَى حديث عائشة ﵂ المتفق عليه «ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على اللَّه الفرية: من قال: إن مُحمَّدًا رأى ربه؛ فقد أعظم على اللَّه الفرية، ومن قال: إن مُحمَّدًا يعلم ما فِي غد؛ فقد أعظم على اللَّه الفرية -وأسوق الأدلة على هذا- ومن زعم أن مُحمَّدًا لَم يبلغ ما أُنزل عليه؛ فقد أعظم على اللَّه الفرية»[1].

فقام الإمام -وكان مستوفزًا-، فقال: واللَّه إن مُحمَّدًا رأى ربه بعَيْنَي رأسه!

قلت له: جزاك اللَّه خيرًا، أما عائشة -الَّتِي هي أعلم الناس به ﷺ- فقد قالت: «من زعم أن مُحمَّدًا رأى ربه؛ فقد أعظم على اللَّه الفرية». ولو كان رسول اللَّه رأى ربه لأخبرها، ولكن ما أخبرها.

فبدأ باللجاجة والسؤال، قلت له: يا أخي، انتظر حَتَّى أُنهي كلمتي، وبعد ذلك اسأل عما شئت، فالذي أعرفه أجيبك به، والذي لا أعلمه أقول لك: اللَّه أعلم، وتركته ومضيت فِي الكلام، ولا أدري هل بقي أو ذهب! لا أدري، ما التفتُّ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

إليه، ثُمَّ سَمِعت رجلًا يقول: «واللَّه الكلام اللي يقوله الزول ده حق».

ثُمَّ سَمِعت مرة أخرى العبارة نفسها من آخر، وزاد: «فالرجل يقول: قال اللَّه، قال رسول اللَّه» -بارك اللَّه فيكم-.

حَتَّى أُذِّن لصلاة العشاء، وانتهت الكلمة، وأُقيمت الصلاة، وإذا بهم يدفعونني لأصلي بِهم! فقلت: أبدًا؛ لا أصلي بكم، يصلي الإمام، قالوا: والله تصلي، والله تصلي.

قلت: طيب، وصلَّيت بِهم، وبعدما فرغنا انتظرتُ، ثُمَّ خرجت أنا والشباب -أنصار السنة معي- وقلت لَهم: أين ذهب الإمام؟ قالوا: طردوه. قلت: من طرده؟ قالوا: واللَّه جماعتُه.

هذا الذي حصل -يا إخوة-.

فلو جاء إنسان يُسفِّه التيجاني المرغنيّ! فلعلهم يذبحونه، لا أن يطردوه فحسب، لكن إذا أتيتهم بالحكمة واللطف -بارك اللَّه فيك- نفعهم اللَّه بِهذا.

فاستخدموا -يا إخوة- العلم النافع، والحجة القاطعة، والحكمة النافعة في دعوتكم، وعليكم بكل الأخلاق الجميلة النبيلة، الَّتِي حثَّ عليها الكتاب، وحثَّ عليها رسول الهُدى ﷺ؛ فإنَّها عوامل نصر وعوامل نَجاح.

وصدِّقوا أن الصحابة ما نشروا الإسلام، ودخل في القلوب، إلا بحكمتهم وعلمهم، أكثر مِمَّا عملت السيوف، لكن من يدخل في الإسلام تَحت السيف قد لا يثبت، والذي يدخل الإسلام يدخله عن طريق العلم والحجة والبرهان هو الذي يثبت إيمَانه بإذن اللَّه وتوفيقه.

فعليكم بِهذه الطرق الطيبة، وعليكم بالجد في العلم، وعليكم بالجد في الدعوة إِلَى اللَّه.

ثُمَّ أنبهكم -يا إخوة- إِلَى أمرين:

أولًا: التآخي بين أهل السنة جَميعًا، فيا أيها السلفيون، بثُّوا فيما بينكم روح المودة والأخوة، وحققوا ما نبهنا إليه رسول اللَّه ﷺ من أن المؤمنين: «كالبنـ

يشد بعضه بعضًا»[1].

وأنهم: «كالجَسد الواحد إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجَسد بالحُمى والسهر»[2].

كونوا هكذا يا إخوة: ابتعدوا عن عوامل الفُرقة، فإنَّها والله شرٌّ خطير، وداء وبيل.

ثانيًا: اجتنبوا الأسباب الَّتي تؤدي إِلَى الإحن والبغضاء، والفُرقة والتنافر.

ابتعدوا عن هذه الأشياء؛ لأنَّها سادت هذه الأيام على أيدي أناس يعلم اللَّه حالَهم ومقاصدهم؛ سادت وكثرت، ومَزَّقت الشباب في هذا البلد -سواء في الجامعة وغيرها- أو في سائر أقطار الدنيا.

لِمَ؟! لأنه نزل إِلَى ساحة الدعوة إِلَى اللَّه من ليس من أهلها -لا علمًا ولا فهمًا-.

وقد يَجوز أن يكون الأعداء دسُّوا في أوساط السلفيين من يُمزقهم ويفرقهم، وهذا أمر غير بعيد أبدًا، بل واردٌ حقًّا، -بارك اللَّه فيكم-.

فاحرصوا على الأخوة، وإذا حصل بينكم شيء من النفرة، فتناسوا الماضي وأخرجوا صفحات بيضاء جديدة الآن.

وأنا أقول للإخوان:

الذي يُقَصِّر ما ينبغي أن نسقطه أو نُهلكه، والذي يُخطئ منَّا لا نُهلكه، بارك اللَّه فيكم، ولكن نُعالِجه باللطف والحكمة، ونوجِّه له المَحبة والمودة وسائر الأخلاق الصالِحة، مع الدعوة الصحيحة حتَّى يتوب، وإن بقي فيه ضعفٌ فلا نستعجل عليه، وإلا؛ واللَّه ما يبقى أحدٌ، ما يبقى أحد!

فبعض الناس الآن يطاردون السلفيين حَتَّى وصلوا إِلَى العلماء، وسَموهم مُميعين! والآن ما بقي في الساحة عالِمٌ تقريبًا إلا طُعن به وفيه! وهذه طبعًا هي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

طريقة الإخوان المسلمين، وطريقةُ أهل بدع، فإن أهل البدع من أسلحتهم أن يبدءوا بإسقاط العلماء، بل هي طريقة يهودية ماسونية: إذا أردت إسقاط فكرة فأسقط علماءها أو شخصياتها!!

فابتعدوا عن هذا الميراث الرديء، واحترموا العلماء.

ووالله؛ ما يُسمى في الكلام فيَّ -ولا الطعن في ما نَحن فيه- إلا لتكون النتيجةُ إسقاط المنهج؛ فالذي يكره هذا المنهجَ يتكلم في علمائه، والذي يبغض هذا المنهج ويريد إسقاطه يسير في هذه الطريق، وهي مفتوحةٌ لَهم: طريق اليهود، وطريق الأحزاب الضالة من الروافض وغيرهم.

فالروافض يبغضون الإسلام، وما يقدرون أن يتكلموا في مُحمَّد ﷺ، فإذا بهم يتكلمون في أبي بكر وعمر، وعلماء الأمة؛ يريدون إسقاط الإسلام.

وأهل البدع الكبرى إذا تكلموا: فما يتكلمون في أحمَد والشافعي، ولكن يتكلمون في مُحمَّد بن عبد الوهاب، وابن تيمية، وأمثالهم؛ ليسقطوا هذا المنهج.

والآن: فإنا أناسًا ينشئون في صفوف السلفيين، فما شعرتُ إلا وهم يشدحون في رءوس العلماء!

هؤلاء؛ ماذا يريدون؟! ماذا يريدون؟! لو أرادوا الله والدار الآخرة، وأرادوا نُصرة هذا المنهج -وهم يُحبون هذا المنهج- والله لدافعوا عن عُلمائه.

فلا تأمنوا هؤلاء على دينكم، ولا تثقوا فيهم، بارك الله فيكم، واحذروهم كل الحذر، وتلاحموا وتآخوا فيما بينكم.

وأنا أعرف أنكم لستم معصومين، وليس العُلماء بمعصومين -قد نُخطئ- اللهم إلا إذا دخل في رفض أو في اعتزال، أو في تَجهُّم، أو في تَحزُّب من الحزبيات المَوجودة؛ فإن هذا هو المنبوذ.

أما السلفي: الذي يوالي السلفيين، ويُحب المنهج السلفي -بارك الله فيكم- ويكره الأحزاب ويكره البدع وأهلها -وغير ذلك من علامات المنهج السلفي-، ثُمَّ يضعف في بعض النقاط؛ فإن هذا نترفَّق به، وما نتركه، ولكن؛ ننصحه، ونتشله، ونصبر عليه، ونعالجه، بارك الله فيكم.

أما أن يقال: من أخطأ هلك! فعلى هذا -فلن يبقى أحد!

ولهذا؛ فترى هؤلاء لَمَّا فرغوا من الشباب؛ بدءوا بالعلماء يسقطونَهم؛ فهذا منهج الإخوان المسلمين، فقد دخلوا في البلاد، وأول ما بدءوا به إسقاط العلماء، وفي الوقت نفسه يدافعون عن سيد قطب، والبنا، والمودودي، وغيرهم من أهل البدع، وأسقطوا علماء المنهج السلفي، ووصفوهم أنَّهم عملاء، وجواسيس، وعلماء السلطان . . . إِلَى آخر الاتِّهامات!

فما قصدُهم؟!

قصدُهم إسقاطُ المَنهج السلفي، وإقامة الأباطيل والضلالات على أنقاضه.

والذين يطعنون الآن فإنَّهم يقولون عن أنفسهم: إنَّهم سلفيون، ثُمَّ يطعنون في علماء السلفية!

ماذا يريدون؟ يريدون رفع راية الإسلام؟! ورفع راية السنة والمنهج السلفي؟!

أبدًا، أبدًا، هذه قرائنُ وأدلة على أنَّهم كذَّابون متهمون مهما ادَّعوا لأنفسهم.

فأنا أوصيكم يا إخوة وأركز عليكم أن اتركوا الفرقة، وعليكم بالتآخي، وعليكم بالتناصر على الحَقِّ، وعليكم بنشر هذه الدعوة بين طلاب الجامعة وغيرها؛ على وجهها الصحيح، وصورتِها الجميلة، لا على الصور المشوَّهة، الَّتِي يسلكها هؤلاء!

قدموا الدعوة السلفية كما قلت لكم بالصورة البهية؛ قال الله، قال رسول الله، قال الصحابة، قال الشافعي، قال أحمد، قال البخاري، قال مسلم، وكذلك أئمة الإسلام الذين يَحترمونَهم ويوقِّرونَهم، أوقفوهم على كلامهم، بارك الله فيكم؛ فهذا يساعدكم إِلَى حدٍّ بعيد.

نعم؛ ستجدون بعض الناس يُعاندون، لكن ما كل الناس يُعاندون، ستجدون أكثر الناس يُقبلون على دعوتكم سواء هنا في الجامعة، أو إذا عدتُم إِلَى بلدكم، استخدموا هذه الطرق الَّتِي تَجذب الناس إِلَى كتاب الله، وإِلَى سنة رسول الله ﷺ، وإِلَى منهج السلف الصالح، والعقائد الصحيحة، والمنهج الصحيح.

أسألُ الله -تبارك وتعالَى- أن يوفقنا وإياكم إِلَى ما يُحب ويرضى، وأن يَجعلنا

من الدعاة المُخلصين، ومن العلماء العاملين، وأن يُجنبنا وإياكم كيد الشيطان، بل وكيد شياطين الجن والإنس.

وأسأله -تبارك وتعالَى- أن يؤلف بين قلوبكم، وأن يَجمع كلمتكم على الحق، وأن ينفع بكم أيما حللتم، وأينما رحلتم وذهبتم، أسأل الله أن يُحقِّق ذلك.

وصلى الله على نبينا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

أسئلة وأجوبة

سؤال (١) : أزاول مهنة نقل بضاعة بسيارتي، فهل يَجوز لِي أن أنقل بضاعة أحد التجار، والَّتِي هي عبارة عن مصاحف وعطور ومَجلات فِي العلوم الشرعية للعلماء المَعروفين بالسنة -قديمًا وحديثًا- إلَّا أنه يتخللها بعض كتب أهل البدع والمَجهولين؟

الجواب: أنا أرى أن نقلك لكتب أهل البدع والمَجهولين من التعاون على الإثم والعدوان؛ فأرى ألَّا تنقل، اترك هذا الرجل واذهب إلَى غيره، فإن أبواب الرزق مفتوحة، انقل بضائع خضار، انقل حاجات أخرى من الأمور الَّتِي ما فيها شبه، ولا حرام.

سؤال (٢): يا فضيلة الشيخ، إذا كان الرجل عنده أخطاء أوجبت التحذير منه، فهل يلزم نصحه قبل تَحذير الناس منه أم لا؟

الجواب: إذا كان شرُّه مستطيرًا؛ بادر بنصحه، وهذا أنفع، فإن قبل، وإلا فحذِّر منه؛ لعل النصيحة طيبة قد ينفعه الله ﷻ بهذه النصيحة، ويرجع عن باطله، ويعلن خطأه؛ بارك الله فيكم.

لكن؛ لَمَّا تأتِي تصدمُهُ بالرد فقط قد لا ينقاد لك! فتبذل الوسيلة الَّتِي يكون لَها الأثر الطيب؛ لأنك لَمَّا تنصحه بينك وبينه، وتبدي له شيئًا من اللطف سيرجع -إن شاء الله- ويعلن خطأه، وفِي هذا خير كبير أنفع من الرد.

ولِهذا؛ فإنِّي أقدم النصيحة أولًا، ثُمَّ إن بعض المنصوحين يستجيب وبعضهم لا يستجيب، فالذي لا يستجيب فإننا حينئذٍ نضطر أن نرد عليه.

إذا لَم يكن إلا الأسنة مركب فما حيلة المُضطر إلا ركوبُها

سؤال (٣): يا فضيلة الشيخ، متَى نستعمل اللين؟ ومتَى نستعمل الشدة فِي الدعوة إلَى الله، وفِي المُعاملات مع الناس؟

الجواب: الأصل فِي الدعوة: اللين، والرفق، والحكمة، هذا هو الأصل فيها، فإذا وجدت من يعاند ولا يقبل الحق وتقيم عليه الحجة ويرفض: فحينئذٍ تستخدم الرد.

وإن كنت سلطانًا -وهذا داعية- فتؤدبه بالسيف، وقد يؤدي إِلَى القتل إذا كان يصرُّ على نشر الفساد، فهناك من العلماء -من شتَّى المذاهب- يرون أن هذا أشد فسادًا من قطَّاع الطرق؛ فهذا يُنصح، ثُمَّ تُقام عليه الحجةُ.

فإن أبَى فحينئذٍ يلجأ الحاكم الشرعي إِلَى عقوبته، قد يكون بالسجن، قد يكون بالنفي، قد يكون بالقتل.

وقد حكموا على الجَهم بن صفوان، وعلى بشر المَريسي -وعلى غيرهم- بالقتل، ومنهم الجعد بن درهم.

وهذا حكم العلماء على من يعاند ويصر على نشر بدعته، وإذا نصحه اللَّه وتراجع: فهذا هو المطلوب.

سؤال (٤): يقول بعض الشباب: كما أننا نقلد الشيخ الألباني -رحمه اللَّه تعالَى- في أغلب الأحاديث. كذلك يجوز تقليد أئمة الجرح والتعديل في عصرنا -مطلقًا-، هل هذا الكلام صحيح؟

الجواب: الشيخ الألباني وقبله علماء أكبر منه، مثل: أبي داود، والترمذي، والنسائي، الناظر في كلامهم وأحكامهم على الأحاديث بين أمرين:

إما أن يكون جاهلًا، لا يُمكنه أن يصحِّح أو يضعِّف؛ فهذا يقلد.

وإما إنسان متمكِّن، طالب علم قوي، عالِم متمكن من التمييز بين الصحيح والضعيف، عنده قدرة تؤهله لهذا التمييز بين الصحيح والضعيف؛ يدرس تراجم الرجال، ويدرس العلل، وكذا وكذا؛ لتكون النتيجة هي موافقة هذا الإمام أو مُخالفته، في ضوء البحث العلمي القائم على المنهج الصحيح، وطرق أهل الجرح والتعديل.

نعم؛ ثُمَّ التقليد في الجرح والتعديل هذا شأنه -بارك اللَّه فيكم- يعني: لو أن إنسانًا لا يتمكَّن من العلم وقف على كلام للبخاري، لِمسلم، لأبي داود: فلان كذاب، فلان سيئ الحفظ، فلان واهٍ، فلان متروك، فلان كذا، وما وجد أحدًا يعارضه -يقبل كلامه لأنه خبر من الأخبار - ما هو فتوى-، يقبله لأنه خبر من الأخبار، وقبول أخبار الثقات أمر ضروري لابد منه.

لكن؛ إذا كان طالب علم، ووجد من يُخالف هذا الرجل الذي جرحه، ثُمَّ وجد إمامًا آخر قد خالفه وزكَّاه، فحينئذٍ لابد من تفسير هذا الجرح، لا يُسلم لهذا الجارح طالَما هناك عالِم آخر يعارضه في هذا التجريح.

فإذا لَم يعارضه أحد؛ يُقبل، وإذا عارضه؛ فلابد من بيان أسباب الجَرح، بارك الله فيكم، والأمر موجود في كتب المصطلح وكتب علوم الحديث.

هذا شيء معروف عند طلاب العلم -فراجعوه في «مقدمة ابن الصلاح»، وراجعوا «فتح المغيث»، وراجعوا «تدريب الراوي»، وراجعوا كتب هذا الشأن- علوم الحَديث وعلوم الجَرح والتعديل-.

سؤال (٥). الذين ذكرتُم -حفظكم الله- هل لَهم مسلكٌ صحيحٌ في الدعوة السلفية، وهل هم في صفوف السلفيين، دعاة يرمون كل شخص بالتمييع لِمجرد خطأ؛ ونرجو منكم التمثيل؟

الجواب: لا داعي للتمثيل، لكن هذا موجود، وأنتم تعرفونه!

هذا أمر موجود ملموس لكم، تعرفونه تَمامًا، لا شك أنه موجود.

ونسأل الله أن يقضي على هذه الفتنة؛ فإنَّها والله أضرت بالدعوة السلفية كثيرًا، لا هنا فقط، بل في الدنيا كلها! فهذا مذهب جديد لا يعرفه أهل السنة: رمي أهل السنة بأنَّهم مُميعون -يعني: مبتدعة- وتقصد أهل السنة بالذات.

وأنا لا أستبعد أن بين هؤلاء ناسًا مدسوسين على المنهج السلفي وأهله، لأن هذا أمر معلوم قطعًا من أساليب أهل الأهواء، أنَّهم يدسون في صفوف السلفيين، واليهود يدسون في صفوف المسلمين من يُضللهم، ولابد لِهؤلاء أن يَلبسوا لباس المنهج السلفي إذا كان الأمر يهم السلفيين.

فأنت تَجد كثيرًا من أهل البدع يدَّعون السلفية -بل يدَّعونَها بحماسة وقوة- ويدعونك عنها، هؤلاء لا تأمنهم -بارك الله فيك- بل تَجد في المسلمين في الدنيا -كلها- ناسًا مدسوسين، وباسم الإسلام، هذا أمر معروف، لكن الأذكياء يعرفون هؤلاء، يعرفونَهم من تصرفاتهم، من مواقفهم، ومن أحكامهم، بقرائن وأدلة - بارك الله فيكم، ووفقكم الله-.

سؤال (٦): بعض الشباب يقسِّم علماء السلفيين إلى علماء الشريعة، وعلماء المنهج، هل هذا التقسيم صحيح؟

الجواب: هذا غلط -بارك الله فيك- لكن أن يكون -بحكم التخصص- إنسان يعلم الشريعة وقد يبرز بسبب اهتمامه بالمنهج، وما يناقضه وبالذين يُخالفونه.

وآخر من العلماء يكون عنده شيء من اهتمام، وشيء من الإدراك، ولكن لا يسلِّم أيضًا لهذا المتخصص بكل شيء، لاسيما إذا عارضه آخرون -بارك الله فيكم-.

نعم؛ هذا التفريق اتركوه، هذا التفريق أصلٌ ابتدعه أهل البدع، فقهاء واقع وغير فقهاء واقع! هذا التقسيم الجديد هو موجود الآن في صفوف السلفيين، وهو لا ينبغي.

أرادوا إسقاط ابن باز، والعلماء الموجودين، قالوا: ما يفقهون الواقع! فإذا تكلموا في الأحداث وفي المشاكل الَّتي تُهم وتعم المسلمين وتنزل بهم، قالوا: لا، والله؛ لا يعرف العلماءُ الواقعَ.

هذا إسقاط، إسقاط خطير جدًا في أخطر الميادين، لإيهام الناس أن هذا الميدان ميدانُهم.

سؤال (٧): هل يَجوز هجر من يُسلِّم على أهل البدع من الإخوان المُسلمين والحَركيين والتكفيريين، ويُجالسهم مع إقراره بأنَّهم مبتدعة، ويُزَهِّد الناس في علم الجَرح والتعديل؟

الشيخ: كيف يُجالسهم؟!

هل السلفيون يُجالسون أهل البدع؟!

فإذا وُجد سلفي قوي، يستطيع أن يبلِّغ دعوة الله في أهل البدع وفي الأحزاب -بالحُجة والبرهان- ويؤثر فيهم ولا يؤثرون فيه، فهذا واجبه أن يَختلط بهؤلاء ويدعوهم؛ لا لأجل أكل، ولأجل شرب، ولا مداهنة، ولا شيء من أمور الدين،

ولا إقرار على باطل، إنَّما يُحصلهم في المساجد فيدعوهم، ويُحصلهم في الأسواق فيدعوهم، ويركب معه في سيارة يدعوه، يركب معه في طائرة يدعوه، يركب في قطار يدعوه.

يدعو؛ لأنه لابد من الاختلاط بهؤلاء -ما له فكاك منهم- لأن أهل البدع والأهواء أغلبية ساحقة، والسلفيُّون كالشعرة البيضاء في الثور الأسود -بارك الله فيكم-، فرغم أنه يَختلط بهؤلاء، لكن ما واجبُه؟

واجبه: تبليغُ دعوة الله بالحِكمة والمَوعظة الحَسنة، فهذا: إذا جلس في بيته بحجة هجران أهل البدع! فهذا مَوَّت الدعوة!!

فمثلًا: إنسان جاهل ضعيف الشخصية إذا سَمِع أدنَى شبهة أخذته؛ فهذا ينبغي أن ينجو من أهل الشُّبه والبدع، ويبتعد عنهم، لا يُجالسهم، لكن إذا امتحنك إنسان وسلم عليك، فقل: وعليك السلام.

لكن؛ أن تُجالسهم وتؤاكلهم، وتُضاحكهم، وتَجلس إليهم: فأنت في هذا مُخطئ؛ لأن ما فعلته مُخالف للمنهج السلفي، ومُخالف للسنة.

الآن: أنا ربيع مثلًا، لا أرى مبتدعًا إلا وأفر منه! وما أدري كيف!!

فلان وفلان وفلان من طلاب العلم لا يرى مبتدعًا إلا وفرَّ!

ما أن رآه أو نظر في وجهه من أمام البيت إلا دسَّ نفسه، إن رآه في شارع هرب إلَى شارع ثانٍ، هذا ليس طريقًا سلفيًّا، فالصحابة كانوا ينتشرون بين الكفار في أقطار الأرض، وينشرون دين الله فيهم -بارك الله فيكم-.

والسلفيون -الذين قلنا- قد انتشروا كذلك بين أهل البدع، وأثروا فيهم، وأدخلوا الألوف في حظيرة المنهج السلفي.

فمن كان مناظرًا قويًّا، وقوي الشخصية أو عالمًا؛ أقام الحجة ودعا هؤلاء بالحكمة والموعظة الحسنة.

وسترون آثار هذا.

والضعيف؛ لا والله لا يخالط في الجملة؛ لكن إذا امتُحن بالسلام عليه

فليسلِّم؛ ولا شيء عليه، وإلا فماذا يصنع؟

لكن؛ لا يُخالط ولا يُجالس.

سؤال (٨) ما كيفية التعامل مع أشخاص يقولون: إن فلانًا بدَّعه العلماء، ولكن أخطاءه لا تُخرجه من دائرة أهل السنة؟

وأن هذا المَنهج جديد، ظهر بعد وفاة العلماء الأكابر، مثل الألباني، وابن باز، والعثيمين -رَحِمَهم اللَّه جَميعًا-؟!!

الجواب: نعم؛ هذا المنهج نشأ قريبًا، عندكم علم من الجرح والتعديل الكلام الذي قلناه- ناس جرحوا، ناس ما جرحوا، ناس يركُّون ويدافعون عن هذا المَجروح، نَحن نطلب من الجارحين التفسير، إذا بيَّنوا أسباب الجرح الصحيحة فيجب اتِّباعهم؛ لأن هذا اتِّباع للحق، وردُّ ما عندهم من الحَق رفضٌ للحق.

فنفس الجرح والتعديل يوجد هنا؛ هؤلاء جرحوا، فإن كانوا جرحوا بدون حجة فلا قيمة لكلامهم، وإن كانوا جرحوا بحجة فيجب على من يُخالفهم أن ينصاع ويرجع إلَى الحَق والصواب، وأن يأخذ بالحجة -بارك اللَّه فيكم-.

فكثيرٌ من الناس يُكذِّبون بالحَقِّ، ويرفضون الحَقَّ، وهذا أمر عظيم خطير جدًّا.

وهكذا -كما قلت لكم- فهذه هي القاعدة في الجرح والتعديل: يُطلب من هؤلاء الجارحين تفسير جرحهم، والبيِّنة عليه إذا لَم يكن عندهم بيِّنة، أما إذا كانوا يَملكون بيِّنة، وعندهم أدلة: فهنا تكون الحجة ويُتبع الحَق، وانتهى كل شيء.

سؤال (٩). أثابكم اللَّه، إذا حكم العلماء على شخص بأنه مبتدع، فهل يُطلق هذا الحُكم على أتباعه -تبعًا لشيخهم-، حيث يلتمسون له الأعذار بأنه أخطأ، ولكن لا يُبدِّعونه؟

الجواب: يُرجع إلَى السؤال الأول؛ إن كان مع العلماء حجة على تبديع هذا الرجل، فعلى طلابه وعلى كل الناس الذين يَحتكون به أن يأخذوا بهذا الحَق، ولا يَجوز لَهم أن يدافعوا عنه.

* * *

أسأل الله أن يؤلف بين قلوبكم.

أسأل الله أن يَجمع كلمتكم على الحَقّ.

أسأل الله أن يُذهب عنكم كيد الشيطان.

واجتهدوا في بذل الأسباب لذلك؛ ابذلوا الأسباب في استئصال شأفة الفُرقة وأسبابها.

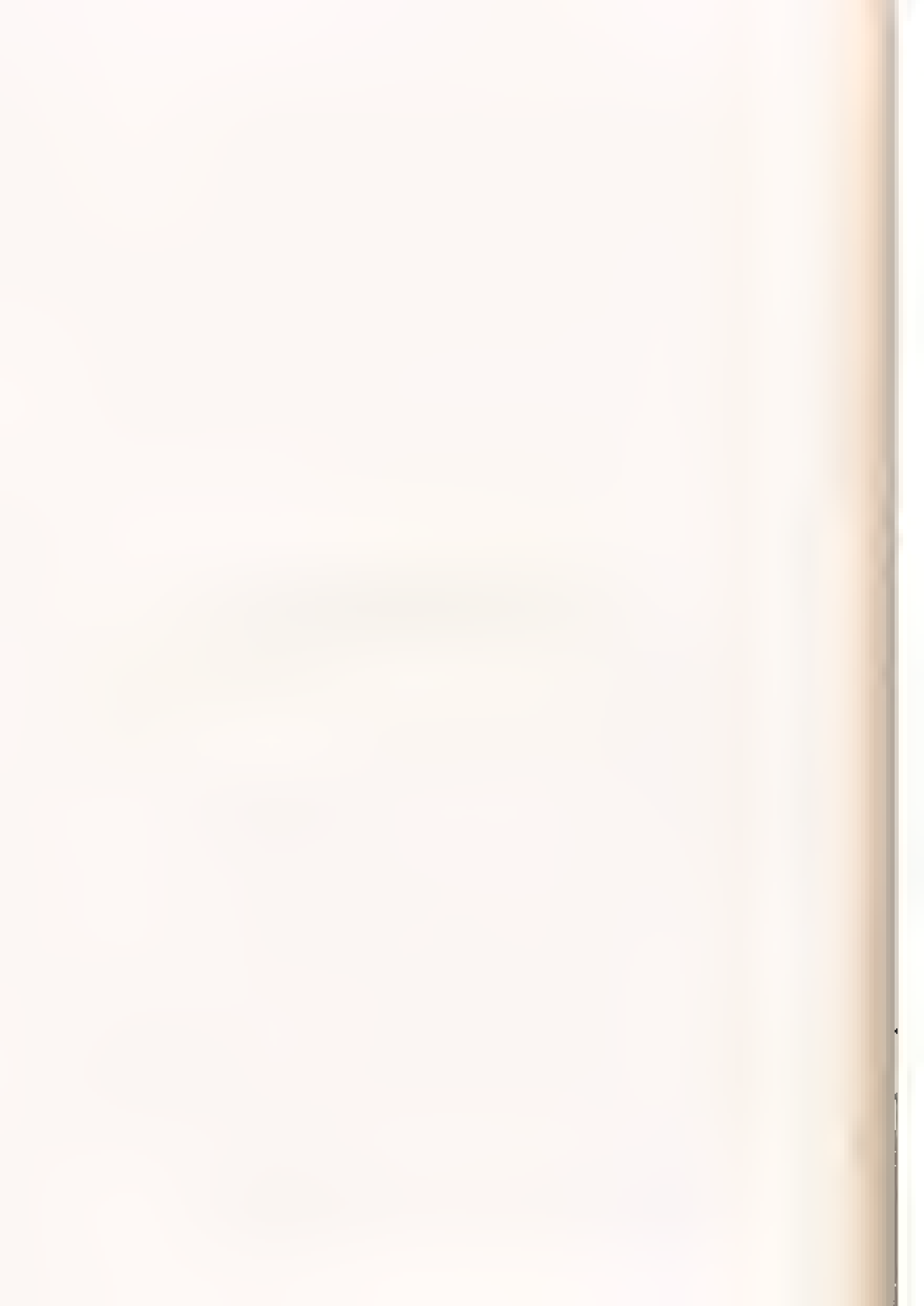
وفقكم الله، وسدَّد خُطاكم -حياكم الله-.

وانظروا إلَى الأعداء فرحين! فإن الدعوة السلفية توقفت، وضُربت -يا إخوان-؛ فاتقوا الله في أنفسكم، واتقوا في هذه الدعوة، وابذلوا الأسباب الَّتي تَمحو هذه الأباطيل وهذه الفتن.

بارك الله فيكم، وحيَّاكم الله.

والسلام عليكم ورَحمَة الله وبركاته.

* * *



التمسك بالمنهج السلفي

محاضرة ألقاها

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي عمير المدخلي

رئيس قسم السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

تعليق سماحة الشيخ

عبد العزيز بن عبد الله بن باز



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ.

أمَّا بَعْدُ: فإنها لفرصة سعيدة أن نلتقي بشيخنا وتلاميذه الذي نرجو الله -تبارك وتعالى- أن يبارك فيهم، وأن يجعلهم حَمَلة لواء السنة، سنة محمد ﷺ على غرار أسلافهم الكرام في نشر توحيد الله وسنة رسول الله ﷺ والقضاء على البدع والخرافات الَّتي حذرنا منها رسول الله ﷺ.

إن الله -تبارك وتعالى- أرسل مُحمَّدًا؛ رحمة للعالَمين، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ فبلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة، وأخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور؛ فصلوات الله وسلامه عليه.

وكلفنا الله بالإيمان به وطاعته واتباعه -صلوات الله وسلامه عليه- وإن سعادتنا في الدنيا والآخرة متوقفة على طاعته وتصديقه واتباعه -صلوات الله وسلامه عليه- ولذا حثنا الله -تبارك وتعالى- في آيات كثيرة على طاعة هذا الرسول واتباعه، وحذرنا في آيات من معصيته ومُخالفته، وتوعَّد مُخالفيه بالنار،

ونعوذ بالله من ذلك.

فلنحذر كل الحذر من مُخالفة هذا الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- في أي شأن من الشئون، ولنجعل نصب أعيننا قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لا يستقيم أمر هذه الأمة إلا بطاعة هذا الرسول واتباعه بصدق وإخلاص، والاعتصام بما جاء به حبل الله: كتاب الله وسنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-.

لا يُمكن أن تقوم قائمة للأمة إلا بهذا؛ فلنعتصم بحبل الله -تبارك وتعالى- جَميعًا أفرادًا وجماعات، شعوبًا وحكومات، يَجب أن نعتصم بحبل الله -تبارك وتعالى- ولا يرضى منا ربنا إلا هذا: أن نعتصم بِحبله وأن نشد على هديه وهدي رسوله -عليه الصلاة والسلام- وهدي الخلفاء الراشدين بالنواجذ كما أوصانا بذلك رسول الله ﷺ بالإضافة إلى الآيات الَّتِي أشرنا إليها.

هذا أمر عظيم، ونَحن الآن نرى الأمة تفرقت وتَمزقت، وما السر في ذلك؟! إنه اتباع الأهواء والعياذ بالله، لو حكَّمنا الله ورسوله في قضايا الخلاف لا يُمكن أن يستمر أبدًا، ولكن الاستمرار دليل على أن كثيرًا من الناس يتبعون أهواءهم ويركبون رءوسهم ولا يَخضعون لتوجيهات الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فلابد من الاحتكام لله ورسوله، وبهذا تَنحلُّ الخلافات ويذهب هذا التفرق وتتبدد هذه الأهواء، وإذا لَم نكن على هذا المستوى فما أمامنا إلا الضياع وما أمامنا إلا الضلال والهلاك والبوار في الدنيا والآخرة، ونَحن -والله- نَنام في ظل الدعوة السلفية.

الدعوة السلفية الَّتِي رفع رايتها الإمام الْمُجدد مُحمد بن عبد الوهاب مُحتذيًا في ذلك طريقة أصحاب رسول الله -عليه الصلاة والسلام- والخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وسادة الأمة في خير القرون، مُحتذيًا طريقهم حذو القذة بالقذة: في العادة

والعقيدة والسياسة وفي كل شأن من شئون المسلمين، وقضى الله على الأباطيل، وعلى الخرافات، والسحر والدجل والشعوذة، وترك الصلاة، وسفك الدماء والأموال، قضى الله على هذه الأباطيل وهذه الترهات وهذه الضلالات وهذه الانحرافات بهذه الدعوة المباركة، وأنشأ الله بفضل هذه الدعوة جامعات أضاءت العالم قائمة على منهج الله الحق، فإذا ذكرنا المنهج السلفي والدعوة السلفية فنقصد هذه الدعوة المباركة الَّتي سار عليها رسول الله وصحابته الكرام وأئمة الهُدى ومن ورثهم أحمد بن حنبل وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب -رضوان الله عليهم-

والدين متكامل لا تحتاج إلى آراء وأفكار من أي جهة من الجهات أو من أي جماعة من الجماعات، فالدين كمل في كتاب الله وفي سنة رسول الله وفي فقه هؤلاء الأسلاف الكرام الذين فهموا كتاب الله وسنة رسول الله حق الفهم، عقيدة وعبادة

فلنعض على هذا المنهج السلفي الذي قلناه لكم فإنه هو الحق، وهو منهج الطائفة المنصورة الَّتي أخبر عنها رسول الله -عليه الصلاة والسلام- أنها على الحق، وأنَّها لا تزال على هذا الحق، وأنه منهج الفرقة الناجية وهي الطائفة المنصورة الَّتي حينما تحدث رسول الله عن افتراق الأمة وصدَّق الله هذا الخبر وافترقت الأمة، بقيت هذه الطائفة أهل الحديث الذين شهد لهم حتَّى أهل البدع بعد أهل السنة أنهم هم أهل الحق وأنهم هم الطائفة المنصورة وأنهم الفرقة الناجية، والَّتي احتذى حذوها ابن تيمية وابن عبد الوهاب رضوان الله عليهم

إنا لنعم في ظلال هذه الدعوة المباركة ونستضيء بأنوارها لا في هذا البلد، بل في العالم ولولا العوائق الَّتي تعوقها من أعداء الله ومن أهل البدع والضلال لرأيتم العالم الإسلامي الآن مضيئًا بهذه الدعوة المباركة، فإنها بدأت تنتشر وتكتسح العالم، فتآمر أهل البدع وأهل الكفر في وقف هذا المد وهذا التيار القوي، ففعلوا الأفاعيل في إيقاف هذه الدعوة، فعليكم أن تدركوا هذه المؤامرات وهذه المكائد لهذه الدعوة الَّتي لا يُمكن أن ينام عن مدها وامتدادها وامتداد أنوارها، لا يُمكن أن ينام أهل البدع وأهل الضلال سواء تمثل هذا الابتداع وهذا الضلال في الكفر، أو التحزب، أو في التصوف، أو في الرفض، أو في غيره من

الضلالات.

فإنه لا يُمكن أن تقر أعينهم ولا يُمكن أن يهدأ لَهُم بال وهذه الدعوة الإسلامية السلفية الحق تنتشر في الأرض، فكادوا لَهَا المكائد.

فانتبهوا أيها الشباب واعتصموا بحبل الله جَميعًا كما أمركم الله، وإياكم والتفرق، فاقطعوا دابر هذا التفرق واستأصلوا شأفة كل أسبابه، سواء كان هوًى أو تعصبًا أو أي شيء.

وعليكم أيها الإخوة بذلك، فإنا نرى كثيرًا من الشباب لا يتورعون من الكذب ولا من تَمزيق أعراض الدعاة السلفيين أهل الحق لا دعاة التحزب والباطل، يُمزقون أعراضهم ويشوهونَهم بالأكاذيب وبالافتراءات، فعليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتَّى يُكتب عند الله صدِّيقًا، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتَّى يُكتب عند الله كذَّابًا.

فيه أناس يتحرون الكذب، فلا نأمن أن يكونوا قد كُتبوا عند الله كذابين -والعياذ بالله- وماذا ينتظر هؤلاء؟!

والرسول الكريم يُحذر بإخوانه، يُحذر من التعصب للقبائل أو للعشائر؛ قال رجل: يا للأنصار. وقال آخر: يا للمهاجرين. الأنصار لفظ شريف ورد في كتاب الله وفي سنة الرسول، والمهاجرون كذلك، لكن لَمَّا استُغِلَّت هاتان اللفظتان في الدعوة إلى الهوى والباطل قال الرسول: «أدعوى الجَاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنَّها منتنة».

فهذا الشيء الآن يفوح من التعصبات الموجودة في الساحة، بدل أن يعتصم الشباب بهذا المنهج الحق الواضح تتجاذبُهم الأهواء وتتجاذبُهم الفرق، والعياذ بالله.

وهذه نعمة من الله، أيَجوز أن ندير لَهَا ظهورنا، إن هذه البلاد كانت مُمزقة وأهلها فرق وأحزاب وقبائل، بل القبيلة تنقسم إلى عدد من المزق والفرق يقتل بعضهم بعضًا وينهب بعضهم بعضًا، ووحَّد الله هذه الجزيرة بهذه الدعوة الطيبة

المباركة، دعوة التوحيد، التوحيد في عقيدة، التوحيد في دين الله، وتوحيد الأمة على كلمة سواء وعلى منهج واحد نعمة من الله -تبارك وتعالى-.

الجزيرة مر عليها قرون وهي ضائعة في جهل وضلال، وشرك وبدع وخرافات، وقتل وسلب ونهب، فجمع الله أهل الجزيرة بهذه الدعوة الطيبة المباركة.

فأهل الباطل لا يُمكن أن تقر أعينهم، يريدون لَهَا الشر ويريدون لَهَا التفرق ويريدون لَهَا أن تُمزق؛ لأن أهل البدع يَخافون من المنهج السلفي ويعرفون أن الحق متمثل فيه، واليهود والنصارى ما يَخافون إلا من الإسلام، هذا الذين يسمونه الإسلام الوهابي.

وأنا كنت أراقب وأرصد امتداد هذه الدعوة السلفية في العالَم، كان أهل الجزائر يتجهون إلى الشيخ ابن باز، وإلى الشيخ ابن عثيمين، وإلى الشيخ الألباني، إلى أئمة المنهج السلفي؛ يكاد يُطبق أهل الجزائر على هذا المنهج، فأعداء الله تآمروا وحولوا دفة هذا الشعب إلى جهة أخرى وأبعدوها عن منهج الله الحق؛ وهذا البلد قامت فيه الجامعات، ترى ماذا يَحصل الآن؟ كل ذلك بسبب مكائد أهل البدع وأهل الضلال ومن ورائهم أعداء الله؛ لأن هذا الإسلام يَخافون منه، ومن هنا تآمروا على قتل السلفية في باكستان وأفغانستان. أعداء الله تآمروا عليها وقتلوها، ويريدون قتلها وإبادتَها في هذا البلد.

ولا مُخَلِّص لِهذه الأمة ولا مُخَلِّص لِهذا الشعب ولِهذه الجزيرة إلا أن يعتصموا بحبل الله جَميعًا، وينبذوا التفرق، ويقضوا على آخر سبب من أسبابه، ويتركوا هذه الشائعات وهذه الدعايات الباطلة، والله نعرف أن العرب في جاهليتهم وفي إسلامهم يَخجلون من الكذب، والآن كثير من الناس لا يَخجلون من الكذب، ولا من الافتراءات، ولا من التعصبات العمياء، وقد حاربَها الإسلام أشد الحرب.

قال رسول الله -عليه الصلاة والسلام-: «من خرج عن الطاعة وفارق الْجَماعة؛ مات ميتة جاهلية».

«من خرج من الطاعة وفارق الْجَماعة فمات؛ مات ميتة جاهلية، ومن قاتل

تَحت راية عِمِّيَّة أو عُمِّيَّة -يَجوز اللفظان- يدعو إِلَى عصبية، أو يدعو إِلَى عصبة، ويغضب لعصبة، وينصر عصبة فقُتل؛ فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها فقد برئ منِّي وبرئت منه» -عليه الصلاة والسلام- .

تبرأ منك رسول الله .

فهذه التعصبات الآن موجودة ملموسة بالأيدي لا تقبل حجة ولا تقبل برهانًا ولا يصدق الصادق ويصدق الكاذب، هذا موجود، هذه آفات.

يا إخوتاه، لابد من استدراك أنفسنا ومُحاولة التخلص منها والقضاء عليها

يقول الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام-: «من نصر باطلًا وهو يعلمه؛ لَمْ يَزَلْ فِي سخط الله حَتَّى ينزع، ومن قال فِي مؤمن ما ليس فيه؛ أسكنه الله ردغة الخَبال حَتَّى يَخرج مِمَّا قال».

ردغة الْخَبال: هي عصارة أهل النار، أظنه شر موقع في الجحيم -والعياذ بالله أظنه أخبث وأنتن موضع يسكنه من ينصرون الباطل، سواء كان هذا الباطل كفرًا أو كان بدعة أو كان ما كان، هذا الباطل ينصره وهو يعلم أنه باطل يكون في سخط الله ﷻ لا يزال حَتَّى ينزع منه، وهذا خاصم في باطل أو قال في امرئ مسلم ما ليس فيه؛ تكون عقوبته أن يُسكنه الله ردغة الخبال حَتَّى يَخرج مِمَّا قال، وفي رواية للطبراني: «ولن يَخرج، ولَمْ يَخرج». كيف يَخرج وهو يبهت المؤمنين الأبرياء النُّزهاء.

فيا إخوتاه، علينا أن نعتصم بِحبل الله وأن نبتعد عن التفرق وأسبابه

وأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يبصرنا بالْحَقِّ، وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، وأن يَجعلنا من دعاة الحق وأنصار الحق البعيدين عن نصرة الباطل وعن بُهت الأبرياء من المؤمنين الذي أخبرنا رسول الله عن مصير من يقع فيهم.

وأخيرًا: أختم هذه الكلمة الموجزة بالصلاة على نبينا الكريم -عليه الصلاة والسلام- وأدعو إلى طاعته، واتِّباعه مرة أخرى، وأرجو من شيخنا أن يعلق بِما يراه ينفع أبناءه.

وصلى الله على نبينا مُحمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تعليق سماحة الشيخ ابن باز - رحمه الله تعالى -

أثابكم الله . . .

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسوله، وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداه.

أما بعد:

قد سمعنا هذه الكلمة المباركة الطيبة من صاحب الفضيلة الشيخ ربيع بن هادي المدخلي في موضوع التمسك بالكتاب والسنة والحذر مما خالفهما، والحذر من أبواب التفرق والاختلاف والتعصب للأهواء، ولقد أحسن وأجاد وأفاد، جزاه الله خيرًا وضاعف مثوبته.

وهذا هو الواجب، والتحاكم إليهما في القليل والكثير كما قال الله -جل وعلا-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]

والله يقول -جل وعلا-: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والأمر كما قال، يجب على المؤمنين التمسك بكتاب الله وسنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- والتحاكم إليهما وعرض ما تنازع فيه الناس عليهما.

فما شهد له كتاب الله أو سنة الرسول ﷺ بالصدق والصحة فهو الصحيح، وما شهدا له أو أحدهما بالباطل فهو الباطل، فهذا هو الواجب على جميع الأمة؛ لأن الله أمر بذلك وأوجب ذلك وهكذا الرسول -عليه الصلاة والسلام-

فالواجب على أهل العلم، وعلى طلبة العلم، وعلى جميع المكلفين: التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والسير على منهج السلف الصالح وهم أصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بإحسان كما قال الله -جل وعلا-: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ

لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

هذا جزاء أصحاب النبي ﷺ، وأتباعهم بإحسان، ومن سار على طريقهم.

والواجب على طلبة العلم: التفقه في ذلك والإنصاف والصدق وتحري الحق، والحذر من أسباب الخلاف ومن اتباع الهوى ومن التقليد الأعمى والتعصب لزيد أو عمرو أو الطائفة الفلانية أو غير ذلك.

الواجب: اتباع الحق والتمسك به والحذر مِمَّا يُخالفه وإن كان الذي قال أباك أو أخاك أو غيرهما فعليك باتباع الحق فهو أحق بالاتباع.

يقول الله -جل وعلا- في كتابه العظيم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ويقول -جل وعلا- ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ويقول النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله».

ويقول ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلَّا من أَبى، قيل: يا رسول الله، من يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».

فالواجب على أهل العلم: تبليغ الناس وتبصيرهم وتفهيمهم ما يَجب عليهم، وهكذا طلبة العلم أن يتأسوا بأهل العلم وأن يسيروا على نَهجهم في إيضاح الحق والحذر من التنازع والاختلاف واتباع الهوى، وهكذا عامة المسلمين يَجب أن يستقيموا على الحق، وأن يسألوا علماءهم الذين يعرفونَهم بالسنة ويعرفونَهم بالاستقامة على دين الله ويعرفونَهم بالحق، عليهم أن يستقيموا وأن يسألوا عما أشكل عليهم، كما قال ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ومِمَّا يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال لقوم أفتوا بغير علم: «ألا سألوا إذ لَم يعلموا؛ إنَّما شفاء العي السؤال».

وهكذا يَجب على أهل العلم: نشر العلم، نشر الْحَق وإيضاحه للناس في المساجد، وفي الْمَجالس العامة، وفي الإذاعة، وفي الصحافة، وبكل وسيلة يصل بها العلم، الناس بحاجة إلى العلم؛ قال الله وقال الرسول، مع بيان الباطل والتحذير منه.

وما ذكره فضيلة الشيخ ربيع عن دعوة الشيخ مُحمد بن عبد الوهاب -رَحْمَةُ الله عليه- هو الحقيقة، فإن الله مَنَّ على هذه البلاد بهذه الدعوة المباركة وهي دعوة سلفية، لكن شوَّه أعداء الله هذه الدعوة وقالوا: وهابية، المبتدعة الَّتي فعلت وفعلت، وهم الضالون المبتدعون، وهم ما بين جاهل أو من قلد جاهلًا، إما جاهل وإما مقلد لِجاهل، وإما ثالثهم متبع لِهواه الذي يعصي الله على بصيرة، هؤلاء أعداء الدعوة السلفية، إما جاهل، وإما مقلد لِجاهل، وإلا صاحب هوًى متعصب لِهواه، يريد الْمَآكل، ويريد إرضاء الناس على حساب مأكله ومشربه وهواه، نسأل الله العافية.

ودعوة الشيخ مُحمد -رَحْمَةُ الله عليه- دعوة سلفية درج فيها على ما درج عليه الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم- وأتباعهم بإحسان، وتبعهم في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وأشباههم من أئمة الإسلام، ثُمَّ جاء الشيخ مُحمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر؛ رَحْمَة من الله لِهذه الأمة؛ لِهذه الجزيرة، فأوضح لَهُم العبادة الشرعية الَّتي تَجب لله، وأوضح لَهُم حقيقة التوحيد وما كان عليه المشركون وما كان عليه سلف الأمة، وأوضح لَهُم طريقة السلف الصالح ودعاهم إلى الجهاد، وألَّف كتاب التوحيد وكشف الشبهات والثلاثة الأصول؛ لبيان الحق، وهي كتب عظيمة مفيدة وهكذا.

نشر بينهم كتب شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لِما فيها من الخير والعلم والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله -عليه الصلاة والسلام- فنفع الله بهذه الدعوة المسلمين وجمع الله عليها أهل هذه الجزيرة بأسباب أنصارها من آل سعود وغيرهم، مِمَّن نصر الحق واستقام على الحق، فدعوا إلى الله ونصروا هذه الدعوة؛ نصرًا لدين الله، نصرًا لكتاب الله وسنة رسوله -عليه الصلاة والسلام- حَتَّى أيدهم الله وفتح

عليهم الفتوح وجمع الله عليهم هذه الجزيرة من شرقها إلى غربها ومن جنوبها إلى شمالها على الحق وعلى اتباع شريعة الله وعلى الاستقامة على دين الله، فالحمد لله على ذلك.

فالواجب: التمسك بهذه العقيدة والدعوة إليها والحفاظ عليها، ونشرها بين الناس بالحكمة، بالأسلوب الحسن، بالرفق لا بالعنف والشدة، وبيان الأخطاء والضلالات والشبهات بالبيان الواضح بالرفق، بالحكمة لا بالعنف والشدة ولا بالأساليب الملتوية، ولكن بالبيان الواضح والأسلوب الواضح والرفق والحكمة كما قال الله -جل وعلا-: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ -يعني: بالعلم قال الله وقال رسوله، ووضع الأمور في مواضعها- وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

والله وصفه بقوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالواجب على الدعاة: أن يتبصروا، وأن يبصروا، وأن يرفقوا، وأن يعتنوا بالأساليب الواضحة البينة، وأن يحذروا العنف والشدة وعدم التعصب لزيد أو عمرو.

نسأل الله أن يوفق الجميع للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يصلح أحوال المسلمين جميعًا، وأن يمنحهم الفقه في الدين، وأن يولي عليهم خيارهم، وأن يصلح قادتهم، وأن يوفق ولاة أمرنا في هذه المملكة.

نسأل الله أن يوفقهم لكل خير، وأن يبصر بهم الحق، وأن يجعلهم من الهداة المهتدين، وأن يصلح لهم البطانة، وأن يعيدهم من بطانة السوء، وأن يوفق صاحب الفضيلة الشيخ ربيعًا لكل خير، وأن يجزيه عن كلمته خيرًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

فهرس الموضوعات

ترجمة موجزة للشيخ العلامة

فهرس «الدر النضيد»

* * *

فهرس «مذكرة الحديث النبوي»

فهرس «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله»

* * *

فهرس «النصيحة هي المسئولية المشتركة»

فهرس «التعصب الذميم وآثاره»

* * *

فهرس «الثبات على السنة»

* * *

فهرس «الحث على المودة والائتلاف»

فهرس «التمسك بالمنهج السلفي»

* * *

* * *